

الجنان

مجلة علمية محكمة - فصلية



محموظة
بجميع حقوق

2014

طرابلس - لبنان

جامعة الجنان

ص.ب.: 818

هاتف: 909 447 6 - 961+

فاكس: 900 447 6 - 961+

e-mail: aljinan.mag@jinnan.edu.lb

jinnan@jinnan.edu.lb

website: www.jinnan.edu.lb

ISSN 2308 - 0671

صَدَرَ فِي لَبْنَانَ عَنْ
دَارِ الْمَنَى لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
70/711442

تصميم وطباعة: وليد محمود شكشك
03/217643

الجنان

مجلة علمية محكمة - فصلية

تصدر عن مركز البحث العلمي في الجامعة

العدد السادس



الجنان

مجلة علمية محكمة – فصلية

تصدر عن مركز البحث العلمي في جامعة الجنان

المشرف العام : أ.د. عابد أمين يكن / رئيس الجامعة

نائب المشرف العام : أ.د. علي لاغا / مدير مركز البحث العلمي

هيئة التحرير:

أ.م.د. رياض عثمان رئيس التحرير

د. كلوديا شحادة اللغة الفرنسية

أ. لينا الجراح مساعداً للغة الفرنسية والإنكليزية

أ. مالك خليل مساعداً للغة العربية

أ. الحبيب عبد الفني مساعداً للغة العربية

أمين سر التحرير : أ. عايدة كبارة

المستشارون:

أ.د. انطوان ديري: هندسة

أ.د. أحمد سفر: إقتصاد إسلامي

أ.د. أسامة كبارة: صحافة وإعلام

أ.د. بشار الحسن: هندسة

د. تائر علوان: صيدلة

أ.د. جوزيف فاضل : علوم سياسية

د. حسام سباط: أصول الفقه وحضارة

أ.د. حسن الرفاعي: إقتصاد إسلامي

أ.د. خالد حسين: فيزياء وإعجاز علمي في القرآن الكريم

د. ربي شعراني: تربية

د. ريما بركة: لغة فرنسية

أ.د. سعدي ضناوي: لغة عربية

أ.د. عمر عبد السلام تدمري: تاريخ

أ.د. عاطف عطية: علم الإجتماع

أ.د. عبد الغني عماد: علم إجتماع تربوي

د. عمار يكن: هندسة وإدارة أعمال

د. غادة صبيح: لغة فرنسية

د. فواز حلاب: طبيب نسائي

أ.د. مهى خير بك: لغة عربية

أ.د. منذر حمزة: مايكروبيولوجي

أ.م.د. ماجد الدرويش: علوم الحديث

أ.د. محمود عبود: فقه وأصوله

أ.م.د. محمد خالد: صحة عامة

قواعد النشر

«الجنان» مجلة علمية محكمة ، تصدر عن مركز البحث العلمي – جامعة الجنان، غايتها نشر الأبحاث العلمية والمحكمة في مختلف الاختصاصات، وتشر باللغات العربية، والإنكليزية، والفرنسية، تُفضّل الأبحاث التي تعالج مشاكل تحتاج إلى حل أو تطرح نظريات افتراضية.

هدف المجلة

إن هدف المجلة في الأساس هو المساهمة في إضافة جديدة للعلوم الإنسانية أو العلمية، فالماضي هو هذا الحاضر، وبما أن العلم تراكمي فإن علينا واجب القيام بهذا الدور، لذلك فإن سياسة المجلة هي على الوجه التالي :

1. تخصيص محور واحد لكل عدد من أعدادها إذا أمكن، وإلا تنوّعت أبحاث العدد.
2. يُطرح الموضوع العام والمحاور التي يمكن للباحثين الكتابة فيها، مع حرية التنوع، فالعناوين المطروحة هي لاستدراة الأفكار وإثارة التنافسية العلمية .
3. لا تُنشر الأبحاث إلا بعد خضوعها للتحكيم، وإدارة المركز غير ملزمة بإعادة الأبحاث التي لم تقبل وذلك دون تعليق لسبب عدم قبولها.

شروط أساسية :

1. الجدة في البحث، والتوثيق في الهامش وفق قواعد البحث العلمي (يرفق دليل الباحث).
2. ألا تزيد عدد صفحات البحث على ٣٠ صفحة.
3. التعهد بالأ يكون البحث قد نُشر من قبل ولن ينشر إلا بعد تصريح من هيئة المجلة.
4. إرسال البحث على عنوان المجلة الإلكتروني وعند عدم تسلّم إشعار بالاستلام فلا بد من إرساله مرّة أخرى.
5. تزويد إدارة المجلة بالسيرة الذاتية مع صورة شخصية للباحث.

٦. مقدمة تبين الحقل الذي يعالجه البحث مع تحديد للمشكلة والأهداف المفترضة.
٧. المنهجية المتبعة في البحث مع ذكر لكل الوسائل المستعملة والمراحل المتبعة، وقائمة بالمراجع في آخر البحث.
٨. على الباحث مراعاة سلامة اللغة والتدقيق قبل الإرسال

خطوات التحكيم:

يحوّل البحث المقبول شكلاً إلى أستاذين متخصصين في المادة التي حوتها الدراسة. ويكون البحث مقبولاً للنشر بموافقة كلا المحكمين، وإذا تناقض تقييم المحكمين يتم إرسال البحث لمحكم ثالث من ذات الاختصاص ويؤخذ القرار حسب الأكثرية.

ملاحظات شكلية:

١. يتم التوثيق في الهامش.
٢. يذكر اسم المؤلف أولاً، الكتاب، الناشر، مكانه، الطبعة، السنة، الصفحة (عند ذكر المرجع للمرة الأولى).
٣. وعند تكرار استعمال المرجع يكتب: اسم المؤلف، الكتاب، م. س. ص.

وفي النهاية:

إن مجلة الجنان جاءت للإسهام بجديد وتُشَقُّ الطريق أمام الباحثين الجادين، أمله التوصل إلى بحث علمي نموذجي يستخدم الطاقات المحلية ويكون رِفْداً للثروة الوطنية، من منطلق المنافسة والسعي إلى الأفضل إن شاء الله تعالى.

مقدمة

أ.د. علي لاغا

مدير مركز البحث العلمي

معوّقات البحث العلمي ومعالم على طريق تجاوزها

خلافاً للأسلوب المتعارف عليه في البحث والكتابة، سيتم عرض واقع ثروات العالم الإسلامي، وإفريقيا كنموذج له.

إن مساحة القارة الإفريقية ٣٠ مليون كلم²، عدد سكانها: ٩٠٠ مليون نسمة، وتسهم في إنتاج المواد الخام بالنسبة للإنتاج العالمي كما يلي:

- الألماس الصناعي ٩٨٪

- ألماس الزينة ٩٣٪

- الذهب ٨٠٪

- المغنيزيوم ٢٥٪

- التصدير ١٥٪

- البوكسيت ٦٪

- الحديد الخام ٤٪

- النفط ١٥٪

- العاكو ٧٥٪

- البين ٢٠٪

إضافة إلى المنتجات الزراعية⁽¹⁾.

هذه عينة، أي إفريقيا، فكيف إذا استطلعنا الثروات البترولية والغاز في دول الخليج وبقية دول القارة الآسيوية؟

إن المسألة تكاد تنحصر في مصادر الثروات، ولأجل ذلك فإن الدول المسيطرة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية قد اتفقت فيما بينها على عدم الدخول في حرب عالمية ثالثة، وهذا يعني أنه على الدول أن تحل مشاكلها الإقتصادية من خلال إبقاء العالم الثالث منطقة متخلفة، مضطربة، تأكلها الحروب وتمزقها الفتن، كي يسهل عليهم الإفادة ليس من ثرواتها فحسب بل حتى من ثمن الأكفان التي تلف فيها جث الضحايا من الرجال والنساء والأطفال، ومن بقي على قيد الحياة سيعمل خادماً لتثمين ثرواتهم والعمل عندهم.

هذه هي مصلحتهم بكل صراحة ووضوح، وهم يعملون لصالح شعوبهم، تماماً كالعصور القديمة يَغزون ويغنمون ويطمعون شعوبهم، فأين نحن شعوب العالم الثالث من هذا الواقع، وهل يكفي أن نلوم المتآمرين، أو أن نلقي بتبعات كل المصائب عليهم وكفى؟

هم يقومون بما يمليه عليهم الواجب (بغض النظر عن أخلاقيات الحروب والسياسة)، فأين هو الواجب الذي تمليه علينا مسؤولياتنا؟

إن شعوباً تمتلك كل هذه الثروات من الصعب التحكم فيها في ظل سيطرة لم يعرفها التاريخ من قبل، إن بمقدور الدول المسيطرة معرفة كل حركة أو محاولة للنهوض وباستطاعتها إجهاضها بسرعة وإلى عقود قادمة.

هل هذا يعني استحالة النهوض؟ والجواب: لا، إنه بالإمكان فعل ذلك عبر الخطوات التالية:

أولاً: استعادة العقل المسلم عامة والعربي على وجه الخصوص من عالم الملكوت إلى العالم المشهود، فالعقل البشري خلق للعمل في الأرض، الكون، وليس في العالم الآخر، إن حصيلة عمل الإنسان في الدنيا هي التي تحدد مكانته في الآخرة، فعبادة الله تعالى تمر عبر تسخير الكون واسعاد البشرية.

ثانياً: الإلتزام بحكم الله تعالى، وأن الله لا يهلك الذين يصلحون شؤون دنياهم ولو كانوا مشركين وليس مع المهمل الذي لا يصلح شأن الناس ولو كان مؤمناً: ﴿ وَمَا كَانَ

١- نقلاً، بتصرف عن، عبد الناصر عبد السلام الدهري، التنافس الأميركي الدولي على قارة إفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة، أطروحة دكتوراه، تم تقديمها في جامعة الجنان، ص ١

رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴿١١٧﴾ (١).

جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر، ﴿وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ﴾ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد.

ثالثاً: التعددية والإختلاف في الكون أمر مُسَلَّمٌ به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا نَزَلْنَا مِخْلَفِينَ﴾ (١١٨) (٢).

وأيضاً في تفسير القرطبي: «أَيَّ أَنْ النَّاسَ سَيَبْقُونَ عَلَىٰ أَدْيَانِ شَتَىٰ»، لذلك على المسلم أن لا يتحسس من وجود آخرين، فالتعددية أصل وعكسه ممنوع في حكم الله تعالى.

رابعاً: إن المادة مركبة وليست وحدة مغلقة، وفيها مما يفيد الإنسان باضطراد حتى يرث الله تعالى الكون وما فيه، يقول بديع الزمان سعيد النورسي: إن المعجزات أهدت للبشرية نهاية كمال المادة، إنه عندما ضرب موسى عليه السلام الصخرة فانفجرت منها عيون الماء أفهمت البشر أن في باطن الأرض ماء، وعندما كان عيسى عليه السلام يعالج المرضى فإن ذلك أوحى للناس أن كل مرض يمكن شفاؤه... وكذا داود والحديد.. كل ذلك يُلْزِمُ المسلم كغيره باستخراج ثروات الأرض وتسخيرها لصالح البشرية.

خامساً: يجب إجراء مسح كامل للخامات الموجودة في بلادنا أو المفترضة، وتركيز الأبحاث العلمية عليها بالذات، وإقامة برامج بحثية تكون ملكاً لمجتمعنا وليس استكمالاً لبرامج أمم أخرى تملك حق الملكية الفكرية، ودور الباحثين المسلمين لا يعدو كونه خدمة لبرامجهم وتنمية لثرواتهم، وإبقاء عالمنا في حالة استهلاك دائمة للشركات المنتجة للتكنولوجيا وسائر الصناعات أو البرامج الزراعية.

على القِيَمِيِّين على التخطيط البحثي إيقاف مهمتين:

الأولى: التجسس على مجتمعاتنا من خلال الأبحاث التي يقدمها طلاب الدراسات العليا للمراكز البحثية في الدول المتقدمة من خلال تقديم دراسات تكشف لهم كل ما يودون معرفته عن واقعنا الاجتماعي والسياسي والأنثروبولوجي والأمني.. وإن كانوا قد استكملوا أو كادوا يصلون إلى كل ما يريدون.

١- سورة هود ١١٧

٢- سورة هود ١١٨.

الثانية: عدم الاستمرار بتقديم الخدمة في تطوير أبحاثهم (أي الدول المسيطرة) وبرامجهم مقابل شهادة يحصل عليها، متخلياً عن حقه في كل ما انجز في البحث الذي أجراه.

سادساً: تعميم ثقافة التعصب للمُنتَج الوطني، واعتبار ذلك من كمال شخصية المرء الدينية والأدبية، وتربية المُنتَج على ضرورة مراعاة الجودة بحدّها الأقصى وتشديد الرقابة القانونية عليه.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد ذكر خير الدين التونسي أن أحد خبراء السياسة في أوروبا قال: «إن الممالك التي لا تتسج على منوال مجاورها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة لهم، ولو بعد حين». هذا ما حصل للعالم الإسلامي.

سابعاً: العلم تراكمي: إن العلم ليس حكراً على أمة من الأمم دون غيرها، إنه عمل تراكمي، ولا مشكلة أو مأخذ أن تأخذ أمة عن أخرى، يقول خير الدين التونسي: «تحذير ذوي الغفلات من عوامّ المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يُحمَدُ من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتب ينبغي أن يهجر وتألّفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر، حتى أنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئاً منها، وهذا على إطلاقه خطأ محض». ويذكر أن الفرنجة: «ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد»^(١).

ثامناً: بناء مركز البحث العلمي وتجهيزه قريب من بناء المساجد: تؤكد إحصائيات ١٩٩٩م، أن نسبة الإنفاق على البحث العلمي في مصر كانت: ٤، ٠٪، وفي الأردن: ٣٢، ٠٪، وفي المغرب: ٢، ٠٪، وفي كل من سوريا ولبنان وتونس والسعودية: ١، ٠٪، من إجمالي الناتج القومي، أما إحصائيات سنة ٢٠٠٤م، لنفس المنظمة العالمية، تشير إلى أن الدول العربية مجتمعة خصصت ١، ٧ مليار دولار فقط، أي نسبة ٣، ٠٪ من الناتج القومي، بينما في نفس العام أنفقت دولة الاحتلال في فلسطين ٨، ٩ مليار دولار أي ٦، ٢٪ من الناتج الوطني...

١- خير الدين التونسي، مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق معن زيادة، دار الطليعة ببيروت، ١، سنة ١٩٧٨م، ص: ١١٠.

والقطاع الخاص العربي ينفق ٣٪ في دعم البحث العلمي بينما القطاع الخاص في الكيان
المغتصب لفلسطين ينفق ٥٢٪ في مجال البحث والتطوير للبحث العلمي.

يضاف الى كل ذلك هجرة الأدمغة من العالم العربي بسبب سوء الأوضاع الأمنية والأزمات
السياسية وعدم توفر فرص العمل بما يليق بأمثالهم.

تفيد تقارير صادرة عن الجامعة العربية، ومؤسسة العمل العربية، والأمم المتحدة عام
٢٠٠٧م، أن المجتمعات العربية أصبحت طاردة للعقول العربية والكفاءات العلمية إلى الخارج، وأن
مصر وحدها قدمت في السنوات الأخيرة (٦٠٪) من العلماء العرب، والمهندسين إلى الولايات
المتحدة، كما أن هناك (٧٣٥٠) عالماً تركوا بلادهم بسبب الأحوال السياسية والأمنية، وأن
هناك (٤٥٠ ألف عربي) يشكلون نحو (٣١٪) من المجتمع الغربي، منهم ٥, ٤٪ من الطلاب^(١).

هذا الواقع، وضماناً للمصلحة، حيث أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وبما أن البحث
العلمي وتسخير الثروات عامل أساس في قيامة نهضة الأمة وثبات عزتها، وبما أن الثروة مقدمة
على أغلب الفروض والأحكام في الشريعة، فالمال قبل أداء فريضة الحج، وقبل استحقاق الزكاة،
وقبل أداء الصدقة، وإغاثة الملهوف، وإطعام الفقراء، والإعداد لحماية حياض الدولة وسيادتها..
لذلك يجب إصدار فتوى شرعية مفادها: «بناءً مراكز الأبحاث ودعمها تماماً كتشييد دور العبادة
من مساجد ومراكز دعوية وغيرها».

عندها، على القطاع الخاص، من الفرد إلى الجماعة، أن ينكبوا على تأسيس مراكز للبحث
العلمي وتزويدها بكل ما يلزم، وهم بذلك يؤدون عبادة خالصة لله عز وجل.

١- مقتبسة بتصرف من: نهال قاسم، «اشكالية البحث العلمي في الوطن العربي»
[http:// www.anntv/new/showsulyect.aspx](http://www.anntv/new/showsulyect.aspx)

الحافظ ابن حبان والانتقادات الموجهة إلى توثيقه للرواة

ملخص البحث

لما كثر الأخذ والرد في قبول توثيق الحافظ ابن حبان، حتى كان كثير من المشتغلين في هذا العلم ينعنون بالتساهل، أردت أن أتخص أسباب هذا الوصف، وأحاكمها إلى المعايير العلمية؛ لتتوصل بذلك إلى كلمة سواء في هذا الموضوع، فكان أن خلصت إلى النقاط الآتية:

1. تميز الحافظ ابن حبان وإبداعه وابتكاره.
2. صحيح أن ابن حبان خالف الجمهور بتوثيقه المجاهيل الذين لم يُعرف فيهم جرح ولا تعديل، لكنه لم يقبل حديثهم بإطلاق، بل بضوابط وشروط.
3. أن الجمهور وإن لم يُصرِّحوا بما ذهب إليه ابن حبان إلا أن عملهم موافق لقوله في التابعين وأتباعهم الذين اشتهرت الرواية عنهم (مجهول الحال)، ومن الملاحظ أن جلَّ مَنْ وثَّقه من المجاهيل هم من هاتين الطبقتين، على توسُّع منه فيمن لم يُعرف حديثه إلا من جهة راوٍ واحد عنه (مجهول العين).
4. أن ابن حبان اعتمد في كتابه (الثقات) على اعتبار أحاديث الرواة وسبب مروياتهم، ودعا مطالعي كتابه إلى الاعتبار أيضاً؛ من خلال دعوته إلى التأكد من توفر الشروط التي اشترطها لقبول رواية مَنْ ذكره في (الثقات)، فينبغي على من يقبل توثيقه أو يرده أن يكون على معرفة واسعة بالرجال وروياتهم، حتى يأخذ ما وافق الثقات ويترجى ما خالفهم.
5. أن مَنْ ذكرهم ابن حبان في (الثقات) ليسوا في رتبة واحدة؛ فمنهم من زكاهم، ومنهم من سكت عنهم، ومنهم من تكلم فيهم، كل ذلك على درجات شتى في التزكية والجرح، فيجب أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار.

البحث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه مقدمة أشير فيها إلى أسباب اختيار البحث، وأهميته، والدراسات السابقة عليه، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

أسباب اختيار البحث:

مما دفعني إلى اختيار هذا البحث، أن فكرته مثيرة للاهتمام؛ نظراً لتعلقها بإمام من أئمة المتقدمين، ممن وُصف بأنه من عُقلاء الرجال، وممن أُثرى فنوناً متعددة في التصنيف الحديثي، ونظراً لما أثارته هذه الفكرة من انتقاد المحدثين لها، وتجاذب آرائهم فيها، عبر عصور متطاولة امتدت إلى عصرنا الحاضر.

أهمية البحث:

لا يخفى ما في إثبات ثقة راوٍ أو جرحه من أثر كبير في قبول الحديث أو رده، وهنا تكمن أهمية البحث، وهذه غاية جلية تستحق منا النظر والتأمل، دون التسرع والتعسف في القبول أو الرد.

ثم إنَّ أيَّ جهدٍ مبذول في أيِّ ميدانٍ من ميادين العلوم لا بد أن يُعطى حقّه من التفكير في: بواعثه وأهدافه، وضوابطه وآثاره، قبل أن يُحكم عليه، وبذلك تزدهر العلوم، ويُحتضن الإبداع والابتكار.

الدراسات السابقة:

لم أعر على دراسة سابقة مستقلة تصدت لهذا البحث، إلا ما كان من مناقشات في كتب مصطلح الحديث حول قيمة توثيق ابن حبان للراوي وتصحيحه لحديثه في أثناء الحديث عن مصادر الحديث الصحيح، وسوف أذكر خلاصتها ومناقشتها في ثنايا هذا البحث.

أهداف البحث:

1. التعرف على سيرة الحافظ ابن حبان الشخصية والعلمية.
2. الوقوف على أهم الانتقادات التي وُجّهت إليه في توثيقه.
3. محاكمة هذه الانتقادات إلى المعايير العلمية.
4. التوصل إلى جملة من النتائج المستفادة من هذه الدراسة.

منهج البحث:

١. يقوم منهجي في هذا البحث على الاستقراء والتحليل، بحيث أتبع النصوص والأفكار المتعلقة بموضوع البحث، وأرتبها وأحللها، بما يجعل منها وحدة متكاملة، يُحرر بها محل النزاع، وتُستنبط من خلالها النتائج.
٢. ذكرت الانتقاد الموجَّه إلى ابن حبان، ثم بيّنت وجهة نظره في ذلك، ثم بيّنت وجهة نظر المنتقدين له، وأردفت ذلك بالمناقشة والتحليل.
٣. اعتمدت على المصادر الأصيلة في الموضوع، فانطلقت من كتب ابن حبان؛ لأعرف مُراداته وضوابطه وشروطه، وكذلك فعلت في نقل وجهة النظر الأخرى.

خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمراجع. مقدمة: أشير فيها إلى أسباب اختيار البحث، وأهميته، والدراسات السابقة عليه، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: سيرة الحافظ ابن حبان الشخصية والعلمية:

المطلب الأول: سيرته الشخصية.

المطلب الثاني: سيرته العلمية.

المبحث الثاني: الانتقادات الموجَّهة إلى توثيق الحافظ ابن حبان للرواة ومناقشتها:

المطلب الأول: توثيقه للمجاهيل.

المطلب الثاني: تساهله في ضبط الراوي.

المطلب الثالث: إدخاله أحياناً الرجل الواحد في (الثقات) و(المجروحين) معاً.

خاتمة: تشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

سيرة الحافظ ابن حبان الشخصية والعلمية^(١)

يجدر بي أن أعرف بمن أدرُسُ حُكم توثيقه، وهو الإمام الحافظ ابن حبان -رحمه الله تعالى-، وإن كان التعريف به يستحق بسطًا يليق بسيرته الحافلة والمميّزة، إلا أنني سأقتصر من ذلك على ما يتناسب مع حجم هذا البحث.

المطلب الأول

سيرته الشخصية

اسمه ونسبه وكنيته: هو محمد بن حبان -بكسر الحاء^(٢)- بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد بن هدية بن مرة بن سعد بن يزيد بن مرة بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم^(٣)، أبو حاتم، التميمي البُستي -بضم الباء الموحدة، وإسكان السين المهملة^(٤)- الشافعي. فهو عربي الأصل، من بني تميم.

مولده ووفاته: اتفق من ترجم له على أنه -رحمه الله- تُوِّفِّي سنة (٣٥٤هـ)، ومنهم من حدّد وقت الوفاة بالضبط، فقال: ليلة الجمعة لثمان بقين من شوال، ومنهم من حدّد مكان الوفاة أيضًا فقال: بـ (بُست)^(٥).

ولم يذكر أحد وقت ولادته إلا ما كان من ابن العماد الحنبلي^(٦) (ت ١٠٨٩هـ)؛ فإنه قال: توفي بـ (بُست)، وهو في عُمر الثمانين، سنة (٣٥٤هـ). مما يشير إلى أنه على أقل تقدير من مواليد ٢٨٤هـ.

أسرته: لم يذكر من ترجم له شيئًا يتعلق بأسرته ونشأته، إلا أن طلبه المتأخّر للعلم، الذي أشار إليه الذهبي (ت ٧٤٨هـ) بقوله: «طلب العلم على رأس الثلاثمئة»^(٧) أي وعمره أكثر من ست عشر سنة ما يشير إليه مولده المفترض-، يدل على أن أسرته لم يكن لها اشتغال بالعلم، وإلا لَبَكَّر به أهله إلى السماع والطلب، كشأن الأسر العلمية الشهيرة في مثل ذلك العصر.

١- أوفى من ترجم له ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) في معجم البلدان ج ١/ص ٤١٥.٤١٩.

٢- طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١١٥/١.

٣- هكذا ساق نسبه ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ) في الإكمال ٢/٣١٧.٣١٦، وينظر بعض الخلاف في بعض الأسماء في معجم البلدان ٤١٥/١.

٤- الأنساب للسمعاني ١/٣٤٨.

٥- تاريخ الإسلام للذهبي ١١٢/٢٦، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٣/١٢٢.

٦- في شذرات الذهب ٢/١٦.

٧- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٦/٩٩.

المطلب الثاني

سيرته العلمية

رحلاته: على الرغم من طلب ابن حبان المتأخر نسبياً للعلم، إلا أنه ما إن ابتدأ الطلب حتى كشف عن همّة عالية؛ إذ لم يكتف بالأخذ عن أهل بلده، بل جال في البلاد طويلاً وعرضاً، حتى ذكر له ياقوت الحمّوي^(١) (ت ٦٢٦هـ) ما ينيف على أربعين بلداً دخلها وسمع من علمائها. وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ): «كتب بالشام والحجاز ومصر والعراق والجزيرة وخراسان»^(٢).

شيوخه وتلاميذه: كثرت شيوخ ابن حبان كثرةً بالغة، وأدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية^(٣)، حتى نقل ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) عنه أنه قال في كتابه (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع): «علنا كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ، من إسبجباب إلى الإسكندرية»^(٤).

لكن أبرز أولئك الذين أثروا في صياغته وتكوينه العلمي، شيخه ابن خزيمة (ت ٣١١هـ)، قال ياقوت الحمّوي (ت ٦٢٦هـ): «وأخذ فقه الحديث والفرض على معانيه عن إمام الأئمة أبي بكر ابن خزيمة، ولازمه، وتلمذ له»^(٥).

ولا عجب وقد حصل كل هؤلاء الشيوخ أن يكثر الآخذون عنه، وكان من أبرزهم أبو عبد الله ابن منده (ت ٣٩٥هـ)، وأبو عبد الله ابن البيع الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)^(٦).

العلوم التي نبغ فيها: تألق ابن حبان في شتى ميادين العلوم؛ من حديث وفقه ولغة وطب وفلك وكلام، وشهد له بذلك القاصي والداني، حتى مبغضوه - لإثارته قضايا تتجاذب فيها الآراء ومردّها إلى علم الكلام والجدل -^(٧) ومنهم يحيى بن عمار السجستاني (ت ٤٢٢هـ)؛ إذ قال: كان له علم كثير، ولم يكن له كبير دين^(٨).

١- في معجم البلدان ١/٤١٦، وأشار إلى طول رحلته ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ) في الإكمال ٢/٣١٦، والسمعاني (ت ٥٦٢هـ) في الأنساب ١/٣٤٩، وابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) في طبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٧.

٢- ميزان الاعتدال ٦/٩٩.

٣- ينظر بعضهم في الإكمال ٢/٣١٦، وطبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٦، وتاريخ الإسلام ٢٦/١١٢.

٤- طبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٧.

٥- معجم البلدان ١/٤١٥.

٦- الأنساب ١/٣٤٩، وينظر: معجم البلدان ١/٤١٦، وتاريخ الإسلام ٢٦/١١٢.

٧- قال السيوطي (ت ٩١١هـ) في (تدريب الراوي) ١/١٠٩: حتى إنه منهم من نسبه إلى الزندقة، وكادوا يحكمون بقتله، ثم نُفي إلى سمرقند. اهـ قال ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢هـ) كما في شذرات الذهب ٣/١٦: له أوهام أنكرت، فطعن عليه بهفوة منه بدرت، ولها محمل لو قبلت. اهـ وقد بين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) هذا المحمل في كتابيه تاريخ الإسلام ٢٦/١١٢، وميزان الاعتدال ٦/٩٩-١٠٠.

٨- تاريخ الإسلام ٢٦/١١٢.

وقال تلميذه الحاكم (ت ٤٠٥هـ): كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ،
ومن عقلاء الرجال^(١).

وقال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): مَنْ تَأَمَّلَ تصانيفه تَأَمَّلَ مَنْصِفِ، عَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ بَحْرًا
فِي الْعُلُومِ^(٢).

وقال الذهبي (ت ٧٤٨هـ): كان عارفاً بالطب والنجوم والكلام والفقه، رأساً في معرفة
الحديث^(٣).

ونَعْتَهُ أَكْثَرَ مَنْ تَرْجَمَ لَهُ بِالْحَافِظِ.

ولما أَدَخَلْتُ لِقَبِّ (الحافظ) فِي عُنْوَانِ بَحْثِي وَجِبَ عَلَيَّ أَنْ أُبَيِّنَ مَفْهُومَ هَذَا اللَّقْبِ عِنْدَ أَهْلِ
هَذَا الشَّأْنِ؛ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي حَدِّ الْحِفْظِ الْمَطْلُوبِ لِمَنْ يُنْعَتُ بِذَلِكَ؟

• فَمَنْ قَائِلٌ: الْحَافِظُ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ مِئَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ مَتَّأً وَإِسْنَادًا، وَلَوْ بَتَعَدُّ الطَّرِيقِ
وَالْأَسَانِيدِ^(٤).

واعترض الشيخ عبد الفتاح أبو غدة - رحمه الله - على تقييد اللقب بشرط الحفظ لهذا العدد
الهائل من الأحاديث، واستدل لذلك بأناس كثيرين ذكروا في طبقات الحُفَّازِ لَمْ يَصِلْ حِفْظُهُمْ
إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ كِبَارِ الْحُفَّازِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ
السِّتَةُ الْمُكْتَبُونَ مِنَ الرِّوَايَةِ: أَبُو هُرَيْرَةَ (ت ٥٧ أو ٥٨ أو ٥٩هـ)، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ (ت ٩٢ أو ٩٣هـ)،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو (ت ٦٥هـ)، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ (ت بعد
٧٠هـ)، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ (ت ٥٧هـ)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا؛ إِذْ أَقْصَى مَا رُوِيَ عَنِ الْوَاحِدِ
مِنْهُمْ دُونَ سِتَّةِ آلَافٍ حَدِيثًا^(٥).

• وَمَنْ مُخَفِّفٍ لِهَجْتِهِ بِقَوْلِهِ: الْحَافِظُ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمِئَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ مَتَّأً وَإِسْنَادًا^(٦).

ويظهر لي -والله أعلم- أنه لا بد من التأكيد على ثلاث نقاط:

١- الأنساب ٣٤٩/١، وتاريخ الإسلام ١١٢/٢٦.
٢- معجم البلدان ٤١٥/١.
٣- ميزان الاعتدال ٩٩/٦.
٤- قاله المناوي (ت ١٠٢١) في (شرح الشمائل النبوية) للترمذي، كما في رسالة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (أمراء المؤمنين في
الحديث - ضمن مجموعة رسائل - ص ١٢٧).
٥- ينظر أمراء المؤمنين في الحديث ص ١٢٩-١٣٢.
٦- قاله الملا علي القاري (ت ١٠١٤هـ) في (شرح الشمائل النبوية) للترمذي، كما في رسالة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (أمراء
المؤمنين في الحديث ص ١٢٧).

الأولى: أنه وُجد حقاً في تاريخنا حُفَاطُ أفذاذ، يَحِقُّ لنا أن نفاخر بين الأمم بما أترعهم من محفوظات، من ذلك ما قاله أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ): كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، قيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب^(١).

وقال البخاري (ت ٢٥٦هـ): أحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف حديث غير صحيح^(٢).
وقال إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ): أحفظ سبعين ألف حديث، كأنها نُصِبَ عيني^(٣).

الثانية: أن اللقب يجوزهُ المرء على أهل زمانه؛ فالتقدير يختلف باختلاف الزمان، فعصر الصحابة والتابعين -مثلاً- لا يُقاس على عصر التدوين، الذي جُمعت فيه الأحاديث، وكثرت فيه الرجال، وتشعبت فيه الأسانيد، فلا شك أن محفوظات أهل عصر التدوين أكثر من محفوظات من سبقتهم.

الثالثة: أنهم عندما يطلقون لقب الحافظ أو المحدث على شخص، يريدون المعرفة والإتقان قبل السرد، إذ قال عبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ): الحفظ الإتقان^(٤). وقال غيره: الحفظ المعرفة^(٥).

ويلخص هذا الذي ذكرتُ ما قاله فتح الدين ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ): وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواة، وأطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك، حتى عُرف فيه خطه، واشتهر فيه ضبطه.

فإن توسع في ذلك حتى عُرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة، بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله منها، فهذا هو الحافظ.

وأما ما يُحكى عن بعض المتقدمين من قولهم: «كنا لا نعدُّ صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الإملاء» فذلك بحسب أزمئتهم^(٦) اهـ.

- وظائفه: مارس ابن حبان وظائف متنوعة في حياته، منها الدنيوية كالقضاء؛ إذ وليه بـ (سَمَرَقَنْد)^(٧) و(نَسَا)^(٨) وغيرها من المدن بخراسان. ومنها العلمية كالتدريس والتعليم؛

١- تاريخ بغداد (٤٢٠:٤١٩/٤)، وينظر تدريب الراوي (٤٠/١).

٢- سير أعلام النبلاء (٤١٥/١٢)، وينظر تدريب الراوي (٤٠/١).

٣- تاريخ بغداد (٣٥٢/٦)، وينظر تدريب الراوي (٤٢/١).

٤- تدريب الراوي (٣٩/١).

٥- المرجع السابق (٤٠/١).

٦- ينظر المرجع السابق (٣٨٣٧/١).

٧- الإكمال ٣١٦/٢، والأنساب ٣٤٩/١.

٨- تاريخ الإسلام ١١٢/٢٦، وطبقات الشافعية الكبرى (١٣٢/٣).

إذ تصدر للإملاء^(١) بنيسابور سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، واستملى عليه^(٢) تلميذه أبو عبد الله الحاكم^(٣).

- آثاره العلمية: خلف ابن حبان آثاراً علمية جلييلة، لا سيما في علوم الحديث، اتسمت بالجِدَّة والعمق والابتكار، حتى قال ابن الصلاح (ت ٦٤٢هـ): خَرَجَ له من التصنيف في الحديث ما لم يُسَبَقِ إليه^(٤).

وعدَّ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) مما استحسنه منها أربعين مصنفاً، ما بين جزءٍ وثلاثين جزءاً، وذكر أن أكثرها فُقدت ودَرسَتْ، وألمح إلى أنها تكثُر منافعها إن كانت على قَدْر ما ترجمها به واضعُها، ثم عرَّف بكتاب (الهداية إلى علم السنن) فقال: قصد فيه إظهار الصناعتين اللتين هما صناعة الحديث والفقه، يذكر حديثاً ويترجم له، ثم يذكر من يتفرَّد بذلك الحديث، ومن مفايد أي بلدٍ هو، ثم يذكر كلَّ اسم في إسناده من الصحابة إلى شيخه، بما يَعْرِف من نسبته ومولده وموته وكنيته وقبيلته وفضله وتيقُّظه، ثم يذكر ما في ذلك الحديث من الفقه والحكمة، فإن عارضه خبرٌ ذَكَره وجمع بينهما، وإن تضادَّ لفظُه في خبرٍ آخر تَلَطَّف للجمع بينهما، حتى يُعلم ما في كل خبر من صناعة الفقه والحديث معاً، وهذا من أنبل كتبه وأعزها^(٥).

وقد عرَّف هو نفسه بكتاب آخر له في أثناء صحيحه^(٦) يَنْبِئُك عن عقليته وطرائقه في التفكير، وهو كتاب (وصف الإيمان وشُعبه)، فقال بعد أن ذكر حديث أبي هريرة: «الإيمانُ بَصْعٌ وسبعونَ شُعبَةً»^(٧): تتبعت معنى هذا الحديث مدة، فجعلت أعدُّ الطاعات، فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثيراً، فرجعتُ إلى السنن، فعددتُ كل طاعة عَدَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم من

١- المقصود بالإملاء في الاصطلاح الحديثي أن يتخذ المحدث يوماً معيناً في كل أسبوع يجتمع إليه طلاب الحديث بمحابرهم وأقلامهم وأوراقهم، فيملي عليهم الأحاديث بأسانيدهم ويبين لهم غريبه وعلله ومشكله، وهم يكتبون ما يملي عليهم، ثم يقابلون ما كتبوا بنسخة المحدث أو نظره لإصلاح ما فسد بزيغ القلم أو شروء الذهن. (الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه للدكتور بديع السيد اللحام ص ٢٣٠).

٢- عناصر مجالس الإملاء ثلاثة: المملي وهو المحدث الذي يملي الأحاديث بأسانيدِهِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمستملي وهو من يتخذ المملي ليبلغ الإملاء إلى مَنْ يُعَدُّ في الحلقة، وقد يتخذ المملي أكثر من مستمِّل إذا كثر عدد الحاضرين. والكاتب وهو طالب الحديث الذي يكتب ما يُملى عليه. (ينظر أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ص ٨٤).

٣- طبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٧.

٤- المرجع السابق ١/١١٧.

٥- معجم البلدان ١/٤١٨٤١٧.

٦- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ترتيب علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٢٩هـ)، في كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، برقم (١٦٧).

٧- هذا لفظ مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم (٣٥).

الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فرجعت إلى ما بين الدفتين من كلام ربنا وتلوتُه آيةً آيةً بالتدبر، وعددت كل طاعة عدها الله جل وعلا من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المُعاد منها، فإذا كل شيء عده الله جل وعلا من الإيمان في كتابه، وكل طاعة جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان في سننه تسع وسبعون شعبة لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء، فعلمت أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم كان في الخبر أن الإيمان بضع وسبعون شعبة في الكتاب والسنن.

ونقل ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ). ذلك عنه في ترجمته في (طبقات الفقهاء الشافعية) (١)، وزاد أنه ذكر جميع ذلك في كتاب (وصف الإيمان وشُعبه)، وبيّن أن رواية من روى «بضع وستون شعبة» (٢) أيضاً صحيحة؛ وذلك أن العرب تذكر الشيء عدداً ولا تريد نفي ما وراءه عنه، وله نظائر أوردتها في كتابه، منها أحاديث الإيمان والإسلام.

ناهيك عن صحيحه الذي ترتيبه مخترع، ليس على الأبواب ولا على المسانيد، ولهذا سماه (التقاسيم والأنواع)، والكشف منه عسر جداً، ولذلك رتبته ابن بَلْبَانَ الفارسي (ت ٧٣٩هـ) على الأبواب (٣).

وعلى الرغم من ذلك فقد انتقدت بعض استنباطاته الفقهية التي تَرَجَّمَ لها في صحيحه، وجَلَّ مَنْ لا مَعْقَبَ لحكمه سبحانه، فقال ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ): سلك مسلك شيخه ابن خزيمة (ت ٣١١هـ) في استنباط فقه الحديث ونُكَّتِه، وربما غلط في تصرفه الفَلَطَ الفاحش على ما وجدته (٤). وأيده في انتقاده الذهبي (ت ٧٤٨هـ) أيضاً (٥).

ومما ذُكر له من التصانيف أيضاً: كتاب (وصف الاتباع وبيان الابتداء)، وكتاب (معرفة القبلة)، وكتابي: الجرح (المجروحين)، والتعديل (الثقات)، و(المسند الصحيح)، و(التاريخ) (٦).

١- ١١٨/١.

٢- هذا لفظ البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩).

٣- تدريب الراوي ١/١٠٩.

٤- طبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٦.

٥- ميزان الاعتدال ٦/٩٩.

٦- طبقات الفقهاء الشافعية ١/١١٨، وميزان الاعتدال ٦/٩٩، وتاريخ الإسلام ٢٦/١١٢، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/١٣٢.

المبحث الثاني

الانتقادات الموجَّهة إلى توثيق الحافظ ابن حبان للرواة ومناقشتها

المطلب الأول:

توثيقه للمجاهيل

مِمَّا أَخَذَ عَلَى ابْنِ حَبَانَ تَوْثِيْقَهُ لِمَجَاهِيْلٍ

والجهالة نوعان: جهالة عين، و جهالة حال، فَإِنَّ سُمِّيَ الرَّوَايِ وَانْفَرَدَ وَاحِدًا بِالرَّوَايَةِ عَنْهُ وَلَمْ يُعْرِفْ فِيهِ جَرَحٌ وَلَا تَعْدِيلٌ فَهُوَ مَجْهُولُ الْعَيْنِ، وَإِنْ سُمِّيَ وَرَوَى عَنْهُ اثْنَانِ فَصَاعِدًا وَلَمْ يُعْرِفْ فِيهِ جَرَحٌ وَلَا تَعْدِيلٌ فَهُوَ مَجْهُولُ الْحَالِ مُسْتَوْرٍ، وَلَا تُقْبَلُ رَوَايَتُهُمَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ حَتَّى يُوثَّقَا^(١).

أما ابن حبان فيوثقهما بشروط - كما سألين -، والتوثيق - كما هو معلوم - هو التعديل للراوي، بما يفضي إلى الاحتجاج بخبره.

قال ابن حبان في مقدمة كتابه (الثقات): «العدلُ مَنْ لَمْ يُعْرِفْ مِنْهُ الْجَرَحُ ضِدُّ التَّعْدِيلِ، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِجَرَحِ فَهُوَ عَدْلٌ إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ ضِدَّهُ؛ إِذْ لَمْ يُكَلِّفِ النَّاسَ مِنَ النَّاسِ مَعْرِفَةَ مَا غَابَ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَلَّفُوا الْحَكْمَ بِالظَّاهِرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْمَغْيِبِ عَنْهُمْ»^(٢).

وقوله: «إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ ضِدَّهُ» قَيْدٌ مَهْمٌ، يَعْنِي أَنَّهُ مَا دَامَ الْمَجْهُولُ قَدْ سَلِمَ مِنَ الْجَرَحِ، وَكَانَ - كَمَا سَأَلِيْنَ - كُلُّ مَنْ شِخْهُ وَتَلْمِيْذُهُ بِالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ ثَقَّةً أَوْ صَدُوْقًا، وَلَمْ يَأْتِ بِخَبْرٍ مُنْكَرٍ، فَهَذِهِ قِرَائِنٌ تَرَجَّحَ كَوْنُهُ ثَقَّةً يَجُوزُ الْاِحْتِجَاجُ بِخَبْرِهِ هَذَا».

وهذا يُسْتَفَادُ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِ: «فَإِذَا وُجِدَ خَبْرٌ مُنْكَرٍ عَنْ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَذْكَرَهُ فِي كِتَابِي هَذَا (أَي كِتَابِ الثَّقَاتِ)، فَإِنَّ ذَلِكَ الْخَبْرَ لَا يَنْفَكُ مِنْ إِحْدَى خَمْسِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الشَّيْخِ الَّذِي ذَكَرْتَ اسْمَهُ فِي كِتَابِي هَذَا فِي الْإِسْنَادِ رَجُلٌ ضَعِيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِخَبْرِهِ، أَوْ يَكُونَ دُونَهُ رَجُلٌ وَاوٍ لَا يَجُوزُ الْاِحْتِجَاجُ بِرَوَايَتِهِ، أَوْ الْخَبْرُ يَكُونُ مَرْسَلًا لَا يَلْزِمُنَا بِهِ الْحِجَّةُ، أَوْ يَكُونُ مُنْقَطِعًا لَا يَقُومُ بِمِثْلِهِ الْحِجَّةُ، أَوْ يَكُونُ فِي الْإِسْنَادِ رَجُلٌ مَدْلُوسٌ لَمْ يُبَيِّنْ سَمَاعَهُ فِي الْخَبْرِ مِنَ الَّذِي سَمِعَهُ مِنْهُ... فَكُلُّ مَنْ ذَكَرْتُهُ فِي كِتَابِي هَذَا إِذَا تَعَرَّى خَبْرُهُ عَنِ الْخِصَالِ الْخَمْسِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فَهُوَ عَدْلٌ يَجُوزُ الْاِحْتِجَاجُ بِخَبْرِهِ»^(٣).

فانظر كيف اشترط شروطاً في الخبر وشيخ الراوي وتلميذه، ولم يشترط في الراوي نفسه إلا أن يسلم من الجرح.

١- نزهة النظر ص ١٠٢، ١٠١.

٢- الثقات ١/ ١٢.

٣- المرجع السابق ١/ ١٢، ١٢.

ومن الأمثلة على ذلك، أنه ذكر في (الثقات) أيوب الأنصاري، وقال: «يروى عن سعيد بن جبير، روى عنه مهدي بن ميمون، لا أدري مَنْ هو، ولا ابن مَنْ هو»^(١)، ومن هذا حاله يُعدُّ مجهول العين عند الجمهور.

لكنه بمجرد أنه روى عن سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، (ت ٩٥هـ)، وهو ثقة ثبت فقيه، روى له الجماعة^(٢). وروى عنه مهدي بن ميمون الأزدي المَعُولِي البصري، (ت ١٧٢هـ)، وهو ثقة، روى له الجماعة أيضاً^(٣). أوردته في (الثقات) مع أنه لم يعرفه.

وهذا ما عابه عليه الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) فقال: «وهذا الذي ذهب إليه ابن حبان من أن الرجل إذا انتفت جهالة عينه كان على العدالة إلى أن يتبين جرحه مذهب عجيب، والجمهور على خلافه، وهذا هو مسلك ابن حبان في كتاب (الثقات) الذي ألفه؛ فإنه يذكر خلقاً ممن نصَّ أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٠هـ) وغيره على أنهم مجهولون، وكأن عند ابن حبان أن جهالة العين ترتفع برواية واحد مشهور، وهو مذهب شيخه ابن خزيمة (ت ٢١١هـ)، ولكن جهالة حاله باقية عند غيره»^(٤). بل كذلك جهالة عينه باقية ما لم يرو عنه اثنان، - كما بيئته في أول المطلب -.

وقال السخاوي (ت ٩٠٢هـ) عند ذكره كتاب (الثقات) لابن حبان: هو أحفل كتب الثقات، لكنه يُدرج فيهم مَنْ زالت جهالة عينه، بل ومن لم يرو عنه إلا واحد ولم يظهر فيه جرح، وذلك غير كافٍ في التوثيق عند الجمهور^(٥).

وقد بين الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) مذهب الجمهور في ذلك فقال: أقل ما ترتفع به الجهالة أن يروي عن الرجل اثنان فصاعداً من المشهورين بالعلم، إلا أنه لا يثبت له حكم العدالة بروايتهما عنه. وقد زعم قوم أن عدالته تثبت بذلك، واحتج بأن رواية العدل عن غيره تعديل له؛ إذ لو كان يعلم فيه جرحاً لذكره، وهذا باطل؛ لأنه يجوز أن يكون العدل لا يعرف عدالته فلا تكون روايته عنه تعديلاً ولا خبراً عن صدقه، بل يروي عنه لأغراض يقصدها، كيف وقد وُجد جماعة من العدول الثقات رَوَوْا عن قوم أحاديثٍ أمسكوا في بعضها عن ذكر أحوالهم مع علمهم بأنها

١- الثقات ٦/٦٠، وينظر كذلك الثقات ٤/٣١٨: سلمة يروي عن ابن عمر، روى عنه ابنه سعيد بن سلمة، لا أدري من هو ولا ابن من هو. والثقات ٦/١٤٦: جميل شيخ يروي عن أبي المليلح بن أسامة روى عنه عبد الله بن عون، لا أدري من هو ولا ابن من هو. والثقات ٦/١٦٨: الحسن بن مسلم الهذلي يروي عن مكحول روى عنه شعبة، إن لم يكن ابن عمران فلا أدري من هو. والثقات ٦/١٧٨: حبيب الأعور يروي عن عروة بن الزبير روى عنه الزهري، إن لم يكن ابن هند ابن أسماء فلا أدري من هو.

٢- تقريب التهذيب ص ٢٢٤.

٣- الكاشف ٢/٣٠٠، وتقريب التهذيب ص ٥٤٨.

٤- لسان الميزان ١/١٤.

٥- فتح المغيب ٣/٣٤٧.

غير مَرَضِيَّة، وفي بعضها شهدوا عليهم بالكذب في الرواية وبفساد الآراء والمذاهب!؟ مثل قول الشعبي (ت بعد ١٠٠هـ): حَدَّثني الحارث وكان كَذَابًا. وقول الثوري (ت ١٦١هـ): حدثنا ثُوَيْر بن أبي فاختة وكان من أركان الكذب. وقول أحمد بن ملاعب (ت ٢٧٥هـ): حَدَّثنا مُحَمَّد بن إبراهيم وكان رافضياً. وقول أحمد بن الأزهر (ت ٢٦٣هـ): حدثنا بكر بن الشرود الصنعاني بصنعاء وكان قَدْرِيًّا داعية^(١).

قال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ):^(٢) وقد روى هؤلاء كلُّهم في مواضع أُخْرَ عن سُمِّي ساكتين عن وصفهم بما وصفوهم به، فكيف يكون رواية العدل عن الرجل تعديلاً له!؟ لكن مَنْ عُرِفَ مِنْ حاله أنه لا يروي إلا عن ثقة، فإنه إذا روى عن رجل وُصِفَ بكونه ثقةً عنده كمالك وشعبة والقطان وابن مهدي وطائفة ممن بعدهم.

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة^(٣) (ت ١٤١٧هـ): هذا الذي قاله ابن حجر ليس على إطلاقه بل هو أغلبي؛ إذ قد روى مالك وشعبة وغيرهما - ممن قيل فيهم ذلك - عن بعض الضعفاء والواهين^(٤).

قال الباحث: لكن واقع الأمر أن مذهب ابن حبان لا يقوم على أن (رواية العدل عن غيره تعديل له)؛ إذ هو لا يقبل حديث المجهول (في عرف الجمهور) بمجرد رواية عدل عنه مطلقاً، بل اشترط لذلك شروطاً: فما دام الراوي سَلِمَ من الجرح، ووقع بين ثقّتين، وجاء بخبر غير منكر، فهذه كلها - كما يرى - قرائن تُرَجِّحُ توثيقه، وقَبُولَ روايته.

ويبدو لي أنه على الرغم من مخالفة ابن حبان للجمهور في قبول رواية المجهول، إلا أن هناك جملة من النقاط يجب التنبُّه إليها، قبل أن ننتع ابن حبان بالتساهل، ونطرح توثيقه، وهي: أ- يجب التنبُّه إلى أن ابن حبان ليس من المتطفلين على هذا العلم، بل هو من المتقدمين فيه، وله فيه تصانيفٌ متنوعة كـ (الثقات) و(المجروحين) و(الصحيح) وغيرها، وكلها تدل على طول باعه ووافر اطلاعه، وهو فوق ذلك من المعروفين في الإسراف في الجرح والتعنّت فيه^(٥).

ب- مما يقوِّي مذهب ابن حبان في توثيق المجاهيل ممن تحققت فيهم الشروط التي

١- الكفاية في علم الرواية ص ٩٠٨٨.

٢- لسان الميزان ١/ ١٤.

٣- في تعليقه على الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للكنوي ص ٣٢٧.

٤- ينظر للتوسع قواعد في علوم الحديث للتهانوي (ص ٢٢٥، ٢١٦).

٥- وصفه بذلك الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في ميزانه، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) في أكثر من كتاب له. (ينظر الرفع والتكميل ص ٢٧٥، ٢٧٩).

اشترطها ما ذكره الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧هـ) من أن (سكوت المتكلمين في الرجال عن الراوي الذي لم يُجرح ولم يأت بمنكر يُعدُّ توثيقاً له) ^(١) ونسب ذلك إلى جمهور النقاد المتأخرين مستدلاً بطرف مطوّل من كلامهم.

ومع ذلك نقول: إن الذي تطمئن إليه النفس، أن لا يُعدَّ هذا السكوت تعديلاً ولا تجهيلاً، إنما يُعدُّ قرينةً تقوي ذلك الراوي المسكوت عنه ما دام لم يأت بحديث مُنكر، فكيف إذا انضاف إلى تلك القرينة رواية ثقة عنه وروايته عن ثقة - كما اشترط ابن حبان - لا شك أنها تزيد ذلك الراوي قوة، وهو ما أكده ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) في (الجرح والتعديل) ^(٢) فقال: «(باب في رواية الثقة عن غير المطعون عليه أنها تقويه، وعن المطعون عليه أنها لا تقويه)، سألت أبي (ت ٢٧٠هـ) عن رواية الثقات عن رجل غير ثقة ما يُقويه؟ قال: إذا كان معروفاً بالضعف لم تقوهِ روايته عنه، وإذا كان مجهولاً نفعه رواية الثقة عنه».

ج- قال ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) في معرض كلامه عن المستور ^(٣): احتج بروايته بعض الشافعيين، ومنهم الإمام سليم بن أيوب الرازي (ت ٤٤٧هـ)، ويشبه أن يكون العمل على هذا الرأي في كثير من كتب الحديث المشهورة، في غير واحد من الرواة الذين تقادم العهد بهم، وتعدّرت الخبرة الباطنة بهم ^(٤).

والمقصود بهؤلاء الذين تقادم العهد بهم التابعون وأتباعهم، وقد تبعت من قال فيه ابن حبان (لا أدري من هو وذكر له شيخاً وتلميذاً ثقة، فوجدت أن جلهم من التابعين وأتباعهم؛ إذ عدة التابعين منهم اثنان وثلاثين رجلاً، وعدة أتباع التابعين عشرون رجلاً، أما عدة الطبقة التي تليهم فخمسة، مثال التابعين: الثقات (٣٧/٤): أبان شيخ، يروي عن أبي بن كعب، روى عنه محمد بن جحادة، لا أدري من هو ولا ابن من هو. وينظر كذلك الثقات (٣٩/٤)، ٦١، ٩٦، ١٢٦، ١٤٢، ١٤٣، ٢٣٨، ٢٦٥، ٣١٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٦٣، (٣٨٤) (١٢٩/٥)، ١٤٣، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٤٥، ٢٩٥، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٨٢، ٣٨٠، ٣٩٠، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٩، ٤٧٢، ٤٩٤، ٤٩٧، ٥٥٤). ومثال أتباع التابعين: الثقات (٦٠/٦): أيوب الأنصاري، يروي عن سعيد بن جبير، روى عنه مهدي بن ميمون، لا أدري من هو ولا ابن من هو. وينظر كذلك الثقات (٧١/٦)، ١٠٦، ١٤٦، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٨، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٩، ٣٣٠، ٣٧٢، ٤١٥، (٤٤٥) (١٢٨، ١٢٧/٧)، ١٨٨، ٢٢٣، ٣٠٠، (٥٣٥). ومثال من بعدهم: الثقات

١- في مبحث لطيف من تعليقه على الرفع والتكميل ص ٢٤٨، ٢٣٠.

٢- وذكره في الرفع والتكميل ص ٢٣١.

٣- وهو مجهول الحال الذي روى عنه اثنان فصاعداً ولم يُعرف فيه جرح ولا تعديل، كما بينت في أول المطلب.

٤- علوم الحديث ص ١١٢، ١١١.

(٤٢٠٤١/٨): أحمد بن عبد الله الهمداني، يروي عن يزيد بن هارون عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن أيمن بن خريم بن فاتك قال: أبي وعمي شهدا بدرًا. روى عنه الحضرمي، إن لم يكن ابن أبي السفر فلا أدري من هو. وينظر كذلك الثقات (٤٢٤، ٢٤٣، ٢٤١/٨) (٤٢٤/٩) (١٨٠/٩).

إذن لا يليق أن يُنعت ابن حبان بالتساهل، دون تأمل في صنيعه.

وقريب من قول ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) قول الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في (ميزان الاعتدال)^(١): مالك ابن الخير الزبّادي مصري، محله الصدق، يروي عن أبي قبيل عن عبادة مرفوعًا: «ليس منّا من لم يُبجّل كبيرنا»، روى عنه حيوة بن شريح. وهو من طبقتة. وابن وهب وزيد بن الحُبّاب ورشدين، قال ابن القطان (ت ٦٢٨هـ): هو ممن لم تثبت عدالته. يريد أنه ما نص أحد على أنه ثقة، وفي رواية الصحيحين عدد كثير ما علمنا أن أحدًا نص على توثيقهم، والجمهور على أن من كان من المشايخ قد روى عنه جماعة، ولم يأت بما يُنكر عليه، أن حديثه صحيح. اهـ.

قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) معترضًا: وهذا الذي نسبته إلى الجمهور، لم يصرح به أحد من أئمة النقد إلا ابن حبان، نعم، هو حقُّ في حقِّ من كان مشهورًا بطلب الحديث والانتساب إليه. كما هو مقرر في علوم الحديث. ثم إن قوله: «إن في رواية الصحيح عددًا كثيرًا... إلى آخره» مما يُنازع فيه، بل ليس كذلك، بل هذا شيء نادر؛ لأن غالبهم معروفون بالثقة، إلا من خرّجا له في الاستشهاد، والله أعلم^(٢).

فانظر كيف ذهب الحافظ ابن حجر - رحمه الله - من حيث النتيجة إلى ما قاله الذهبي، ومن قبله ابن الصلاح!

لكن يُشكل على ذلك أن ابن حبان يوثق أيضًا من لم يُعرف إلا برواية راو واحد ثقة عنه، ولا شك أن هذا يكون توثيقه أخف ممن اشتهرت الرواية عنه بأن روى عنه اثنان فأكثر، ولعله كان يرى أن شروطه التي اشتراطها لقبول خبر من وثقه هي الضمانة الوحيدة لمنع وقوع الخلل.

د- ينبغي العلم أن ابن حبان لم يضع الذين ذكرهم في (الثقات) في رتبة واحدة، فقد يزكي الراوي فيصنفه بالضبط والإتقان ونحوه، فيقول: ثقة ثقة^(٣)، أو: متقن جدًا^(٤)، أو: ثقة^(٥)،

١-٦٥/٦-١

٢- لسان الميزان ٣/٥.

٣- كما في الثقات ١٣٩/٦ ترجمة جعفر بن الحارث أبي الأشهب الواسطي.

٤- المرجع السابق ٨٦/٧ ترجمة عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث بن عبد الله القرشي المدني.

٥- المرجع السابق ٢٥٢/٤ ترجمة زياد بن أنعم الشعباني.

أو: مستقيمٌ الحديثُ جدًّا^(١)، أو: مستقيم الحديث^(٢)، أو: مستقيم الحديث إذا كان فوقه ودونه ثقة مشهور^(٣)، أو: مستقيم الحديث إذا كان دونه ثقة^(٤).

وكثيراً ما يقول في الراوي: رديء الحفظ^(٥)، أو: ليس من أهل الحديث الذين يحفظون^(٦)، أو: يُخالِف ويخطئ^(٧)، أو: يَهْم وَيُغْرِب^(٨)، أو: يُخْطِئُ^(٩)، أو: يُغْرِبُ^(١٠)، أو: يخطئ وينفرد على عدالته^(١١)، أو: ربّما أخطأ^(١٢). ويحدّد في كثير من الأحيان من أين يقع الخطأ في روايته: من روايته عن فلان: أو رواية فلان عنه، كما سبق في ترجمة أيوب بن سُويد الرَّملي الحاشية رقم ٨. وغير ذلك من الأحكام التي تدل على استقراره وتنقيبه، وهو في كل هذا يعتبر، ويفتح باب الاعتبار لمن يطالع كتابه، أن إذا تحققت الشروط التي اشترطها للراوي الثقة يكون حديثه حجةً، وليس الأمر على إطلاقه في كل من ذكرهم في (الثقات) وفي كل رواياتهم.

ولذلك قال الشيخ المعلمي -رحمه الله- (ت ١٢٨٦هـ): والتحقيق أن توثيقه على درجات: الأولى: أن يصرح به، كأن يقول «كان متقناً» أو «مستقيم الحديث» أو نحو ذلك. الثانية: أن يكون الرجل من شيوخه الذين جالسهم وخبرهم.

الثالثة: أن يكون من المعروفين بكثرة الحديث بحيث يُعلم أن ابن حبان وقف له على أحاديث كثيرة.

الرابعة: أن يظهر من سياق كلامه أنه قد عرف ذلك الرجل معرفة جيدة.

الخامسة: ما دون ذلك.

فالأولى لا تقلّ عن توثيق غيره من الأئمة، بل لعلها أثبت من توثيق كثير منهم، والثانية قريب

-
- ١- المرجع السابق ٦/٢٠٠ ترجمة الربيع بن حيطان الدمشقي.
 - ٢- المرجع السابق ٦/٤٤١ ترجمة شداد بن عبد الرحمن من ولد شداد بن أوس.
 - ٣- المرجع السابق ٦/٢٠٢ ترجمة راشد بن كيسان أبي فزارة العبّسي.
 - ٤- المرجع السابق ٦/٢٩٢ ترجمة دُويد بن نافع القرشي.
 - ٥- المرجع السابق ٨/١٢٥ ترجمة أيوب بن سويد الرملي السيباني الحميري، قال: وكان رديء الحفظ، يُتقى حديثه من رواية ابنه محمد بن أيوب عنه: لأن أخباره إذا سُبرت من غير رواية ابنه عنه وُجد أكثرها مستقيمة.
 - ٦- المرجع السابق ٩/١٧٠ ترجمة منصور بن عمار القاص.
 - ٧- المرجع السابق ٨/٢٤ ترجمة أحمد بن يحيى الأحول مولى الأشعريين.
 - ٨- المرجع السابق ٨/٢٢٤ ترجمة صامت بن معاذ بن شعبة بن عقبة الجندي.
 - ٩- المرجع السابق ٦/١١٩ ترجمة بسام بن عبد الله الصّيرفي مولى عبد رب.
 - ١٠- المرجع السابق ٧/٢٠٩ ترجمة علي بن صالح المكي.
 - ١١- المرجع السابق ٩/٢١٨ ترجمة نصر بن العلاء الكتاني.
 - ١٢- المرجع السابق ٤/٢٢٤ ترجمة راشد بن نجيع الحِماني.

منها، والثالثة مقبولة، والرابعة سالحة، والخامسة لا يُؤمَّن فيها الخلل»^(١).

ولذلك لا يجوز أن يُهمَل توثيقه بالجملة تحت دعوى التساهل، بل يُنظر فيه ويتأمل. ومن هنا ترى الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) إذا ترجم لراوي (تهذيب التهذيب) وكان ممن ذكره ابن حبان في (الثقات) نَبّه على ذلك^(٢).

المطلب الثاني

تساهله في ضبط الراوي

ثم إن مما أخذ على ابن حبان أيضاً أنه لا يشترط في الراوي الثقة عنده ألا يكثُر خطؤه، إنما يشترط فيه ألا يغلب خطؤه على صوابه، وهذا تساهل منه في شرط ضبط الراوي؛ إذ قال في مقدمة صحيحه: «ولا يستحق الإنسان ترك روايته حتى يكون منه من الخطأ ما يغلب صوابه، فإذا فحش ذلك منه وغلب على صوابه استحق مجانية روايته، وأما من كثر خطؤه ولم يغلب على صوابه فهو مقبول الرواية فيما لم يخطئ فيه، واستحق مجانية ما أخطأ فيه فقط»^(٣).

وهذا ما ذكره في ترجمة معقل بن عبيد الله الجزري، فقال: «مولي لبني عبس من أهل حرّان، كنيته أبو عبد الله، يروي عن عطاء والزهري، روى عنه الثوري والحسن بن محمد بن أعين وأهل بلده، مات سنة (١٦٦هـ)، وكان يُخطئ، لم يفحش خطؤه فيستحق الترك، وإنما كان ذلك منه على حسب ما لا ينفك منه البشر، ولو ترك حديث من أخطأ من غير أن يفحش ذلك منه لوجب ترك حديث كل محدث في الدنيا؛ لأنهم كانوا يخطئون ولم يكونوا بمعصومين، بل يحتج بخبر من يخطئ ما لم يفحش ذلك منه، فإذا فحش حتى غلب على صوابه ترك حينئذ، ومتى ما علم الخطأ بعينه وأنه خالف فيه الثقات ترك ذلك الحديث بعينه واحتج بما سواه، هذا حكم المحدثين الذين كانوا يخطئون ولم يفحش ذلك منهم»^(٤).

وبسبب هذا وذاك قال ابن الصلاح (ت ٦٤٢هـ) بعد كلامه على مستدرک الحاكم (ت ٤٠٥هـ) وأنه واسع الخطو في شرط الصحيح متساهل في القضاء به: «ويقاربه في حكمه صحيح أبي حاتم ابن حبان البستي»^(٥).

وقد بين السخاوي (ت ٩٠٢هـ) أسباب نسبته إلى التساهل: من أنه غير متقيد بالمعدلين بل

١- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ١/٢٧٤٢٧:٤٢٨.

٢- الرفع والتكميل ص ٢٣٢.٢٣٣.

٣- مقدمة صحيح ابن حبان ١/١٥٤.

٤- الثقات ٧/٤٩١:٤٩٢.

٥- علوم الحديث ص ٢٢.

ربما يخرج للمجهولين، -وقد سبق الكلام فيه-، وأنه يُدرج الحَسَن في الصحيح.

واعتدَر له على لسان شيخه ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) بقوله: إن كانت النسبة إلى التساهل باعتبار وجدانِ الحَسَنِ في صحيحه، فهي مُشاحَّة في الاصطلاح؛ لأنه يسميه صحيحًا. وإن كانت باعتبار خفة شروطه؛ فإنه يُخرَج في الصحيح ما كان راويه ثقةً غير مدلسٍ سمع ممن فوَّقه وسمع منه الآخذُ عنه ولا يكون هناك إرسالٌ ولا انقطاع، وإذا لم يكن في الراوي جرح ولا تعديل، وكان كلُّ من شيخه والراوي عنه ثقة، ولم يأت بحديث منكر، فهو عنده ثقة، وفي كتاب (الثقات) له كثير ممن هذه حاله، ولأجل هذا ربما اعترض عليه في جعلهم من الثقات مَنْ لم يَعْرِف اصطلاحه، ولا اعتراض عليه؛ فإنه لا يُشاحُّ في ذلك^(١).

قال السخاوي (ت ٩٠٢هـ). ويتأيد -أي كلام ابن حجر- بقول الحازمي (ت ٥٨٤هـ): ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم. وكذا قال العماد ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): قد التزم ابن خزيمة وابن حبان الصحة، وهما خيرٌ من المستدرِك بكثير وأنظف أسانيدًا ومتونًا.

ثم قال السخاوي: وعلى كل حال فلا بد من النظر؛ للتمييز، وكَم في كتاب ابن خزيمة أيضًا من حديث محكوم منه بصحته وهو لا يرتقي عن رتبة الحسن^(٢).

قال الباحث: قول الحافظ ابن حجر: (لا اعتراض عليه) أي طبقًا لاصطلاحه؛ إذ شرط شرطًا ووفى به، بخلاف الحاكم -كما قال السيوطي (ت ٩١١هـ)-^(٣)، أما الاعتراض عليه بمخالفته مذهب الجمهور من التمييز بين الحسن والصحيح، وبين المعدل ومن لم يرد فيه جرح ولا تعديل، فهو وارد، بل اعترض عليه فيه ابن حجر نفسه. كما سلف، وإن كان قد سبق تفصيله، وأنه لا يعمل به بإطلاق.

المطلب الثالث

إدخاله أحيانًا الرجل الواحد في (الثقات) و(المجروحين) معًا

ومن الانتقادات التي وُجِّهت إلى ابن حبان أيضًا أنه ربما يذكر في (الثقات) من أدخله في (المجروحين)، إما سهوًا أو غير ذلك، قال ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ): «ذكر في كتاب (الثقات) خلقًا كثيرًا، ثم أعاد ذكرهم في (المجروحين)، وبَيَّنَّ ضعفهم، وذلك من تناقضه وغفلته، أو من تغيُّر اجتهاده»^(٤).

١- فتح المغيث ١/٣٧٣.

٢- المرجع السابق ١/٣٧٣.

٣- تدريب الراوي ١/١٠٨.

٤- الصارم المنكي على نحر ابن السبكي ص ١٤١، وينظر فتح المغيث ٣/٣٤٧.

والحقيقة أنه يجب التأكيد مرة أخرى أن الاحتجاج بأخبار من أدخلهم ابن حبان في كتابه (الثقات) ليس على الإطلاق، بل هو مشروط بالشروط التي ذكرها في مقدمة (الثقات) وسبق بيانها في أول المبحث، بدليل أنه يُزَكِّي بعضهم ويسكُّت عن بعضهم ويتكلم في بعضهم - كما سبق التمثيل له -، وقد صرح بذلك فقال: «فكُلُّ مَنْ ذَكَرْتُهُ فِي كِتَابِي هَذَا إِذَا تَعَرَّى خَبْرُهُ عَنِ الْخِصَالِ الْخَمْسِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فَهُوَ عَدْلٌ يَجُوزُ الْاِحْتِجَاجُ بِخَبْرِهِ»^(١).

ولم يمنعه أن يذكر في (الثقات) مَنْ لَهُ أخطاء كثيرة ما لم يغلب خطؤه على صوابه، - كما بينت - فهو إذن يُؤْتَمُّه فيما وافق فيه الثقات ويضعفه في غير ذلك، وربما هذا الذي دفعه لأن يذكر الرجل الواحد في الثقات والضعفاء معاً، فتعته مَنْ لم يلحظ هذا الملحظ بالتناقض والغفلة. في حين أن المتأمل في بعض من ذكرهم ابن حبان في (الثقات) و(المجروحين) معاً يجدهم على أنواع:

أ- منهم من نبه في (المجروحين) أنه لا يجوز الاحتجاج به إلا فيما وافق الثقات، وهذا لا حرج فيه، فما وافق فيه الثقات جارٍ على شرطه في (الثقات) أنه يحتج بخبره ما لم يكن منكراً إلى بقية الشروط الخمسة وما لم يغلب خطؤه على صوابه، ومثاله:

سعيد بن خالد بن أبي الطويل ذكره في (الثقات)^(٢) فقال: سعيد بن خالد بن أبي الطويل يروي عن أنس بن مالك روى عنه محمد بن شعيب بن شابور. وذكره في (المجروحين)^(٣) فقال: «يروى عن أنس بن مالك ما لا يتابع عليه، لا يحل الاحتجاج به إلا فيما وافق الثقات من الروايات»^(٤).

ب- ومنهم من ذكرهم في (الثقات)، ونبه أن رواية فلان عنه أو حديث كذا له غير مقبول، ثم ذكرهم في (المجروحين) من رواية فلان هذا عنه أو حديث كذا له، أو نعتة في (الثقات) بالخطأ، ثم فصل هذا الخطأ له في (المجروحين)، وهذا لا تناقض فيه، مثال ذلك:

سهل بن معاذ بن أنس الجهني، ذكره في (الثقات)^(٥) فقال: لا يُعْتَبَرُ حَدِيثُهُ مَا كَانَ مِنْ رِوَايَةِ زَبَّانِ بْنِ فَائِدٍ عَنْهُ. ثم ذكره في (المجروحين)^(٦) فقال: «منكر الحديث جداً، فلست أدري

١- الثقات ١/١٣.

٢- ٢٨٩/٤-٢٩٠.

٣- ١/٣٩٨.

٤- وكذلك: رزيق أبو عبد الله الألهاني الشامي (الثقات ٤/٢٢٩، والمجروحين ١/٢٧٦)، وسعيد بن واصل الجرشي (الثقات ٨/٢٦٦، والمجروحين ١/٤٠٨)، وركين بن عبد الأعلى الضبي (الثقات ٦/٢٠٨، والمجروحين ١/٢٨٠).

٥- ٤/٣٢١.

٦- ١/٤٤١.

أوقع التخليط في حديثه منه أو من زبّان بن فائد»، وأكد في (مشاهير علماء الأمصار)^(١) له أن التخليط جاء من زبّان بن فائد لا منه، فقال: «كان ثبّناً، وإنما وقعت المناكير في أخباره من جهة زبّان بن فائد.

«وكذلك محمد بن عامر بن رشيد بن خباب الرملي، ذكره في (الثقات)^(٢) فقال: «لم أر في حديثه ممّا في القلب منه شيء إلا حديثاً واحداً...» وذكره. ثم ذكره في (المجروحين)^(٣) وذكر له نفس الحديث.

وكذلك روح بن عطاء بن أبي ميمونة من أهل البصرة، ذكره في (الثقات)^(٤) فقال: «يخطئ». ثم ذكره في (المجروحين)^(٥) وفصل خطأه فقال: «كان يخطئ ويهم كثيراً حتى ظهر في حديثه المقلوبات من حديث الثقات، لا يعجبني الاحتجاج بخبره إذا انفرد»، وقال عنه في (مشاهير علماء الأمصار)^(٦): «كان رديء الحفظ، ربما وهم في الشيء بعد الشيء»^(٧).

ج- ومنهم من ذكرهم في (الثقات)، ثم جرّحهم في (المجروحين) جرّحاً مفسّراً، فهنا يُقدّم الجرح، وربما لم يرفع اسمه من (الثقات) من أجل اعتبار حاله: فإن وُجد له خبر موافق للثقات قبل منه ذلك الخبر، ما لم يغلب خطؤه على صوابه، ولا غضاضة عليه في ذلك؛ لأنه اشترط أن يتعرّى خبر من يذكره في الثقات عن خمس خصال ومنها النكارة، ومثال هذا:

سعيد التّمّار، ذكره في (الثقات)^(٨) فقال: سعيد التّمّار يروي عن أنس بن مالك روى عنه مروان بن نهيك. ثم ذكره في (المجروحين)^(٩) فقال: «قليل الحديث، منكر الرواية، يروي عن أنس ما لا أصل له»^(١٠).

١- رقم ٩٣٤.

٢- ٩٦/٩.

٣- ٣٢٢/٢.

٤- ٣٠٥/٦.

٥- ٣٧٥، ٣٧٤/١.

٦- رقم ١٢٣٤.

٧- ونحو هذا الأخير: حبة بن جوين العرنّي (الثقات ١٨٢/٤، والمجروحين ٢٦٤/١)، وزباد بن عبد الله النميري (الثقات ٢٥٦/٤، والمجروحين ٣٠٤/١)، وعمران العمّي عن أنس (الثقات ٢٢٤/٥، والمجروحين ١٢٢/٢)، والحسن بن عطية العويّي (الثقات ١٧٠/٦، والمجروحين ٢٢٨/١)، والحكم بن مصعب القرشي (الثقات ١٨٧/٦، والمجروحين ٢٤٤/١)، ومحمد بن ذكوان السّمّان (الثقات ٤١٧/٧، والمجروحين ٢٦٢/٢)، وحمام بن قيراط (الثقات ٢٠٦/٨، والمجروحين ٢٦٢/٢)، ومحمد بن الحسن الأسدي (الثقات ٧٨/٩، والمجروحين ٢٧٧/٢)، ووهب بن راشد (الثقات ٢٢٨/٩، والمجروحين ٧٥/٢).

٨- ٢٩٠/٤.

٩- ٣٩٨، ٣٩٧/١.

١٠- وكذلك: نافع أبو غالب الخياط (الثقات ٤٧١/٥، والمجروحين ٤٠٤، ٤٠٣/٢)، وعبد الصمد بن جابر الضبي (الثقات ٤١٤/٨، =

وبعد أن يسر الله إتمام هذا البحث وقع بين يديّ جواب الحافظ زين الدين العراقي (ت ٨٠٦ هـ). على سؤال تلميذه الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) حول قبول ما انفرد به ابن حبان من التوثيق، فكان خلاصته أنه:

- إن كان من وثّقه ابن حبان روى عنه اثنان ولم نجد لغيره فيه جرحاً فهو ممن يحتج به.
- وإن كان من وثّقه لا يُعرف له إلا راو واحد، فقد ذكر ابن القطان (ت ٦٢٨ هـ) في كتاب (بيان الوهم والإيهام) أن من لم يرو عنه إلا واحد ووُثِّق فإنه تزول جهالته بذلك. وذكر ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) أن من لم يرو عنه إلا واحد وكان معروفاً في غير حمل العلم كالنجدة والشجاعة والزهد احتج به؛ إشارة من العراقي أن لقبوله وجهاً.
- وحول تعارض توثيق ابن حبان بتجهيل أبي حاتم الرازي (ت ٢٧٠ هـ) لمن وثّقه، قال العراقي: من عرف حال الراوي بالثقة مقدّم على من جهل حاله؛ لأن من عرف معه زيادة علم^(١).

وبغض النظر عما ذكره العراقي، وما قد يثيره من تساؤلات ومناقشات، إلا أنه وكلّ ما أسلفته يشير إلى أن توثيق ابن حبان لا يطرح جملة واحدة بدعوى تساهله، بل يُنظر فيه ويتأمل على ما سبق بيانه، والله تعالى أعلم.

خاتمة تشتمل على أهم النتائج والتوصيات

النتائج

- مما سبق نستنتج ما أسلفته في ملخص البحث:
- صحيح أن ابن حبان خالف الجمهور بتوثيق المجاهيل الذين لم يعرف فيهم جرح وتعديل، لكنه لم يقبل حديثهم بإطلاق، بل بضوابط وشروط.
 - أن الجمهور وإن لم يُصرّحوا بما ذهب إليه ابن حبان إلا أن عملهم موافق لقوله في التابعين وأتباعهم الذين اشتهرت الرواية عنهم (مجهول الحال)، ومن الملاحظ أن جلّ من وثّقه من المجاهيل هم من هاتين الطبقتين، على توسع منه فيمن لم يُعرف حديثه إلا من جهة راوٍ واحد عنه (مجهول العين).
 - أن ابن حبان اعتمد الاعتبار وسبّر مرويات الرواة، ودعا مطالعي كتابه إلى الاعتبار أيضاً؛ من خلال البحث في توفر الشروط التي اشترطها لقبول رواية من ذكره في الثقات،

= والمجروحين ٢/١٣٤)، ودهم بن قران العُكلي اليمامي (الثقات ٦/٢٩٣، والمجروحين ١/٣٦١)، ومحمد بن الحسن الأسدي

(الثقات ٩/٧٨، والمجروحين ٢/٢٨٩، ٢٨٨).

١- ينظر أجوبة العراقي ص ١٣٦، ١٤١.

فينبغي على من يقبل توثيقه أو يردّه أن يكون على معرفة واسعة بالرجال ورواياتهم، حتى يأخذ ما وافق الثقات وي طرح ما خالفهم.

- أن مَنْ ذكّرهم ابن حبان في الثقات ليسوا في رتبة واحدة: فمنهم من زكّاهم، ومنهم من سكت عنهم، ومنهم من تكلم فيهم، كل ذلك على درجات شتى في التزكية والجرح، فيجب أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار.

ومما يؤخذ على ابن حبان:

- إدخاله مجهولي العين في (الثقات)، وعدم اقتصاره على مجهولي الحال الذين اشتهرت الرواية عنهم.

- إدخاله في (الثقات) المجاهيل ممن بعد طبقة التابعين وأتباعهم.

- توسّعه في شرط الصحيح. على ما سبق بيانه في فقره (تساهله في ضبط الراوي) وإن كان كثيرًا مما أدخله فيه هو من قبيل المقبول عند الجمهور.

هذه بعض الخطوط العريضة في هذا الموضوع، وربما يحتاج الأمر إلى مزيد من الاستقراء والتتبع لكل ما ذكره ابن حبان في كتبه (الثقات) و(المجروحين) و(مشاهير علماء الأمصار) وكذلك الصحيح، مما يصلح بأن يكون رسالة جامعية.

التوصيات

١. وجوب الاستيثاق من النصوص المنقولة من شبكة الإنترنت، والتنبّه إلى ما قد يقع فيها من اجتزاء للعبارات على وجه مخلّ بالمعاني، فمثلاً عندما كنت أبحث عما قيل حول ابن حبان وجدت في بعض الملتقيات الشهيرة حواراً حول توثيق ابن حبان للمجاهيل، وذكر أكثر من واحد من الباحثين في هذه المسألة قول ابن الصلاح في ابن حبان: «غلط الغلط الفاحش»، بما يفهم منه أن ابن حبان غلط الغلط الفاحش بتوثيقه للمجاهيل، ولمّا رجعت إلى قول ابن الصلاح هذا في (طبقات الشافعية) له تبين أنه انتقده في بعض استباطاته الفقهية التي ترجم لها في صحيحه، فقال: «سلك مسلك شيخه ابن خزيمة في استباط فقه الحديث ونكته، وربما غلط في تصرفه الغلط الفاحش على ما وجدته».

٢. سبقت الإشارة إلى أنّ مَنْ ذكّرهم ابن حبان في كتابه (الثقات) ليسوا في رتبة واحدة، وأنه ذكّر ضوابط لقبول أحاديث مَنْ أدخلهم من المجاهيل في (الثقات)، فحبّذا لو صنّف هؤلاء تبعاً لدرجاتهم، ولو ميّزت أحاديث المجاهيل طبقاً للمعايير المقبولة عنده؛ إنصافاً لذلك الإمام، وبتاً لهذه القضية التي رُدّ من أجلها جملة من الأحاديث.

لغتنا الزاهرة

الزاهرة لغةً: «زَهَرَ» الزَّاي والهاء والراء أصل واحد يدل على حُسْنٍ وضياء وصفاء... وكان بعضهم يقول: النور الأبيض. (١) و«الأزهر»: كل لون أبيض صافٍ مُشْرِقٍ مُضِيءٍ. و«زَهَرَ» الوجهُ والسُّرَّاجُ والقمر - زَهراً وزُهوراً: تَلَألاً وأشرق. (٢) وقال الأزهري: وَزَهَرَ الدُّنْيَا: حُسْنَهَا وَبَهَجَتِهَا. وشجرةٌ مُزَهَّرَةٌ، ونباتٌ مزهِرٌ. والزُّهور: تَلَألُ السُّرَّاجِ الزاهر. (٣)

ومعنى لغتنا الزاهرة: النامية المشرقة والمتلألئة بالبيان والمعاني البلاغية والألفاظ الفصيحة، ذات الخصائص المتميزة.

نزل القرآن الكريم، فَحَفِظَ اللهُ به العربيةَ الفُصْحَى، التي هَدَى بها العرب إلى دين الله، بلسان عربي مبين، واللغة العربية قادرة أن تَمَثِّلَ أمام الحضارات لترفع عن نفسها اللثام في تأدية دورها الثقافي والعلمي على أكمل وجه، وهي ما زالت باستطاعتها أن تسيّر قُدماً بالأمة، فليس تخلف الأمة نطقها بلغة القرآن الكريم، كما يدعي دُعاة العامية.

واللغة العربية ارتبطت بها إضاءة التفكير العربي، مع فجر الإسلام، وأخذ العربي والعلماء يتفكرون في خلق السماوات والأرض من خلال كتاب الله عز وجل، فَطَفَقُوا يُؤَلِّفُونَ فيما يلاحظونه في القرآن الكريم من ظواهر لغوية، وإعجاز بياني، وما في المعاني من أسرار، وما في جمال الأسلوب من روائع الصنعة البديعة، وما لكل حرف من تأثير، وما للتقديم والتأخير من أثر في المعنى، فجمع علماء اللغة مفرداتها من فصحاء العرب الخُصَّ بِمُشَافَهَتِهِمْ ومحاورتهم، فوضعوا في مرحلة متقدمة من الحضارات أسمى قواعد العلوم اللغوية والدينية لارتباطهما عقلاً ودينياً.

قال عابدين: اتصل الدين باللغة اتصالاً وثيقاً في العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث

١- مقاييس اللغة «زهر» ٣/٢١.

٢- الوسيط «زهر» ١/٤٠٤.

٣- تهذيب اللغة «زهر» ٦/١٤٧.

على اهتمام علماء اللغة بجمع الشواهد اللغوية وتقييد اللغة، باعثاً دينياً، هو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن الكريم، وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية، على المزج بين المعارف الدينية واللغوية، في الكتابات والمساجد والمجتمعات، ثم في المدارس المنظمة فيما بعد، ومن ثم كان اللغوي - غالباً - رجل دين، ولا ترى عالماً من علماء اللغة القدامى إلا قد كان مقرئاً أو مفسراً، أو محدثاً، أو متكلماً، أو فقيهاً^(١).

وما تأليف الأزهرى تهذيب اللغة إلا خطوة للمحافظة على لغة القرآن الكريم، قال: «وكان من النصيحة التي التزمناها توخياً للمثوبة من الله عليها، أن أنضح عن لغة العرب ولسان العربي الذي نزل به الكتاب، وجاءت به السنن والآثار، وأن أهدبها بجهدى غاية التهذيب»^(٢).

وقد صفت العربية الفصحى من اللهجات العربية المذمومة، إذ لم يرو عن اللهجات المذمومة أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح وهي مصادر لغوية هامة أنها أخذت بها، ولشدّة الحرص على صفاء اللغة كانت تؤخذ من مظانها ومصادرها «وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويتقى المظنون»^(٣).

وقد عقد أحمد بن فارس باباً في اللغات المذمومة^(٤)، تنبئها لمن يجمع اللغة، وسماه السيوطي «معرفة الرديء المذموم من اللغات» ومما قاله عن الفراء: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسّنوه من لغاتهم تكلموا به؛ فصاروا أفصح العرب؛ وخلصت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستبشع الألفاظ»^(٥).

وعقد ابن فارس باباً بعنوان: «باب في أفصح العرب» يبين فيه اهتمام العرب وقريش بصفاء لغتهم الفصحى، فقال: «وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقّة أسنتها - إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلأثهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب»^(٦) فتكونت اللغة العربية المشتركة من مجموع لهجات العرب الفصيحة، بعد نبذ ما في اللهجات من مذموم، فكانت قريش أفصح العرب.

١- المدخل إلى دراسة النحو العربي، ص ١٠٢.

٢- تهذيب اللغة ٦/١.

٣- الصاحبي، ص ٤٨.

٤- الصاحبي، ص ٣٥.

٥- المزهري ٢٢١/١.

٦- الصاحبي، ص ٣٢.

ويرى الدكتور عصام نور الدين أن ما قاله الرجل الجرْمِيّ عن فصاحة قريش أمام معاوية بن أبي سفيان إنما كان تزلماً لمعاوية، عندما ردّ على سؤال معاوية: من أفصح العرب؟ فأجاب الجرْمِيّ: قوم ارتفعوا عن لخلخانيّة الفرات... الخ، إنهم قومك يا أمير المؤمنين، قريش^(١).

والناظر في نصوص أقوال ابن فارس يفهم أن قريشاً كانت تأخذ اللغة السليمة من قبائل فصيحة وتترك ما عندها من خصال مذمومة، وليس معنى ذلك أن غَيْرَ قريش ليسوا فصحاء، فقد أُخِذَت اللغة من عليّاً هوازن وهي خمس قبائل أو أربع، منها: سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وتقيف، وسفلى تميم^(٢).

وقال السيوطي: قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه «الألفاظ والحروف»: كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عمّا في النفس، والذين نقلت اللغة العربية عنهم اقتدي بهم وأخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب وهم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء، هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُكِل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يُؤخَذ عن غيرهم من سائر قبائلهم^(٣).

واللغة العربية قديمة قدم الإنسانية، فكان موطنها في الجزيرة العربية، وسَط العالم القديم المعروف تاريخياً، فجاورت السريانية والفينيقية في الشام، والآشورية والكلدانية في العراق، والهيروغليفية للمصريين، والحبشية على الساحل الشرقي لأفريقيا على البحر الأحمر، وكانت هذه اللغات متشابهة، ولعلها كانت لهجات للغة قديمة.

وقد وضع د. علي عبد الواحد وافي عنواناً: احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها، وصراعها معها وأثار ذلك^(٤). فبين توثق العلاقات بين العرب وجيرانهم والآراميين في الشمال عن طريق التجارة والهجرة والرحلات، وامتزاج بعض القبائل الآرامية بالعالم العربي، وبين اتصال العرب مع اليمانيين في الجنوب في رحلات التجارة، واحتكت العربية بعد الإسلام مباشرة في بلاد سورية ولبنان والعراق، بالآرامية، ومع القبطية بمصر، ومع البربرية في شمال إفريقيا، ومع التركية ببلاد مغول، ومع القوطية بإسبانيا، ولم يقف أمر نفوذ العربية عند هذا الحد بل تجاوزه إلى جميع الأمم الإسلامية (باكستان، الهند، أفغانستان، تركستان، الكرد، بخارى..) فأنزلت

١- انظر محاضرات في فقه اللغة، د. عصام نور الدين، ص ٨٢.

٢- انظر الصاحبي، ص ٤١.

٣- المزهر ١/٢١١.

٤- انظر: فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ص ١٢٧ وما بعدها.

العربية عند هذه الأمم منزلة الاحترام والتقدير، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث اللذين يقوم عليهما الدين الإسلامي. وأتيح للغة العربية في أثناء الحروب الصليبية فرص الاحتكاك باللغات الأوروبية الحديثة، فاقتبست منها هذه اللغات كثيراً من المفردات.

خصائص اللغة العربية :

نشأت اللغة العربية المشتركة في مكة المكرمة، ونتيجة لتوحد اللغة العربية تحت راية الفصحى المشتركة، وقد تميّزت اللغة العربية أنها فوق مستوى العامة، فالعامة لا يصطنعوها في لغتهم، فاللغة العربية التي وردت بها النصوص والآثار الأدبية - شعراً أو نثراً - لم تكن في متناول جميع العرب بل كانت في مستوى أرقى وأسمى، أما النص القرآني باعتباره نصاً عربياً فكان أسلوبه إعجازاً وتحدياً لخاصة العرب.

والميزة الثانية: أن اللغة المشتركة لا تنتمي صفاتها إلى بيئة محلية بعينها، فاللغة المشتركة ليست لغة قبيلة واحدة، ولا تتضمن شيئاً من خصائص اللهجات المذمومة، وهي ليست لهجة قبيلة واحدة، بل هي مزيجٌ من لهجات فصحاء العرب⁽¹⁾.

وإذا كانت اللغات أداة نقل الأفكار واتصال بين المتكلمين بها - واللغة العربية كذلك - أصبحت الفصحى لغة فكر تسمو إلى أرقى اللغات المتحضرة، حيث نزل بها القرآن الكريم فكان إعجازه لغوياً وفكرياً - إلى جانب ما فيه من إعجاز -، فأخذت العربية من القرآن الكريم القيم والمبادئ الإسلامية، وهي ما أفرقتها المجتمعات والأفكار الإنسانية.

والأمر الثالث: اللغة العربية تميّزت بالعبارات والأساليب المتنوعة، الموزونة شعراً إلى جانب القافية، والمرصعة والمجانسة نثراً، والتلاعب بالألفاظ مثل: التورية والكناية، وأساليب التصريح والمجاز والإيجاز والحقيقة، وأسلوب القصر والفصل والوصل، والتشبيه والاستعارة، وهذه أمثلة قليلة مما ورد في علوم البلاغة: البيان، المعاني، البديع.

أظهرت هذه الأساليب البلاغية قدرة اللغة العربية على التعبير عن معانٍ جميلة ورائعة في الجملة العربية، لا يتسنى للغة أخرى أن تُعربَ عن الأفكار والأحاسيس والشعور؛ ما ملكت التعبير عنه اللغة العربية.

فمن روائع علم المعاني وجود علاقة ذهنية - عند السامع لموضوع ما - بين الموضوع والمحمول، أو المسند إليه، والأصل أن تُذكر العلاقة كتابة أو نطقاً، وفي اللغة العربية يكفي وجود العلاقة الذهنية، ولا ضرورة إلى التصريح بهذه العلاقة، فنحن نقول: الرجل شجاع، ولا نقول:

١- أنظر: فقه اللغة، د. رمضان عبد التواب، ص ٦٥ وما بعدها.

الرجل الموجود شجاع.

والمسألة الرابعة: فإن اللغة العربية لغة الإعراب، القاعدة العربية النحوية والصرفية، ولم تكن في العصر الجاهلي هذه القواعد معروفة، وإن كان العربي لا يخرج عن أصولها في الكلام، وكان يتحدث ببطرته، ويحاور على سجيته، ويتكلم بسليقته التي جبل عليها، فملكهم اللغوية العربية وقانونهم، ومعلمهم البيئة القبلية الخالصة من اللكنة والهجنة، ومع ظهور الإسلام اختلط العرب بالقبط والروم والفرس وغيرهم، فانتشر اللحن على لسانهم، مما أثار ذلك رجال العربية والغيارى على لغة القرآن الكريم لأن يضعوا القواعد النحوية والصرفية، صيانة لسانهم وحماية للغتهم.

يقول ابن خلدون: «وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على القوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة المظردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام»^(١).

ويقول أيضاً: «وإنما وقعت العناية بلسان مضر، لما فسد بمخالطتهم الأعاجم، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكتهم على غير الصورة التي كانت أولاً، فانقلبت لغة أخرى»^(٢).

وفي مطلع القرن الثاني من الهجرة برز اسم الخليل بن أحمد في البصرة، وتلاه تلميذه سيبويه، عبقرياً القاعدة اللغوية النحوية، والأخفش الأكبر، وفي الكوفة الرؤاسي والكسائي وغيرهم، فقعدا اللغة، فكانت القواعد النحوية والصرفية تحت مسمى: النحو.

درس علماء العربية: الاسم المبني، والمعرب، والمُنكَّر والمعرِّف، وأنواع المعارف، والمفرد، والمنتى، والجمع، وأنواع الجموع، والأسماء الجامدة والمشتقة، وأنواع المشتقات وعملها، والأسماء المرفوعة بالضرورة (المبتدأ والخبر، والفاعل ونائبه) والأسماء المنصوبة (المفاعيل وملحقاتها والتمييز والاستثناء والمنادى) والأسماء المجرورة بالإضافة، والأسماء التابعة (النعته والتوكيد والعطف والبدل).

كما درس علماء العربية أنواع الأفعال: الماضي والمضارع والأمر والمبني والمعرب واللازم والمتعدي الذي يطلب مفعولاً واحداً والذي ينصب أكثر من مفعول، والأفعال التي لا تكتفي بمرفوع: الأفعال الناسخة، كان وأخواتها، وأفعال المقاربة وأشباهها، وأفعال التعجب وفعل المدح والذم،

١- المقدمة، لابن خلدون، ص ٦٢٩ وانظر صفحة ٦٤١.

٢- المرجع نفسه، ص ٦٥١.

وإسنادها إلى الضمائر.

ولأن اللغة «اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ» فقد درس علماء اللغة أثر الحرف العامل وغير العامل، والزائد وشبهه، والحروف - الجر- التي تعمل في الأسماء، والحروف التي تعمل في الأفعال -النصب والجزم- والحروف التي تعمل في فعلين -حروف الشرط- والحروف التي تعمل في الجمل الإسمية -الداخلة على المبتدأ والخبر- إنَّ وأخواتها وأسبابها، ونونِي التوكيد... وغير ذلك كثير.^(١)

وإلى جانب القاعدة النحوية درسوا علم الصرف، فدرسوا المشتقات، الصحيح والمعتل والمقصور والمنقوص، والممدود، والأسماء الخمسة، والمنون «المصروف» وغير المنون «المنوع من الصرف» والمصغر والمنسوب، والإبدال والإعلال، والمصادر، والقلب، وإدغام الحروف وفكّها، والجموع بأنواعها والتعويض، وغير ذلك كثير.

وقد بقيت مسألة الإعراب قضية العربية الكبرى طوال العصور المتعاقبة، وما زالت كذلك، فاحتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الإعراب، وهي من صفات العربية المُوغَلَّة في القدم، في حين أن سائر اللغات السامية -ما عدا الأكادية- قد فقدت هذه الظاهرة منذ أقدم العصور.^(٢) ودلالة الحركات الإعرابية مسألة هامة في اللغة العربية، وقد اختلفت الآراء في دلالة الحركات الإعرابية بين القدماء والمحدثين في اللغة العربية، وأول من أشار إلى هذه المشكلة من القدماء الخليل بن أحمد، ولعل الجدل في دلالة هذه الحركات على المعاني الإعرابية وعدم دلالتها، ما دار بين تلاميذه سيبويه والكسائي، فذهب جمهورهم إلى الأول وذهب آخرون إلى الثاني.^(٣)

وفي العصر الحديث قام بعض الشخصيات في الوطن العربي بدعوات مشبوهة ضد اللغة العربية، فمنهم من دعا إلى اتخاذ العامية لغة الكتابة والعلم والتعلم، وبعضهم كانت دعوتهم للتحلل من حركات الإعراب، وآخرين دعوا إلى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية والتخلي عن الحرف العربي، ولكن علماء اللغة العربية والحريصون عليها وقضوا لهم بالمرصاد، وبقيت اللغة العربية الفصحى صامدة وشامخة، بينما بأقل الحركات الانقلابية على اللغات اللاتينية والسنسكريتية والقوطية والقبطية والآشورية وغيرها، كانت تَضْمَحُ وتَحْسِرُ وتصبح حبيسة الأديرة والكتب.

١- أنظر: لغة الإعراب، ص ١.

٢- فقه اللغة المقارن، د. إبراهيم السامرائي، ص ١١٨.

٣- أنظر المرجع السابق، ص ١٢٠.

المسألة الخامسة: إن من خصائص اللغة العربية الاشتقاق اللغوي، وقد عرّف العلماء الاشتقاق: «أخذُ صيغةٍ من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادةً أصليّةً، وهيئةً تركيب لها، ليدلّ بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئةً، كضارب من ضرب، وحذّر من حذّر (الأولى اسم والثانية فعل)»^(١).

والتعريف يبيّن أن الاشتقاق توليد الألفاظ بعرضها من بعض، وهذه الطريقة تجعل اللغة متواصلة الأجزاء ويتصل بعضها ببعض، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المتناثرة، وهذا الارتباط بين ألفاظ اللغة العربية يقوم على أساس ثبات المادة اللغويّة، فالأحرف أو الأصوات الأصليّة ثابتة في اشتقاق الصيغ اللغويّة وثبات قدر من المعنى، سواء كان بادياً ظاهراً أو مختفياً، وهذه خصيصة من خصائص اللغة العربية، وتشعر أن ألفاظها ذات صلوات حيّة، وارتباطها حيوي، وطريقتها ليست آليّة جامدة.

بينما طريقة اللغات الأخرى لا سيّما (الهندية الأوروبية) فهي طريقة آليّة أكثر منها توليديّة، وإن كان للاشتقاق فيها نصيب، ولكنه محدود، فإن الطريقة الغالبة في هذه اللغات هي طريقة النحت والصاق الكلمات بعضها ببعض، ومثال ذلك هذه الألفاظ في اللغة الفرنسية (automobile, anthropolopie, misanthrope) وفي الفارسية (روزنامه، شاهنامه، نيروز)^(٢).

وللاشتقاق عند العرب منزلة خاصة، فقد ذكر علماء اللغة الاشتقاق في كتبهم وبينوا أهميّته وأنواعه، وقد ذكر أحمد بن فارس أهمية الاشتقاق عند العرب، وعقد باباً في «القول على لغة العرب، هل لها قياس، وهل يُشتقّ بعض الكلام من بعض» وقال: «أجمع أهل اللغة - إلا من شذّ عنهم - أن اللغة العرب قياساً، وأنّ العرب تشتقّ بعض الكلام من بعض»^(٣) ولأهمية هذا الكلام فقد نقله السيوطي.

والإشتقاق من أهم وسائل التجديد والتنوع في اللغة العربية، ومظهرٌ يدلّ على حيويّتها وقدرتها على التجديد والتطور، ودليل على أصول الألفاظ أو اشتقاقها، وحسن فهم اللغة العربية، ومعرفة الدخيل والمؤلّد والمُحدّث والمعرّب، ويربط المعاني بعضها ببعض ويوضح ما خفي معناه، ويجعل ألفاظ اللغة العربية في مجموعات ينتظم كل لفظ منها في سلك جامع ومعنى يربط بينها جميعاً، وهذا يستدعي التعريف بأنواع الإشتقاق:

النوع الأول: الإشتقاق الصغير، وهو ما عرّفه العلماء القدامى: «الإشتقاق أخذُ صيغةٍ من

١- المزهر، ١/٢٤٦.

٢- أنظر فقه اللغة العربية وخصائص العربية، د. محمد مبارك، ص ٧٩.

٣- الصاحبى، ص ٥٧، وانظر المزهر ١/٢٤٥.

أخرى مع اتفاهما...»^(١).

وهذا النوع من الاشتقاق أكثر الأنواع وروداً في العربية، ويَنصَرِفُ إليه لفظ الاشتقاق عند إطلاقه، ويشترط في هذا النوع من الاشتقاق: أن يتفق المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها:

وطريقة معرفة تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ، دلالةً إطراداً أو حروف غالباً، كضَرَبَ فإنه دال على مطلق الضرب فقط، أما ضارب ومضروب ويضرب وإضرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً، وضرب الماضي مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة وكلها مشتركة في «ض ر ب» وفي هيئة تركيبها وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به.

وفصائل الكلمات الناتجة من هذا الاشتقاق عشر: وهي: ١- الفعل الماضي، ٢- الفعل المضارع، ٣- فعل الأمر، ٤- اسم الفاعل، ٥- اسم المفعول، ٦- الصفة المشبهة، ٧- اسم التفضيل، ٨- اسم الزمان، ٩- اسم المكان، ١٠- اسم الآلة.^(٢)

النوع الثاني: الاشتقاق الكبير: هو عبارة عن ارتباط مطلق غير مقيّد بترتيب؛ بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبيها الستة؛ وما يتصرّف من كل منها؛ إلى مدلول واحد مهما يتغير ترتيبها الصوتي.^(٣)

وأول من قام بتقليب المواد الخليل بن أحمد قاصداً إحصاء اللغة في معجم «العين». ومن العلماء المتقدمين أحمد بن فارس عقد باباً ذاكراً للتقليبات، فسماه: «باب القلب» وهذا النوع من الاشتقاق بالقلب، فقال: «باب القلب: ومن سنن العرب القلب، وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصّة، فأما الكلمة فقولهم: «جذب، وجبذ» و«بكل، ولبك» وهو كثير، وقد صنّفه علماء اللغة.^(٤)

وقد سمى الاشتقاق الكبير ابن جني بتسمية أخرى: «الاشتقاق الأكبر» فقال: «وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن نأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه، رُدّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد».^(٥)

وَضَرَبَ أمثلةً بتقليب «مادة»: «ك ل م» و«ق ول» و«ج ب ر» وقال: «فمن ذلك تقليب (ج ب

١- مرّ سابقاً، انظر المزهر ١/٣٤٦.

٢- أنظر: الإشتقاق وأثره في النمو اللغوي، ص ١٥.

٣- دراسات في فقه اللغة، ص ١٨٦.

٤- الصحابي، ص ٣٢٩.

٥- الخصائص، ٢/١٣٤.

ر) فهي -أين وقعت- للقوة والشدة، منها (جَبَرْتُ العَظْمَ، والفقير) إذا قَوَّيْتُهُمَا وشَدَّدْتِ مِنْهُمَا، والجَبْرُ: الملك، لقوِّته وتقويته لغيره، ومنها «رجل مجرَّب» إذا جَرَّسْتَهُ الأُمُورَ ونَجَّدْتَهُ، وَقَوَّيْتُ مِنْتَهُ، واشتدت شكيمته، ومن الجِرَابِ لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حفظ الشيء وروعي اشدت وقوي، وإذا أُغْضِلَ وأهمل تساقط ورذِي. ومنها (الأبجر والبُجْرَة) وهو: القَوِيُّ السَّرَّةُ... وكذا (ومنه البُرْجُ لِقَوْنِهِ فِي نَفْسِهِ وَقُوَّةَ مَا يَلِيهِ).. وكذا (ومنها رَجَبْتُ الرَّجُلَ: إِذَا عَظَّمْتَهُ وَقَوَّيْتُ أَمْرَهُ...) (٦) وهكذا مثل بمادة (ق س و)، فتقليبانها تدور حول القوة والاجتماع، ومثل بمادة (س م ل) والمعنى الجامع لتقليبات المادة يشتمل على الإصحاب والملاينة. (٧)

وقد مثلَ ابنُ جنِي لمِثْلِ ذَلِكَ بالعديد من المواد اللغوية وتقليباتها ولكنها لا تخلو من التكلّف والصَّنْعَة.

وقد نقده السيوطي فقال: وهذا مما أبتدعه أبو الفتح، ابن جنِي، وكان شيخه أبو علي الفارسي يَأْنَسُ بِهِ يسيراً، وليس معتمداً في اللغة، ولا يصحّ أَنْ يُسْتَنْبَطَ بِهِ اشتقاقُ في لغة العرب، وإنما جعله أبو الفتح بيانا لقوة ساعده وردّه المخالفات إلى قَدْرٍ مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعاني مغايرة للقَدْرِ المشترك، وسبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدمين إلى معاينة الحروف القليلة. وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تتناهى. (٨)

النوع الثالث: الإشتقاق الأكبر: أصطلح علماء اللغة على أن الإشتقاق الأكبر هو: ارتباط بعض المجموعات الثلاثية الصوتية ببعض المعاني ارتباطاً عاماً لا يتقيّد بالأصوات نفسها بل بترتيبها الأصلي والنوع الذي تدرج تحته، متى وردت تلك المجموعات الصوتية على ترتيبها الأصلي فلا بدّ أن تفيد الرابطة المعنوية المشتركة، سواء أحتفظت بأصواتها نفسها أم استعاضت عن هذه الأصوات أو بعضها بحروفٍ أُخْرَ تُقَارِبُ مَخْرَجَهَا الصوتي أو تتحدّ معها في جميع الصفات .

ومن أمثله تقارب المخرج الصوتي تناوب اللام والراء في هَدَيْلُ الحمام وهَدِيرُهُ، والقاف والكاف في كَشَطُ الجلد وقَشَطُهُ، والباء والميم في كَبَحْتُ الفرس وكَمَحْتَهُ.

ومن أمثله الأتفاق في الصفات: تناوب الصاد والسين، في سقر وصقّر، وسراط وصراط، وساطع وواطع، ومسقع ومصقع، وهكذا. (٩)

٦- أنظر: الخصائص، ٢/ ١٣٥ .

٧- أنظر: المرجع السابق ١٣٦/٢ - ١٣٧ .

٨- المزهر، ١/ ٣٤٧ .

٩- أنظر: دراسات في فقه اللغة، ص ٢١٠ .

وقد ألف أبو يوسف يعقوب بن السكيت كتاب: الإبدال، وقسمه إلى خمسة وثلاثين بابا في إبدال الحروف بعضها من بعض، يقول في باب الهاء والحاء: (الأصمعي، يقال: مَدَحَ ومَدَّه، وما أَحَسَنَ مَدَحَهُ، ومِدَحَتَهُ ومَدَّهَهُ ومِدَّهَتَهُ).^(١)

وقال في باب اللام والداد: المعكول والمعكود: المحبوس.^(٢) وفي باب السين والزاي قال الأصمعي: يقال: مكان شَأْسٌ وشَأَزٌ، وهو الغليظ... أبو عبيد: الشازِبُ والشاسِبُ: الضامر.^(٣) وقد عقد ابن جني بابا في الحرفين المتقاربين يُستعمل أحدهما مكان صاحبه، وبين أنه: متى أمكن أن يكون الحرفان جميعاً أصليين لم يَسْغُ العدول عن الحكم بذلك، فإن دلّ دالٌّ أودعت ضرورة إلى القول بإبدال أحدهما من صاحبه عُمِلَ بموجب الدلالة وصِيْرَ إلى مقتضى الصنعة. من ذلك سُكَّرَ طَبْرَزْلٌ، وطبْرَزْنٌ، هما متساويان في الاستعمال، فلست بأن تجعل أحدهما أصلاً لصاحبه أولى منك بحمله على ضده.

وذكر قولهم: هَتَّتْ السماء، وهَتَّتَتْ: هما أصلان، ألا تراهما متساويين في التصرف، يقولون: هتتت تهتت تهتاناً، وهتلت تهتل تهتالاً، وهي سحائب هُتْنٌ وهُتْلٌ.^(٤) أما إذا رُدَّ حرفٌ في كلمتين متقاربتين إلى الآخر المقارب له، عدَّ ذلك إبدالاً مثل قولهم: ما قام زيد بل عمرو، (وبن عمرو)، فالنون بدل اللام، ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن) والحكم على الأكثر لا على الأقل، وكذلك قولهم: رجل (خامل) و(خامن) النون فيه بدل اللام، ألا ترى أنه أكثر، وأن الفعل عليه تصرّف، وذلك قولهم: حَمَلٌ يَحْمَلُ خمولا. وكذلك قولهم: قام زيد فَمَّ عمرو، الفاء بدل من الثاء في (ثُمَّ)، ألا ترى أنه أكثر استعمالاً.^(٥) وبذلك يكون ابن جني قد وفّق في بيان الإبدال إذا كان واقعاً أو لا.

النوع الرابع: الاشتقاق الكبّار، أو (النحت): قال ابن فارس في باب النحت: العرب تتحت من كلمتين كلمةً واحدةً، وهو جنس من الاختصار.^(٦)

ويذكر ابن فارس هذه المسألة أكثر من مرة، فقال: في باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله باء: أعلم أنّ للرباعي والخماسي مذهبا في القياس، يستنبطه النظر

١- كتاب الإبدال، ص ٩٠.

٢- نفس المرجع، ص ١٢٠.

٣- نفس المرجع ص ١٢١.

٤- الخصائص ٨٢/٢. الطبرزل: السكر الأبيض الصلب.

٥- الخصائص: ٨٤/٢.

٦- الصاحبي، ص ٤٦١.

الدقيق. وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوتٌ. ومعنى النحت أن تُأخذَ كلمتان وتُحَتَّ منهما كلمةٌ تكون أخذةً منهما جميعاً بحظٍّ، والأصل في ذلك ما ذكره الخليل من قولهم حيلع الرجل، إذا قال: حيّ على.^(١)

ويستشهد ابن فارس في كتابيه مقاييس اللغة والصاحبي بالعديد من الألفاظ التي يراها منحوتة، ويستشهد ببيت شعر لعبد يغوث بن وقاص الحارثي، فيقول: ومن الشيء الذي كأنه متفق عليه قولهم: «عَبَشَمِيَّ» وقوله: «بتمامه».

تَضَحُّكُ مَنِّي شَيْخَةٌ عَيْشَمِيَّةٌ

كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أُسَيْراً يَمَانِيَا^(٢)

فما جاء منحوتاً من كلام العرب في الرباعي أوله باء.

«بحتر» وهو القصير المجتمع الخلق. فهذا منحوت من كلمتين، من الباء والتاء والراء، وهو من بَنَرْتَهُ فَبَنِرَ، كأنه حرم الطول فَبَنِرَ خلقه، والكلمة الثانية الحاء والتاء والراء، هو حَخَرْتُ وأَحَخَرْتُ، وذلك أن تَفْضَلَ على أحد. يقال: أحتَر على نفسه (وعياله) أي: ضيق عليهم. فقد صار هذا المعنى في القصير لأنه لم يُعْطَ ما أُعْطِيَهُ الطويل.^(٣)

فابن فارس أول من صرَّح بظاهرة النحت اللغوي ودافع عنه وكان مذهبه في الرباعي والخماسي أكثره منحوت من كلمتين.

وقد نَقَلَ مذهب أحمد بن فارس: السيوطي، وجمع العديد من أقوال اللغويين، مثل: ابن جني وابن السكيت والثعالبي والجوهري وابن الأعرابي وغيرهم، ومما قال: وفي إصلاح المنطق لابن السكيت، وتهذيبه للتبريزي: يقال قد أكثر من البسمة إذا أكثر من قول «باسم الله» ومن «الهَيْلَلَه» إذا أكثر من قوله «لا إله إلا الله» ومن الحَوْلَقَة والحَوْقَلَة إذا أكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ومن الحَمْدَلَه، أي من «الحمد لله» ومن الجَعْفَدَة أي «جعلت فداك» ومن السَّبْحَلَة، أي من «سبحان الله»^(٤).

فجمهور علماء اللغة العربية سمى هذا النوع من الاشتقاق بالنحت، ولكن عبد الله أمين

١- مقاييس اللغة، باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله باء، ٢٢٨/١.

٢- أنظر مقاييس اللغة، ص ٢٢٩/١. ملاحظة: كتبت (ترى) بالألف المقصورة ، حيث أصلها (ترى) أبدلت الهمزة المحركة بالفتح ألفاً وحذفت الألف الثانية للجازم (لم) فبقيت الألف الأولى ، بعد تسهيل الهمزة إلى ألف ، فكتبت (ترى) ويجوز كتابتها بالألف الطويلة والمقصورة . انظر: مغني اللبيب ، لابن هشام الأنصاري ، ص (٣٦٥) .

٣- أنظر: مقاييس اللغة (بحتر) ٢٢٩/١.

٤- المزهر، ٤٨٣/١، وما بعدها.

سماء: (الاشتقاق الكبار) وقال: (وقد أسميته الكبار)، لأن «الكبار بالثقل أكبر من «الكبار» بالتخفيف، والنحت أكبر أقسام الاشتقاق.^(١)

وأما تعريف الاشتقاق الكبار أو «النحت» عند علماء اللغة إصطلاحاً، هو: أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ منه، في اللفظ والمعنى معاً. وذلك بأن تعمد إلى كلمتين أو أكثر فتسقط من كل منهما أو من بعضها حرفاً أو أكثر، وتضم ما بقي من أحرف كل كلمة إلى الأخرى تؤلف منها جميعاً كلمة واحدة فيها بعض أحرف الكلمتين أو الأكثر وما تدلان عليه من معان.^(٢)

أما موقف مجمع اللغة العربية في القاهرة من ظاهرة النحت فلا يزال موقف المتردد^(٣) في قياسيته، ولا يزال معظم أعضائه يرون الوقوف منه عند حدّ السماع، رغم أن قلة من هؤلاء الأعضاء قد برهنوا في بحوثهم على ضرورة جعل النحت قياسياً لنستخدمه في المصطلحات والعلوم الحديثة ولا سيما المصطلحات الطبيّة.^(٤)

ولكن هذا الموقف من ظاهرة النحت لم يمنع مجمع اللغة العربية في القاهرة أن يتخذ قراراً جديداً من نوعه حين وافق أعضاء المجلس على جواز النحت عندما تلجئ إليه الحاجة والضرورة، ففي جلسته الثانية عشرة للمؤتمر في ٢١/فبراير/١٩٤٨م، أصدر قراره العلمي بجواز استعمال الألفاظ المنحوتة.^(٥)

وقد استعمل مجمع اللغة العربية المصري النحت بعد أن أقره رسمياً.. في المعجم الوسيط، ففي مادة «بَسَمَ»: «بَسَمَلْ بَسَمَلَةً»: قال: بسم الله الرحمن الرحيم، أو كتبها^(٦) وفي مادة أخرى ذكر: حَوَقْلٌ حَوَقْلَةٌ وحيقالاً... فلان: قال: لا حول ولا قوة إلا بالله^(٧) و«الحَضْرَمِيُّ»: المنسوب إلى حضرموت (ج) حضارمة.^(٨)

ونظام النحت مفقود، ولا نكاد نلاحظ نظاماً محدداً نشعر معه بما يجب الاحتفاظ به من حروف وما يمكن الاستغناء عنه، ولهذا اختلف علماء اللغة القدامى في قياسيته، ومعظمهم لم

١- الاشتقاق، عبد الله أمين، ص ٣٩١.

٢- أنظر المرجع السابق.

٣- إلى أن ألف الدكتور إبراهيم أنيس - وهو عضو مجمع اللغة - القاهرة - كتابه من أسرار اللغة.

٤- من أسرار اللغة العربية، ص: ٨٩ - ٩٠.

٥- أنظر مجلة مجمع اللغة العربية ١٥٨/٧.

٦- الوسيط، مادة «بسمل» ٥٧/١.

٧- نفس المرجع، مادة «حوقل»: ٢٠٨/١.

٨- نفس المرجع، مادة «حضرمي» ١٨١/١.

يجد القدر الذي روي من أمثلة النحت كافياً، ولهذا تحرّجوا في قياسه واعتبروه من السماع، فلم يبيحوا للمولدين أن يتوسعوا في نسج النحت، ومع هذا فقد اعتبره ابن فارس قياسياً، وعدّه ابن مالك في كتابه التسهيل قياسياً، والخليل يستشهد به في معجمه.^(١) وكما مرّ سابقاً أن العديد من العلماء استعملوه في معاجمهم وكتبهم.

والاشتقاق عامةً على أيّ صورة كان، ظاهرة رائعة في اللغة العربية، وهي توليد الألفاظ اللغوية، فاستمرت ظاهرة التجديد اللغوي للعربية، ولم ينقطع تدفق تنوع دلالة الألفاظ وابتكار معانٍ جديدة لم تُعرّف في العصر الجاهلي، وأصبَح لها دلالات جديدة في العصور التالية له حتى حاضرنّا.

ونتيجة لذلك فإنّ اللغة العربيّة طيّعة الألفاظ، حيويّة في تناولها، وهي دائمة التطور والتنمية.

أزاهير العربية :

في عصر الفصاحة الجاهلي نشطت الحيويّة اللغوية وتميّز عشرات من عباقرة الفن العربي في ذلك العصر، اللفظ والأسلوب والميزان والقافية وسحر التعبير ممثلاً بالشعر العربي الفريد من نوعه بين اللغات قاطبة، فأخذ بالألباب. صوّروا المحسوسات والوجدانيات، وتحدثوا عن الحب وجنونه، والهجاء والمدح، والشجاعة والحنوّ والغضب، إلى غير ذلك العديد من العناوين والموضوعات، فبرز عباقرة فن الشعر العربي، أمثال: الأعشى وزهير وطرفة وعنترة، وغيرهم كثير، فكانوا ملوك الأساليب اللغوية وفنونها، استقوا كلمتهم من لغتهم الزاهرة العربية الباهرة.

فاللغة العربية اتسعت لجميع مناحي الحياة: عالم الشهادة والغيب، فكثرت موادّها، واشتقاق الألفاظ جعلها تساهم في التفكير اللغوي، فتمكّن بذلك الشاعر والسّاحر، والخطيب والأديب، من أداء أفكاره بطريقة رائعة، إذ كانت اللغة العربية تُسَعِّفه بأن يستعملها كما يهوى تفكيره ووجدانياته وشعوره، فلغة العرب أمثلة اللغات لا يحيط بها إنسان عادي، قال الإمام الشافعي: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي».^(٢)

وفي العصر الحديث طُبِعَ العشرات من دواوين الشعراء العباقرة، حملوا فن الشعر، إلى جانب حفظهم لألفاظ العربية ما أمكنهم ذلك.

وفي هذا الجو الأدبي العامر أنزل القرآن الكريم بلغة عربية مبيّنة، فبهَر القلوب والأفتدة، بلغته الفصيحة وتصويره البديع وإعجازه الفريد، فحفظت العربية ونشطت ونمت واكتسبت معاني

١- إنظر من أسرار اللغة، ص ٨٧.

٢- الرسالة، للشافعي، ص ٤٢.

إسلاميةً جديدةً لم تستعمل سابقاً.

هذه المقدمة الصغيرة تستدعي الحديث لمعرفة قُدرة اللغة العربية على التعبير، وإمكاناتها الضخمة والمتناسقة على أدبها الرفيع، وتَحَمُّل نزول القرآن الكريم- بها باعتبار أنه نصُّ عربي- وبإعجاز لغوي مُبين، ومن أهم هذه المسائل ما يلي:

أولاً: عدد أبنية اللغة العربية: لقد برع علماء اللغة في جمع ألفاظها من صدور الأعراب وإحصائها، وكان أول من قام بطريقة إحصاء ألفاظ العربية بطريقة حسابية صحيحة الخليل بن أحمد حين عمد إلى وضع كتابه العين، حيث ألفه على طريقة التقليلات للمواد اللغوية، ملاحظاً كونها ثنائية، ثلاثية، رباعية، خماسية، صحيحة أو معتلة، مجردة أو مزيدة، وهكذا،.... عند إحصاء الألفاظ العربية التي يمكن أن تتكون على طريقة الأبنية عقلاً، ملاحظاً أن يعدّ المستعمل والمهمل منها، فتبين له أنّ عدَد المباني التي تتألف منها اللغة العربية عددٌ هائلٌ، إذ «ذكر حمزة الأصبهاني في كتاب الموازنة فيما نقله عنه المؤرخون قال: ذكر الخليل في كتاب «العَيْن» أنّ مبلغ عدد أبنية كلام العرب المُستعمَل والمهمل على مراتبها الأربع، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير التكرار، اثنا عشر ألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر.....»^(١).

والخليل بن أحمد في مقدمة «العين» ذكر كلام العرب أنه مبني على أربعة أصناف: على الثنائي، والثلاثي، والرباعي، والخماسي. ومثّل لهذه الأبنية، المجردة والمزيدة، وتحدّث عن أبنية الاسم والفعل والحرف، والإبدال، وصفات الحروف، والمضاعف، والمعتل، والمثقل والمخفف، ثم بيّن كيف يتصرف الثنائي على وجهين، والثلاثي على ستة أوجه، والرباعي يتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجهاً.^(٢)

وعندما صنّف الجوهري مُعجمه جمع فيه ما صحّ عنده على لسان العرب، فلم يذكر الحوشي والمتروك وأمثالهما، وقال: «قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها»^(٣). فبلغ عدد جذور المواد اللغوية عنده أربعين ألف مادة لغوية قابلة للاشتقاق.

أما مجد الدين الفيروز آبادي لما رأى إقبال الناس على كتاب الصّحاح للجوهري أراد أن يؤلّف معجماً على منواله ويزيد المواد اللغوية، فهو يرى أنّ الجوهري قد ضيّع نصف اللغة - والجوهري قصد من تأليف الصّحاح: ما صحّ من اللغة- فقال في مقدمة الكتاب: «وأسميته

١- الزاهر، ١/٧٤.

٢- أنظر مقدمة معجم العين، ١/٥٢، وما بعدها.

٣- تاج اللغة وصحاح العربية- المقدمة، ١/٣٢.

القاموس المحيط، لأنه البحر الأعظم، ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهريّ وهو جدير بذلك غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر بادئ بدء فضل كتابي هذا عليه»^(١) وقد افتخر الفيروز آبادي كثيراً بعلو كعب القاموس المحيط، وبلغ عدد موادّه اللغوية ستين ألف مادة مستعملة.

وقد ألف ابن منظور كتابه «لسان العرب» وجمع خمسة كتب بين دفتيه، ويرى أنه لم يجد في كتب اللغة أجمل من «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ولا أكمل من «المحكم» لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي - رحمهما الله - وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق... ويرى أن أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، قد أحسن ترتيب مختصره، أي: «تاج اللغة وصحاح العربية» فحفّ على الناس أمره وتناولوه، ولكنه صحّف وحرف... فأتى له الشيخ أبو محمد بن بري فتتبع ما فيه وصحح غلطاته وخرّج لقطاته، ثم أضاف كتاب «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير، ليستفيد منه القارئ بالفاظ غريب الحديث، فقد جاوز ابن الأثير في كتابه - كما يرى ابن منظور - حدّ الجودة. فيبلغ عدد مواد كتاب لسان العرب ثمانين ألف مادة مستعملة.^(٢)

والأعداد المذكورة لمواد اللغة العربية ليست نهائية، فابن منظور لم يأخذ من كتاب: الجيم، وديوان الأدب، وشمس العلوم، والبارع، وغيرها من الموسوعات اللغوية، ولا من الكتب التي تحدثت عن الألفاظ الطبيّة، والزراعيّة والعسكريّة والسياسيّة... وغيرها من الكتب القديمة أو المحدثّة، والناظر في المعجم الكبير لمجمع اللغة المصري، يدهش لا تساع مواد العلمية وما سيؤول إليه هذا المعجم من عدد موادّه.

ثانياً: دقة معاني الألفاظ: ألف علماء اللغة بطرق متنوعة كتبهم، فألفوا فيما اتفق معناه وأختلف لفظه، واتفق لفظه وتعددت المعاني، وفي الترادف والأضداد والإبدال، ودوران المادة حول معنى واحد وغير ذلك، فكل مؤلف تناول زاوية من نواحي اللغة يكشف عن مقدرة اللغة العربية، وقد ألف ابن سيده كتابه المخصص، والثعالبي فقه اللغة، وأبو عبيد الغريب المصنف، وغيرهم بطريقة عرفت بالمعاجم أو الكتب اللغوية المعنوية، وهي تبحث عن دقائق المعاني الحسيّة والمعنويّة على تنوعها، فقد تميّزت العربيّة بدقّة أسلوبها وقدرتها على التعبير، فاللغة الحيّة تتمكن أن تعبّر عن جميع ما يخطر ببال المتكلم بطلاقة، فهي تحمل مخزوناً لغوياً يتيح للأديب والشاعر والخطيب أن يعبّر عما يجيش في خاطره من مسائل، ولا تقف عائقاً أمام تصوّره. يقول الثعالبي: فصل في ترتيب الحبّ وتفصيله: أوّل مراتب الحبّ الهوى، ثم العلاقة، وهي

١- القاموس المحيط، للفيروز بادي، المقدمة، ٢/١.

٢- أنظر: لسان العرب، المقدمة، ٢/١-٣.

الحبُّ اللازمُ للقلب. ثم الكلفُ وهو شدةُ الحبِّ. ثم العشقُ، وهو اسم لما فصلَ عن المقدارِ الذي اسمه الحبُّ. ثم الشغفُ، وهو إحراقُ الحبِّ القلبَ مع لذةٍ يجدها. وكذلك اللوعةُ واللاعجُ، فإن تلك حرقه الهوى، وهذا هو الهوى المحرق. ثم الشغفُ، وهو أن يبلغَ الحبُّ شغافَ القلبِ، وهي جلدةُ دونه، وقد أقرننا جميعاً: شغفها حباً وشغفها. ثم الجوى، وهو الهوى الباطن. ثم التيمُّ، وهو أن يستعبده الحبُّ، ومنه سميَ تيمُّ الله، أي: عبد الله، ومنه رجلٌ متيمٌّ. ثم التبلُّ، وهو أن يسقمه الهوى، ومنه رجلٌ متبولٌ. ثم التدييهُ، وهو ذهابُ العقلِ من الهوى، ومنه رجلٌ مدلَّهُ. ثم الهيوم، وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه، ومنه رجلٌ هائمٌ^(١).

وقال ابن فارس في الألفاظ التي تستعمل في الإبل على تنوع معانيها: «العرير: الإبل تحمل أمتعة التجار. والركاب: تحمل الزيت خاصة. واللطيمة: التي تحمل الطيب. والعسجدية: التي تحمل البر. والخرثية: التي تحمل الأسقاط.^(٢) والزوملة: التي تحمل الطعام. والظعن: التي تحمل الهوداج والنساء. والأحفاض: التي تحمل البيوت وأمتعتها»^(٣).

وقال ابن فارس في باب الشرب: «العَبُّ: الشرب من غير مص. والتغمرُّ: الشرب قليلاً قليلاً. وشربَ فما بقيت في جوفه هزيمة^(٤) إلا امتلأت. وشرب غشاسٌ: قليل. وتشافضتُ الإناء: شربتُ شفافته، وهي البقية تبقى منه... وتصابيتُ الإناء: إذا شربتُ صبابته، وهي مثل الشفافة. ويقال: اشرب واشح، أي: اربو. ويقال: نشح: إمتلاً ونصح وروي. ونصح: شرب دون الرئي. ورجل صباحان غبقان من الصبوح والغبوق»^(٥).

فقد كان ابن فارس وكثير من علماء اللغة يرون أن معنى أحداث الأفعال متباينة، ولا تتطابق ويوجد فروق دقيقة لكل لفظ يلحظه العربي الفصيح، ونقل السيوطي عنه: إن في قعد معنى ليس في جلس، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد... ثم تقول: كان مضطجعاً فجلس: فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن الجلوس المرتفع، والجلوس إرتفاع عما هو دونه... وإنما نقول: إن في كل واحد منها معنى ليس في الآخر»^(٦).

ومن يرى مباينة الألفاظ أبو هلال العسكري، فقد بنى كتابه على ذلك، قال: «الفرق بين البعث والإرسال أنه يجوز أن يبعث الرجل إلى الآخر لحاجة شخصية دونك ودون المبعوث إليه،

١- فقه اللغة وسر العربية، للتحالي، ص ٢٦٧.

٢- لأن الخرثي هو أثاث البيت وأسطاه.

٣- الفرق، لابن فارس، ص ١٠١.

٤- هزوم الجوف: مواضع الطعام والشراب.

٥- متخير الألفاظ، أحمد بن فارس، ص ١٩٨.

٦- انظر المزهري، ١/٤٠٤-٤٠٥.

كالصبي تبعته إلى المكتب: فتقول بعثته، ولا تقول أرسلته، لأنَّ الإرسال لا يكون إلا برسالة وما يجري مجراها^(١).

والعرب تستعمل اللفظ الواحد لمعانٍ متعددة، فيُعرف المعنى من سياق الكلام، قال مقاتل بن سليمان البلخي: «تفسير الدِّين على خمسة وجوه:

فوجهٌ منها: الدِّين يعني التوحيد، فذلك قوله في آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) يقول: إن التوحيد عند الله الإسلام، وكقوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٣) يعني التوحيد.....

والوجه الثاني: الدِّين، يعني: الحساب، فذلك قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤) وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾^(٥) يعني: يوم الحساب....

والوجه الثالث: الدِّين: يعني الحكم، قال تعالى: ﴿..... وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٦) يعني: رَأْفَةٌ في حكم الله الذي حكم الزاني....

الوجه الرابع: الدِّين: يعني الذي يدين الله به العباد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾^(٧) يعني الإسلام.

الوجه الخامس: دين: يعني ملة، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٨) أي: دين إبراهيم^(٩).

فكتاب الأشباه والنظائر عريق في أصول اللغة وعلوم القرآن الكريم، وقد درج البلخي أن يذكر اللفظ ويقرر الوجوه المستعملة في القرآن الكريم. وأول كلمة بيَّنها في كتابه «الهدى»، وقال: تفسير الهدى على سبعة عشر وجهاً، ويذكر وجوهاً على السياق السابق، فالهدى: البيان، والثبات، والدِّين، والإيمان، والدعاء، والرسول، والكتب، والمعرفة، والنبى، والقرآن الكريم،

١- الفروق، لأبي هلال العسكري، ص ٢٨٣.

٢- سورة آل عمران، الآية ١٩.

٣- سورة الزمر، الآية ٢.

٤- سورة الفاتحة، الآية ٤.

٥- سورة الصافات، الآية ٢٠.

٦- سورة النور، الآية ٢.

٧- سورة التوبة، الآية ٢٣.

٨- سورة آل عمران، الآية ٩٥.

٩- انظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، ص ١٢٣.

والتوراة، والإسترجاع، والحجّة، والتوحيد، والسنة، والإصلاح، والإلهام والإرشاد^(١).

فالعربية زاهرة بدقة معاني مفرداتها، تعبّر عن المدلولات الحسيّة والوجدانيّة والمعنويّة بألفاظ مناسبة للمدلول.

ثالثاً: التعريب: اللغة لا تعيش وتحيا بعيدة عن جيرانها من اللغات، فمن سنن اللغات اقتراض الألفاظ فيما بينها. واللغة حيّة بأسلوبها وتراكيبها، وإذا أرادت الأمة المحافظة على لغتها حافظوا على ما تميزت به الجملة، وألفاظ اللغة عُرِضَ للإستبدال بألفاظ مشهورة جديدة. وقد وقع التعريب من اللغات الأعجمية، وتحدّث به العرب على منهاج لغتهم.

وكلمة (المعرب) هو اللفظ الأعجمي الذي تكلمت به العرب واشتهر فعربته واستعملته بأساليبها وضمّنته جملها تحت شروط التعريب اللغوي.

وإذا كانت اللغة العربية تأثرت باللغات المجاورة فقد كان تأثيرها باللغات المجاورة مباشراً، فحيثما وجد الإسلام كانت معه العربية تؤثر في اللغات التي اتصلت بها، فتأثرت بها اللغات المجاورة لها قاطبة، ووصل الأمر أن قضت العربية على بعض اللغات، المجاورة لها: مثل القبطية، والنبطية، والسنسكريتيّة، والآشورية، وسنن اللغات عند التحامها التآثر والتأثير، فتأثرت العربية باللغات المجاورة، ودخل العديد من الألفاظ الأعجمية حوض اللغة العربية، حيث تداولها الشعراء والفصحاء والعامّة، وسجل علماء اللغة هذه الظاهرة في موسوعاتهم وكتبهم اللغوية وما وجدوه على ألسنة الناس.

قال أبو منصور الأزهري: ^(٢) «وقال الليث: التُّورُ عَمَّتْ بكل لسان وصاحبه تَنَارٌ».

قول من قال: إنَّ التُّورَ عَمَّتْ بكل لسان يدل على ان الأصل في الاسم عجمي فعربتها العرب فصار عربيّاً على بناء فُعُول، والدليل على ذلك أن أصل بنائه تَنَر، ولا يُعرَفُ في كلام العرب - لأنه مهمل - وهو نظير ما دخل في كلام العرب من كلام العجم، مثل الدِّياج والدينار والسندس والإستبرق وما أشبهها، ولمّا تكلمت بها العرب صارت عربية^(٣).

وابن منظور أثبت كلام الأزهري في لسان العرب لأهميّة هذه المسألة^(٤)، والأزهري عند ابن منظور ثبت ثقة غير متهم، ويستحسن ما أوقع في «تهذيب اللغة».

وإذا قال الأزهري: «قال الليث» فإنه يعنى به كتاب العين، إذ قال: «فمن المتقدمين (الليث

١- انظر: المرجع السابق، ص ٨٥ - ٨٩.

٢- أبو منصور الأزهري ولد سنة ٢٨٢هـ وتوفي سنة ٣٧٠هـ. انظر اللوحات الأولى من كتاب تهذيب اللغة.

٣ تهذيب اللغة «قتر» ١٤/ ٢٦٩.

٤ أنظر لسان العرب «قتر» ٥/ ١٦٢.

بن المظفر) الذي نَحَلَ الخليل بن أحمد تأليف «العين» جملةً لِيَنْفَقَه باسمه، ويرغَّب فيه مَنْ حوله» وقال: رواه الثقات عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي الفقيه.^(٥)

فقد تقرر وجود الدخيل في المعاجم اللغوية في أهمِّ الكتب اللغوية العربية عند المتقدمين. وعقد أحمد بن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ.) باباً بعنوان: «باب القول في اللغة التي نزل فيها القرآن الكريم وأنه ليس في كتاب الله جَلُّ شَأْوِه شيء بغير لغة العرب»^(٦).

وفي هذه المسألة عدَّة أقوال - لن تناقشها في بحثنا - والذي يعني البحث أنه أوقع ضمن الباب ألفاظاً وردت في القرآن الكريم يقول عنها بعض العلماء: إنَّها ذات أصول أعجمية، فقال: «أما لغات العجم في القرآن، فإنَّ الناس اختلفوا فيها: فرُوِيَ عن ابن عباس وعن مجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم - أنهم قالوا في أحرف كثيرة إنها بلغات العجم، منها: طه، واليَمِّ، والطور، والربانيون، فيقال: إنها بالسريانية».

ومنها قوله جَلُّ وعَزَّ: الصراط، والقِسْطاس، والفردوس، يقال: إنها بالرومية.

ومنه قوله: «كَمِشْكَاة»^(٧) و«كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»^(٨) يقال: إنها بالحبشية.

وقوله: «هَيْتَ لَكَ»^(٩) يقال: إنها بالهورانية.

قال: فهذا قول أهل العلم من الفقهاء»^(١٠)

وقد ذكر الجواليقي آراء العلماء والأمثلة، ونقل عن أبي عبيد أنه قال: وذلك: أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بألسنتها، فعَرَّبَتْه، فصار عربياً، بتعريبها إياه، فهي عربية في هذه الحال، أعجميةُ الأصل»^(١١).

وعلماء اللغة وضعوا علامات لمعرفة المُعَرَّب، استنبطوها من ملاحظاتهم لألفاظ اللغة العربية، فتعرَّف عَجْمَةَ الاسم بوجوه:

أولاً: النقل: بأن ينقل ذلك أحد أئمة اللغة.

الثاني: خروجه عن أوزان الأسماء العربية، نحو: إِبْرَيْسَم، فإن مثل هذا الوزن مفقود في

٥- أنظر تهذيب اللغة، المقدمة، ٢٨/١.

٦- الصاحبى، ص ٤١.

٧- سورة النور، الآية «٢٥».

٨- سورة الحديد، الآية «٢٨».

٩- سورة يوسف، الآية «٢٢».

١٠- الصاحبى، ص ٤٤.

١١- المغرب، ص ٣٥. وأنظر: المزهري ٢٦٨/١ - ٢٦٩.

أبنية الأسماء في اللسان العربي.

الثالث: أن يكون أوله نون ثم راء، نحو: نرّجس، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية.

الرابع: أن يكون آخره زاي بعد دال، نحو: مهندز، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية.

الخامس: أن يجتمع فيه الصاد والجيم، نحو: الصولجان، والجصّ.

السادس: أن يجتمع فيه الجيم والقاف، نحو: منجنيق.

السابع: أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذّلاقة، وهي: الباء، والراء، والفاء،

واللام، والميم، والنون، فإنه متى كان عربياً فلا بدّ أن يكون فيه شيء منها، نحو: سفرجل،
وقدّعمل، وقِرطعَب، وحَجَمَرش.^(١)

وسنن العرب إذا تكلموا بأعجمي حوّلوا أصواتها إلى أقرب صفات العربية، قال ابن دريد:
حروف لا تتكلم العرب بها إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حوّلوها عند التكلم بها إلى أقرب
الحروف من مخارجها، فمن تلك الحروف: الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل: پور، إذا
اضطروا قالوا: فور. ومثل الحرف الذي بين (القاف والكاف) و(الجيم والكاف) وهي لغة سائرة
في اليمن، إذا اضطروا إليه قالوا (كَمَل) بين الجيم والكاف، ومثل الحرف الذي بين (الياء
والجيم) وبين (الياء والشين) مثل غلامي. فإذا اضطروا قالوا: غلامج، فإذا اضطّر المتكلم قال
غلامش- في المذكر: غلامج، وفي المؤنث غلامش- وكذلك ما أشبه هذا من الحروف المرغوب
عنها.^(٢)

فالتعريب له قواعد وأصول، لم تنتشر بين عامة العرب، ولم يهتم علماء اللغة قديماً بها،
وقد أقرّ مجمع اللغة العربية- القاهرة- العديد من القرارات في التعريب، منها قرارات في كتابة
الأعلام الأعجمية بحروف عربيّة، ونشرت هذه القرارات في مجلته- الجزء الرابع سنة ١٣٥٦
(ص ١٨-٢١)- وإن كانت هذه القرارات قد نقدها الأدباء، إلا أنها خطوة رائدة للمجمع، منها:
يكتب العلم الإفرنجي الذي يكتب في الأصل بحروف لاطينية (لاتينية) بحسب نطقه في اللغة
الإفرنجية (هكذا في الأصل أولعها: العربية) ومعه اللفظ الإفرنجي بحروف لاطينية (لاتينية)
بين قوسين في البحوث والكتب العلمية، على ما يقره المجمع في شأن كتابة الأصوات اللاطينية
(اللاتينية) التي لا نظير لها في العربية.

بعض القبائل والبلاد الإسلامية لها لغة خاصة لا يستعملونها في الكتابة، وإنما يكتبون باللغة

١- أنظر المزمهر ١/٢٧٠، وقارن مع المعرب، ص ٥٩.

٢- جمهرة اللغة- المقدمة- ١/٤-٥.

العربية. ولكن لهم أعلاماً بعض أصواتها لا يطابق الحروف العربية، وقد وضعوا لها إشارات لتأدية هذا النطق، وفي بعض الأحيان تكون هذه الإشارات متعددة للصوت الواحد، فرأى المجمع أن يختار أحد هذه المصطلحات في كتابة الأعلام. وقد وافق المجمع على كتابة الحرف «جَافٌ» كافاً (هكذا في الأصل، والصحيح: جِيما) بثلاث نقاط .

الأسماء الأجنبية النصرانية الواردة في كتب التاريخ تكتب كما عربها نصارى الشرق. فمثلاً يقال: بطرس (PETER) وبقطر (VICTOR) وبولص في (PAUL) ويعقوب (JACOB) وأيوب في (JOB) وهكذا.^(١)

واللغة العربية لم يُدوَّنْها الأقدمون قبل الإسلام، وإنما نُقِلت سماعاً ونطقاً عن الأعراب الخَلَص، ولَمَّا نزل القرآن الكريم ثَبَّتْ الظواهر اللغوية، واستتبَّط علماء اللغة من القرآن الكريم والشعر والنصوص المعتبرة: النحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وغير ذلك، ولم يهتَمُوا بوضع قواعد للتعريب واضحة المعالم، ومجمع اللغة العربية المصري وضع عدة أجزاء من معجمة الكبير وقد دُخِر بالألفاظ الأجنبية فكتبت باللاتينية - حسب أصل الكلمة المعربة - والأحرف العربية، وبذلك نستطيع أن نقول: يجب أن تُنَشَر ثقافة التعريب من اللغات الأعجمية إلى العربية. رابعاً: الحدائث اللغوية: لم تكن اللغة العربية عاجزة عن التعبير، فهي لغة واسعة ونامية، لها من الخصائص، والمميزات ما لم تمتلكها لغة أخرى، واللغة العربية قريبة من جيرانها اللغات، وتأخذ منهم الألفاظ وتصوغها بما يتلاءم مع شروط التعريب والدخيل والمولد، ويشهد لذلك العصر الجاهلي، وما بعده حتى عصرنا الحاضر، قال ابن منظور: والجُلُّ: الياسمين، وقيل هو الورد: أبيضه وأحمره وأصفره، فمنه جبليّ، ومنه قرويّ، واحدته جُلَّة، حكاها أبو حنيفة، قال: وهو فارسيّ، وقد دخل في العربية، والجُلُّ في شعر الأعشى في قوله:

وشاهدنا الجُلُّ والياسمين والمُسَمِّعاتُ بقُصَّابها.

هو الورد، فارسي معرب.^(٢)

وقال الجواليقي: والجَمَانُ: خَرَزٌ مِنْ فِضَّة، أمثال: اللؤلؤ، فارسيّ معرَّب، وقد تكلمت به العرب قديماً، وقد جعل لبيد الدرَّة جمانة، فقال:

وتُضِيُّ فِي وَجْهِ الظلام منيرةً كجَمَانَةِ البَحْرِيِّ سُلِّ نِظَامُهَا^(٣)

١- انظر المعرب - المقدمة - ص ١٧-١٨. علماً أن: يعقوب وأيوب ليسا أسماء نصرانية. وهي أسماء سمي بها قبل عيسى - عليه السلام. وانظر المعجم الكبير، المقدمة، صفحة (ف).

٢- لسان العرب، (جلد) ١٢/١٢٨، والبيت في المعرب ص ١٦٢.

٣- البيت في معلقة لبيد بن ربيعة العامري، من معلقته بشرح الزوزني رقم ٤٢. انظر شرح المعلقات السبع، ص ٢٠٧، والمعرب ص ١٦٢.

ويدل الخلاف الواقع بين العلماء عن وجود المعرب والدخيل والمولد في القرآن الكريم عن أنتشار هذه الظاهرة في العصر الجاهلي والاسلامي، قال الجواليقي أخبرنا جعفر بن أحمد عن عبد الباقي بن فارس عن ابن حَسُون عن ابن عَزِير في قوله تعالى: «طوبى لهم» قال: قيل «طوبى» اسم الجنّة بالهندية. وقيل «طوبى» شجرة في الجنة.^(١)

وقال الزجاج: «الفردوس»: أصله رومي أُعْرِبَ، وهو البستان، كذلك جاء في التفسير... قال تعالى: «الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون»^(٢).

فالجواليقي جمع من المعاجم وكتب اللغة عدداً كبيراً من الألفاظ قال عنها أنها معرّبة، وتبعه شهاب الدين الخفاجي في كتابه: «شَفَاءُ الْغَلِيلِ فيما في كلام العرب من الدّخيل»، مثبتاً الألفاظ الدخيلة من القرآن الكريم والشعر العربي الفصيح، مبيناً أصل الكلمة- رومية، فارسية، هندية- ويقول في مقدّمة الكتاب: واعلم أن التعريب نقل اللفظ من العجميّة إلى العربية والمشهور فيه التعريب، وسماه سيبويه وغيره إعراباً، وهو إمام العربية، فيقال حينئذ: معرّب، وقد يعرّب لفظ ثم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعاً له^(٣).

فقد كان سيبويه عقد باباً فيما أُعْرِبَ من الأعجميّة^(٤)، وآخر بعنوان: بابُ أطراد الإبدال في الفارسية^(٥).

وقد أدرك العلامة عبد القادر المغربي في القرن التاسع عشر الميلادي أهمية تطور اللغة العربية ونموها مسايرةً للعلوم والفنون والصناعات الحديثة، فطُفِقَ يدعو إلى الحدّثة اللغوية والتوسيع في الاشتقاق والتعريب والمولد والدخيل، فطُبع كتاب «الاشتقاق والتعريب» طبعته الأولى في مصر سنة ١٩٠٨م، وأشار إلى أن الاستفادة اللغوية على وجه الكمال ما لم يتم من فضلاء العلماء فئّة باسم (مجمع لغوي) تأخذ على عاتقها أمر هذه التنمية فتفتح أبوابها، وتيسر أسبابها، ضمن شروط وقيود تصون سلامة اللغة من الضياع وقواعدها من الانهيار وأساليبها الفصحى من الانحطاط.

فكانت الحاجة ملحةً إلى مجمع لغوي يصون لغتنا المحبوبة عن هذا الخطر الذي يتهدها وينتشلها من الهوّة التي نخشى أن تواقعنا، وفي سنة ١٩١٨م أنشئ المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي سنة ١٩٢٤م أنشئ مجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر.^(٦)

١- المعرب، ص ٢٧٤.

٢- سورة المؤمنون، الآية ١١. أنظر: المعرب، ص ٢٨٨.

٣- انظر شفاء الغليل، المقدمة، ص ٢٣.

٤- الكتاب، ٤١٢/٢.

٥- انظر الكتاب ٤١٢/٢.

٦- أظر: الاشتقاق والتعريب، لعبد القادر بن مصطفى المغربي، ص ١.

وقد كان عبد القادر المغربي على طريق سويّ، فمن يتحمل مسؤولية إقرار الألفاظ المحدثّة، ومن سيراقب المعاجم الجديدة من الأخطاء، ورُتّل النظريات اللغوية والدخيلة، ومن سيحاول ويقارع أصحاب المؤلفات المليئة بالأخطاء اللغوية والتاريخية، والعلمية والأدبية، وما كتاب (المنجد في الأدب والعلوم والأعلام) إلا صورة واضحة عن الفوضى اللغوية والتاريخية والأدبية في تأليف المعاجم اللغوية، فقد ألف إبراهيم القطان كتابه: «عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام» وموضوع هذا الكتاب نقدٌ وتصحيحٌ لأخطاءٍ ومعلوماتٍ محرّفة وردت في كتاب «المنجد».^(١)

وكانت قد صدرت الطبعة الأولى من كتاب «المنجد» سنة ١٩٥٦ م، وقد تكشف لإبراهيم القطان: أخطاء فادحة، وتحريف مذهل، وتشويه لحقائق تاريخية يكاد يكون مريباً، وتجمّع لديه عدد كبير من هذه العثرات، وصدرت مقالات العلامة الكبير عبد الله كنون^(٢) إنقصد في أربع وعشرين مقالة إثنتين وسبعين وستمائة مادة.

وصدرت ثلاث مقالات للأستاذ الكبير منير العمادى في مجلة «مجمع اللغة العربية» و«مجلة المعرفة».

وفي سنة ١٩٦٩ م. صدر تقرير عن أضرار «المنجد والمنجد الأبجدي» للأستاذ سعيد الأفغاني، رئيس قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، ثم صدر مقالان للأستاذ المحقق عبد الستار فرج السيد، بيّن فيهما بعض نواقص الكتاب، وما فيه من عورات ومثالب.^(٣)

والمجامع اللغوية كانت تصدرت المسؤولية اللغوية، وقد صدر عنها العديد من الموسوعات والكتب اللغوية والأدبية، فكان على صاحب كتاب المنجد وأمثاله عرض الكتاب على المجالس اللغوية قبل طبعه لينال ثقة أحد المجالس اللغوية العربية، فهي المرجع الثابت في عصرنا.

ولم يكن مجمع اللغة العربية المصري جامداً في اتخاذ قرارات مهمة ليجتاز ظاهرة التطور اللغوي، بل تعامل بجديّة، فقد نظر إلى التطور الهائل لمختلف العلوم البحتة: الطبية والزراعية والجيولوجية والفلكية... وغيرها، فأدرج المصطلحات العلمية في طيات معجمه الكبير، ولتخطي مشكلة الأحرف ونطقها الصوتي وضع المجلس رموزاً واصطلاحات جديدة للأحرف الدخيلة، ليصار إلى نطق الألفاظ سليمة كما يلفظها أصحاب اللغات الأخرى، فكتب الكلمات السامية بحروف لاتينية متولة بالنطق العربي التقريبي، وهذه نماذج لبعض الأحرف:

الباء الشديدة b الباء الرخوة b الجيم العبرية الشديدة g الجيم العبرية الرخوة g الجيم

١- انظر عثرات المنجد، لإبراهيم قطان، ص ٩.

٢- عبد الله كنون: الأمين العام لرابطة العلماء في المغرب العربي.

٣- انظر: عثرات المنجد، ص ١٠-١١.

العربية المعطشة ج الدال d الذال d الحاء h الخاء h الطاء t الكاف الشديدة k الكاف الرخوة k
الصاد ṣ الضاد d الطاء t الشين š التاء t التاء t.^(١)

ولم يكتف المجمع بوضع رموز الأحرف والأصوات بل وضع رموزاً للحركات وأصوات
الليّن الأجنبية^(٢)، وتوسّع في متطلبات الحدائنة وسمح بالاشتقاق من الجامد، فذكر الاشتقاق
من الجامد: وتوسّع فيه كلما دعت إليه الحاجة تطبيقاً لقرارات المجمع، فقبل مثلاً: أكسد من
«الأكسيد» و«أين» من «الأيونات»^(٣).

وبذلك يكون مجمع اللغة المصري وضع نفسه في مركز المسؤولية، وتولى زمام اللغة
العربية، والمطلّع على المعجم الكبير يسهّر توجهه اللغوي في جمع اللغة العربية والدخيلة والمولده
والمحدثة، وتأسيس الألفاظ وردّها إلى جذورها، وكتب الألفاظ الأعجمية إلى جانب العربية بعدة
لغات، مثال ذلك: الأبنوس (يونانية Bevog) إبنوس = ebenus في اللاتينية. وفي المصرية
القديمة: هب ن = hōbnīn. هبنيم في عبرية التوراة: حزقيا ٢٧: ١٥)^(٤).

واللغة العربية ما زالت تحظى بالعناية والرعاية، وستبقى بإذن لله تعالى مزدهرة ونامية،
ومحطّ أنظار العلماء والأدباء، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٥) وقال
تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٦).

١- انظر: المعجم الكبير، ١/ صفحة (ط، ي).

٢- انظر: المعجم الكبير، ١/ صفحة (ك).

٣- انظر: نفس المرجع، ١/ صفحة (ف).

٤- انظر: نفس المرجع، ص: ٥.

٥- الحجر، الآية ٩.

٦- يوسف، الآية ٢.

الدكتور أسامة خالد محمد حماد

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية الجامعة الإسلامية في غزة

الْفَضِيضُ فِي الْمِيزَانِ

الْفَضِيضُ لِبَكْرِ بْنِ عَلِيٍّ الْقَيْصَرِيِّ (ت ١١٤٥هـ)،

وهو أحد شروح كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام الأنصاري (ت ٥٧٦١هـ)

(دراسة وصفية تحليلية)

بسم الله الرحمن الرحيم

بكر بن عليّ القَيْصَرِيِّ^(١) (ت ١١٤٥هـ).

نبذة مختصرة

ليس هناك الكثير مما يمكن أن نقوله عن عالمنا الكريم هذا، فلا يوجد إلا القليل النادر عنه، وكل ما وجدناه من معلومات عن سيرته: هو أنه بكر بن عليّ فردي القَيْصَرِيُّ الروميّ المدرس الحنفيّ المعروف بأبيجي زاده^(٢). أمّا الشارح نفسه، فهو لم يزد على ذكر اسمه واسم أبيه فقط: (بكر بن عليّ)^(٣).

أمّا هويّته الدينيّة التي ينتمي إليها، فقد أكّد بشكل واضح انتماءه إلى أهل السُّنَّة والجماعة، وذلك بإشارته الصريحة إلى أن أهل البصيرة هم أهل السُّنَّة والجماعة، وذلك في هذا الشرح الذي تقوم على دراسته^(٤).

وممّا ذُكر من مؤلفاته: حاشية على شرح البخاريّ، وشرح قصيدة البردة.

وقد توفي عالمنا القَيْصَرِيُّ -رحمة الله تعالى عليه- عام خمسة وأربعين ومائة وألف هجريّة،

١- انظر: الفضيف ٢٦-٣٢ (الدراسة).

٢- انظر: هدية العارفين ٢٣٤/٥ والفضيف ٢٧ (الدراسة).

٣- انظر: الفضيف ٢.

٤- انظر: الفضيف ٣.

والله نسأل سبحانه وتعالى أن يُفِيضَ لهذا العالم الكريم من يُمِيط اللثام عن سيرته بصورة أكثر جلاء في قادم الأيام، إن شاء الله تعالى.

مقدمة

نقف في هذه الدراسة المتواضعة أمام شرح من شروح كتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب» لابن هشام الأنصاري، هو «الفضيض» لبكر بن علي القيصري، والذي تكمن أهميته في كونه شرحاً لكتاب غير تقليدي في التأليف النحوي، إذ جاء به ابن هشام على غير النسق المعروف في التصنيف النحوي من مرفوعات ومنصوبات ومجرورات، وقد حاز هذا الكتاب شهرة واسعة، ما حدا بكثير من العلماء إلى الإقبال على شرحه، بل إن ابن هشام نفسه قام بتوسعة مشروع ذلك الكتاب القيم وتطويره، وذلك في كتاب مغني اللبيب، الذي كان كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب بذرته الأولى.

وبعد أن نُشير في نبذة مختصرة إلى ما استطعنا الوصول إليه من معلومات حول حياة القيصري، نعرضُ هذا البحث في ثلاثة مباحث، حيث نذهب في الأول منها إلى منهج القيصري وأصوله وشواهد ومصادره النحوية، ثم نتحول في المبحث الثاني إلى موافقاته لابن هشام واعتراضاته عليه، واختياراته وآرائه خلوصاً إلى مذهبه النحوي.

ثمّ ننتقل في المبحث الثالث إلى فحص مسألة اطلاعه على شروح سابقة لكتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لعلماء سابقين عليه، ومدى تأثيره بأيّ منهم في حالة حصول ذلك الاطلاع، وسنعمد أخيراً إلى نوع من الموازنة بين هذا الشرح والشروح السابقة عليه، وذلك في بعض الجوانب، والشروح التي سنقارن الفضيض بها هي:

١. أقرب المقاصد، لابن جماعة (ت ٥٨١٩).
٢. أوثق الأسباب، لابن جماعة (ت ٥٨١٩).
٣. حواشي جلال الدين المحلي على قواعد الإعراب (ت ٥٨٦٤).
٤. شرح قواعد الإعراب، للكافيجي (ت ٥٨٧٩).
٥. تعليق لطيف، للبصروي (ت ٥٨٨٩).
٦. مؤصل الطلاب، للأزهري (ت ٥٩٠٥).
٧. شرح قواعد الإعراب، للقوجوي (ت ٥٩٥٠).
٨. حلل معاهد القواعد، للزبيدي (ت ١٠٠٦هـ).

ونختتم هذا البحث بعرض النتائج والثمار التي وصلنا إليها من خلال هذا العجالة البحثية المتواضعة، التي نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا يوم القيامة.

المبحث الأول

شرح الفضيض

بدأ القَيْصَرِيُّ شرحه بحمد الله سبحانه وتعالى، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الصحابة رضي الله عنهم، ثم بقوله: أمّا بعد، ثم أشار إلى عزمه على شرح هذا الكتاب المسمى «بالإعراب عن قواعد الإعراب» لابن هشام الأنصاري، وتسميته لهذا الشرح «بالفضيض»^(١)، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يوفقه في ذلك ويسدد خطاه.

وسنعرض إلى سمات هذا الشرح من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: منهج القَيْصَرِيِّ في الفضيض

نسوق سمات منهج القَيْصَرِيِّ في كل من النقاط الآتية:

١. صورة متن ابن هشام في الشرح: سار القَيْصَرِيُّ على طريقة المصنّف في شرحه، فهو يذكر عبارة ابن هشام، ثم يقوم بتوضيحها وكشف غوامضها وتدعيمها بالشواهد، وإظهار آراء العلماء فيها، وقد مزج القَيْصَرِيُّ بين متن المصنّف وشرحه^(٢)، ولكنه ميّز بينهما بوضع خطّ فوق كلام ابن هشام، أو بوضعه بين فاصلتين، أو بإحاقه بكلمات تدل عليه^(٣). وقد اهتم نوعاً ما بالاختلاف بين نسخ كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب^(٤).

٢. ضبط المفردات وشرحها: اهتم بالضبط والشرح للمفردات والكلمات، فمن الأمثلة على ضبطه لها قوله:

- الحزب في اللغة - بالكسر: الجماعة والطائفة والأصحاب^(٥).
- الجملة التفسيرية، أيّ المفسرة - بكسر السين^(٦).

١- انظر: الفضيض ٢.

٢- انظر: الفضيض ٢٥ (الدراسة).

٣- انظر: الفضيض ٨٨، (الدراسة)، وصفحة (ث) في مقدمة التحقيق.

٤- انظر: الفضيض ١٥، ١٠٢.

٥- انظر: الفضيض ٢٢. جاء ذلك تعليقا على قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ سورة الكهف ١٨/٢٨.

٦- انظر: الفضيض ٤١.

• «أسفارًا: جمع (سِفر) بالكسر والسكون، يقال للكتاب: سِفر»^(١).

ومن الأمثلة على شرحه للمفردات قوله:

• قواعد: جمع (قاعدة)، مأخوذة من قواعد البيت، وهي أساسه^(٢).

• «النكته في اللغة: بياض في سواد، ثم استعير لمعان دقيقة»^(٣).

• «الشرط في اللغة: العلامة، وفي الاصطلاح: تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وُجد الأوّل يوجد الثاني، مثل: إن دخلت الدار؛ فأنت طالق»^(٤).

٣. ذكر الحدود وتعريف المصطلحات: ومن الأمثلة على ذلك قوله:

• «الفرق بين الاسم الموصول والحرفي احتياج الاسم الموصول إلى العائد بخلاف الحرفي»^(٥).

• «الكلام في اصطلاح النحويين: المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام؛ فتكون الجملة أتم من الكلام، لا ترادفًا له»^(٦).

• التعليق: إبطال العمل على سبيل الوجوب لفظًا لا معنىً، فتعلّق قبل الاستفهام أو النفي أو لام الابتداء، أمّا الإلغاء: فهو إبطال العمل على سبيل الجواز لفظًا ومعنىً، وكلاهما من خصائص أفعال القلوب^(٧).

٤. الأسلوب والعرض:

• استعانته بأسلوب الحوار، نحو قوله: اعْلَمْ^(٨)، وألّا ترى^(٩)، وكما ترى^(١٠)، وأنت تعلم^(١١)،

١- الفضيض ٥٩. وذلك عند تعليقه على قوله تعالى: «كَمَثَلِ الْهَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» سورة الجمعة ٥/٦٢.

٢- انظر: الفضيض ٥، ٦.

٣- الفضيض ١٠.

٤- الفضيض ٢٦.

٥- الفضيض ٢٧.

٦- الفضيض ١٤.

٧- انظر: الفضيض ٢٣.

٨- انظر: الفضيض ٣، ٦، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٢، ٣٥، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٦٠، ٦٢، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٨٠، ٨٧، ٩٤، ١٠٧، ١١٠، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٦، ١٧٧.

٩- انظر: الفضيض ٣، ٥٢.

١٠- انظر: الفضيض ٨٨.

١١- انظر: الفضيض ٥.

ولا تَفْلُ (١)، واحْفَظْ (٢)، وافْهَم (٣)، وبَقِيَ لَكَ شَيْءٌ (٤)، وإنَّ قَلْتَ ... قَلْتُ ... (٥).

• تحديده أحياناً لمواضع نهايات كلام العلماء عند النقل عنهم بكلمة (انتهى) (١)، كقوله -نقلاً عن المغني- حيث يذكر ابن هشام الجملة المسند إليها ضمن الجمل التي لها محلّ من الإعراب، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ﴾ (٧)، إذا أعرب (سواء): خبر، و(أنذرتهم): مبتدأ، انتهى (٨).

• اتصاف لغته أحياناً بشيء من الركاكة والضعف (٩)، نحو قوله: «فإنّ فيه تسامح» (١٠). وواضح أنّه كان ينبغي عليه أن يقول: (فإنّ فيه تسامحاً)، حيث إنّ (تسامحاً) جاءت اسماً منصوباً لـ(إنّ).

• استطراده أحياناً بذكر بعض اللطائف، نحو قوله: «ذكر ابن نُجَيْم في الأشباه والنظائر: سأل الإمام الأعظم (١١) -رحمة الله عليه- عمّن قال: لا أرجو الجنة، ولا أخاف النار، ولا أخاف الله تعالى، وأكل الميتة، وأصلي بلا ركوع وسجود، وأشهد بما لم أره، وأبغض الحق، وأحب الفتنة، فقال أصحابه: أمر هذا الرجل مُشْكِلاً؛ فقال الإمام رحمة الله عليه: هذا رجل يرجو الله لا الجنة، ويخاف الله لا النار، ولا يخاف الظلم (من) (١٢) الله في عذابه، ويأكل السمك والجراد، ويصلي على الجنّازة، ويشهد بالتوحيد، ويبغض الموت، ونحو هذا، ويحب المال والولد، وهما فتنة؛ فقام السائل؛ فقبّل رأسه وقال: أشهد أنك للعلم وعاء. انتهى» (١٣).

• بعده عن الإطالة، كقوله: واعلم أنّ الفرق بين (حتى) و(إلى) أنّ مجرور (حتى) إمّا

١- انظر: الفضيض ٤٣، ٤٩، ٦٧، ٨٦، ١١٩، ١٢٢، ١٣٦.

٢- انظر: الفضيض ٧١.

٣- انظر: الفضيض ١٠٣.

٤- انظر: الفضيض ٧٢.

٥- انظر: الفضيض ٨٣، ٩٨.

٦- انظر: الفضيض ٣٢، ٥٤، ٦٦، ١١٦، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٥.

٧- سورة البقرة ٦/٢.

٨- انظر: الفضيض ٣٢.

٩- انظر: الفضيض ٩٠ (الدراسة).

١٠- الفضيض ١٦٦.

١١- الإمام المقصود هنا هو الإمام أبو حنيفة النعمان. انظر: الأشباه والنظائر لابن نُجَيْم ٤٢٦.

١٢- وردت (في) في التحقيق، والصحيح ما أورده، فضلاً عن استقامة المعنى بذلك. انظر: مخطوطة الفضيض ٤٠أ.

١٣- الفضيض ١٢٩.

أنَّ يكون آخر جزء من المذكور قبلها دخولاً فيه، أو مائلاً في آخر جزء منه. وأمّا مجرور (إلى) أعمّ من أن يكون آخر جزء من المذكور قبلاً أو مائلاً في آخر جزء منه، أو أول منه أو أوسط جزء منه، نحو: فلو قلت نمت البارحة حتى نصفها، أو ثلثها؛ لم يجز، ولو قلت: نمت البارحة إلى نصفها أو ثلثها جاز. وفيه كلام طويل، فيرجع فيه إلى المطولات، لكن هذا فرق لطيف وأنصف^(١).

• حرصه على الاختصار، بل هو مولع به، ونرى ذلك في اختصاراته في أسماء السور، فأشار إلى سورة البقرة بالرمز (بق)، وسورة مريم بالرمز (مر)، وسورة المائدة بالرمز (ما)، إلخ، وذلك كثير^(٢). وكذلك الأمر في بعض الكلمات، نحو رمزه: بِ (الحر) للحرف، وِب (فح) لِ (فحيئُذ) ^(٣)، وِب (المص) لِ (المصنّف) ^(٤)، والحقّ أنّ هناك انسجاماً لطيفاً وحقيقياً بين حرص القيصريّ على الاختصار، والخلاصة المختصرة لهذا الشرح، حيث وُقِّقَ القيصريّ فيما أراد.

• تجنب التكرار، نحو قوله: (الثانية): وجه التسمية سبق في المسألة الثانية في الباب الأوّل^(٥). وقوله: «حتى حرف ابتداء، أي أنّ تكون (حتى) ما يفتح به الكلام؛ فيكون ما دخلت عليه (حتى) جملة مستأنفة، فحيئُذ لا تعمل عمل الجرّ عند الجمهور، خلافاً للزجاج وابن درستويه، وقد سبقت نبذة عنه في المسألة الثالثة من الباب الأوّل»^(٦).

• حضور أسلوب المقارنة لديه، وذلك في نحو قوله: الفرق بين (إذا) الظرفيّة الشرطيّة و(إذا) الفجائيّة من وجوه:

أ- الظرفيّة مخصوص إلى الفعلية فقط.

ب- الفجائيّة حرف لا يحتاج إلى الجواب، والظرفيّة اسم يحتاج إليه.

ت- الفجائيّة تقتضي ترتيب ما بعدها سريعاً على ما قبلها، بخلاف الظرفية.

ث- الظرفية مختصة لأول الكلام، بخلاف الفجائية.

١- انظر: الفضيض ٩٤.

٢- انظر: الفضيض ٢.

٣- انظر: الفضيض ٩.

٤- انظر: الفضيض ٢١.

٥- انظر: الفضيض ٨٨. جاء ذلك عند ابتدائه الحديث عن الكلمة الثانية -وهي (لما)، من النوع الثالث- وهو سبع كلمات تأتي على

ثلاثة أوجه، في الباب الثالث الذي يتناول تفسير عشرين كلمة يحتاج إليها المعرب، كما قال ابن هشام.

٦- الفضيض ٩٨. وللإطلاع على حالات أخرى من حرصه على تجنب التكرار: انظر أيضاً: ١٠١، ١٠٥.

- ج- الفجائية تقع جواباً للشرط، بخلاف الشرطية^(١).
٥. الإعراب: اهتمَّ القَيْصَرِيُّ كثيراً بالإعراب^(٢)، فأعرب معظم الشواهد، بل أعرب الكثير من كلام ابن هشام، ومن الأمثلة على ذلك قوله:
- «(أيضاً) يستعمل في مقام التشبيه، وهو منصوب بأنه مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أض)، أي: حملها في الحكم حملاً على ما سبق»^(٣).
 - (لابدّ من تعلق الجار والمجرور بفعل أو في معناه)^(٤): «لا لنفي الجنس، اسمه بدّ، خبره: من تعلق الجار والمجرور»^(٥).
 - «كيف أنت أصحيح أم سقيم؟: (صحيح) بالهمزة بدل من (كيف)»^(٦).
٦. اهتمامه بالخلافات بين النحاة: وهو حاضر حضوراً حسناً في شرحه، ومن أمثلة ذلك:
- اعلم أنّ النحاة اختلفوا في أنّ المضاف إليه في الجملة الفعلية هو الفعل أو الجملة، والاتفاق أنّ المضاف إليه هو الجملة الاسمية بتمامها إذا أضيف إليها.
 - في أثناء حديثه عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٧)، قال القَيْصَرِيُّ: «أصل (إنا) (إننا)، حُدِفَتْ إحدى النونات، على اختلاف بين القوم»^(٨).
 - اعلم أنّ النحاة اختلفوا في جازم جواب الشرط، فقال بعضهم: هو أداة الشرط فقط، وقال بعضهم: هو فعل الشرط فقط، وقال بعضهم: هو الأداة والفعل معاً، وأمّا فعل الشرط فمجزوم بالأداة اتفاقاً^(٩).
٧. استيفاء عناصر المسائل النحوية التي تركها المصنف: فمثلاً، في الوقت الذي اقتصر فيه ابن هشام على ذكر أربعة أحرف زائدة لا تتعلق، استطرد القَيْصَرِيُّ فذكر أخرى، وهي: رَبٌّ، في نحو: رَبُّ رَجُلٍ كَرِيمٍ لِقِيَّتِهِ، وحروف الاستثناء: خلا، وعدا، وحاشا، في نحو: أساد القوم خلا زيد، وعدا زيد، وحاشا زيد، فإنها من الحروف الجارة، ولا تتعلق بشيء^(١٠).

١- انظر: الفضيض ٨٤.

٢- انظر: الفضيض ٤٠ (الدراسة).

٣- الفضيض ٢٢.

٤- الإعراب عن قواعد الإعراب ٥٥.

٥- الفضيض ٦٢.

٦- الفضيض ١٧٦.

٧- سورة الكوثر ١/١٠٨.

٨- الفضيض ٢٣.

٩- انظر: الفضيض ٢٦.

١٠- انظر: الفضيض ٦٩.

٨. التنبيه على الأخطاء: نحو قوله: تكون (حتى) حرف عطف إذا لم يدخل على اسم نكرة محضة؛ فيجوز أن نقول: جاءني الناس حتى رجل عالم منهم، ولا يجوز (رجل) فقط^(١).
٩. الربط بين فروع علوم اللغة، أو مع علوم أخرى: وقد أشار هو نفسه -وبصورة واضحة- إلى عدم اختصار الشرح على النحو^(٢)، ومن الأمثلة على ذلك:
- العقيدة: نحو قوله: «لفظة الجلالة: اسمٌ لذاتٍ واجبُ الوجود المستجمع لجميع الصفات، وعرفوه: بعلم دالٍ على إله الخلق دلالة جامعة بمعاني الأسماء الحسنى كلها»^(٣).
 - التفسير: كما ورد في أثناء تعليقه على قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾^(٤)، قال القيصري: أي دعاكم إسرافيل عليه السلام على صخرة بيت المقدس دعوة واحدة: يا أهل القبور، اخرجوا بسرعة^(٥).
 - الصرف: نحو قوله: (أبواب) جمع (باب)، أصلها (بَوْب)، فقلبت الواو ألفاً^(٦)، وقوله: (سيئة) أصلها (سيوئة)؛ فقلبت الواو ياء، فأدغمت^(٧).
١٠. الإحالة إلى كتب أخرى: بلغت إحالاته إلى كتب أخرى أربعاً^(٨)، نذكر منها: «ولو أردت التحليل؛ فارجع إلى موضعه»^(٩)، وقوله: «أصل شيء شئ، بالتشديد عند الفراء، وأصل أشياء شياء، على وزن فعلاء عند الخليل، وأشياء عند الأخفش والفراء، على وزن أفعلاء، وإن أردت التفصيل؛ فارجع إلى الشروح الشافية»^(١٠).
١١. الحث على البحث، نحو قوله: تقع (إذا) الفجائية جواباً للشرط، بخلاف (إذا) الشرطية، تأمل فيها!^(١١)، وقد وردت كلمة تأمل^(١٢) في مواضع كثيرة سوى هذا المثال،

١- انظر: الفضيض ٩٥.

٢- وذلك بقوله عن شرحه هذا: إنه يحوي أكثر الفوائد من نحو وغيره. انظر: الفضيض ٢.

٣- الفضيض ٣. وقد جاء ذلك في أثناء تعليقه على لفظ الجلالة (الله).

٤- سورة الروم ٢٥/٣٠.

٥- انظر: الفضيض ٨٤.

٦- انظر: الفضيض ١٢.

٧- انظر: الفضيض ٢٧. وللمزيد من مسائل الصرف: انظر: ٥، ٦، ١٣، ١٢، ٦٧، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٦٩.

٨- انظر: الفضيض ٤١ (الدراسة). وانظر: الفضيض ٦١، ٩٤، ٩٨، ١٥٥.

٩- الفضيض ٦١.

١٠- الفضيض ٩٨.

١١- انظر: الفضيض ٨٤.

١٢- انظر: الفضيض ٥، ١٢، ١٦، ١٨، ٤٥، ٦٦، ١٠١، ١٢٢، ١٢٩، ١٣١، ١٤٣.

وقوله: تَبَصَّرَ فِي الْبَوَاقِي^(١)، وفيه نظر^(٢).

١٢. وقد كان أحياناً يشير إلى معاني بعض المفردات أو الجمل باللغة التركية، نحو قوله: «الزَّهْرُ، بِالْفَتْحِ، وَفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِهَا، وَفِي التَّرْكِيِّ: (جَحِيكَ)»^(٣).

المطلب الثاني: أصول القَيْصَرِيِّ

حضرت الأصول النحويّة لدى القَيْصَرِيِّ في شرحه هذا، على تفاوت بينها في حجم حضورها، ولكنّ هذا الحضور لا يشبه حضورها في كتب الأوّلين، بفعل تأخّر شارحنا، الذي عاش في القرن الثاني عشر، وسنطَلُّ على أصول هذا العالم الكريم في كلِّ من المقاصد الآتية:

المقصد الأول: السماع

اهتم القَيْصَرِيُّ بِالسَّمَاعِ، كسائر من عالج النحو ومسائله من النحاة، ويمكننا أن نلاحظ ذلك في كلِّ من النقاط الآتية:

١. استشهاده بسبعة وأربعين شاهداً، وهي سوى شواهد ابن هشام الستة والخمسين والمائة-الحاضرة في الشرح، ليكون المجموع الكلي للشواهد الواردة في هذا الشرح ثلاثة ومائتي شاهد.

٢. إشارته إلى لغات العرب سبع مرات^(٤).

٣. إشارته إلى القراءات القرآنية أربع عشرة مرة^(٥).

٤. حرصه على التمييز بين اللغات، وبخاصة الفصيحة منها، نحو قوله: تقع (مَنْ) موصولة، فتحتاج إلى صلة، وحينئذ تضاف إلى معرفة، وقيل: وتضاف إلى نكرة، ومثال الصلة، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمَّ أَشَدُّ﴾^(٦)، ثم إذا حُذِفَ صدر صلتها عادت إلى البناء على اللغة الفصيحة: (لافتقارها)^(٧) إلى ذلك المحذوف^(٨).

١- انظر: الفضيض ٨٧.

٢- انظر: الفضيض ١٠٢.

٣- الفضيض ٧٠. وللمزيد من مواضع ذكره لغة التركية. انظر: ١٢٣.

٤- انظر: الفضيض ٤٢، ٨٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٤، ١٥٧، ١٥٩.

٥- انظر: الفضيض ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٩، ٤٥، ٥١، ٧٣، ٩٠، ١١٩، ١٢١، ١٤٥، ١٥٠.

٦- سورة مريم ٦٩/١٩.

٧- وردت (لاقتصارها) في التحقيق، ولكن المعنى لا يستقيم إلا على الصورة التي أثبتناها، والحق أنّها غير واضحة في المخطوطة،

بل ربما كانت أقرب إلى ما أثبتته المحققة الكريمة. انظر: مخطوطة الفضيض ٢٨ب.

٨- انظر: الفضيض ١٢٤.

٥. عندما تتصل (ما) الكافّة بِـ (إنّ) وأخواتها؛ فإنّها لا تعمل عندئذ في أفصح اللغات^(١).
وقد جاء اهتمام القيصريّ بالسّماع مقدّمًا على القياس، فنراه مثلاً يقول: «اعلم أنّ (قط) إذا كان ظرفاً فلا يتصل بياء المتكلم، وإذا كان اسماً بمعنى (حسب)، فتتصل به فيقال: (قطي)، و(قطني)، على خلاف القياس^(٢)».

المقصد الثاني: القياس

حضر القياس بشكل قليل لدى القيصريّ في هذا الشرح، فنراه يقول مثلاً: «نقول في الاستدلال: (زيد) في (ضرب زيد) مرفوع؛ لأنّه مشتمل على علمِ الفاعلية، وكل مشتمل على علمِ الفاعلية مرفوع؛ فزيد مرفوع، وقسّ على هذا سائر الأقيسة»^(٣).
ومن أقيسة القيصريّ القليلة هذه نسوق قوله:

١. الفصحى تأنيث الأفصح، كما كانت الفضلى تأنيث الأفضل، والكبرى تأنيث الأكبر^(٤)، ما يوحي بحضور القياس عنده.

٢. الضمير المتكلم والمخاطب من أعرف المعارف، والغائب محمول عليهما .

٣. وكان القياس (لو اعمّر)، إلا أنّه جرى على لفظة الغيبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ .
بل قد نبه على مخالفة القياس في بعض الأمور، نحو قوله: أصل ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ :
(لكنّ أنا هو الله ربي)، حذفت الهمزة على غير القياس؛ فأدغمت النونان .

المقصد الثالث: التعليل

اهتم القيصريّ بالتعليل، وقد كان حاضرًا حضوراً طيباً عنده، كما هو عند سائر من عالج النحو ومسائله من النحاة، ويمكننا أن نلاحظ ذلك من قوله:

١. لم تعمل (إذ) عمل الجزم؛ لأنّ المجزومية خاصة بالمستقبل، وهي تدخل على الماضي والاسم .

٢. لم تعمل (إذا) عمل الجزم؛ لأنّها تدلّ على اليقين .

٣. قرأ الحسن البصريّ (الحمديّ) بالكسر؛ لإتباعها اللام في (لله)، ويقرأ بنصب الدال

١- انظر: الفضيض ١٥٩.

٢- انظر: الفضيض ٨٠.

٣- الفضيض ٦. وقد دعا إلى القياس في غير موطن. انظر: الفضيض ٢٠.

٤- انظر: الفضيض ٧٩.

على أنه مصدر لفعل محذوف تقديره (أحمدُ الحمدَ) ، والرفع أجود؛ لأن فيه عمومًا في المعنى .

٤. إنّما اختصت (لا النافية) بالنكرة دون المعرفة؛ لأنها في الأغلب لنفي الجنس، وذلك لا يُتصور إلا فيها . وقد جاء كلامه هذا تعليقًا على كلام ابن هشام: (لا) تكون نافية، وناهية، وزائدة، فالنافية تعمل في النكرات عمل (إنّ) كثيرًا، وعمل (ليس) قليلًا .

ويبدو أنّه اهتم بالتعليل إلى الدرجة التي تُشعرُ فيها أنّه علَّلَ لكل شيء، حتى لكلام ابن هشام، ولطريقة تبويبه للمادة العلمية الواردة، نحو قوله: الثانية مما يأتي على خمسة أوجه (لو)، وإنما قال: الثانية، ولم يقل: ثانيهما؛ إشارة إلى أنّ الحرف يذكر ويؤنث، أو إلى أنّ الأوّل اسم والثاني حرف، وأشار بقوله: (وأحد أوجهها) إلى طول بحثها؛ لأنّ التصريح يفيد التنبيه إلى عدم النسيان .

المقصد الرابع: التأويل

حضرت التأويلات في الفضيض كسائر المصنفات والشروح النحويّة، ومن التأويلات الواردة في هذا الشرح نذكر كلا مما يأتي:

١. في أثناء تعليقه على قوله تعالى: ﴿لَدَيْكَأ هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ ، قال القيصريّ: «لكن للعطف، والمعنى أنّ يُقال: لكن لا أقول كما تقول؛ بل هو الله ربي» .

٢. قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ، أي الساعة، ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ، ما هي؟ أي: أي شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير تعظيمًا لشأنها» .

٣. في إعرابه لقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ ، قال القيصريّ: (يومًا): منصوب بنزع الخافض، أي: على المفعول به أو المفعول فيه، والتقدير على الأول: واتقوا في الدنيا مقابل يوم ترجعون فيه، وعلى الثاني: واتقوا عذاب الله يومًا ترجعون فيه .

٤. في أثناء حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، قال القيصريّ: (سواء): خبر، و(أنذرتهم): مبتدأ، والمعنى: إنذارك وعدمه سيان عليهم .

المطلب الثالث: شواهد القيصريّ

بلغت شواهد ابن هشام الأنصاريّ في متن قواعد الإعراب اثنين وسبعين ومائة شاهد: ثلاثًا وأربعين ومائة آية، وحديثين، وعشرين بيتًا شعريًا، وسبعة أقوال مأثورة، فكم حضر من هذه الشواهد في شرح الفضيض؟ ثم ما هي الشواهد التي أضافها القيصريّ من عنده؟

وللإجابة على هذين السؤالين نقول: حضر من شواهد المصنّف في شرح الفيض ستة وخمسون ومائة شاهد، وسقط ستة عشر شاهداً، ثم بلغت الشواهد التي أضافها القيصرّي من عنده سبعة وأربعين شاهداً، وهي سوى شواهد ابن هشام الستة والخمسين والمائة الحاضرة في الشرح، ليكون المجموع الكلي للشواهد الواردة في هذا الشرح ثلاثة ومائتي شاهد، كما سنرى تفصيل ذلك في المقاصد الآتية:

المقصد الأول: القرآن الكريم

سقط من شرح الفيض عشر آيات من شواهد ابن هشام القرآنية الثلاثة والأربعين والمائة، ليحضر منها ثلاثة وثلاثون ومائة شاهد.

أمّا طريقة تعامل القيصرّي مع الشاهد القرآني الخاص بابن هشام، فقد كانت بالزيادة عليه من أصل الآية تارة، وقد وقع ذلك في سبع وعشرين آية، في الوقت الذي لم ينقص إلا شاهد واحد-فقط- عن الشكل الذي أورده ابن هشام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾^(١)، فقد أورده ابن هشام على الشكل المذكور، أمّا القيصرّي، فقد جاء به من دون ﴿يَمْوَسَى﴾. ويُجمل ذلك الجدول الآتي:

عدد شواهد ابن هشام القرآنية				
كما وردت في قواعد الإعراب	الحاضرة في شرح الفيض	التي زادها القيصرّي شيئاً من أصل الآية	التي أنقص منها القيصرّي	التي تركها القيصرّي كما هي بالضبط
١٤٣	١٣٣	٢٧	١	١٠٥

وقد أضاف القيصرّي إحدى وثلاثين آية أخرى، سوى شواهد ابن هشام القرآنية؛ ليصبح مجموع الآيات الواردة في هذا الشرح أربعاً وستين ومائة آية قرآنية كريمة، ما يدلّ على مضيّ القيصرّي على خطى ابن هشام في تغليب الاستشهاد بالقرآن على الاستشهاد بالشعر، تماماً كما فعل سائر الشراح الذين سبقوه بشرح كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب^(٢).

أمّا القراءات القرآنية الأخرى، فقد بلغت الإشارات إليها أربع عشرة مرة^(٣)، ومنها إيراده لشاهد ابن هشام القرآني وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾^(٤)، الذي استشهد به ابن هشام على (لما) الاستثنائية، والتي هي بمعنى (إلا) في قراءة التشديد، حيث إنّ المعنى عندئذ:

١- سورة طه ١٧/٢٠.

٢- انظر: قواعد الإعراب وشروحه ٢٠٤.

٣- انظر: الفيض ٢٩، ٣٠، ٢٣، ٢٩، ٤٥، ٥١، ٧٣، ٩٠، ١١٩، ١٢١، ١٤٥، ١٥٠.

٤- سورة الطارق ٤/٨٦.

(ما كل نفس إلا عليها حافظ) ^(١)، ثم أردف القيصري قائلًا: «هذا على قراءة التشديد، أما على قراءة التخفيف؛ فإن مخففة من الثقيلة، والتقدير: إن كلُّ لعلها حافظ» ^(٢).

المقصد الثاني: الحديث الشريف

حضر شاهدا ابن هشام من الحديث الشريف في شرح الفضيض، وأضاف إليهما القيصري أربعة أحاديث شريفة؛ ليصبح العدد الكلي للأحاديث الواردة في هذا الشرح ستة أحاديث شريفة. ومن شواهد القيصري قوله صلى الله عليه وسلم: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ^(٣)، وقد استشهد به على أن النعم الدنيوية أوفر في حق الكافر من المؤمن ^(٤)، وهو استشهد في غير النحو كما ترى.

المقصد الثالث: الشعر

ورد سبعة عشر بيتًا من شواهد ابن هشام الشعرية، وسقط ثلاثة، وقد قام بإكمال بيت واحد فقط - كان ابن هشام قد جاء به مشطورًا، وأنقص ثلاثة أبيات، وترك ثلاثة عشر بيتًا كما وردت عند المصنّف.

وقام القيصري بنسبة ستة أبيات إلى أصحابها، غير ثلاثة الأبيات التي كان ابن هشام قد نسبها في المتن، وبقيت ثمانية من دون نسبة في هذا الشرح، ولم يذكر أيًا من أسماء البحور للشواهد الشعرية.

وقد استشهد بسبعة أبيات شعرية أخرى من عنده، ليكون المجموع الكلي للشواهد الشعرية الواردة في هذا الشرح أربعة وعشرين بيتًا.

ومن شواهد التي استدعاها للاستشهاد بها قول الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ لَا يُفِيّ أَنْاسٌ فَتَى حَتَاكَ يَا بِنَّ أَبِي يَزِيدٍ ^(٥)

والذي ذكره القيصري مثالًا على تلك الشواهد التي يستدلُّ بها من يذهبون إلى جواز دخول

١- انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٧١.

٢- الفضيض ٩٠.

٣- سنن الترمذي (رقم ١٦) ٥٦١/٤، (رقم ٢٣٢٤) ٥٦٢ ومسند أبي يعلى (رقم ٦٤٦٥) ٣٥١/١١ وصحيح ابن جبان (رقم ٦٨٧) ٤٦٢/٢، (رقم ٦٨٨) ٤٦٤ وشعب الإيمان (رقم ٥٦٤٥) ٢٧/٥ والجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم (رقم ٢٧٤٢) ٢٢٨/٣ وكنز العمال (رقم ٦٠٨١) ١٨٥/٣.

٤- ولسنا نرى ما ذهب إليه القيصري في هذا الشأن، فإن المتع الدنيوية أيضًا للمؤمن في الدنيا قبل الآخرة، ويصدق ما نذهب إليه قوله سبحانه وتعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (سورة الأعراف ٣٢/٧).

٥- البيت من الوافر، وهو من دون نسبة في شرح ابن عقيل ١١/٣ وهمع الهوامع ١٦٦/٤ والمعجم المفصل ٢٨٦/١.

(حتى) على الضمير المتصل، كالمبرد^(١).

المقصد الرابع: الحكم والأمثال والأقوال المأثورة

حضر أربعة من شواهد ابن هشام من الأقوال المأثورة في شرح الفيض، وسقط ثلاثة منها، ثم استشهد القَيْصَرِيُّ بخمسة أخرى من عنده؛ ليصبح مجموع الأقوال المأثورة في هذا الشرح تسعة.

ومن الأقوال المأثورة التي جاء بها القَيْصَرِيُّ من عنده قوله: (وَاللَّهِ أَحْلَفُ لَقَدْ لَعَمْرِي بِتُّ سَاهِرًا)^(٢)، حيث جاء به شاهدًا على جواز الفصل بين (قد) والفعل بالقسم^(٣).

المطلب الرابع: مصادر القَيْصَرِيِّ

تحتل مصادر الدراسة اللغوية مكانة خاصة في الدرس النحويّ، فهي من أهم الضوابط التي تحدّد وجهة هذا العلم، وتقوم على حراسته وحياطته، ولسنا نستطيع الاهتداء إلى شيء من دونها، ولذا فإننا سننّجّه في هذا المطلب إلى عرض مصادر القَيْصَرِيِّ المختلفة، وذلك في كل من المقاصد الآتية:

المقصد الأوّل: العلماء

والذين سنتناولهم تحت ظل العناوين الآتية:

١. النحاة، وقد بلغ عددهم ستة وعشرين، وهم: أبو عليّ الفارسيّ^(٤)، وأبو عمرو جمال ابن الحاجب^(٥)، وسيبويه^(٦)، وابن السكّيت^(٧)، وأبو إسحاق الزجاج^(٨)، وابن درستويه^(٩)، والأخفش^(١٠)، وابن السراج^(١١)، والكسائي^(١٢)، والرّضيّ^(١٣)، وابن مالك^(١٤)، والأستاذ أبو عليّ

١- انظر: الفيض ٩٢.

٢- انظر: الفصل في صنعة الإعراب ٤٢٣ ومغني اللبيب ٢٢٧ وتاج العروس ٢٢/٩.

٣- انظر: الفيض ١٤٤.

٤- انظر: الفيض ٦، ٨٨، ٩٤، ١٢٢، ١٥٣.

٥- انظر: الفيض ٦، ٩٢.

٦- انظر: الفيض ١٤، ١٧، ٢٥، ٣٦، ٣٨، ٧٤، ٨٨، ٩٣، ١٢٤، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٤.

٧- انظر: الفيض ٣٢.

٨- انظر: الفيض ٣٦، ٨٤، ٩٨.

٩- انظر: الفيض ٣٦، ٩٨.

١٠- انظر: الفيض ٢٨، ٦٨، ٧٤، ٨١، ٩٢، ٩٨، ١٥٥.

١١- انظر: الفيض ٣٨.

١٢- انظر: الفيض ٣٩، ٥١، ١٠٢، ١٠٦، ١٤٧، ١٥٢.

١٣- انظر: الفيض ٤٦، ١١٥، ١٤٢، ١٥٢.

١٤- انظر: الفيض ٤٧، ٥٢، ٩٢، ١٣٦.

الشَّلَوِيَّينَ^(١)، وأبو العباس ثعلب^(٢)، والدِّماميني^(٣)، وابن عصفور^(٤)، والرَّمَّاني^(٥)،
وابن طاهر^(٦)، والفاضل اليميني^(٧)، وأبو العباس المبرد^(٨)، والزمخشري^(٩)، والفراء^(١٠)،
والخليل^(١١)، وأبو حاتم السجستاني^(١٢)، ويونس بن حبيب^(١٣)، وابن هشام اللخمي^(١٤)، وأبو
الفتح بن جني^(١٥).

٢. اللغويون، وقد بلغ عددهم أربعة، وهم: الفاضل عصام الدين الأسفراييني^(١٦)، وابن
دريد^(١٧)، والجوهري^(١٨)، والهروي^(١٩).

٣. الأدباء، والحاضر واحد منهم فقط، وهو: عبد الغفور بن صلاح اللاري الأنصاري^(٢٠).

٤. البلاغيون، وقد بلغ عددهم اثنين، وهما: الجرجاني^(٢١)، والتفتازاني^(٢٢).

٥. المتكلمون: لم يأت القيصريُّ على ذكر أيِّ منهم.

-
- ١- انظر: الفضيض ٤٨، ٤٩.
 - ٢- انظر: الفضيض ٥١.
 - ٣- انظر: الفضيض ٥٤.
 - ٤- انظر: الفضيض ٦٨، ١٤٠.
 - ٥- انظر: الفضيض ٦٩.
 - ٦- انظر: الفضيض ٦٩.
 - ٧- انظر: الفضيض ٧٢.
 - ٨- انظر: الفضيض ٨٤.
 - ٩- انظر: الفضيض ٨٦، ٩٥، ١٠٧، ١١٠، ١١٧، ١٢٣.
 - ١٠- انظر: الفضيض ٩٨، ١٠١، ١٠٦، ١٣١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٤.
 - ١١- انظر: الفضيض ٩٨، ١٢٤، ١٦٤.
 - ١٢- انظر: الفضيض ١٠٢.
 - ١٣- انظر: الفضيض ١٢٤.
 - ١٤- انظر: الفضيض ١٣٦.
 - ١٥- انظر: الفضيض ١٤٦.
 - ١٦- انظر: الفضيض ٥٥.
 - ١٧- انظر: الفضيض ٦٥.
 - ١٨- انظر: الفضيض ٨٠.
 - ١٩- انظر: الفضيض ١٠٨، ١٠٩.
 - ٢٠- انظر: الفضيض ١٤٥.
 - ٢١- انظر: الفضيض ٦١.
 - ٢٢- انظر: الفضيض ٦١.

٦. القراء، وقد بلغ عددهم ثلاثة، وهم: حمزة^(١)، وإبراهيم بن أبي علبة^(٢)، ونافع^(٣).
٧. المفسرون، وقد بلغ عددهم ثلاثة، وهم: الضحاك^(٤)، والفاضل ابن تمجيد^(٥)، والإمام فخر الدين الرازي^(٦).
٨. الفقهاء، وقد بلغ عددهم خمسة، وهم: الشيخ الإمام أبو محمد بن أسعد الشافعي^(٧)، والحسن البصري^(٨)، والشافعي^(٩)، وزين الدين^(١٠) بن إبراهيم بن محمد الشهير بابن نُجَيْم^(١١).
٩. المحدثون: لم يستدع القَيْصَرِيُّ أيًا منهم في شرحه هذا.
١٠. الصحابة، وقد بلغ عددهم ستة، وهم: عبد الله بن عباس^(١٢)، وابن مسعود^(١٣)، وأبو بكر الصديق^(١٤)، وعلي بن أبي طالب^(١٥)، والحسن بن علي بن أبي طالب^(١٦)، وعمر بن الخطاب^(١٧).

المقصد الثاني: الكتب

بلغت أعداد الكتب التي ذكرها القَيْصَرِيُّ في الفضيض واحدًا وعشرين كتابًا^(١٨)، في مختلف

-
- ١- انظر: الفضيض ٥١.
- ٢- انظر: الفضيض ٧٣.
- ٣- انظر: الفضيض ١٠٠.
- ٤- انظر: الفضيض ٤.
- ٥- انظر: الفضيض ٧٢.
- ٦- انظر: الفضيض ١١٨، ١٧٤.
- ٧- انظر: الفضيض ٥٣.
- ٨- انظر: الفضيض ٧٣.
- ٩- انظر: الفضيض ٩٦، ١٠٦.
- ١٠- زين الدين، وليس زين العابدين كما ذكرت المحققة الكريمة في حاشية تحقيقها للفضيض، وأنا لم أعد إلا للكتابين الذين وَثَّقَتْ منهما معلوماتها، ويبدو أن الأمر لا يعدو السهو في النقل. انظر: هدية العارفين ٣٧٨/٥ والأعلام ٦٤/٣.
- ١١- انظر: الفضيض ١٢٩.
- ١٢- انظر: الفضيض ٣٤، ٤٥، ٨٢.
- ١٣- انظر: الفضيض ٤٥.
- ١٤- انظر: الفضيض ٥٢.
- ١٥- انظر: الفضيض ٥٢.
- ١٦- انظر: الفضيض ٥٢.
- ١٧- انظر: الفضيض ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠.
- ١٨- وليست أربعة وعشرين كما ذكرت المحققة الكريمة، فهي قد ذكرت حاشية لعبد الغفور، والذي ورد اسم العالم في صفحة ١٤٥ في الفضيض، ولم يرد اسم حاشيته، ثم هي عدت ضمن الكتب الواردة شرح الإعراب عن قواعد الإعراب للوَجَوِّي؛ بعد استنتاجها أن القَيْصَرِيَّ قد نقل كثيرًا عنه من دون أن يذكره ألبتة، إضافة إلى إيرادها كلمة ظننتها اسمًا لكتاب، وهي كلمة =

العلوم، وهي التي نعرضها تحت ظل الأقسام الآتية:

١. كتب النحو واللغة: المفصل^(١)، والإفصاح لابن هشام الخضراوي^(٢)، ومفتاح الألباب^(٣)، ومغني اللبيب^(٤)، والقاموس^(٥)، وتحفة الغريب^(٦)، وحاشية الفاضل الأسفراييني على الفوائد الضيائية^(٧)، والمقرب^(٨)، والكبير^(٩)، والشروح الشافية^(١٠)، والتسهيل^(١١).
٢. كتب الأدب والبلاغة: الأمالي^(١٢)، والإيضاح^(١٣)، والتلخيص^(١٤)، والمفتاح^(١٥)، والمطول^(١٦).
٣. كتب التفسير والفقهاء والحديث: خواص القرآن^(١٧)، وحاشية تفسير القاضي^(١٨)، وشرح الكشاف للفاضل اليميني^(١٩)، والأشباه والنظائر في أصول الفقه^(٢٠)، والكشاف^(٢١).

المقصد الثالث: اللغات واللهجات

أشير في الفضيض إلى لغات العرب المختلفة سبع مرات^(٢٢)، أما القبيلتان اللتان ذُكر

= (المطولات)، وقد وردت في صفحة ٩٤ في الفضيض، ولكنها ليست اسمًا لكتاب، وإنما قصد بها الكتب المطوّلة، أو أمهات الكتب. انظر: الفضيض ٤٢ (الدراسة).

- ١- انظر: الفضيض ١٤، ١٤٥.
- ٢- انظر: الفضيض ٣٠.
- ٣- انظر: الفضيض ٣٠.
- ٤- انظر: الفضيض ٣١، ١١٠.
- ٥- انظر: الفضيض ٣٦.
- ٦- انظر: الفضيض ٥٤.
- ٧- انظر: الفضيض ٥٥.
- ٨- انظر: الفضيض ٥٥.
- ٩- انظر: الفضيض ٨٠.
- ١٠- انظر: الفضيض ٩٨.
- ١١- انظر: الفضيض ١٠٩.
- ١٢- انظر: الفضيض ٣.
- ١٣- انظر: الفضيض ٦٠.
- ١٤- انظر: الفضيض ٦٠.
- ١٥- انظر: الفضيض ٦١.
- ١٦- انظر: الفضيض ٦٥.
- ١٧- انظر: الفضيض ٥٣. وهو كتاب لليافعي. انظر: الفضيض ٤٢ (الدراسة).
- ١٨- انظر: الفضيض ٧٢. وهي حاشية على تفسير البيضاوي لمصطفى بن إبراهيم المعروف بابن تمجيد.
- ١٩- انظر: الفضيض ٧٢.
- ٢٠- انظر: الفضيض ١٢٩.
- ٢١- انظر: الفضيض ١٤١.
- ٢٢- انظر: الفضيض ٤٢، ٨٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٤، ١٥٧، ١٥٩.

اسمهما في هذا الشرح فهما: أهل الحجاز^(١)، وبنو تميم^(٢).

المبحث الثاني

مَذْهَبُ الْقَيْصَرِيِّ النَّحْوِيِّ

تنوعت آراء القَيْصَرِيِّ في شرحه هذا، ووافق وعارض المصنّف، وعرض الكثير من الآراء الخاصة بالنحاة، مرجحاً ومحاكياً تارة، ومكتفياً بعرض الآراء من دون ترجيح تارة أخرى، وسنعرض طرفاً من ذلك كله في كل من المطالب الآتية:

المطلب الأول: موافقات القَيْصَرِيِّ لابن هشام

من الطَّبِيعِيِّ أَنْ نَرَى الْقَيْصَرِيَّ يَكْثُرُ مِنْ مُوَافَقَتِهِ لِلْمَصْنُفِ وَهُوَ يَقُومُ عَلَى شَرْحِ كِتَابِهِ، كَعَادَةِ الشَّارِحِينَ فِي طَرِيقَتِهِمْ فِي شَرْحِ الْمَتُونِ، وَإِنْ لَمْ يَخْلُ الشَّرْحُ مِنْ بَعْضِ الْإِعْتِرَاضَاتِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوَافَقَاتِ.

ونقتطف من هذه الموافقات كلاً من الأمثلة الآتية:

١. ذهب القَيْصَرِيُّ إِلَى كَوْنِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَا الْأَعْلَى﴾^(٣) - والتي جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾^(٤) - جملة مستأنفة، وليست صفة ولا حالاً، موافقاً ابن هشام في ذلك، حيث قال: والصفة لا تصح؛ لأنه لا فائدة في حفظ السماء منهم؛ لأنهم لا يقدرون على التسمع، وكذا الحال لا يصح؛ لأنّ الحالّية صفة في المعنى^(٥).

٢. في أثناء إعرابه لقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٦)، قال القَيْصَرِيُّ: جملة (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ) مفسرة للنجوى؛ لاقتضاء المعنى، فلا محلّ لها؛ لأنها جاءت لمجرد الإظهار؛ فلا يتوجه إليها مقتضى الإعراب. وقيل: هي - أي الجملة الاستفهامية - بدل في محلّ النصب من النجوى، فالتقدير: وأسروا هذا الحديث، إمّا بدل الكلّ من الكلّ، أو البعض منه، والأول أظهر، والثاني ظاهر. ويجوز أنّ يكون مفعولاً لقول محذوف، أي قالوا: هل هذا إلا بشر مثلكم؟ فهو يوافق ابن هشام

١- انظر: الفضيض ١٠٤.

٢- انظر: الفضيض ١٠٥، ١٥٧.

٣- سورة الصافات ٢٧/٨.

٤- سورة الصافات ٣٧/٧.

٥- انظر: الفضيض ٣٤.

٦- سورة الأنبياء ٢١/٣.

في ما ذهب إليه بقوله: والأول أظهر، فالأول هو رأي ابن هشام^(١).

٢. لدى حديثه عن (الواو) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٢)، والتي عدّها ابن هشام وأوًا زائدة، مع أنّه أشار إلى رأي آخر لبعض النحاة وهو كونها عاطفة، ثم زاد القيصريّ رأيين آخرين، وذلك بقوله: وقيل: إنّها حالية، وقيل: إنّها بمعنى (مع)، إلا أنه وافق ابن هشام فيما ذهب إليه بقوله: وكون الواو فيها زائدة ثابت^(٣).

المطلب الثاني: اعتراضات القيصريّ على ابن هشام

وافق القيصريّ ابن هشام في كثير من المواطن، كما رأينا في المطلب السابق، ولكنه أيضًا خالفه وعارضه في خمس مسائل.

ونعرض هذه المسائل الخمسة التي اعترض فيها القيصريّ على ابن هشام على النحو الآتي:

١. قال القيصريّ: الجملة التفسيرية، أيّ المفسّرة - بكسر السين - ولو ترك ياء النسبة لكان أنسب؛ لأنّ التفسير مصدر والياء النسابة مع الناء تقيّد المصدرية^(٤).

٢. أشار ابن هشام إلى أنّ كون الجملة المفسرة لا محلّ لها هو المشهور، ثم أردف قائلًا: قال الشلوبيّن: التحقيق أنّ الجملة المفسّرة بحسب ما تُفسره، فإنّ كان له محلّ فهي كذلك، وإلا فلا، وتابع بعد ذلك قائلًا: واستدل بعضهم على أنّ للجملة المفسّرة محلًا، إنّ كان لما تُفسره محلّ، بقول الشاعر:

فَمَنْ نَحْنُ نُؤْمِنُهُ بَيْتٌ وَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ لَا نَجْرَهُ يَمْسِ مِنَّا مَرُوعًا^(٥)

فظهر الجزم في الفعل المفسّر للفعل المحذوف^(٦)، فاعترض القيصريّ بقدر كبير من اللطف، وذلك بقوله: إنّ التفسير للفعل بالفعل في الحقيقة، وهما مفردان، وعدّ ذلك نوعًا من

١- انظر: الفضيض ٤٣.

٢- سورة الزمر ٣٩/٧٣.

٣- انظر: الفضيض ١٤٩، ١٥٠.

٤- انظر: الفضيض ٤١. والغريب أنّه عاد هو نفسه واستخدمها، حيث قال: واعلم أنّ التفسيرية ثلاثة أقسام. (أما الأقسام الثلاثة، فهي: المجردة عن حرف التفسير، نحو قوله تعالى: ﴿كَمْثَلِ أَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (سورة آل عمران ٣/٥٩)، والمقرونة بـ(أَيّ)، نحو قُطِعَ رِزْقُهُ، أَيّ: مات، والمقرونة بـ(أَنَّ)، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (سورة الصافات ٧٣/١٠٤)، فقوله: (يا إبراهيم) تفسير للمفعول المقدر لـ(ناديناه)، أي: ناديناه بلفظ هو قولنا: يا إبراهيم. انظر: الفضيض ٤٣، ٤٦). وانظر أيضًا ورود كلمة (التفسيرية): ١١٨، ١٤١.

٥- البيت من الطويل، وهو لهشام المرّي في الحروف والأدوات ٢٧٠ وخزانة الأدب ٩/٤٠، ٤٢، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/٦١٩ ومغني اللبيب ٥٢٦ وحاشية الصبان ٢/١٠٥.

٦- انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٤٦، ٤٧.

التسامح، ثم أشار إلى أن جزم (نؤمنه) ليس بمُسلَّم به^(١)، في الوقت الذي بدا فيه غيره أوضح في اعتراضهم على ابن هشام، كما فعل ابن جماعة، والذي علَّل اعتراضه بقوله: لأنَّ المفسِّرَ الفعل لا الجملة، وليس الكلام في تفسير الفعل للفعل، وإنما الكلام في الجملة المفسَّرة المحدودة بقوله: الجملة الكاشفة لحقيقة ما تليه، وما نحن فيه مفرد فسَّر مفرداً، أي فعل فسَّر فعلاً، وجاء الفاعل من ضرورته، لا أنه مقصود، فظهر الجزم في الفعل المفسِّر للفعل المحذوف^(٢). ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن جماعة قد أكد هذا الاعتراض في أوثق الأسباب مرة أخرى^(٣)، ولكن بدون أن يخوض في التفاصيل مرة أخرى. ومع ابن جماعة مضى الأزهرِّي في نفس الاعتراض^(٤)، وكذلك فعل الزبيِّي، ولكن باختصار واقتضاب^(٥)، حتى جاء القيصريُّ أخيراً ليؤكد على هذا الاعتراض.

٣. قال القيصريُّ: لا يخفى عليك أن قول المصنف: كالباء الزائد في ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾^(٦)، ليس على ما ينبغي، حيث قال في آخر رسالته: وينبغي أن يجتنب المُعَرَّبُ أن يقول في حرف من كتاب الله سبحانه وتعالى: إنه زائد؛ لأنه يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك^(٧). ومما يجدر ذكره أن القوجوي كان قد سبق القيصريُّ في هذا الاعتراض^(٨).

٤. في أثناء تعليقه وشرحه لقول ابن هشام: تأتي (كلا) بمعنى (حقاً) أو (ألا) الاستفتاحية، على خلاف في ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾^(٩)، حيث أردف ابن هشام قائلاً: والصواب الثاني؛ لكسر الهمزة في نحو: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾^(١٠)، فقال القيصريُّ: هذا الرأي فيه نظر، فإنَّ الأول صحيح، وإن كان الثاني ظاهر^(١١).

٥. تعليماً على قول ابن هشام: من وجوه (لو) أن تكون حرفاً مصدرياً مرادفاً لـ (أن)، إلا أنها لا تنصب، وأكثر وقوعها بعد (ودّ)، نحو: ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ﴾^(١٢)، أو (يودّ)، نحو: ﴿يُودُّ

١- انظر: الفضيض ٤٩.

٢- انظر: أقرب المقاصد ١١١.

٣- انظر: أوثق الأسباب ٧٢. وذلك في قوله: والتحقيق عندي أن هذه المسائل ترجع إلى تفسير المفرد.

٤- انظر: مؤصل الطلاب ٦٥.

٥- انظر: حلّ معاهد القواعد ١٢٧.

٦- سورة الرعد ٤٢/١٣.

٧- انظر: الفضيض ٦٥، ٦٦. وانظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٥٦، ١٠٨.

٨- شرح قواعد الإعراب للقوقوي ٦٢، ٦٣.

٩- سورة العلق ١٩/٩٦.

١٠- سورة العلق ٦/٩٦. انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٧٤.

١١- انظر: الفضيض ١٠٢.

١٢- سورة القلم ٩/٦٨.

أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ ﴿١﴾، قال القَيْصَرِيُّ: «ولو قال: (ويودّ) مكان (أو يود) لكان أنسب»^(٢).

المطلب الثالث: مذهب القَيْصَرِيِّ النحوي

تنوع أسلوب القَيْصَرِيِّ في تعاطيه مع المسائل النحويّة وآراء النحاة، وتنوعت اختياراته واجتهاداته وإعراباته، والتي نعرضها على النحو الآتي:

المقصد الأول: حرصه على إطلاع الطلاب على التنوع في مسائل الإعراب وآراء النحاة ونلمس ذلك من كلِّ من الأمثلة الآتية:

١. في إعرابه لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(٣)، قال: (هذا): مبتدأ، و(يوم): خبر؛ جملة (ينفع) في محلِّ جرٍّ لإضافة (يوم) إليها، ويجوز بناء (يوم) على الفتح لإضافته إلى جملة^(٤).

٢. لدى إعرابه لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٥)، قال القَيْصَرِيُّ: (يومًا): منصوب بنزع الخافض، أي: على المفعول به أو المفعول فيه، والتقدير على الأول: واتقوا في الدنيا مقابل يوم ترجعون فيه، وعلى الثاني: واتقوا عذاب الله يومًا ترجعون فيه^(٦).

٣. في أثناء حديثه عن (الواو) في الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٧)، والتي صنفها ابن هشام تحت نوع الواو الزائدة، ثم أشار إلى رأي واحد فقط - وهو لبعض النحاة الذين ذهبوا إلى كونها عاطفة، وعندها يكون جواب الشرط محذوف، زاد القَيْصَرِيُّ بقوله: وقيل: إنّها حالية، وقيل: إنّها بمعنى (مع)^(٨).

ومن هذه الأمثلة نلمس جليًّا حرص القَيْصَرِيِّ على إطلاع طالب العلم على مختلف آراء النحاة، وهو ما يوحى بسعة اطلاعه، وكذلك بمرونته في استعداده الدائم لسبر غور الآراء ودراستها وتدبرها.

١- سورة البقرة ٩٦/٢. انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٨٦.

٢- الفضيض ١٣٢. وقد وردت في التحقيق: (ولو قال: ويودّ لكان لو يودّ لكان أنسب)، والصحيح ما أثبتناه. انظر: مخطوطة الفضيض ٤١.

٣- سورة المائدة ١١٩/٥.

٤- انظر: الفضيض ٢٤. وانظر: التصريح على التوضيح ١/٧٠٥، ٧٠٦.

٥- سورة البقرة ٢٨١/٢.

٦- انظر: الفضيض ٢٩، ٣٠.

٧- سورة الزمر ٧٢/٣٩.

٨- انظر: الفضيض ١٥٠.

المقصد الثاني: عَرَضُهُ لمسائل الإعراب وآراء النحاة من دون ترجيح

ونلاحظ ذلك بشكل واضح في مثل قوله:

١. اعلم أنّ النحاة اختلفوا في جازم جواب الشرط، فقال بعضهم: هو أداة الشرط فقط، وقال بعضهم: هو فعل الشرط فقط، وقال بعضهم: هو الأداة والفعل معاً^(١).
٢. الاسم الموصول وصلته معاً، أو الاسم الموصول وحده - فقط - يكون في محل الرفع أو النصب أو الجر^(٢).
٣. (إذا) الفجائية: حرف مفاجأة، فلا يحتاج إلى جواب، وهي ظرف مكان عند المبرد، وظرف زمان عند الزجاج، واختار المصنّف الأول^(٣)، من دون أن يعلق على هذه الآراء بشيء.

المقصد الثالث: ترجيحه وحسمه لبعض الآراء

١. إعراب (خمسة عشر) علماً على المحلّ باعتباره مبنياً جائز، ولكنّ إعرابه على أنه ممنوع من الصرف هو الأصح^(٤).
٢. ذهابه إلى إعراب الاسم المعرب المضاف إلى ياء المتكلم دوماً إعراباً تقديرياً، في كلّ أحواله: الرفع والنصب والجرّ. وعدّه الأصح، ثم عَقَّب بقوله: وإنّ ذهب بعضهم إلى إعرابه إعراباً لفظياً في حالة الجرّ؛ لوجود الكسرة فيها^(٥).
٣. إعرابه للاسم الموصول مع صلته معاً^(٦)، وذلك في أثناء إعرابه لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٧)، حيث قال القيصريّ: (الَّذِينَ): اسم الموصول مع صلته (خَلَوْا) في محلّ الجرّ؛ لإضافة (مَثَلُ) إليها، فلا تغفل. وهو بقوله: (فلا تغفل)^(٨) يشعر باختياره لهذا الإعراب وميله له، مع أنه نفسه قد أشار إلى الإعرابين قبل ذلك بقليل، ومن دون ترجيح^(٩).

١- وأمّا فعل الشرط، فمجزوم بالأداة باتفاق. انظر: الفيض ٢٦.

٢- انظر: الفيض ٤٢.

٣- انظر: الفيض ٨٤.

٤- انظر: الفيض ٨.

٥- انظر: الفيض ٧.

٦- انظر: الفيض ٥٦، ٧٣، ١١١.

٧- سورة البقرة ٢/٢١٤.

٨- انظر: الفيض ٤٣.

٩- انظر: الفيض ٤٢.

٤. قوله: (كَلَّا): بفتح الكاف وتشديد اللام، وهي على أصلها، وليست مركبة، وقيل: هي مركبة؛ لأنَّ أصلها (لا كذا)، فقُدِّمَت الكاف وحُدِّفَت الذال، وشُدِّدَ (لا) عوضًا عن المحذوف. والصحيح الأوَّل^(١).

٥. «واو» رُبَّ لها صدر الكلام على الأصح^(٢).

ولا يملك الناظر في هذا الشرح إلا أن يشعر بموضوعية القَيْصَرِيِّ وتلقائيته، والذي ينم عن صدق وتواضع، فانظر مثلا إلى قوله: «الياء في الحالية والمفعوليَّة للمصدرية، أي: كون الشيء حالًا ومفعولًا للنسبة والمبالغة؛ لأنَّ ياء النسبة مع تاء التأنيث إذا لحقت في آخر كلمة تفيد معنى المصدر، كذا قيل»^(٣). فقوله: (كذا قيل) - من دون ترجيح أو حتى تعليق - يوحي ببعده عن التكلف، فهو لا يتكلف رأياً عندما لا يجد شيئاً يستحق الإدلاء به، ويوحي ذلك أيضاً بأمانته ودقته في عرض هذا العلم وتدريسه.

وتميز القَيْصَرِيُّ كذلك بقسط كبير من المرونة، ونلمس ذلك مما سبق من الأمثلة، وكما فعل عندما ذهب يشرح معنى كلمة (تبيهه) فقال: نُبِّهت تشبيهاً، في اللغة: هي الدلالة على ما غفل عند المخاطب، وفي الاصطلاح: ما يُفهم من مجمل بأدنى تأمل، وقيل: هي قاعدة تعرف بها الأبحاث الآتية مجملة، وقيل: استحضار ما سبق، انتظار ما سيأتي، وقيل: هي إعلام ما في ضمير المتكلم للمخاطب، ثم أردف قائلاً: خذ ما شئت^(٤). ففي قوله (خذ ما شئت) إيحاء واضح بمرونته وحرصه على إطلاع الطالب على التنوع.

ونخلص إلى أن مذهب القَيْصَرِيِّ هو الدليل، فلم يتَّبِع مدرسة بعينها، ولا عالماً محدداً، وإنما اتَّبَعَ الدليل والحجة والبرهان، وهي سُنَّةُ عامة المتأخرين من النحاة، رحمة الله تعالى عليه وعلى سائر العلماء الكرام.

المبحث الثالث

الفُضِيضُ فِي الْمِيزَانِ

نأتي في هذا المبحث إلى دراسة هذا الشرح بين بعض الشروح التي دارت حول كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب، والذي نعرضه في مطلبين اثنين، ندرس في الأوَّل منهما مسألة

١- انظر: الفضيض ١٠١.

٢- الفضيض ١٤٨. ذهب القَيْصَرِيُّ إلى هذا الرأي وأردف مباشرة: هذا مذهب الكوفيين، فإنهم قالوا: إنها حرف عطف، ثم صارت قائمة مقام (رُبَّ)، وجارة بنفسها؛ لصيرورتها بمعنى (رُبَّ)، فلا يقدرُون لها معطوفاً عليه؛ لأنَّ ذلك تعسف.

٣- الفضيض ٢١.

٤- انظر: الفضيض ٧٥.

تأثره بالشروح الأخرى، وفي الثاني نوازن بين الفضيض وبين ثمانية شروح سبقته.

المطلب الأول: من تأثر بهم القيصري في شرحه

لا بد أن يتأثر الإنسان بمن سبقوه، وهو أمر إيجابي ولا شك، ويبدو أن القيصري قد تأثر بشكل واضح بشرحين سبقاه، وهما شرح قواعد الإعراب للكافيجي، وشرح قواعد الإعراب للقوجوي، وسنعرض إلى ذلك في المقصدين الآتيين:

المقصد الأول: تأثره بالكافيجي

برز تأثر القيصري الواضح والجلي في شرحه هذا بالكافيجي في شرحه الشهير، وذلك في مواطن كثيرة في شرحه، ربما يصعب حصرها تمامًا، كان القيصري ينقل في الكثير منها نقلًا حرفيًا، ومن هذه المواطن قول القيصري:

١. متحدثًا عن لفظ الجلالة: «ألا ترى أن الإيمان اختص بهذا الاسم، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)»^(١) مع أن الإيمان بجميع الصفات واجب»^(٢)، وهو الكلام نفسه الذي جاء به الكافيجي، والاختلاف الوحيد هو قول الكافيجي: (النبى عليه السلام)^(٣) بدلا من (قال صلى الله عليه وسلم).

٢. جليلة: أي عظيمة كثيرة، يقال: (ما أجلني ولا أدقني)، أي: ما أعطاني كثيرا ولا قليلا»^(٤). والقول نفسه تقريبا لدى الكافيجي، والذي جاء تفسيرًا للكلمة نفسها، وهي كلمة (جليلة)^(٥).

٣. «الأول: هو نقيض الآخر، أصله (أوأل)، على وزن (أفعل)، فقلبت الهمزة الثانية وأوا، ثم أدغمت، وقيل: أصله (وؤل) على (فوعل)، فقلبت الواو الأولى همزة»^(٦). والكلام نفسه تقريبا عند الكافيجي»^(٧).

٤. «في معرفة الجملة: من حيث كونها: اسمية، وفعلية، وشرطية، وابتدائية، وظرفية،

١- انظر: سنن الترمذي (رقم ٣٢٤١) ٤٣٩/٥ وسنن الدارمي (رقم ١٠) ٢٨٧/٢ وصحيح ابن حبان (رقم ١٧٤) ٣٩٩/١ وسنن الدارقطني (رقم ٢) ٨٩/٢ وسنن البيهقي الكبرى (رقم ٧١١٦) ١٠٤/٤ وشعب الإيمان (رقم ٩٠) ١٠٦/١ والجمع بين الصحيحين (رقم ٢١٧١) ٨/٣.

٢- انظر: الفضيض ٢، ٤.

٣- انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٢٨، ٢٩.

٤- الفضيض ٥.

٥- انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٤٤.

٦- الفضيض ١٢.

٧- انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٦١.

واعتراضية، وغيرها»^(١). وقد ورد الكلام نفسه تقريباً لدى الكافيجي^(٢).

٥. «المراد منه (أي من اللفظ المفيد) هنا: هو اللفظ المركب من كلمتين فصاعداً بالإسناد، سواءً كان خبرياً أو إنشائياً»^(٣). وانظر إلى شبه التطابق بين هذا الكلام وقول الكافيجي: «اللفظ المفيد هنا هو اللفظ المركب من كلمتين فصاعداً، أسند إحداهما إلى الأخرى مطلقاً، سواءً كان خبرياً أو إنشائياً»^(٤)، ما يوحي بشبه النقل الحرفي.

٦. «نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾^(٥) بمعنى الإيقاظ، والمراد منهم أصحاب الكهف، ﴿لِنَعْلَمَ﴾: اللام للتعليل، وعند الأشاعرة: لام العاقبة أو لام (الحكمة)^(٦)، و«نعلم» منصوب بـ(أَنْ) المضمره^(٧). وهو اقتباس تام من قول الكافيجي: «نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم، أي: أصحاب الكهف... ﴿لِنَعْلَمَ﴾: اللام فيه للتعليل، وعند الأشاعرة: مثل هذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الحكمة، و«نعلم» منصوب بـ(أَنْ) مضمره»^(٨).

٧. قال بعض الأفاضل: إن من أعجب عجائب الكلمات كلمة (لَمَّا)، فإنها إذا دخلت على الماضي تكون ظرفاً، وإذا دخلت على المضارع تكون حرفاً، وإذا دخلت على غيرهما تكون بمعنى (إلا)، وفيه ما فيه»^(٩). وهو مأخوذ بالضبط من الكافيجي^(١٠).

بل وصل تأثر القيصري بالكافيجي إلى الحد الذي نقل عنه بعض الإشارات الثانوية، نحو إشارته إلى اختلاف النسخ، فقال: «الأيرى أن نحو: قام زيد من (قولك)، وفي بعض النسخ (قولنا)، والثاني مناسب لـ(نعني)، والأول لـ(اعلم)، فاختر ما شئت»^(١١)، وهو مقتبس تماماً من قول الكافيجي: «وقع في بعض النسخ (قولنا) مقام (قولك)، فالثاني مناسب لقوله: (ونعني بالمفيد)، والأول متصل بقوله: (اعلم)، فيكون أولى»^(١٢).

١- الفضيض ١٣.

٢- انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٦٢.

٣- الفضيض ١٤.

٤- شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٦٦.

٥- سورة الكهف ١٨/١٢.

٦- وليس (الملكية) كما ذهب المحقق الكريمة. انظر: مخطوطة الفضيض ١٩.

٧- الفضيض ٢٢.

٨- شرح قواعد الإعراب للكافيجي ١٠٢.

٩- الفضيض ٩٠.

١٠- انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٢٩٥.

١١- الفضيض ١٥.

١٢- شرح قواعد الإعراب للكافيجي ٦٩. وانظر كلام ابن هشام في متن كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب ٣٥.

ونخلص إلى أنّ القَيْصَرِيَّ نقل الكثير الكثير من الكافِيَجِيَّ، وتأثر به إلى حدٍّ بعيد، بأكثر من تأثره بالقُوجَوِيَّ بشكل واضح وجليّ، وليس كما ذهب محققة شرح الفضيض الكريمة إلى أنّ تأثره بالقُوجَوِيَّ كان الأكثر والمقدم على من سواه^(١).

المقصد الثاني: تأثره بالقُوجَوِيَّ

تأثر القَيْصَرِيَّ بالقُوجَوِيَّ بشكل واضح أيضًا، ولكن بقدر أقل من تأثره بالكافِيَجِيَّ، ومن الأمثلة على ذلك قول القَيْصَرِيَّ:

١. «الإمام: أي المقتدى به من حيث العلم والعمل»^(٢). وقد ورد القول نفسه لدى القُوجَوِيَّ^(٣).

٢. التوفيق: وهو استعداد الإقدام على الشيء، وقيل: جعل الله فعلَ عبده موافقًا لما يُحِبُّه ويرضاه، وقيل: موافقة تديبر العبد لتقدير الحق^(٤). والأقوال نفسها عند القُوجَوِيَّ^(٥).

٣. «الأول: هو نقيض الآخر، أصله (أَوَّل)، على وزن (أفعل)، فقلبت الهمزة الثانية واوًا، ثم أدغمت، وقيل: أصله (وَوَّل) على (فوعَل)، فقلبت الواو الأولى همزة»^(٦). والكلام نفسه عند القُوجَوِيَّ^(٧).

٤. «ابن درستويه: (درست) لفظ أعجمي مركب مع (ويه)، وفي القاموس: كل اسم ختم بويه كسيبويه»^(٨). وهو منقول حرفيًا من القُوجَوِيَّ^(٩).

٥. «قال الفارسي: إنّ المصادر تقع في الأزمان، فيجعل لسعة الكلام زمان»^(١٠). والقول نفسه عند القُوجَوِيَّ^(١١).

٦. «قول الكريم الخالق: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(١٢) بعد قوله تعالى: ﴿مَثَلِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذا من تشبيه الغريب إلى الأغرّب؛ لأنّ الوجود من غير أب أو أم أغرب

١- انظر: الفضيض ٢٧، ٢٨، ٤٢، ٤٤ (الدراسة).

٢- الفضيض ٤.

٣- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجَوِيَّ ٧.

٤- انظر: الفضيض ١١.

٥- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجَوِيَّ ٩.

٦- الفضيض ١٣.

٧- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجَوِيَّ ٩.

٨- الفضيض ٣٦.

٩- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجَوِيَّ ٤٠.

١٠- الفضيض ٩٤.

١١- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجَوِيَّ ٩٨.

١٢- سورة آل عمران ٥٩/٣.

وأحرق للعادة من الوجود من غير أب»^(١). والكلام مقتبس بالضبط من القُوجوي^(٢).
ومن الإشارات التي تؤكد عودته إلى القُوجويّ ذكره لبعض المصطلحات التي جاء على
ذكرها القُوجويّ، نحو المنطقيين^(٣).

وقد أشارت محققة شرح الفضيض إلى تأثير القيصريّ الكبير بشرح قواعد الإعراب
لمحمد بن مصطفى القُوجويّ شيخ زاده (ت ٩٥٠هـ.)، وذكرت وجود تشابه كبير بينهما، خرجت
فيه بنتيجة مهمة، وهو أنّ شرح قواعد الإعراب للشيخ زاده هو المصدر الأول والمرجع الرئيس
للقيصريّ في شرحه هذا، على الرغم من أنّ القيصريّ لم يأت على ذكره البتة، وقد أكدت انتشار
نقولته من شيخ زاده من أول الفضيض إلى آخره، ما بين النقل الحرفي، والنقل المتصرف فيه،
وما دَعَم رأيا هذا أنّها استعانت كثيرا بشرح زاده في قراءة كلمات كانت مطموسة وغامضة في
شرح الفضيض، ثم ساقّت أمثلة على ذلك^(٤).

ونحن نتفق مع المحققة في تأثير القيصريّ كثيرا بالقُوجويّ، ولكن تأثره بالكافيجي كان
أكثر، ولذلك، فإنّ المصدر الذي يفوز بالمرتبة الأولى من حيث تأثيره في الفضيض هو شرح
الكافيجي، وليس شرح القُوجويّ كما ذهب محققته الكريمة.

المطلب الثاني: الموازنة

يبرز هذا المطلب مكانة هذا الشرح ودرجة أهميته، وذلك من خلال الموازنة بينه وبين
ثمانية شروح أُلّفَت حول كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب^(٥)، وكلها سابقة عليه، ونعرض هذه
الموازنة فيما يأتي:

المقصد الأول: الموازنة في المنهج

نكتفي في هذا المقصد بعرض الموازنة بين المناهج على صورة جدول مختصر، حيث يلقي
الضوء إلى حدٍّ ما على كيفية تناول هؤلاء العلماء لشروحهم السالفة الذكر، وذلك كما في الجدول
الآتي:

-
- ١- الفضيض ٤٣.
 - ٢- انظر: شرح قواعد الإعراب للقُوجويّ ٤٨. وقد ورد الكلام نفسه عند الكافيجي في شرحه. انظر: شرح قواعد الإعراب للكافيجي
١٨٠، ١٨١.
 - ٣- انظر: الفضيض ١٨ وشرح قواعد الإعراب للقُوجويّ ١٦.
 - ٤- انظر: الفضيض ٢٧، ٢٨، ٤٣، ٤٤ (الدراسة).
 - ٥- وكنت قد أجريت موازنة مفصلة حول هذه الشروح الثمانية، حيث كانت مدار دراستي في أطروحة الدكتوراة عام ٢٠١٢م،
وهأنذا أقوم بدراسة هذا الشرح التاسع لنتم الفائدة بإذنه تعالى. انظر: قواعد الإعراب وشروحه ١٩٦-٢١٦.

جدول (١): الموازنة بين مناهج الشراح

م.	البند المقارن	أَقْرَبُ المَقاصِدِ	أَوْثَقُ الأَشْبابِ	حواشِي المَحَلِّيِّ	شرح الكافيحِي	شرح تَعْلِيْقِ لَطِيْفِ	مُوَصَّلِ الطُّلابِ	شرح التَّوَجُّوِيِّ المُعَاقِدِ	حَلِّ الْفَضِيضِ
١.	صورة المتن في الشرح	ممزوج	ممزوج	ناقص	ممزوج جدا	ممزوج جدا	ممزوج	ممزوج جدا	ممزوج جدا
٢.	الرجوع إلى النسخ	قليل	لم يعد	لم يعد	كثير	نادر	قليل	متوسط	نادر
٣.	ضبط المفردات	قليل	متوسط	قليل	كثير	متوسط	كثير	كثير	قليل
٤.	شرح المفردات	كثير	كثير	كثير	كثير جدا	كثير	كثير	قليل	كثير
٥.	ذكر الحدود والتعريفات	قليل	كثير	قليل	كثير جدا	كثير	متوسط	متوسط	قليل
٦.	حضور أفاظ المعلمين	قليل	كثير	كثير	كثير	قليل	قليل	كثير	قليل
٧.	أسلوب الحوار	كثير	كثير جدا	كثير	كثير جدا	قليل	قليل	كثير	قليل
٨.	صيغة السؤال والجواب	نادر	كثير	كثير	كثير	قليل	نادر	نادر	نادر
٩.	النقل من الآخرين	كثير	كثير جدا	كثير جدا	نادر	كثير جدا	متوسط	كثير	كثير
١٠.	تحديد مواضع النقل	قليل	قليل	كثير	نادر	كثير	متوسط	كثير	قليل
١١.	الاستطراد والإطالة	متوسط	كثير	قليل	كثير	كثير جدا	نادر	متوسط	قليل
١٢.	إعراب شواهد المصنف	متوسط	قليل	قليل	كثير جدا	كثير جدا	قليل	متوسط	قليل
١٣.	إعراب متن المصنف	لا يعرب	لا يعرب	نادر	كثير	كثير	نادر	كثير	نادر
١٤.	استيفاء المسائل	كثير	كثير جدا	نادر	كثير	كثير	متوسط	كثير	كثير
١٥.	التنبية على الأخطاء	قليل	قليل	نادر	قليل	قليل	قليل	نادر	قليل
١٦.	الربط مع العلوم الأخرى	قليل	كثير	قليل	متوسط	متوسط	قليل	متوسط	قليل
١٧.	الإحالة إلى كتب أخرى	قليل	متوسط	نادر	لم يُجَلِّ	لم يُجَلِّ	لم يُجَلِّ	لم يُجَلِّ	نادر
١٨.	الحث على البحث	خافت	كثير جدا	نادر	نادر	نادر	لم يَفْعَلْ	خافت	قليل

المقصد الثاني: في الشواهد

تنقسم الشواهد الواردة في هذه الشروح إلى قسمين، فالأول يعود إلى ابن هشام نفسه، والثاني أضافه الشُّراح في أثناء شرحهم لمتن المصنف.

وسوف نبين هنا عدد شواهد ابن هشام الحاضرة في كل شرح، إذ لم تحضر كل هاتيك الشواهد كاملة في أي شرح من الشروح، وسنذكر عدد الشواهد التي جاء بها كل شارح من عنده، ثم سنذكر مجموع الشواهد للمصنف والشارح معاً، وسنرتب هذه الشروح من الأكثر إلى الأقل في

كل تصنيف من التصنيفات الثلاثة، كما سنرى ذلك في الجدول الآتي:

جدول (٢): الموازنة بين أعداد الشواهد الكلية

٠م	الشروح مرتبة من الأقدم إلى الأحدث زمانياً	عدد الشواهد الواردة في الشرح			ترتيب الشروح تنازلياً من حيث عدد الشواهد	
		للمصنّف	للمصنّف	لكليهما	للمصنّف	للكليهما
١	أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ	١٧١	٢٦٥	٤٣٦	تَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ	تَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ
٢	أَوْثَقُ الْأَسْبَابِ	١٥٦	٩٩	٢٥٥	مُؤَصِّلُ الطَّلَابِ	حَلُّ الْمَعَاوِدِ
٣	حَوَاشِي الْمَحَلِّيِّ	٥٩	١٤٢	٢٠١	تَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ	أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ
٤	شَرْحُ الْكَافِيَجِيِّ	١٦٣	٢٢٤	٣٩٧	شَرْحُ الْكَافِيَجِيِّ	شَرْحُ الْكَافِيَجِيِّ
٥	تَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ	١٦٨	٣١٤	٤٨٢	حَلُّ الْمَعَاوِدِ	حَوَاشِي الْمَحَلِّيِّ
٦	مُؤَصِّلُ الطَّلَابِ	١٧١	٧٠	٢٤١	شَرْحُ الْقَوَجَوِيِّ	أَوْثَقُ الْأَسْبَابِ
٧	شَرْحُ الْقَوَجَوِيِّ	١٥٧	٩١	٢٤٨	أَوْثَقُ الْأَسْبَابِ	شَرْحُ الْقَوَجَوِيِّ
٨	حَلُّ الْمَعَاوِدِ	١٥٨	٢٦٩	٤٢٧	الْفَضِيضُ	مُؤَصِّلُ الطَّلَابِ
٩	الْفَضِيضُ	١٥٦	٤٧	٢٠٣	حَوَاشِي الْمَحَلِّيِّ	الْفَضِيضُ

يمكننا أن نقرأ أموراً عدة من خلال هذا الجدول، ومن ذلك:

١. جاء الفَضِيضُ منسجماً مع غيره من الشروح في حجم حضور شواهد ابن هشام، ومع أنه الأقل، إلا أنه شابه أوثق الأسباب في العدد نفسه.
٢. جاء الفَضِيضُ في ذيل القائمة من حيث غزارة الشواهد التي أضافها الشارح، فكانت هي الأقل بين الشروح كافة.
٣. نسبة ما أضافه القَيْصَرِيُّ من شواهد من عنده إلى ما أضافه البُصْرَوِيُّ هي (١) إلى (٦، ٧)، أي ما يقارب سبعة الأضعاف، ما يدل على قلة ما أضافه القَيْصَرِيُّ من شواهد على شرحه.

نتنقل إلى عرض أحوال شواهد ابن هشام في قواعد الإعراب، من حيث حضورها في الشروح أو سقوطها منها، ثم نذهب إلى الإشارة إلى أحوال شواهد الشراح التي أضافوها إلى هذه الشروح:

أولاً: شواهد ابن هشام في الشروح

نعرض هنا إلى الموازنة بين شواهد ابن هشام في قواعد الإعراب وحضورها في الشروح أو سقوطها منها، وسوف نبين عدد شواهد ابن هشام الحاضرة في كل شرح، إذ لم تحضر كل هاتيك الشواهد كاملة في أي شرح من هذه الشروح التسعة التي نعرض لها في هذه الموازنة، فقد حضر الحديثان فقط في الشروح كلها، واكتمل حضور سبعة الأقوال المأثورة في ثلاثة شروح فقط، وهي: أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ، وَتَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ، وَمَوْصِلُ الطُّلَابِ، وجاءت العشرون بيتاً شعرياً كاملةً في شرحين فقط، وهما: أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ، وَمَوْصِلُ الطُّلَابِ، أما الشواهد القرآنية لابن هشام، فلم يكتمل حضورها في أي شرح من الشروح، كما يتضح ذلك كله في الجدول الآتي:

جدول (٢): الحاضر من شواهد قواعد الإعراب لابن هشام في الشروح

الشروح مرتبة من الأقدم إلى الأحدث زمنياً									قواعد الإعراب لابن هشام	الشواهد
الْفَضِيضُ	حَلُّ الْمَعَاوِدِ	شرح التَّوَجُّوِيِّ	مَوْصِلُ الطُّلَابِ	تَعْلِيْقُ لَطِيْفٍ	شرح الكافيَجِيِّ	حواشي المَحَلِّيِّ	أَوْتَقُّ الْأَسْبَابِ	أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ		
١٣٣	١٣٤	١٣٣	١٤٢	١٤١	١٣٨	٤٤	١٣٣	١٤٢	١٤٣	الشواهد القرآنية
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	شواهد الحديث
١٧	١٧	١٧	٢٠	١٨	١٧	٧	١٦	٢٠	٢٠	الشواهد الشعرية
٤	٥	٥	٧	٧	٦	٦	٥	٧	٧	الأقوال المأثورة
١٥٦	١٥٨	١٥٧	١٧١	١٦٨	١٦٣	٥٩	١٥٦	١٧١	١٧٢	المجموع

أما ترتيب الشروح من حيث حضور شواهد ابن هشام فيها، فقد سبقت الإشارة إليه في بداية هذا المقصد في (جدول ٢).

ثانياً: الشواهد التي أضافها الشراح

ونأتي في هذا المقصد إلى الموازنة بين شواهد الشراح التي أضافوها - سوى شواهد ابن هشام الواردة في متن قواعد الإعراب، والتي تباينت أعدادها بين شرح وآخر، ولكنها حافظت على التوازنات النسبية بين الشروح، فظل الاستشهاد بالحديث الشريف قليلاً بالمقارنة مع الاستشهاد بالقرآن الكريم، وتقدم الاستشهاد بالقرآن الكريم على الاستشهاد بالشعر، حيث اقتضى الشراح آثار ابن هشام الأنصاري في هذا الصدد، أما حال الاستشهاد بالحكم والأمثال والأقوال المأثورة، فهي على حالها عند ابن هشام، كما هو الحال لدى سائر النحاة في ميدان النحو. ونستطيع قراءة

ذلك كله، وغيره بإذنه تعالى، من خلال الاطلاع على الجدول الآتي:

جدول (٤): شواهد الشراح التي أضافوها في شروحهم

الشروح مرتبة من الأقدم إلى الأحدث زمنياً									الشواهد
أَقْرَبُ المَقاصِدِ	أَوْتَقَّ الأسباب	حواشي المَحَلِّي	شرح الكافيِّجِي	تَعْلِيْقُ لَطِيْف	مُوصِّلُ الطلاب	شرح التَّوَجُّوِي	حَلَّ المُعاقِدِ	الفَصِيْحُ	
١٧٢	٤٦	٩٤	١٢٤	٢٢٥	٤٠	٦٧	١٩٥	٣١	الشواهد القرآنية
٧	٥	٥	١٢	١٧	٢	٢	٩	٤	شواهد الحديث
٨٢	٤٠	٣٩	٧٦	٥٨	٢٧	١٥	٥٨	٧	الشواهد الشعرية
٤	٨	٤	١٢	١٤	١	٧	٧	٥	الأقوال المأثورة
٢٦٥	٩٩	١٤٢	٢٣٤	٣١٤	٧٠	٩١	٢٦٩	٤٧	المجموع

أما ترتيب الشروح من حيث أعداد الشواهد التي أضافها الشراح، فقد سبقت الإشارة إليه في بداية هذا المقصد في (جدول ٢).

المقصد الثالث: في المصادر

نأتي في هذا المقصد إلى الموازنة بين أعداد المصادر في كل شرح من الشروح التي ندرسها في هذا البحث، مع الانتباه إلى أن هذه المصادر تنقسم إلى قسمين اثنين، فالأول يعود إلى ابن هشام، وهي المصادر التي أوردها هو نفسه في الإعراب عن قواعد الإعراب، ثم أثبتها الشراح في أثناء تأليفهم لشروحهم، أو أثبتوا معظمها على الأقل، والقسم الثاني، هو المصادر التي استدعاها الشراح أنفسهم، سوى مصادر ابن هشام الواردة في متن قواعد الإعراب.

وسنعرض إلى هذين القسمين في البندين الآتيين:

أولاً: الموازنة بين الشروح من حيث حضور مصادر ابن هشام

لم يكتمل حضور مصادر ابن هشام -الواردة في قواعد الإعراب- إلا في شرحين فقط، وهما: أقرَّب المَقاصِدِ، ومُوصِّلُ الطُّلابِ، أما سائر الشروح الأخرى، فقد سقط شيء من مصادر ابن هشام في كل واحد منها، كما نلاحظ ذلك في الجدول الآتي، مع الانتباه إلى أننا احتسبنا عدد المرات التي ورد فيها اسم المصدر:

جدول (٥): حضور مصادر ابن هشام في الشروح

المصادر	الإعراب لابن هشام	عدد المرات الواردة لأسماء مصادر ابن هشام في								
		أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ	أَوْثَقُ الْأَسْبَابِ	حَوَاشِي الْمَحَلِّيِّ	شَرْحُ الْكَافِيَجِيِّ	تَعْلِيْقُ لَطِيْفِ	مَوْصُلُ الطَّلَابِ	شَرْحُ التَّوَجُّوِيِّ	حَلَّ الْمَعَاوِدِ	الْفَضِيضُ
الأعلام	٤٢	٤٢	٣٥	١٢	٣٢	٤١	٤٣	٢٧	٢٢	٢٤
الكتب	١	١	١	—	١	١	١	١	١	١
القبائل	٣	٢	٣	٢	٢	٣	٣	٣	٢	٢
المجموع	٤٧	٤٧	٣٩	١٥	٣٦	٤٥	٤٧	٤١	٣٦	٢٧

ونلاحظ من خلال هذا الجدول أنّ كتاب التسهيل لابن مالك الطائفي قد حضر في الشروح كلها سوى حواشي جلال الدين المحلّي، أمّا أسماء العلماء، وكذلك أسماء بعض القبائل، فقد سقط بعضها في معظم الشروح، ولم يكتمل حضور المصادر كلها إلا في شرحين اثنين فقط، كما ذكرنا أعلاه، وكما هو واضح من هذا الجدول.

ونلاحظ هنا أنّ حضور مصادر ابن هشام كانت أحسن حالا في الفضيض منها في ثلاثة شروح، وهي: حواشي المحلّي، وشرح الكافيَجِيّ، وحلّ المعاهد؛ ما يوحي بحرصه على استيفاء المتن المشروح، وحضور عناصره، وهي ملاحظة تحسب للقيصريّ.

ثانياً: الموازنة بين أسماء العلماء الذين أضافهم الشراح من عندهم

ونأتي أخيراً إلى المقارنة بين هذه الشروح بالنسبة لأسماء العلماء التي أضافها الشراح، غير تلك الأسماء التي اعتمد عليها ابن هشام في كتابه قواعد الإعراب، وقام الشراح بإثباتها في أثناء تأليفهم لشروحهم.

وفي أثناء موازنتنا بين أعداد العلماء في كل شرح، سنحتسب التكرار لكل عالم، على أن تشمل هذه الموازنة على أصنافهم العشرة، كما صنفناهم في مطلب المصادر، وذلك على الصورة الآتية:

جدول (٦): الموازنة بين أعداد العلماء بين الشروح

م.م	الاسم	عدد المرات الواردة لأسماء العلماء في									
		أَقْرَبُ الْمَقَاصِدِ	أَوْثَقُ الْأَسْبَابِ	حَوَاشِي الْمَحَلِّيِّ	شَرْحُ الْكَافِيَجِيِّ	تَعْلِيْقُ لَطِيْفِ	مَوْصُلُ الطَّلَابِ	شَرْحُ التَّوَجُّوِيِّ	حَلَّ الْمَعَاوِدِ	الْفَضِيضُ	الشروح كافة
١.	النحاة	٢٢٦	٤٩٤	١٤٨	٢٦٥	٧٢٥	١٢٨	٣٨٨	١١٩	٩٢	٢٥٨٥
٢.	اللغويون	٩	١٧	١	١٨	٢٢	٢	١٨	٣	٧	٩٨

٤٩	١	٣	٢	٢	١٦	٤	٧	٦	٨	٣. الأدياء
٢٩	٢	٣	١١	-	٢	٢	٦	٣	-	٤. البلاغيون
٣	-	-	-	-	-	-	-	٢	١	٥. المتكلمون
٢٢٢	٣	٦	١٢	٢٣	٥٢	١٢	١٠	٣٥	٥٩	٦. القراء
١٤٦	٤	٧	١٤	١٣	٢٧	١٩	١٨	٣٣	١١	٧. المفسرون
٤٦	٥	١	٤	١	١٤	٣	٤	٧	٧	٨. الفقهاء
٣٥	-	-	٤	٣	١٣	-	٣	٥	٧	٩. المُحدِّثون
٨٩	١١	٧	٩	٤	٢٢	٨	٧	١٢	٩	١٠. الصحابة
٢٣٠٢	١٢٥	١٤٩	٤٦٢	١٨٧	٨٩٣	٣٢١	٢٠٤	٦١٤	٣٢٧	المجموع الكلي للعلماء
%١٠٠	%٣,٨	%٤,٥	%١٤	%٥,٧	%٢٧	%١٠	%٦,٢	%١٨,٦	%١٠,٢	النسبة المئوية لكل شرح من المجموع العام
	التاسع	الثامن	الثالث	السابع	الأول	الخامس	السادس	الثاني	الرابع	الترتيب من الأعلى إلى الأدنى

نلاحظ ذلك الفرق بين الحضور الكبير لأسماء العلماء في أغلب الشروح السابقة، وبخاصة تعليق لطيف، ثم أوثق الأسباب، وذلك الحضور الخفيض لها في الفضيض، ما يدل على قلة حرص القيصري على عزو الآراء إلى أصحابها، وكثيراً ما كان يستعمل عبارة: قال بعضهم^(١)، أو: النحويون^(٢)، أو النحاة^(٣).

ولكن ذلك لا يعني أنه ابتعد تماماً عن العزو، فإذا كان أقل من العزو الخاص إلى العلماء، فقد أكثر من العزو العام إلى البصريين^(٤) تارة، وإلى الكوفيين^(٥) تارة أخرى، كما عزا إلى الجمهور^(٦).

خاتمة البحث

١. لا زال القيصري يحتاج إلى مزيد من البحث للتعريف به، إذ إن ما وصلنا إليه لا يزال غير

كاف لإضاءة شخصيته والتعريف بها.

١- انظر: الفضيض ٢٦، ٥٢، ٥٤، ١٢٦، ١٦٠، ١٦٦.

٢- انظر: الفضيض ١٤، ٦٧، ١٢٤، ١٢٩، ١٧٤.

٣- انظر: الفضيض ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٧١، ٧٢، ٨٣، ٨٧، ١٠٢، ١١٥، ١١٨، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٦، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٥.

٤- انظر: الفضيض ٧٤، ٨٣، ٩٣، ٩٩، ١٠٣، ١٠٧، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩.

٥- انظر: الفضيض ٢٨، ٧٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٧.

٦- انظر: الفضيض ٣٧، ٩٨.

٢. تميز شرح الفضيض ببعض المزايا والفوائد رغم قصره واختصاره، ورغم مجيئه في ذيل الشروح من حيث الأهمية، حسبما نراه من خلال هذه الدراسة.
٣. لم يختلف القيصري عن سائر الشراح في منهجه في شرحه هذا.
٤. جاءت شواهد القيصري متواضعة قياساً بالشروح الأخرى.
٥. جاءت مصادر القيصري متواضعة قياساً بالشروح الأخرى.
٦. ذهب القيصري وراء الدليل والحجة والبرهان، ولم يلتزم مدرسة بعينها، أو مذهباً خاصاً، كما هو دأب عامة المتأخرين.
٧. ذهب القيصري إلى أن عدد الكلمات الواردة في الفصل الثالث في كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام الأنصاري هي إحدى وعشرون كلمة، وهو الوحيد بين تسعة شراح اطلعت على شروحهم قال بذلك، إذ ذهبوا كلهم مع المصنف إلى أنها عشرون كلمة، ثم حاول القيصري أن يفسر ذلك فقال: والحال أن المصنف قال: وهي عشرون كلمة، لكن لعل لفظ (إحدى) سقط من قلم الناسخ^(١). وتحسب هذه الملاحظة للقيصري رحمة الله تعالى عليه.
٨. تأثر القيصري بالصورة الأكبر بشرح قواعد الإعراب للكافيجي، وليس بشرح قواعد الإعراب للقوجوي كما ذهبت محققة كتاب الفضيض الكريمة، كما أثبتنا في مبحث التأثر والتأثير.
٩. مضى القيصري على خطى ابن هشام في تغليب الاستشهاد بالقرآن على الاستشهاد بالشعر، تماماً كما فعل سائر الشراح الذين سبقوه بشرح كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب.

١- انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ٦٣ والفضيض ١٦١ وقواعد الإعراب وشروحه ٣٤٢.

د. علاء الرواشدة

أستاذ علم الاجتماع والخدمات الاجتماعية المساعد- قسم العلوم الاجتماعية

د. عمر الربابعة

أستاذ الإدارة التربوية- قسم العلوم التربوية

أ. بثينة زهير عبد الجواد

ماجستير علم الحاسوب- قسم العلوم التطبيقية

جامعة البلقاء التطبيقية الحكومية - الأردن

ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم و البحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة

الملخص

هدفت هذه الدراسة للتعرف على ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم و البحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، في ضوء متغيرات الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية. تكوّن مجتمع الدراسة من أعضاء هيئة التدريس في جامعة (البلقاء) التطبيقية العاملين في كليات إقليم الشمال والبالغ عددهم (٤٢٢) عضو هيئة تدريس، وتكونت عينة الدراسة من (١١٠) عضو هيئة تدريس تم اختيارهم بالطريقة العشوائية، وتمّ تطوير أداة لتحقيق أهداف الدراسة، وقد تم التأكد من صدق وثبات الأداة. وتوصلت الدراسة إلى أن وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الإنترنت إيجابية بدرجة كبيرة في عملية التعليم وإعداد البحث العلمي. وأنّ هناك فروقاً دالة إحصائية عند مستوى ($\alpha = 0,05$) في مواقف أعضاء هيئة التدريس من ثقافة الإنترنت تُعزى لمتغير الخبرة ولصالح أصحاب الخبرة العالية. في حين لا يوجد فروق دالة إحصائية عند مستوى ($\alpha = 0,05$) عند أعضاء هيئة التدريس تُعزى لمتغير الكلية و متغير الرتبة الأكاديمية. وأوصت الدراسة بعمل دراسات أخرى أوسع وأشمل لبناء رؤية شاملة لمختلف مؤسسات التعليم العالي في الأردن في مجال الانترنت والتعلم الالكتروني ودورها في إعداد وتطوير البحث العلمي. ونشر الوعي بثقافة الإنترنت واستخداماتها في مجالات التعليم والتدريب والاستشارات.

«Internet culture and its role in education and scientific research from the point of view of faculty members at the university»

This study aimed at identifying the internet culture and its role in education and scientific research from the point of view of faculty members at University, According to the College, experience and the academic rank variables.

The study society included(422) members of the teaching staff who works in the northern colleges of Al Balqa applied university while the study sample consisted of (110) members of the teaching staff who are selected randomly. A tool was developed to achieve the objectives of the study, which has been to ascertain the veracity of the tool.

The results of the study showed that:

- The point of view of faculty members at university are significantly positive towards Internet culture and its role in education and scientific research.
- The existence of statistical differences at the level of $(0.05 = \alpha)$ in the situations of faculty members towards internet culture attributed to the experience, for the benefit of the highly experienced people.
- The results showed no statistical differences at the level of $(0.05 = \alpha)$ in the situation of the faculty members attributed to the college and academic rank variables

According to the results of the study the researcher recommended to make another wider and larger researches to build a comprehensive vision for higher educational institutions in Jordan in the fields of internet & electronical teaching.

مقدمة :

على الرغم من أن التلفزيون والمحطات الفضائية هي أكثر انتشاراً في العالم عموماً وفي العالم العربي خاصة إلا أن انتشار ما يسمى بالشبكة العنكبوتية فاق كل تصور حيث غلب على القنوات الفضائية وعالم التلفزيون فلم يعد مستغرباً أن يصبح الإنترنت يوماً بعد يوم الوسيلة الأسرع انتشاراً والأقوى تأثيراً ولاسيما وقد كسر الإنترنت قاعدة (المرسل والمتلقي المعمول بها في وسائل الإعلام التقليدية) لتصبح المعادلة أقرب إلى (الكل صانع للخبر والكل متلق له). حيث التعليق على الأخبار والمدونات والمنتديات وغيرها من الوسائل التي أتاحتها الإنترنت ولا تتوافر في الوسائل التقليدية⁽¹⁾.

ويشهد العالم تغيرات سريعة في مجال التكنولوجيا تؤثر في كل الجوانب الإنسانية ولم تكن التربية بمعناها الشامل بمنأى عن تلك التغيرات العلمية والتكنولوجية وأصبحنا نشهد ثورة معلوماتية غير مسبوقه تطورا تكنولوجيا هائلا لم تعد معها الأنماط التقليدية في عملية التعلم والتعليم قادرة على متابعة كل جديد ليمثل هذا تحدياً حقيقياً يواجه الدول النامية لذا يتوجب على تلك الدول أن تستفيد من المميزات الجديدة التي يقدمها ذلك التطور التكنولوجي لتمكن شعوبها

١- (علي، ٢٠١٠)

من استيعاب المعرفة الجديدة وفهمها والتعامل معها ولتتمكن من اللحاق بركب الدول المتقدمة ولتحقيق هذه الغاية أخذت التربية بتقنية الإنترنت كتقنية حديثة تُخْرِجُهَا من أزمته التربوية الراهنة^(١).

لقد أعتد نمو المجتمعات وبقاؤها على امتلاك أفرادها لمجموعة من المهارات الأساسية التي تمكنهم من الحفاظ على حياتهم واستمرار وجودهم وتطور المجتمعات اكتسب الأفراد مهارات جديدة جعلت الحياة أكثر سهولة وكان من بين ما اكتسبه الأفراد العديد من المهارات التعليمية إلا أنه من الواجب في وقتنا الحاضر أن ينظر إلى العملية التعليمية إلى أنها أكثر من مجرد تعلم المهارات الأكاديمية واكتساب المادة الدراسية فهي عملية تهدف إلى إتاحة الفرصة أمام المعلم والمتعلم لاستيعاب المعرفة المتقدمة وإلى خلق اتجاه عقلي أصلي محفز على البحث فضلاً عن ضرورة الاهتمام بتكوين الاتجاهات والقيم واكتساب المهارات المختلفة التي تجاري متطلبات عصر التكنولوجيا الحديثة ومنها الإنترنت^(٢). إذ يشهد العالم تغيرات سريعة في مجال التكنولوجيا تؤثر في كل الجوانب الإنسانية ولم تعد عملية إعداد البحوث العلمية بمعناها الشامل بمنأى عن تلك التغيرات العلمية والتكنولوجية وأصبحنا نشهد ثورة معلوماتية غير مسبوقه وتطوراً تكنولوجياً هائلاً لم تُعد معها الأنماط التقليدية في عملية التعلم والتعليم وإنجاز البحوث قادرة على متابعة كل جديد.

تعدُّ الجامعةُ مركز إشعاع ثقافي للمجتمع وقيمةً حضاريةً تساهم في توجيه الأهداف في التقدم المادي وهي تمثل أهم ركائز التقدم الاقتصادي والاجتماعي لتحقيق الرفاهية والرخاء للمجتمع الذي تخدمه، وهذا ما يفسر اهتمام العالم بالجامعات والتعليم الجامعي والبحث العلمي ذلك الاهتمام الذي شهده العالم بعد الحرب العالمية الثانية، والذي كانت تعززه التغييرات المتلاحقة والثورة المعلوماتية الأمر الذي دعا الجامعات إلى سرعة التكيف مع الواقع واستيعاب التكنولوجيا الحديثة ومنها الإنترنت لتتمكن من القيام بدورها المنشود في التعليم واعداد البحوث العلمية لتحقيق التنمية الشاملة^(٣). ويعد أستاذ الجامعة مسؤولاً عن تجسيد دور الجامعة في كافة المجالات (التعليم، البحوث، التدريب، الاستشارات...) وبناءً على ذلك فإن لدور الأستاذ الجامعي ثلاثة أبعاد هي: التعليم والبحث العلمي وخدمة المجتمع، فهو معلم وباحث وقائد اجتماعي مسؤول عن التغيير والتطوير في مجتمعه. ونظراً لهذا الدور الذي يلقي على عاتق

١- (عبدالمعظم، ٢٠٠٣)

٢- (أبوهاشم، ٢٠٠٤)

٣- (حداد، ٢٠٠٤)

الأستاذ الجامعي ولقداسة الرسالة التي يحملها ولما يشهده العالم من ثورة معلوماتية وتكنولوجية عجزت معها الأساليب التقليدية عن تلبية احتياجاته، فقد اعتبر استخدام التكنولوجيا المعاصرة ضرورةً مُلحةً وبخاصة تكنولوجيا الحاسوب ليتمكن من خزن المعلومات ومعالجتها واسترجاعها وبثها، الأمر الذي يتيح له القيام بواجباته التعليمية والبحثية وتفعيل وظيفة الجامعة وتجسيدها لتحقيق الرضى والتقدم لمجتمعه^(١).

وبناءً على ما تقدم فمن المهم معرفة ما إذا كان أعضاء هيئة التدريس يؤمنون بأن الإنترنت وسيلة قيمة ومفيدة لأغراض التعليم والبحث العلمي. فالتعرف على مواقفهم من هذه التقنية الحديثة أصبح ضرورة باعتبارها وسيلة تعلم وتعليم يتم من خلالها مضاعفة فاعلية أجهزة الحاسوب من خلال وضع أفضل المكتبات والمتاحف والمصادر الثقافية والبحثية في متناول أيدي أعضاء هيئة التدريس وطلبتهم من أجل مواجهة التحديات المستقبلية والاستفادة من تكنولوجيا عصر المعلومات^(٢).

من هنا تأتي أهمية التعرف على ثقافة الانترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة

مشكلة الدراسة :

ازدادت أهمية الإنترنت وعمم استخدامها في المراكز البحثية والأكاديمية المختلفة ومنها الجامعات، حيث يتيح استخدام الإنترنت التعاون بين أعضاء هيئة التدريس في المجالات البحثية على اختلاف بلدانهم ليوفر الوقت والمال ليطور ويحسن نوعية البحوث كما تعد الإنترنت إحدى أساليب التربية الحديثة ومطلباً مهماً في مجال البحث العلمي فهي مصدر للمعرفة يزود الباحثين بالمعلومات المتجددة في عالم سريع التغير والتبدل. فالإنترنت يتيح لآلاف من الباحثين والدارسين الاتصال بالمختزنات الفكرية والاستفادة منها كما يتيح فرصة الاستفادة من الإمكانيات المعرفية التي توفرها الجامعات وقواعد البيانات المختلفة عن طريق كسب المعارف عن بعد.

ولأن الانترنت من أهم الاختراعات التي يمكن استغلالها واستثمارها في عملية التعليم والبحث العلمي بالجامعة جاءت هذه الدراسة للتعرف على ثقافة الانترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة في ضوء متغيرات الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية.

١- (التل، ١٩٩٧)

٢- (باركي وستانفورد، ٢٠٠٥)

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على:

1. مواقف أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي.
2. الفروق في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة نحو ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي في ضوء متغيرات: الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية.

تساؤلات الدراسة :

1. ما وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي؟
2. هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية ($\alpha = 0,05$) في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة تُعزى إلى متغيرات الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية؟

أهمية الدراسة ومبرراتها :

تتبع أهمية الدراسة من عدة جوانب نظرية وعملية أبرزها:

1. أن موضوعها يُعدُّ واحداً من أبرز مجالات البحث في علم الاجتماع العام، وعلم اجتماع المعرفة، والتكنولوجيا والمجتمع، والمشكلات الاجتماعية، وعلم اجتماع العولمة، والخدمة الاجتماعية في مجال التعليم. بسبب التطورات المستمرة التي يشهدها العالم اليوم والتغير السريع الذي طرأ في كافة المجالات مما جعل الجانب التعليمي والبحثي يستجيب لهذا التطور التكنولوجي ويستخدم أحدث الوسائل التكنولوجية لتحقيق أهدافه ولما وكبة هذا التطور ويعدُّ الإنترنت أهم هذه التطورات والابتكارات حيث يتيح للمؤسسات التعليمية الحصول على كل ما هو جديد بأقل تكلفة وأقل جهد.
2. تتبع أهمية هذه الدراسة أيضاً من أهمية دور الجامعة في التنمية والتقدم بالمجتمع وكونها مهتمة بالأستاذ الجامعي الذي يعد المسئول الأول عن تجسيد دور الجامعة في التعليم والبحث والتدريب والاستشارات في كافة المجالات.
3. نظراً لأهمية توظيف الإنترنت في التعليم والبحث العلمي جاءت هذه الدراسة للتعرف على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي في ضوء متغيرات: الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية. نظراً لما يوفره الإنترنت من خدمات وفوائد ومزايا عديدة.

٤. قلة الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع في المجتمع الأردني وحتى تكون حافظاً لإجراء دراسات أخرى في هذا المجال لسد النقص الواضح في هذا الموضوع.

مصطلحات ومفاهيم الدراسة :

- الإنترنت : هي ملايين من نظم الحاسوب وشبكات منتشرة حول العالم والمتصلة مع بعضها بواسطة خطوط هاتفية لتشكل شبكة عملاقة لتبادل المعلومات^(١).

- الاتجاه- وجهة النظر- : هي المشاعر الانفعالية وميول الاستجابة لدى أعضاء هيئة التدريس مع أو ضد الإنترنت (ناصر، ٢٠٠٤). وهي أفكار ومعتقدات عضو هيئة التدريس نحو الإنترنت.

- عضو هيئة التدريس: هو الأستاذ الجامعي الذي يعمل في جامعة البلقاء التطبيقية (كليات إقليم الشمال) في العام الجامعي ٢٠١٠/٢٠١١م.

الإطار النظري:

بدأ الإنترنت في ١/٢/١٩٦٩م عندما شكلت وزارة الدفاع الأمريكية فريقاً من العلماء للقيام بمشروع بحثي عن تشبيك الحاسبات وركزت التجارب على تجزئة الرسالة المراد بعثها إلى موقع معيّن في الشبكة ومن ثمّ نقل هذه الأجزاء بأشكال وطرق مستقلة حتى تصل مجمعة إلى هدفها وكان هذا الأمر يمثل أهمية قصوى في أمريكا وقت الحرب، ففي حالة نجاح العدو في تدمير بعض خطوط الاتصال في منطقة معينة فإن الأجزاء الصغيرة يمكن أن تواصل سيرها من تلقاء نفسها عن أي طريق آخر بديل إلى خط النهاية ومن ثم تطور المشروع وتحول إلى الاستعمال السلمي حيث أنقسم عام ١٩٨٣م إلى شبكتين احتفظت الشبكة الأولى باسمها الأساسي (ARPANET) وبغرضها الأساسي وهو خدمة الاستخدامات العسكرية في حين سميت الشبكة الثانية باسم (MILNET) وخصصت للاستخدامات المدنية أي تبادل المعلومات وتوصيل البريد الإلكتروني من ثم ظهر مصطلح (الإنترنت) حيث أمكن تبادل المعلومات بين هاتين الشبكتين وفي عام ١٩٨٦م أمكن ربط شبكات خمسة مراكز الكمبيوترات العملاقة وأطلق عليها اسم (NSFNET) التي أصبحت فيما بعد العمود الفقري وحجر الأساس لنمو وازدهار الإنترنت في أمريكا ومن ثم دول العالم الأخرى^(٢).

تتميز شبكة الإنترنت بمزايا وفوائد عديدة يحظى بها قطاع التعليم والبحث العلمي تتمثل هذه المزايا: المرونة في الزمان والمكان، فكل مشترك في شبكة الإنترنت هو مالك لهذه الشبكة

١- (الفار، ٢٠٠٢)

٢- (علي، ٢٠١٠)

يبعدها الزماني والمكاني^(١). وقلة الكلفة المادية في الحصول على المعلومات المطلوبة عبر شبكة الإنترنت^(٢)، والوفرة الهائلة في مصادر المعلومات مثل الكتب الإلكترونية والدوريات وقواعد البيانات والموسوعات والمواقع التعليمية^(٣). وتوفير فرص تعليمية غنية وذات معنى^(٤)، وتوفير المتعة في التعلم والبحث لما فيها من تنوع في المعلومات والإمكانيات^(٥)، وتوفير معلومات حديثة ومتجددة باستمرار^(٦)، وسرعة تبادل المعلومات^(٧)، وسرعة التعلم، بمعنى أن الوقت المخصص للبحث عن موضوع عبر الإنترنت يكون أقل بكثير مما تتطلبه الطريقة التقليدية^(٨)، والتقليل من التجريد في التعلم والتقريب من الواقع والملاحظة الحسية^(٩)، والحصول على آراء العلماء والمفكرين والباحثين المتخصصين في المجالات المختلفة^(١٠). (الهرش وآخرون، ٢٠٠٣). الاتصال غير المباشر (غير المتزامن) باستخدام البريد الإلكتروني المطبوع أو باستخدام البريد الصوتي^(١١). الاتصال المباشر (المتزامن) مع التخاطب الكتابي بواسطة الكتابة باستخدام لوحة المفاتيح أو عن طريق التخاطب بالصوت والصورة^(١٢).

أما عن الإنترنت والتعليم: فنجد أن الاعتماد المكثف على الحاسوب وشبكاته في التعليم قد جعل الإنترنت ضيقاً لا يستأذن للدخول إلى الجامعات والمدارس فضلاً عن دورها في إعادة تنظيم العملية التعليمية فتظهر بذلك التوجيه للتعليم الجديد في ضوء فلسفة عملية عامة غير محدودة بزمان أو مكان^(١٣)، وبذلك يعد التعليم بصفة عامة من أهم المجالات المستفيدة من خدمات الإنترنت وقد أوضحت إحدى الدراسات المتعلقة بمستخدمي شبكة الويب العالمية أن ٤٢٪ منهم يعملون في مجال التعليم^(١٤).

إن العديد من الجامعات أصبحت تتيح لأساتذتها وطلبتها فرصة استخدام الإنترنت

١- (السلطان، والفتوح، ١٩٩٩)

٢- (العمري، ٢٠٠٢)

٣- (الفقيه، ٢٠٠٣)

٤- (السلطان، والفتوح، ١٩٩٩)

٥- (الموسى والمبارك، ٢٠٠٥)

٦- (العمري، ٢٠٠٢)

٧- (الهرش وآخرون، ٢٠٠٣)

٨- (الموسى والمبارك، ٢٠٠٥)

٩- (السلطان، والفتوح، ١٩٩٩)

١٠- (العمري، ٢٠٠٢)

١١- (الفقيه، ٢٠٠٣)

١٢- (العمري، ٢٠٠٢)

١٣- (الفرار، ٢٠٠٢)

١٤- (الفقيه، ٢٠٠٣)

للاستفادة من خدماتها التي يمكن أن تقدمها والتي تتمثل في النقاط الآتية^(١).

١. تساعد على توفير أكثر من طريقة في التدريس فهي مكتبة عالمية تتوفر فيها جميع الكتب والبرامج التعليمية.
 ٢. تساعد على التعليم عن بعد وعلى إيجاد جامعات بلا جدران.
 ٣. تمكن من الحصول على برامج تعليمية متخصصة ومتنوعة.
 ٤. تقدم خدمات الحوار والبريد الإلكتروني التي توفر إمكانية تكوين قناة حية بين الطلبة والأساتذة في مختلف دول العالم.
 ٥. تساعد على التعليم التعاوني الجماعي.
 ٦. تعد مكاناً مثالياً لحل الواجبات وإتمام المشاريع الدراسية وإجراء الأبحاث فهي تضع معظم موارد المكتبات العالمية تحت تصرف المستخدم.
 ٧. تعطي التعليم الصبغة العالمية والخروج من الإطار المحلي.
 ٨. تسهل تطوير محتوى المناهج والمعلومات الموجودة عبر الإنترنت.
 ٩. تمكن من الحصول على معلومات من المناهج والتطوير الأكاديمي وطرائق التعليم من خلال مركز صادر المعلومات التعليمية.
 - ١٠ توفر الجداول والخطط الدراسية وسياسات القبول في الجامعات.
 - ١١ تعرف على نظم التعليم والاتجاهات الحديثة في تعلم المواد الدراسية في دول أخرى عربية وأجنبية.
 - ١٢ تمثل وسطاً تعليمياً فعالاً لتبادل وجهات النظر وطرح المشكلات البحثية سواء كان بين الأساتذة أو بين الطلبة توفيراً للوقت والجهد والمال.
 - ١٣ تعد بمثابة نافذة يطل المعلمون والطلبة منها على العالم.
 - ١٤ تنمي مهارات الاتصال ومهارات البحث عن المعلومات لدى المعلمين والطلبة.
- وبات واضحاً أن الدول المتقدمة تقفز بوتيرة متسارعة صوب العصر الرقمي من خلال الانخراط الشامل في عصر المعلوماتية وعلى سبيل المثال فإن الجامعة المفتوحة The Open University بلندن تستقطب حلقاتها الدراسية أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ طالب حيث تقوم الجامعة باستعمال واسع للتكنولوجيات الجديدة: يتم تقديم الدروس الافتراضية، جنباً إلى جنب مع

(١) - (جرجس، ١٩٩٩، الحيله، ٢٠٠٤، الفقيه، ٢٠٠٣)

المناقشات الجماعية وتصحيح الواجبات المنزلية عبر الشبكة. ففي ١٩٩٧ استطاع الطلاب أن يقرأوا، بصورة يومية، حوالى ١٥٠٠٠٠ رسالة إلكترونية خلال أكثر من ٥٠٠٠ محاضرة قدمتها الشبكة^(١).

وبناء عليه فإن عصر المعلوماتية يحمل بين جوانحه العديد من التحديات ، التي تفرض على عضو هيئة التدريس بالجامعة أن يسعى جاهدا ليضاعف جهده بغرض الرفع من قدراته وكفايته العلمية بما يستجيب لطبيعة التحولات المتسارعة المحيطة بعمله التدريسي والبحثي. فدوره المتجدد في حقل لا يعرف السكون والركون للراحة «يحتّم عليه مواصلة التعلم والنمو المهني والتدريب واكتساب المزيد من الكفايات التعليمية لمتابعة التغيرات والمستجدات التي تطرأ على مهنة التعليم وكفاياتها يوما بعد يوم سواء عن طريق التدريس أو التعلم الذاتي»^(٢). ذلك أن تطوير منظومة التعليم الجامعي ، يجب أن يأخذ في الحسبان التوجهات المستقبلية لحركة التطور العلمي المتنامية ، فاستخدامات شبكات المعلومات ستحدث تأثيرا جوهريا في المنظومة التعليمية بأكملها، حيث سيتحول النظام التعليمي التقليدي المغلق إلى النظام التعليمي المفتوح الذي يعتمد على شبكات المعرفة المتطورة، كما سيصبح التعلم الذاتي مدى الحياة من أهم الصيغ التعليمية وذلك لتحقيق فاعلية التعليم بين الأستاذ الجامعي والطالب^(٣).

وسيمكّن الاستغلال الرشيد للانترنت من الإسهام في تحقيق الكثير من هذه النتائج الإيجابية ويّتيح للأستاذ الجامعي فرصة الانخراط بشكل فاعل في سيرورة التحول العلمي المتسارع القائم على تفاعلات البحث المتواصل والكشف العلمي، مما يترتب عنه تواصل أفضل يمكّن من تطوير كفاءة عضو هيئة التدريس وحسن ممارسته لوظيفته ، من خلال إتقان مهارات البحث العلمي والقدرة على التحكم في المعلومات وتسخيرها في خدمة الواقع.

ولاشك في أن المجتمع المعلوماتي لا يمكن بناؤه في غياب الفكر المعلوماتي ، الذي يبدأ إرساء دعائمه في المدارس والجامعات باعتبارها النواة التي تغذي المجتمع وتحمي وعيه بالتعامل والتفاعل الإيجابي مع ظهور عصر المعلومات، إذ يمكن للأساتذة في الجامعة أن يستعينوا بالإنترنت في إنجاز دروسهم وإجراء بحوثهم العلمية وتبادل المعلومات العلمية فيما بينهم، مهما كانت المسافات الجغرافية التي تفصل بينهم، مما يجعلهم يعيشون أحدث التحولات العلمية (ويتموقعون) في قلب التطورات، بل ويسهمون في صناعتها، ولاسيما وأن البشرية قاطبة تعيش

1- (Peterson,1996)

2- (Tarpley ,2001)

3- (TheArab dvisorsGroup,2003)

اليوم ذروة حضارة المعلومات، بما تعنيه من تجسير الفجوة المعرفية وتحقيق قفزات تنموية نوعية، غني عن البيان أن الجامعة ومن خلالها الأستاذ الجامعي لا بد أن تكون رائدة التحول في هذا المجال، فهي وعاء المعرفة والجسر الذي ينقل جديد الحياة العلمية إلى المجتمع^(١).

وفي مجال الإنترنت والبحث العلمي: يلاحظ ان البحث العلمي والدخول الى المكتبات العالمية من المجالات التي تقدم لها شبكة الانترنت خدمات فأصبح من اليسير على الباحث الدخول إلى دليل المكتبة الإلكترونية والبحث على رفوفها التي تحولت إلى خزائن والتجول بها للحصول على المراجع المتخصصة التي تساعد الباحث في إعداد البحوث العلمية. ولقد تغير مفهوم البحث العلمي في ظل وجود الإنترنت التي تطورت اهتماماتها بالمجالات المختلفة للبحث العلمي فهي لم تقتصر على الاهتمام بأبحاث العلوم الأساسية بل اهتمت بأبحاث العلوم التربوية والإنسانية والاجتماعية حيث عرضت نتائج البحوث المختلفة وأصبح باستطاعة أي باحث نشر أبحاثه العلمية على العالم أجمع دون أي قيود^(٢).

وإنطلاقاً من المستجدات العلمية والتكنولوجية في مجال الإتصال فقد إزدادت أهمية الإنترنت في البحث العلمي حيث يتيح استخدام الإنترنت التعاون في المجالات البحثية ليوافق الوقت والمال ليطور ويحسن نوعية البحوث^(٣) كما تعد الإنترنت إحدى أساليب التعليم الحديثة ومطلباً مهماً في مجال البحث العلمي فهي مصدر للمعرفة يزود الباحثين بالمعلومات المتجددة في عالم سريع التغير والتبدل فالإنترنت يتيح لآلاف من الباحثين والدارسين الاتصال بالمخترعات الفكرية والاستفادة منها كما تتيح فرصة الاستفادة من الإمكانيات المعرفية التي توفرها الجامعات وقواعد البيانات المختلفة عن طريق كسب المعارف عن بعد^(٤). وعلى الرغم من ذلك فإن الاستخدام العربي للشبكة لغرض البحث العلمي لما يرتق بعد إلى المستوى المأمول، فعلى تواضع نسبة مستخدمي الشبكة العرب، فإن ما يزيد على ٣٠٪ منهم يستغلون إبحارهم في الدردشة، بينما لا يتجاوز نصيب البحث العلمي في أحسن الأحوال نسبة ٢٪ من هؤلاء المستخدمين، حسب دراسة أجرتها إحدى المجلات العربية أخيراً. وقد بينت دراسة حول تفاعل الشباب الإماراتي مع الانترنت أن دافع البحث عن المعلومات يمثل ٣، ٦٠٪ يليه استخدام البريد الإلكتروني ب ١، ٥٨٪، التسلية ١، ٥٢٪، المساعدة في المنهج الدراسي ٢، ٥١٪، البحث العلمي ٤٤٪ الدردشة ٦، ٣٦٪. حيث تعد هذه النتائج مؤشراً مهماً على تصاعد الوعي لدى الشباب بأهمية استثمار محتويات

١- (كليب، ٢٠٠٨)

٢- (الفار، ٢٠٠٢)

3- (Wang, 1999)

٤- (العمرى، ٢٠٠٢)

الانترنت في الأغراض العلمية والبحثية والدراسية. ولاشك في أن الباحث الذي يودُّ أن يبقى على اطلاع كامل على ما يجري في حقل ما ، سيجد أنه من الأجدى أن يستخدم محركات البحث Search Engine في قواعد البيانات الإلكترونية على أن ينتظر نشر البحث من خلال مصادر تقليدية.

وتكشف عملية الاقتراب من راهن المدرسة والجامعة في الأردن عن واقع يتسم بالعزوف عن هذه التقنية المهمة، بسبب عدم القدرة على استخدام الحاسب والغياب شبه التام لثقافة التعااطي مع المعلومة الإلكترونية، على الرغم من توافر الفضاءات المعلوماتية ولو بشكل ملتزم أحيانا ؛ ناهيك عن تقشي ظاهرة السطو على مختلف المواقع واختلاس المعلومات منها دون توفر القدر المطلوب من الأمانة العلمية في النقل والاقتباس لدى زوار هذه المواقع، مما يستدعي ضرورة تأهيل مستعملي الشبكة الطالب والأستاذ للتعامل بوعي وكفاءة وأمانة مع عصر المعلومات واستيعاب ثورة المعرفة ، للاستفادة من فيضها في تطوير واقعنا الجامعي الراكد.

فالجامعات في معظم الدول العربية ما تزال مؤسسات حديثة ورغم ما حققته من قفزات في المجال التعليمي ، إلا أنها لم تصل إلى إحداث الأثر المطلوب في أهداف التعليم العالي الأخرى وبخاصة في مجال البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية. لقد حققت الجامعات العربية الكم المطلوب للمجتمع العربي من الإختصاصيين والمختصين، لكنها لم تستطع أن تحقق النوع، وإن برزت على الساحة أحيانا بعض الإنجازات النوعية في هذا المجال، لكنها لم تخرج عن كونها استكمالا لمراحل التعليم التي سبقتها من حيث المخرجات والأهداف التي حققتها. حيث لم تتمكن الجامعات العربية من تحقيق المطلوب في مجال البحث العلمي وإقامة مراكز بحثية في العلوم الإنسانية والاجتماعية متخصصة⁽¹⁾.

ولاسيما في عصر العولمة الذي يفرض تحديات اقتصادية وثقافية وحضارية ، لذلك فمن أبرز المهام المنوطة بجامعة القرن الواحد والعشرين أن تكون جامعة للمواطنة وينبغي أيضا أن تفتح الجامعة على العالم المهني وأن تأخذ في اعتبارها الحاجات الحقيقية للمجتمع⁽²⁾.

الدراسات السابقة :

يحظى الإنترنت باهتمام كبير من قبل أعضاء هيئة التدريس في جميع المؤسسات التعليمية سواء كانت على مستوى المدارس أو على مستوى التعليم الجامعي. غير أن الدراسات المتخصصة في مجال التعليم والبحث العلمي محدودة وغير متعمقة في واقع المجتمع الأردني بشكل خاص والعربي بشكل عام، لذا سيتمُّ عرضُ لأهمِّ وأحدثِ الدراسات التي تناولت جانباً من جوانب البحث

١- (Bruce,1995)

2- Gallo,M andHorton,1994

في موضوع دراستنا مرتبة تنازليا.

هدفت دراسة ميدانية لسلطان (٢٠١٠) بعنوان «واقع استخدام الانترنت في البحث العلمي بالجامعة» إلى إلقاء الضوء على خدمة الانترنت وسُبلَ توظيفها والاستفادة من تطبيقاتها في البحث العلمي لدى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، من خلال استطلاع آراء عينة من أساتذة جامعة تبسة الجزائرية، لمعرفة واقع استخدامهم للانترنت وسبل استثمارها في خدمة البحث العلمي وقد أُتبعَ منهجُ التحليل الوصفي الذي يُعدُّ مناسباً لطبيعة هذه الدراسة التي تهتم بتقصي الآراء حول استخدامات الانترنت. وتوصلت الدراسة الميدانية إلى النتائج التالية:

٦٠٪ من أفراد العينة يستخدمون الانترنت بصورة مستمرة في الاطلاع على جديد المعلومات ومواكبة التطورات العلمية في مجال تخصصاتهم، نسبة ٦٩، ٥٧٪ من المبحوثين ترى أن الانترنت قناة تواصل بحثي وعلمي لا غنى عنها بالنسبة للأستاذ الجامعي، متوسط استخدام الإنترنت ٢ ساعات يوميا بالنسبة للمبحوثين، تمثل مشكلات بطء سرعة الشبكة والانقطاعات المتكررة في الاتصال، من المعوقات التي تثير مشكلات في وجه نشاط الأساتذة البحثي عبر الانترنت، كما بينت الدراسة أن ٥٠٪ من المبحوثين يرون أن ثقافة الاستخدام الرشيد للانترنت كفيلة برفع مستوى العائد المعلوماتي والمعرفي لدى الباحث.

وقام الشراري (٢٠٠٨) بدراسة بعنوان «واقع استخدام الإنترنت في التدريس من قبل أعضاء هيئة التدريس في كلية التربية للبنات في القرينات ومعوقات استخدامها» وتكونت عينة الدراسة من أعضاء مجتمع الموجودين في الكلية خلال إجراء الدراسة في العام الدراسي ٢٠٠٧/٢٠٠٨م وكان عددهم (٥٥) عضو هيئة تدريس فتوصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

١. وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى $(\alpha = 0,05)$ بين المتوسطات الحسابية الخاصة بدرجة استخدام الإنترنت في مجال التدريس تعزى لمتغير الرتبة الجامعية ولصالح رتبة أستاذ في حين لم يثبت وجود فروق في مجال المعوقات التي تواجه أعضاء هيئة التدريس في أثناء استخدامه للإنترنت تعزى لمتغير الرتبة الجامعية.

٢. وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى $(\alpha = 0,05)$ بين المتوسطات الحسابية يعزى لمتغير الجنس ولصالح أعضاء هيئة التدريس من الإناث مقارنة بأعضاء هيئة التدريس من الذكور.

٣. وجود فروق دالة إحصائية على مستوى $(\alpha = 0,05)$ بين المتوسطات الحسابية الخاصة بدرجة التعويق التي تواجه أعضاء هيئة التدريس في أثناء استخدامهم للإنترنت تعزى لمتغير المؤهل العلمي ولصالح مستوى البكالوريوس في حين لم يثبت وجود فروق على بقية المجالات

تعزى لمتغير المؤهل العلمي.

وفي دراسة قام بها محمد والشيخ وعطية (٢٠٠٦) هدفت إلى الكشف عن معوقات استخدام التعلم الإلكتروني من وجهة نظر طلبة الجامعة الهاشمية والتعرف على أثر كل من الجنس والكلية والخبرة في الإنترنت في هذه المعوقات بلغت عينة الدراسة (٦٠٠) طالب من مستوى البكالوريوس وإستخدمت إستبانة مكونة من (٢٩) فقرة وأظهرت النتائج أن جميع فقرات الأداة شكلت معوقات للتعلم الإلكتروني وكانت هناك فروق دالة إحصائياً تعزى إلى الكلية على المعوقات التي تتعلق بالجامعة وعلى المعوقات الإدارية والأكاديمية وعلى المعوقات التي تتعلق بالطالب والأداة ككل بينما لا توجد فروق دالة إحصائياً على المعوقات التي تتعلق بالتعلم الإلكتروني تعزى إلى الكلية على جميع المجالات وظهرت فروق دالة إحصائياً تعزى إلى الجنس لصالح الإناث كما ظهرت فروق دالة إحصائياً على متغير الخبرة في الإنترنت بين أصحاب الخبرة الكبيرة والقليلة وأصحاب الخبرة المتوسطة والقليلة لصالح أصحاب الخبرة القليلة في المجالين الأول والثاني والأداة ككل مما أظهر فروقاً دالة إحصائياً بين أصحاب الخبرة المتوسطة والقليلة لصالح الأخير في المجال الرابع وأسفرت النتائج عن تقديم بعض التوصيات.

أما دراسة العمري (٢٠٠٥) فقد كان عنوانها «مدى استخدام شبكة الإنترنت على أنها أداة لجمع البيانات لأغراض البحث العلمي وما هي معيقات استخدامها لدى أعضاء هيئة التدريس في كلية التربية في جامعة اليرموك» ولجمع البيانات تم توزيع الإستبانة على (٦٠) عضواً من هيئة التدريس خلال العام الدراسي ٢٠٠٤/٢٠٠٥م وتوصلت الدراسة إلى أن جميع أعضاء هيئة التدريس يستخدمون شبكة الإنترنت وأنه توجد فروق دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (٠,٠٥ < α) في الاستفادة من شبكة الإنترنت تعزى إلى متغير المعرفة باللغة الإنجليزية لصالح القدرات الممتازة ووجود فروق دالة إحصائياً عند المستوى (٠,٠٥ < α) في الاستفادة من الإنترنت على أنها أداة لجمع البيانات لأغراض البحث العلمي تعزى إلى متغير المعرفة الحاسوبية لصالح أصحاب المعرفة الحاسوبية المتوسطة وتمثل أكثر مجالات الاستفادة من الإنترنت في متابعة الجديد في مجال التخصص وأكثر معيقات استخدام الإنترنت المتعلقة بعضو هيئة التدريس في عدم توافر الوقت الكافي لاستخدامها بينما تمثلت أكثر المعيقات المتعلقة بالشبكة في ندرة توافر النصوص الكاملة لكثير من البحوث والمقالات وكانت أكثر المواقع استخداماً لأغراض البحث العلمي موقع (yahoo).

وقام الشريف (٢٠٠٤) بدراسة عنوانها «مدى استخدام طلبة الدراسات العليا للإنترنت في جامعة الملك عبدالعزيز» وتكونت عينة الدراسة من (٢٠٦) طالب وطالبة ممن يدرسون في جامعة الملك عبدالعزيز حيث تم إختيارهم على الطريقة العشوائية وتم إعداد إستبانة وزعت على عينة

الدراسة وأظهرت نتائج الدراسة أن ما نسبته (٩٤,٥ %) من طلبة الدراسات العليا يستخدمون الإنترنت بشكل مستمر وأن ما نسبته (٤٤,٧) يستخدمونها بشكل متقطع ومتباعد وأن أبرز جوانب الاستفادة من الإنترنت من وجهة نظر الطلبة كانت إرسال وإستقبال الرسائل الإلكترونية النصية من خلال البريد الإلكتروني والدخول إلى مواقع الجامعات والمكتبات واستخدام البريد الإلكتروني لتبادل وإنجاز الواجبات التي يتم تكليفهم بها.

وأجرى البيطران (٢٠٠٢) دراسة بعنوان «واقع استخدام الإنترنت في الجامعات الأردنية الخاصة في منطقة الشمال من وجهة نظر الطلبة واتجاهاتهم نحوها» وبلغت عينة الدراسة (٧٥٢) طالباً وطالبة تم اختيارهم بالطريقة العشوائية الطبقية واستخدم الباحث في هذه الدراسة استبانة مكونة من أربعة مجالات: (معلومات عامة، مدى الاستخدام، المعوقات، والاتجاهات) وأشارت نتائج الدراسة إلى أن اتجاهات الطلبة نحو استخدام الإنترنت إيجابية وعالية كما أظهرت عدم وجود فروق في اتجاهات الطلبة تعزى لمتغيري الجامعة والجنس وأظهرت النتائج وجود فروق في اتجاهات الطلبة تعزى لمتغير الكلية ولصالح طلبة الكليات العلمية.

وهدفت دراسة كراج (Craig.2002) إلى التعرف على توجهات مدرسي العلوم نحو الإنترنت وتقنية المعلومات عموماً وأخذت عينة الدراسة لمدرسي العلوم في المدارس الثانوية بولاية نيفادا الأمريكية وأظهرت نتائج الدراسة أن انطباعات المدرسين كانت إيجابية نحو الإنترنت وأن اتجاهات المدرسين حديثي العهد بالمهنة كانت أكثر إيجابية من اتجاهات أولئك الذين قضاوا فترة زمنية أطول في المهنة.

كما أجرى لي (Lee.2002) دراسة هدفت إلى تحديد مدى استعداد هيئة التدريس في عدد من المعاهد التقنية في تايوان لتبني فكرة استخدام الإنترنت داخل فصولهم الدراسية في ضوء ما لديهم من معارف ومهارات وفي ضوء توافر المصادر والدعم المادي والمعنوي وتطبيقات الإنترنت وقد استخدم الباحث استبانة لجمع المعلومات ودرس أثر متغيرات العمر والجنس والخبرة والتخصص وقد أظهرت نتائج الدراسة الاستعداد والتحمس الكبيرين والاتجاهات الإيجابية نحو استخدام الإنترنت كما أظهرت الدراسة فروقاً ذات دلالة إحصائية تبعاً لمتغيرات الدراسة.

وأجرى الشايب (٢٠٠١) دراسة عنوانها «واقع استخدام أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية للإنترنت واتجاهاتهم نحوها» والتي هدفت إلى التعرف على واقع استخدام أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية للإنترنت واتجاهاتهم نحوها وقد شمل مجتمع الدراسة جميع أعضاء الهيئة التدريسية في مؤسسات التعليم العالي الأردنية لعام الجامعي ٢٠٠٠/٢٠٠١

والبالغ عددهم (٤٣٤٥) عضو هيئة تدريس وتكونت عينة الدراسة من (٢٨٢) عضو هيئة تدريس تم اختيارهم بالطريقة العشوائية العنقودية واستخدم الباحث استبانة مكونة من (١٢٠) فقرة وأظهرت نتائج الدراسة أن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو الإنترنت إيجابية ويعززها امتلاك قدرات قوية في اللغة الإنجليزية وخبرة حاسوبية كبيرة .

يتضح من خلال الدراسات السابقة أن أغلب هذه الدراسات ركزت على الاهتمام بالإنترنت وواقع الاستخدام له مثل دراسة (الشراري، ٢٠٠٧، العنزي، ٢٠٠٦، الشريف، ٢٠٠٤). وان هناك بعض الدراسات تناولت موضوع الاتجاهات نحو الانترنت مثل دراسة كل من (الزومايا، ٢٠٠١، وكراج، ٢٠٠٢)، وجمعت بعض الدراسات بين موضوع الاتجاهات نحو الانترنت وواقع استخدام الانترنت مثل دراسة كل من (البطران، ٢٠٠٢، الشايب، ٢٠٠١). واعتمدت الدراسات السابقة على الاستبانة وحدها كأداة للدراسة باستثناء دراسة (خزاعلة والجوارنة، ٢٠٠٦) حيث اعتمدت على المقابلة والاستبانة. وتنوعت المتغيرات التي اعتمدت عليها الدراسات ومعظمها اعتمد على: الخبرة، والجنس، الكلية، والرتبة الأكاديمية، والتخصص. وقد تميزت دراساتنا عن غيرها من الدراسات في سعيها للتعرف على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت في مجالي التعليم والبحث العلمي في جامعة تقوم فلسفتها بالتركيز على الجوانب التطبيقية العملية أكثر من النظرية، وهي جامعة (البلقاء التطبيقية). إضافة إلى هذه الدراسة ستحاول أن تقرأ واقع استخدام الأستاذ الجامعي لتطبيقات شبكة الإنترنت في مجال حيوي متمثلاً في التعليم والبحث العلمي وذلك باعتماد النظرية الوظيفية، ونظرية الاستخدامات والشباعات بشكل أساسي، التي تهدف إلى التعرف على استخدامات الجمهور لوسائل الاتصال ضمن وسائل أخرى متواجدة في المحيط تلبى احتياجاته وتحقق أهدافه. مع العلم أن هذه النظرية صنفت دوافع التعرض لوسائل الإعلام في فئتين وهما: دوافع منفعية: وتستهدف التعرف على الذات، واكتساب المعرفة والمعلومات، الخبرات وجميع أشكال التعلم بوجه عام والتي تعكسها نشرات الأخبار والبرامج التعليمية والثقافية. دوافع طقوسية: وتستهدف تمضية الوقت، الاسترخاء، الصداقة والألفة مع الوسيلة والهروب من المشكلات^(١)

منهجية الدراسة وإجراءاتها

أسلوب الدراسة :

تم استخدام منهج المسح الاجتماعي بالعينة بالإضافة إلى المنهج الوصفي والمنهج الإحصائي لغايات الكشف عن وجهة نظر المبحوثين من ثقافة الانترنت في مجالي التعليم والبحث العلمي في ضوء بعض المتغيرات.

مجتمع الدراسة :

تكوّن مجتمعُ الدراسة من أعضاء هيئة التدريس العاملين في جامعة البلقاء التطبيقية للفصل الدراسي الأول للعام الجامعي (٢٠١٠/٢٠١١م) في كليات إقليم الشمال (عجلون، الحصن، إربد) والبالغ عددهم (٤٢٢) عضو هيئة تدريس موزعين حسب الكلية عجلون (١٢٦). الحصن (١٧٥). إربد (١٢١).

عينة الدراسة :

تم سحب عينة عشوائية وبنسبة ٥٠% من مجتمع الدراسة وبواقع ٢١١ مبحوثاً، وتم توزيع الاستمارات عليهم باليد أو من خلال رؤساء الأقسام الأكاديمية في الفترة من ٢٠١٠/١١/٢ إلى ٢٠١١/١/٢، وتكونت عينة الدراسة النهائية من ١١٢ مبحوثاً بعدما رفض بعضهم التعاون، واستبعدت الاستمارات غير المكتملة البيانات.

أداة الدراسة :

بعد الإطلاع على الدراسات السابقة والنتائج النظرية، تم تطوير استبانة موجهة لأعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء التطبيقية تكوّنت من جزئين: الجزء الأول بيانات شخصية وأما الجزء الثاني فهو وجهة نظرهم نحو ثقافة الإنترنت في مجالي التعليم والبحث العلمي وقد تكوّن من ثلاثين فقرة، ووضِع أمام كل منها مقياس مكوّن من خمس درجات هي (موافق بشدة، موافق، محايد، معارض، معارض بشدة) وأعطى لها ميزان تقديري (١،٢،٣،٤،٥) على التوالي وقد عكست عند الفقرات السالبة.

صدق الأداة وثباتها :

تم عرض الأداة في صورتها الأولية على مجموعة من المحكّمين من ذوي الخبرة والاختصاص وتمّ إجراء التعديلات، بحيث ظهرت الأداة بصورتها النهائية. وللتحقق من ثبات الأداة تم توزيعها على عينة استطلاعية من مجتمع الدراسة، وتم حساب الثبات عن طريق معادلة (kronbag alfa) (كرومباخ الفا) وكان معامل الثبات ٠،٧٩١، وهي مقبولة في مثل هذه الدراسات.

الاساليب الإحصائية المستخدمة :

لقد تم استخدام مجموعة من الاختبارات الاحصائية حسب طبيعة سؤال الدراسة. حيث تم استخدام الاوساط الحسائية والانحرافات المعيارية لمعرفة وجهة نظر المبحوثين نحو ثقافة الانترنت، كما تم استخدام اختبارات لمعرفة أثر الكلية على وجهة نظر المبحوثين نحو ثقافة الانترنت. في حين تم استخدام اختبار تحليل التباين الأحادي لمعرفة أثر متغير الخبرة والرتبة الاكاديمية. وقد تم استخدام اختبار (توكي) لمعرفة الفروق بين مستويات المتغير المستقل الذي له أكثر من مستويين مثل الخبرة والرتبة الاكاديمية.

عرض النتائج ومناقشتها :

- المحور الاول : خصائص عينة الدراسة

من أجل وصف عينة الدراسة فقد تم حساب التكرارات والنسب المئوية كما في الجدول

رقم (١)

جدول رقم (١) وصف عينة الدراسة

المتغير	مستوياته	التكرار	النسبة
الكلية	علمية	٤٦	٤١,١
	انسانية	٦٦	٥٨,٩
الرتبة	استاذ	١	١
	مشارك	٩	٨
	مساعد	٤٣	٣٨,٤
	مدرس	٥٩	٥٢,٧
الخبرة (التعامل) مع الانترنت	عالية	٤٣	٣٨,٤
	متوسطة	٥٧	٥٠,٩
	ضعيفة	١٢	١٠,٧

يتبين من الجدول السابق أن أعضاء هيئة التدريس في الكليات العلمية بلغ ٤٦ عضواً ونسبة ٤١,١٪، في حين كان عدد أعضاء هيئة التدريس في الكليات الإنسانية ٦٦ ونسبة ٥٨,٩٪.

ويبين الجدول نفسه أن الرتبة الأكاديمية لأعضاء هيئة التدريس كانت ١٪ من رتبة أستاذ ٨٪ من رتبة أستاذ مشارك و ٣٨,٤٪ من رتبة أستاذ مساعد، في حين كان من رتبة مدرس ٥٢,٩٪ من مجموع أعضاء هيئة التدريس.

ويتضح من الجدول نفسه خبرة أعضاء هيئة التدريس في التعامل مع الانترنت كانت ٣٨,٤٪ بدرجة عالية، ٥٠,٩٪ بدرجة متوسطة، في حين كانت ١٠,٧٪ بدرجة ضعيفة.

- المحور الثاني: ثقافة الانترنت ودورها في التعليم و البحث العلمي من وجهة نظر

أعضاء هيئة التدريس في الجامعة

اولاً: لقياس وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي فقد تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لفقرات الأداة وللأداة ككل كما في الجدول (٢):

جدول (٢) الأوساط الحاسوبية والانحرافات المعيارية لفقرات وجهة نظر

المبحوثين نحو ثقافة الانترنت وللأداة ككل

رقم الفقرة	نص الفقرة	العدد	ترتيب الفقرات	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري
٣١	أرى أن شبكة الإنترنت تسمى العلاقات بين الباحثين في شتى أقطار العالم	١١٢	١	٤,٢١٤	٨٨٤.
٥٦	أرى أن شبكة الإنترنت تكسر الحواجز أمام تبادل المعلومات وتداولها	١١٢	٢	٤,٢١٤	٧٧٦.
٣٩	أتمنى إصدار نشرة إرشادية دورية داخل الجامعة حول الإنترنت	١١٢	٣	٤,١٩٦	٨٩٨.
٤٩	يزيد استخدام الإنترنت من كفاءة عضو هيئة التدريس	١١٢	٤	٤,١٧٨	٧٤٩.
٣٦	يساعد استخدام الإنترنت في إكسابي معارف جديدة	١١٢	٥	٤,١٦٠	٨٠٠.
٣٠	أجد المتعة في قراءة البحوث المنشورة على شبكة الإنترنت	١١٢	٦	٤,١١٦	٨٣٥.
٤٤	تعد شبكة الإنترنت مصدر تعلم غير ضروري لعضو هيئة التدريس	١١٢	٧	٤,١٠٧	٨٧٣.
٤٨	يمكنني استخدام الإنترنت من متابعة البحوث العلمية المنشورة على الشبكة	١١٢	٨	٤,٠٧١	٧٠٦.
٣٨	أشعر بالملل عند استخدام الإنترنت	١١٢	٩	٤,٠٧١	٩٩٢.
٤٧	أرى أنه من الضروري بذل جهود حقيقية للتدريب على الإنترنت	١١٢	١٠	٤,٠٥٣	٨١٤.
٢٧	تزداد ثقتي بنفسي عندما أستخدم الإنترنت	١١٢	١١	٤,٠٤٤	٩٣٣.
٣٣	أشعر أن استخدام الإنترنت ينمي لدي مهارة البحث	١١٢	١٢	٤,٠٠٨	١,٠٩٤
٤٢	أرى أنه من الضروري تشجيع الطلبة وتوجيههم نحو استخدام الإنترنت	١١٢	١٣	٣,٩٩١	١,٠٤٤
٤٥	أشجع زملائي على استخدام الإنترنت	١١٢	١٤	٣,٩٧٣	١,٠٢٦
٥٠	يزيد استخدام الإنترنت من إنتاجية عضو هيئة التدريس	١١٢	١٥	٣,٩٧٣	٩٦٢.

٩٢٩.	٣,٩٦٤	١٦	١١٢	أرى أن شبكة الإنترنت وسيلة فعالة في التعليم الجامعي عن بعد	٥٥
٨٧٨.	٣,٩٤٦	١٧	١١٢	أرحب باستخدام شبكة الإنترنت في الدعاية والإعلان لدور النشر ومراكز البحوث	٥٤
٧٨٥.	٣,٩٣٧	١٨	١١٢	تساعد شبكة الإنترنت على إكتساب طرق جيدة في التعلم	٥٢
٩٨٣.	٣,٩٢٨	١٩	١١٢	أرغب في استخدام الإنترنت في تدريسي	٢٨
٨٤٨.	٣,٩٠١	٢٠	١١٢	أتمنى أن تتبنى الجامعات فكرة دمج الإنترنت في الأنشطة التدريسية	٥٣
٨٨٩.	٣,٩٠١	٢١	١١٢	أشعر بالمتعة عندما أستمع إلى المتخصصين في مجال الإنترنت	٤١
٩٨٠.	٣,٨٩٢	٢٢	١١٢	أرغب في المشاركة في المؤتمرات والندوات العلمية عبر الإنترنت	٣٥
١,١٢١	٣,٣٠٣	٢٣	١١٢	أفضل استخدام المواد المطبوعة على استخدام الإنترنت	٤٦
١,٠٧٠	٣,٢٩٤	٢٤	١١٢	أنصح بعدم الثقة بما ينشر على الإنترنت	٣٢
١,٢٧٠	٢,٨٣٩	٢٥	١١٢	لا تساوي مكاسب الإنترنت تكاليفها	٣٤
١,١٩٤	٢,٦٢٥	٢٦	١١٢	تعد شبكة الإنترنت مصدر تعلم غير ضروري لعضو هيئة التدريس	٤٣
١,١١٩	٢,٥٨٩	٢٧	١١٢	أبتعد في استخدام الإنترنت في التعلم لأنه لا يثير اهتمامي	٢٩
١,٢٨٠	٢,٥٢٦	٢٨	١١٢	أشعر بالملل عند استخدام الإنترنت	٣٧
١,٢٧٢	٢,٤٦٤	٢٩	١١٢	أبتعد عن استخدام الإنترنت لأن أضرارها أكثر من فوائدها	٤٠
١,١٤٠	٢,٣٢١	٣٠	١١٢	أرى أن استخدام شبكة الإنترنت مضيعة للوقت وهدر للجهد	٥١
٣٥٩.	٣,٦٩٣		١١٢		الكلي

يتضح من الجدول السابق أن توجهات اعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي كانت ايجابية بدرجة كبيرة ، حيث بلغ الوسط الحسابي للأداة ككل ٣,٦٩٣ وبانحراف معياري ٠,٣٥٩

هذا وقد بين الجدول نفسه أن الوسط الحسابي للفقرات ٤٦، ٣٢، ٣٤، ٤٣، ٢٩، ٣٧، ٤٠، ٥١ كانت تتراوح ما بين ٢٠٢١ - ٣٠٣ في حين كانت الأوساط الحسابية لبقية الفقرات ما بين ٣٠٣ - ٤٠٢، وهي توجهات ايجابية بدرجة كبيرة.

ثانياً: للإجابة عن السؤال الثاني والذي ينص على «هل يوجد فروق ذات دلالة إحصائية في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس تعزى للمتغيرات الكلية والخبرة والرتبة الأكاديمية؟» فقد تم استخدام مجموعة من الاختبارات كما يلي:

١. لمعرفة أثر الكلية على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت فقد تم

استخدام اختبارات كما في الجدول رقم (٣)

جدول رقم (٣)

نتائج استخدام اختبارات لمعرفة أثر الكلية على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس

المتغير	الكلية	العدد	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري	ت	درجة الحرية	مستوى الدلالة
الاتجاهات	علمية	٤٦	٣,٧٢٩٧	٢٧٥٢٥.	٠,٨٨٤	١١٠	٠,٣٧٩
	إنسانية	٦٦	٣,٦٦٨٧	٤٠٧٨٧.			

يتبين من الجدول السابق انه لا توجد فروق في توجهات أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت حيث بلغت قيمة ت ٠,٨٨٤ وهي غير دالة إحصائياً عند مستوى دلالة ألفا اقل أو يساوي ٠,٠٥ بمعنى أن أعضاء الهيئة التدريسية سواء من الكليات العلمية أو الإنسانية ينظرون إلى استخدام الانترنت بدرجة واحدة ، وقد تم الاستعانة باختبار (مان وتني) للتأكد من النتيجة كما في الجدول رقم (١٧)

جدول رقم (٤)

نتائج اختبار (مان وتني) لمعرفة أثر الكلية على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس

الاتجاهات	
١٣٠٥,٠٠٠	مان وتني
٢٠٧.	مستوى الدلالة

يبين الجدول أن قيمة (مان وتني) قد بلغت ١٣٠٥ وهي غير دالة إحصائياً، وهذا ما يؤكد اختبار لمعرفة أثر الكلية على وجهة نظر المبحوثين.

٢. لمعرفة أثر الخبرة على توجهات أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت فقد تم

استخدام اختبار تحليل التباين الأحادي كما في الجدول رقم (٥)

جدول رقم (٥)

نتائج استخدام اختبار تحليل التباين الأحادي لمعرفة أثر متغير الخبرة على توجهات اعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	وسط المربعات	ف	مستوى الدلالة
بين المجموعات	١,٣٨٨	٢	٦٩٤.	٥,٨٤٨	٠٠٤.
داخل المجموعات	١٢,٩٣٥	١٠٩	١١٩.		
الكلية	١٤,٣٢٣	١١١			

يتبين من الجدول السابق انه يوجد فروق في وجهة نظر اعضاء هيئة التدريس نحوثقافة الانترنت تعزى لمتغير الخبرة حيث بلغت قيمة ف ٥,٨٤٨ وهي دالة إحصائيا عند مستوى دلالة ألفا اقل أو يساوي ٠,٠٥ ولمعرفة الفروق بين مستويات متغير الخبرة فقد تم استخدام اختبار (توكي) كما في الجدول (١٩)

جدول (٦)

نتائج اختبار توكي لمعرفة الفروق بين مستويات متغير الخبرة

(الخبرة أ)	الخبرة ب	الفرق بين أ و ب
عالية	متوسطة	٢١٠٧٣.
	ضعيفة	٢٨٧٣٤.

يتبين من الجدول السابق انه يوجد فروق بين المستوى العالي وبين كل من المستويات المتوسطة والمستويات الضعيفة ولصالح المستوى العالي، حيث بلغ الفرق بين المتوسطات ٠,٢١٠، ٠,٢٨٧. وقد تم الاستعانة باختبار ولكسون للتأكد من النتيجة كما في الجدول رقم(٧).

جدول رقم (٧)

نتائج اختبار ولكسون لمعرفة أثر متغير الخبرة على توجهات اعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت

الخبرة - الاتجاهات	Z
-9.137(a)	
.000	مستوى الدلالة

يتبين من الجدول السابق أن قيمة (ولكسون) كانت ٩،١٣٧ وهي دالة إحصائياً، وهذا ما يؤكد اختبار تحليل التباين الأحادي لمعرفة أثر الخبرة على وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس.

١. لمعرفة أثر متغير الرتبة على توجهات أعضاء هيئة التدريس فقد تم استخدام اختبار تحليل التباين الأحادي كما في الجدول رقم (٨)

جدول رقم (٨)

نتائج اختبار أثر متغير الرتبة على توجهات أعضاء هيئة التدريس نحو ثقافة الانترنت

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	وسط المربعات	ف	مستوى الدلالة
بين المربعات	٢٨١.	٣	٠٩٤.	٧٢١.	٥٤١.
داخل المربعات	١٤,٠٤٢	١٠٨	١٣٠.		
الكلي	١٤,٣٢٣	١١١			

يتبين من الجدول السابق انه لا توجد فروق بين مستويات متغير الرتبة الأكاديمية لأعضاء هيئة التدريس في توجهاتهم نحو ثقافة الإنترنت حيث بلغت قيمة ف ٠,٧٢١ وهي غير دالة إحصائياً عند مستوى دلالة «الفا» اقل او يساوي ٠,٠٥.

مناقشة النتائج:

أولاً: مناقشة النتائج المتعلقة بالسؤال الأول: ما وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم والبحث العلمي؟

أظهرت النتائج المتعلقة بهذا السؤال ما يلي:

- أن وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء نحو ثقافة الانترنت في التعليم والبحث العلمي إيجابية بدرجة كبيرة وقد يعود السبب إلى وعي أعضاء هيئة التدريس بأهمية الانترنت لمواكبة ما هو جديد في مجال تخصصاتهم وفي مجال البحث العلمي والتعليم والتدريب، كما أن تشابه ظروف أعضاء هيئة التدريس في الجامعة وإمكاناتهم يؤدي إلى جعل اهتماماتهم ورغباتهم وتوجهاتهم واحدة ومتشابهة وإيجابية نحو المواضيع المدروسة (ثقافة الانترنت) بغض النظر عن الخصائص العلمية. وتتفق هذه النتيجة مع الدراسات (المخلاف، ٢٠٠٧، البطران، ٢٠٠٣، العمري، ٢٠٠٢، كراج، ٢٠٠٢، الشايب، ٢٠٠١، النجار، ٢٠٠١).

ثانياً: مناقشة النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني «هل يوجد فروق ذات دلالة إحصائية (0,05) في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة نحو ثقافة الانترنت تعزى للمتغيرات: الكلية، والخبرة، والرتبة الأكاديمية».

- لا توجد فروق في توجهات أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء نحو ثقافة الانترنت تعزى لمتغير الكلية. وقد يعود السبب إلى أن جميع أعضاء هيئة التدريس بحاجة إلى استخدام الانترنت بغض النظر عن تخصصاتهم، كما أن تشابه ظروف أعضاء هيئة التدريس في الجامعة وإمكانياتهم يؤدي إلى جعل اهتماماتهم و رغباتهم وتوجهاتهم واحدة ومتشابهة وإيجابية نحو المواضيع المدروسة (ثقافة الانترنت) بغض النظر عن الخصائص العلمية. تتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة (المخلافي، 2007). وتتعارض مع دراسة (البطران، 2003) و(لي، 2000).

- توجد فروق في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء نحو ثقافة الانترنت تعزى إلى متغير الخبرة ولصالح الخبرة العالية ويعزى السبب إلى إن أصحاب الخبرة العالية لديهم قدرات كافية للاستفادة من الانترنت مما يجعل توجهاتهم نحو ثقافة الانترنت ايجابية بدرجة عالية أكثر من اصحاب الخبرة المتوسطة. تتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة (المخلافي، 2007، الشايب، 2001).

- لا توجد فروق في وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء نحو ثقافة الانترنت تعزى لمتغير الرتبة الأكاديمية. ويعزى السبب إلى أن أعضاء هيئة التدريس بغض النظر عن رتبهم الأكاديمية يؤمنون بأهمية الانترنت في عمل الأستاذ الجامعي وبالتالي تشابه توجهاتهم وتكون بدرجة ايجابية نحو ثقافة الانترنت بغض النظر عن الرتبة الاكاديمية. وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة (المخلافي، 2007) و(لي، 2002).

التوصيات:

- في ضوء النتائج، توصي الدراسة نظرياً وعملياً بما يلي:
- تكثيف الدورات التدريبية من أجل إكساب أعضاء هيئة التدريس ثقافة الإنترنت اللازمة لمعملهم في الجامعة ومن أجل مواكبة ما هو جديد في مجال تخصصاتهم.
 - نشر الوعي بثقافة الإنترنت واستخداماتها في مجالات التعليم والتدريب والبحث العلمي والاستشارات.
 - ضرورة تبني الجامعات لسياسات وبرامج تعزز من استخدام الإنترنت في العملية التعليمية

من قبل الطلبة وأعضاء الهيئة التدريسية.

- توفير خدمة الحاسوب والإنترنت للمدرسين والطلبة كي يسهل عليهم استغلالها في التعليم والبحث العلمي.
- ضرورة وضع تشريعات تقوم على اعتماد ثقافة الإنترنت كشرط للترقية والتثبيت في الجامعة.
- إجراء دراسات مماثلة تطبَّق على عينات أوسع وأشمل لبناء رؤية شاملة لمختلف مؤسسات التعليم العالي في الأردن في مجال الانترنت والتعلم الالكتروني .

المشكلات النفسية والاجتماعية للأطفال المحرومين من الوالدين

(دراسة مطبقة على دار رعاية الأطفال بأبي هريرة بطرابلس)

ملخص البحث

هدفت الدراسة الحالية إلى محاولة التعرف على بعض المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الأطفال المحرومين من الوالدين (أطفال دار رعاية أبي هريرة بطرابلس) وممن يتراوح العمر الزمني لهم بين (٦ - ٩) سنوات، واقتصرت الدراسة على مشكلتي العدوانية وقلة الانتباه والتركيز. وقد بلغ حجم عينة الدراسة (٢٧) طفلاً وطفلة. وتم استخدام مقياس مُعد مسبقاً لقياس أشكال السلوك العدواني لدى الاطفال. وأشارت نتائج الدراسة الى وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في العدوان المادي والمتوسط النظري لعامل العدوان المادي، وجاءت الفروق في اتجاه المتوسط النظري مما يعني أن مستوى العدوان المادي لدى الأطفال المحرومين من الوالدين أقل من المستوى المتوسط، بينما لم توجد فروق في العدوان اللفظي والمتوسط النظري لعامل العدوان اللفظي. كما أشارت النتائج إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في نقص الانتباه والتسرع (صورة المدرسة والمنزل) والمتوسط النظري لبعدها نقص الانتباه والتسرع مما يعني أن مستوى نقص الانتباه والتسرع لدى الأطفال المحرومين من الوالدين متوسط. كذلك عدم وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في النشاط المفرط وفي اضطراب نقص الانتباه المفرط الحركة (صورة المدرسة والمنزل) والمتوسط النظري لبعدها النشاط المفرط وفي اضطراب نقص الانتباه المفرط الحركة مما يعني أن مستوى النشاط ونقص الانتباه المفرط لدى الأطفال المحرومين من الوالدين، متوسط.

الفصل الأول: الإطار المنهجي للدراسة

أولاً: مقدمة الدراسة

لم تتل مرحلة الطفولة الوسطى من (٦ - ٩) سنوات من اهتمام الباحثين والدارسين ما نالته المراحل الأخرى من العمر على الرغم من أن هذه المرحلة تعد فترة انتقالية حرجة يعترض مسار النمو فيها العديد من المشكلات التي تحول دون إشباع مطالبها وتحقيق أكبر قدر من التوافق النفسي، فهي مرحلة لتثبيت مرحلة النمو السابقة واستعداد وتأهب لظهور خصائص جديدة في المراحل اللاحقة.

فقد أجمع العديد من علماء النفس على أنه مع زيادة المستوى التعليمي والتقدم في السن تزداد قدرة الأطفال على إدراك المشكلات النفسية والاجتماعية، والتي لا تقتصر على المشكلات الأسريّة بل تتعدى ذلك إلى مشكلات العلاقة مع الرفاق وطرق الاستجابة للمثيرات الخارجية عموماً. حيث أن مشكلات الأطفال عديدة، وتزداد شيوعاً وحدة في بعض المراحل وتقل في مراحل أخرى وقد أثبتت الدراسات أن التحويل للعيادات النفسية يميل إلى ذروته في فترات ما بين (٦-١٢) سنة بالنسبة للأطفال وما بين (١٤-١٦) سنة بالنسبة للمراهقين.

حيث يفترض أن هذه الفترة تمثل فترات انتقالية تعترض المسار السوي لعملية النمو وينشأ عن ذلك عدم التوازن وبعض مظاهر سوء التوافق المؤقت كما أن مشكلات الأطفال تتأثر أيضاً بجنس الطفل وبيئته والعوامل الثقافية وأساليب التنشئة الوالدية غير السوية والحرمان من الوالدين فالأسرة هي المظلة الاجتماعية للطفل فهي مهدّه ومنشؤه وفيها يشعر بالأمن والاستقرار ويجد الحماية والرعاية والجو الأسري، والاتجاهات الوالدية والعلاقات بين الأخوة لها بالغ الأثر في التكوين النفسي والاجتماعي للطفل، من خلال إشباع حاجاته الطبيعية كالغذاء والكساء والمأوى وحاجاته النفسية كالحب والحنان والعطف والأمن والانتماء. وإشباع الحاجات النفسية والاجتماعية ضرورية لبناء شخصية متزنة ومعتدلة تمكن الطفل من التكيف مع نفسه ومع مجتمعه، ولهذا ركزت معظم الأبحاث على أهمية الوالدين ودورهما في عملية التطبيع الاجتماعي والتكوين النفسي للطفل.

وبناءً على ما تقدم فإن الأطفال في حاجة إلى أب يعيشون في كنفه وأم ينعمون بالحنان والدّفء في ظل حبها، إنّ الحرمان من الوالدين له آثار سيئة ومشكلات نفسية واجتماعية لا تزول بسهولة ولا يمكن للرعاية البديلة مهما كانت جيدة أن تحل محلّها، وأن المؤسسات الاجتماعية والأسر البديلة لا يمكن أن توفر الرعاية بنفس رعاية الأسرة الطبيعية والتي عمادها الأب والأم.

فالحرمان من الوالدين قد يترتب عليه آثار سيئة على النمو الجسمي والعقلي والانفعالي

والاجتماعي يتمثل في اضطرابات نفسية وسلوكية متعددة للأبناء مثل: العدوانية، ضعف التركيز وقلة الانتباه، كما أن الحرمان من الوالدين قد يجعلهم أكثر اعتماداً على الغير في سلوكهم. ووفاء الأبوين أو طلاقهما من أهم العوامل التي تهدد الرعاية الأسرية الطبيعية للطفل وتزداد الخطورة إذا كان الطفل في سن مبكرة من عمره، وذلك بسبب إحساسه بفقدان الأمان والحنان والعطف والإحساس بالدفء في حضنهما مما يؤثر على شخصيته وعلاقاته في المستقبل.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تتبلور مشكلة الدراسة الحالية في محاولة التعرف على المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الأطفال المحرومين من الوالدين، أطفال دار رعاية أبي هريرة بطرابلس ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٦ - ٩) سنوات، واقتصرت على مشكلتي العدوانية، وقلة الانتباه والتركيز، ويمكن تلخيص مشكلة الدراسة في التساؤلين الآتيين:

١- ما مدى تأثير الحرمان من الوالدين على التكوين النفسي، -العدوانية-؟

٢- ما مدى تأثير الحرمان من الوالدين على تقليل الانتباه والتركيز؟

أهمية الدراسة

يمكن إيجاز أهمية الدراسة على النحو التالي:

١- الحدّثة النسبية لموضوع المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الأطفال بدار رعاية الأطفال المحرومين من الوالدين بشكل عام وندرة الأبحاث التي تتعلق بهذا الموضوع في ليبيا.

٢- تهتم هذه الدراسة بالتصدي للمشكلات النفسية والاجتماعية لأطفال دار الرعاية مرحلة الطفولة الوسطى من (٦ - ٩) سنوات وتأثيرها بالحرمان من الوالدين وهي شريحة لها أهمية خاصة، حيث أن هذه المرحلة فترة حساسة من حياة الطفل.

٣- تساهم هذه الدراسة في فهم الطفل الليبي الذي يعاني الحرمان من الوالدين وطبيعة مشكلاته النفسية وحجمها وهذا يمثل أهمية أكاديمية لإثراء مجالات الطفولة.

٤- تفيد هذه الدراسة في التعرف على طبيعة مرحلة الطفولة الوسطى ومشكلاتها مما يساعد على وضع البرامج المناسبة.

أهداف الدراسة

١- تحديد مدى تأثير الحرمان من الوالدين على التكوين النفسي -العدوانية-.

٢- تحديد مدى تأثير الحرمان من الوالدين على تقليل الانتباه والتركيز.

حدود الدراسة

سوف تقتصر الدراسة الحالية على المجالات التالية :

المجال الزمني للدراسة : أجريت الدراسة في الفترة من ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ وهي فترة التطبيق الميداني.

المجال الجغرافي والمكاني : أجريت هذه الدراسة على أطفال دار رعاية الأطفال بأبي هريرة بطرابلس.

المجال البشري : تتكون العينة من أطفال دار رعاية الأطفال بأبوهريدة وعددهم (٢٧) طفلاً ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٦-٩) سنوات .

مصطلحات الدراسة

١- المشكلات النفسية: وتعرف بأنها السلوك المنحرف عن المعيار الاجتماعي النسبي، والذي يحدد بتكرار أو كثافة حدوثه ويحكم عليه الكبار الذين لهم سلطة في بيئة الطفل، وتحت هذه الظروف يكون الانحراف إما عالياً جداً أو منخفضاً جداً^(١).

- التعريف الإجرائي للمشكلات النفسية : هي الدرجة التي يحصل عليها الطفل المحروم من الوالدين على مقياس عين شمس لأشكال السلوك العدواني ومقياس انتباه الأطفال وتوافقهم (صورة المدرسة، صورة المنزل) المستخدمين في الدراسة الحالية .

٢- المشكلات الاجتماعية: حالة تؤثر على عدد كبير من الأفراد والذين يعتبرون هذه الحالة سلبية وغير مرغوب فيها ومرفوضة، ويكون لديهم شعور عام بضرورة فعل شئ ما، تجاه هذه الظاهرة، وهذا الفعل يكون بشكل جماعي يشترك فيه أفراد المجتمع لإيجاد الحلول المناسبة لهذه الظاهرة.

التعريف الإجرائي للمشكلات الاجتماعية : هي الدرجة التي يحصل عليها الطفل المحروم من الوالدين على مقياسي العدوان وانتباه الأطفال وتوافقهم المستخدمين في الدراسة الحالية.

٣- الطفل المحروم: يُعرف بأنه الطفل الذي مات أحد والديه أو كلاهما أو انفصل أبواه ويكون غير قادر على الحياة في ظل أسرته الطبيعية، أو هو الطفل الذي يعيش مع أسرته ولكنه لا ينال الرعاية الكافية ولا العطف والحنان اللازمين.

التعريف الإجرائي للطفل المحروم : والمقصود بالطفل المحروم في هذه الدراسة هو الذي

١- سامي صالح، سامي ورمضان، سلوى(٢٠٠٧). المشكلات النفسية التي يعاني منها الأطفال بالمدارس الابتدائية، القاهرة: دار النهضة العربية، ص ٨٣.

فقد أحد والديه أو كلاهما بسبب الوفاة أو فقدهما بسبب الطلاق ، والمقيم بدار رعاية الطفل بأبي هريدة بطرابلس .

ثانياً: الدراسات السابقة

هدفت الدراسة التي قامت بها (سلامة : ١٩٩٩)^(١) إلى تحديد أساليب التنشئة المختلفة وعلاقتها بالمشكلات النفسية في مرحلة الطفولة الوسطى ، وقد اشتملت العينة على (١٠٩) طفلاً من تلاميذ الصف الثاني بالمدارس الابتدائية (٦١ ذكوراً ، ٤٨ إناثاً) تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وتسعة أشهر وسبع سنوات وأحد عشر شهراً وقد أُستخدِم اختبار جود للذكاء ، واستمارة جمع بيانات عن الخلفية الأسرية للطفل ، ومقياس الجو النفسي العام للتنشئة ، وقائمة ملاحظة سلوك الطفل ، وأوضحت النتائج بأن الأمهات المتعلمات كن أكثر قبولاً لأطفالهن ، بينما لم توجد فروق بين قبول الذكور وقبول الانثى ، وانتقاص درجة القبول بزيادة حجم الأسرة ، ودرجة ضبط الأمهات لأطفالهن تتأثر وفقاً لجنس الطفل فقد كن أعلى ضبطاً للإناث عن الذكور ، وارتبطت أعراض المشكلات النفسية لدى الأطفال ارتباطاً عكسياً ببعيد (القبول /الرفض) كذلك ببعيد (الضبط /التساهل) ، كما ظهر ارتباطٌ متعددٌ بين أعراض المشكلات النفسية وبين بُعدي التنشئة مجتمعين ، وقد تبين أن اجتماع القبول مع الضبط في أسلوب تنشئة واحد ارتبط بمشكلات نفسية من تلك المصاحبة للأساليب الثلاث الأخرى ، مثل العدوان والنشاط الزائد وقلة الانتباه .

كما هدفت الدراسة إلى قامت بها (جوزال عبد الرحيم :٢٠٠٢)^(٢) إلى تحديد أهم المشكلات السلوكية المنتشرة بين الأطفال بمدارس التأهيل وبعض نواحي الشخصية المتمثلة فيما يقيسه اختبار الشخصية للأطفال والتوافق العام . وشملت عينة الدراسة ٢٢ فرداً من الاختصاصيين والقائمين على العملية التعليمية والرعاية النفسية للأطفال ، طلب إليهم تحديد المشكلات لدى هؤلاء الأطفال من خلال استفتاء مكتوب ، وبعد مناقشة النتائج ومقارنتها تم صياغة سبع قوائم من المشكلات ، فكانت أكثر المشكلات انتشاراً مشكلة العدوانية والعنف والنشاط الزائد وبمقارنة النتائج مع درجات الأطفال الأسوياء كانت هناك فروق ذات دلالة بين المجموعتين لصالح مجموعة الأطفال الأسوياء .

مشكلة العدوانية والعنف والنشاط الزائد وبمقارنة النتائج مع درجات الأطفال الأسوياء

١- سلامة ، ممدوحة (١٩٩٩) . أساليب التنشئة وعلاقتها بالمشكلات النفسية في مرحلة الطفولة الوسطى . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس .

٢- عبد الرحيم ، جوزال (٢٠٠٢) . المشكلات السلوكية وبعض نواحي الشخصية لدى الأطفال المتخلفين عقلياً بمدارس التأهيل الفكرية والأسوياء (دراسة مقارنة) ، رسالة دكتوراه منشورة ، كلية البنات جامعة عين شمس ، القاهرة .

من نفس العمر الزمني باستخدام اختبار (ت) كانت هناك فروق ذات دلالة في جميع متغيرات التوافق بين المجموعتين لصالح مجموعة الأطفال الأسوياء .

أما الدراسة التي قام بها كل من (مجدي عبد الحميد ، سناء سليمان ؛ ٢٠٠٥) ^(١) فقد هدفت إلى معرفة الأطفال للمشكلات النفسية التي يعانون منها واشتملت العينة على (٨١٨) طفلاً تتراوح أعمارهم بين (٥-١٢) سنة من الجنسين، وقد طلب الباحثان من الأطفال ذكر ثلاث مشكلات تواجههم والتي على أساسها يمكن أن يتوجهوا إلى العيادة النفسية، وقد استتج الباحثان أن أهم المشكلات التي أطلقها الأطفال هي المشكلات الاجتماعية، وقد ظهر وجود علاقة بين كل من المراحل التعليمية والسن وازدياد وعي الأطفال وإدراكهم وفهمهم للمشكلات النفسية التي يعانون منها.

المشكلات السلوكية و الانفعالية التي يعاني منها أطفال المرحلة الابتدائية المحرومين وغير المحرومين من الرعاية الوالدية.

وهدفت الدراسة التي أجرتها (أميمة إسماعيل علي ؛ ٢٠٠٥) ^(٢) إلى التعرف على أهم المشكلات السلوكية والانفعالية التي يعاني منها أطفال المرحلة الابتدائية المحرومين من الوالدين بسبب الوفاة أو طلاق الوالدين والمقيمون بدار رعاية الأطفال بحدائق الزيتون مقارنة مع الأطفال غير المحرومين وطبقت الدراسة على عينة من ٢٠٠ طفل من الأطفال المحرومين من الرعاية الوالدية و ٢٠٠ طفل من الأطفال العاديين المقيمين مع الوالدين ، وتم تطبيق مقياس المشكلات السلوكية والانفعالية من إعداد الباحثة وتوصلت الدراسة إلى أن العدوان سواء المادي أو اللفظي هو المشكلة الأولى التي يعاني منها أطفال دار الرعاية المحرومين من الوالدين بينما كان نقص الانتباه والتركيز لدى هؤلاء الأطفال في المرتبة الثانية ثم يأتي فيما بعد على التوالي الخوف من المدرسين والانغماس في الخيال، والكذب.

وهدفت دراسة (عبد الفادي؛ ٢٠٠٦) ^(٣) إلى التعرف على أثر الحرمان من أحد الوالدين بسبب الطلاق أو المشكلات النفسية لدى الأطفال ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٩-١٢) سنة و تكونت عينة الدراسة من ٢٥٠ تلميذاً من تلاميذ المرحلة الابتدائية ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٩-١٢) سنة والمقيمين مع أحد الوالدين دون الآخر بسبب طلاق الوالدين، وتم

١- عبد الحميد، مجدي وسليمان، سناء (٢٠٠٥). مفهوم الأطفال للمشكلات النفسية، القاهرة: دار النهضة العربية، ص١٢٧.

٢- إسماعيل، أميمة (٢٠٠٥). المشكلات السلوكية والانفعالية التي يعاني منها أطفال المرحلة الابتدائية المحرومين وغير المحرومين من الرعاية الوالدية، القاهرة: مجلة علم النفس، العدد ١٨.

٣- عبد الفادي، عفاف (٢٠٠٦). العلاقات بين المشكلات النفسية والحرمان من أحد الوالدين بسبب الطلاق، القاهرة: مجلة الدراسات النفسية، العدد ٤٧.

تطبيق مقياس المشكلات النفسية عليهم. وتوصلت الدراسة إلى أن الحرمان من أحد الوالدين بسبب الطلاق وإقامة الابن أو الابنة مع أحد الوالدين والحرمان من الآخر يؤثر تأثيراً سلبياً على هؤلاء الأطفال و يسبب لهم العديد من المشكلات النفسية أهمها وأكثرها انتشاراً العدوان سواء اللفظي أو المادي أو السلبي، والخوف، القلق، مشكلات النوم، مشكلات الإخراج، وضعف الانتباه و التركيز. وأن الإناث أكثر تأثراً بغياب الأب عن الذكور وأن كلاهما يتأثر سلبياً بغياب الأم.

كما أجرى (ناصر عويس عبد الله؛ ٢٠٠٨)^(١) دراسة للتعرف على تأثير موقف الحرمان الوالدي بسبب الوفاة أو الطلاق أو الهجر على الغش المدرسي والعدوان والنشاط الزائد، وطبقت الدراسة على عينة من ١٥٢ تلميذاً من تلاميذ الصف الرابع الابتدائي المحرومين من الوالدين بالوفاة أو الطلاق أو الهجر لغرض تحديد مستوى الغش المدرسي والعدوان والنشاط الزائد باستخدام اختبار تحديد القضايا لرسـت Rest ومقياس السلوك العدواني ومقياس انتباه الأطفال وتوافقهم وأوضح النتائج أن الغش المدرسي والعدوان بأنواعه والنشاط الزائد لدى التلاميذ له علاقة ايجابية ودالة إحصائية مع الحرمان الوالدي.

تعقيب على الدراسات السابقة

١- من حيث الاهداف فقد اُتسّمت الدراسات بالشمول والاتساع فقد تناولت المشكلات النفسية والاجتماعية للأطفال. بينما تميزت هذه الدراسة بعدم وجود دراسة لبيبة في حدود علم الباحثة تعرضت لدراسة المشكلات النفسية والاجتماعية للأطفال المحرومين من الوالدين وخاصة في نقص الانتباه والتركيز.

٢- أما من حيث عينة الدراسة فقد تنوعت في الدراسات فمنها من أختار الذكور فقط كدراسة (جوزال؛ ٢٠٠٢)، بينما بقية الدراسات كانت العينة من الذكور والاناث معاً. كما تناسب حجم العينة في كل الدراسات مع المنهج المستخدم.

٣- أما من حيث أدوات الدراسة فقد كانت متنوعة منها ما استخدم برامج مقننة جاهزة ومنها من استخدم الاستبانات التعليمية

٤- أما بالنسبة للأساليب الإحصائية فقد لجأت بعض الدراسات الى استخدام معامل الارتباط لتوضيح الارتباطات بين المتغيرات التي شملتها الدراسة، وهناك دراسات تناولت أسلوب التحليل العاـملى وأخيراً هناك دراسات تناولت اختبار (ت) وتحليل التباين.

١- عبدالله، ناصر عويس عبد الله (٢٠٠٨). تأثير موقف الحرمان الوالدي على الغش المدرسي والعدوان والنشاط الزائد لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٢٢.

الفصل الثاني: الإطار النظري للدراسة

أولاً: السلوك العدواني

يعد مفهوم العدوان والذي يتضمنه موضوع البحث الحالي من أكثر المفاهيم شيوعاً في الدراسات النفسية الحديثة، والمتفحص لهذا المفهوم يجد أنه كان وما زال محور اهتمام الباحثين في مجال علم النفس بصفة عامة، وفي مجال علم النفس الإكلينيكي بصفة خاصة، حيث أصبح من الظواهر السلوكية واسعة الانتشار.

فالعدوان يمثل ظاهرة بشرية عرفها الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى ليعمر الأرض، وذلك عندما قتل قابيل أخاه هاويل إرضاءاً لشهواته وطاعة لنفسه. ومنذ ذلك التاريخ تعددت مظاهر العدوان وتنوعت من حيث نوعيتها وشدتها وآثارها، وقد بات العدوان في العصر الحديث ظاهرة سلوكية واسعة الانتشار تكاد تشمل العالم بأسره ولم يعد العدوان مقصوراً على الأفراد وإنما اتسع نطاقه ليشمل الجامعات والمجتمعات.

مفهوم العدوان:

العدوان مفهوم غامض تتعدد معانيه، وتتداخل العوامل التي تمهد له وتتنوع النظريات المفسرة لماهيته، ومن هنا اختلفت الروى والتفسيرات التي حاولت تحديد مصادره ووسائله وغاياته ونتائجه فهل العدوان مرفوض بشتى صورته وأشكاله؟ أم هو سلوك طبيعي له وظيفة؟ فهو استجابة يُردُّ بها المرء على الخيبة، والإحباط، والحرمان، وذلك بأن يهاجم مصدر الخيبة أو بديلاً عنها^(١).

أما السلوك العدواني فإنه يُعرَّفُ وببساطة بأنه (السلوك الذى يقصد به إيذاء أو إيقاع الضرر بشخص آخر) فإن هذا التعريف هو نفسه تعريف السلوك المضاد للمجتمع ، وهو تعريف شائع يشمل كلاً من أنواع السلوك العدواني الذى تدفع إليه الرغبة للحصول على إثابة أو مكافأة مادية وكذلك السلوك العدواني الذى يدفع إليه خصومة أو حقد^(٢).

أشكال العدوان :

يقسم العدوان من الناحية الشرعية إلى ثلاث أقسام وهي^(٣):

١- بدوي، منى (٢٠٠٠). علاقة مناخ الفصل الدراسي بالسلوك الاستكشافي. القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات النفسية، ص ١٨٥.

٢- زايد، أحمد وآخرون (٢٠٠٤). العنف بين طلاب المدارس وبعض المتغيرات النفسية - الارتباطات والمنبئات، القاهرة : المركز القومي للبحوث الاقتصادية والجناائية، ص ١٢.

٣- أنظر زايد وآخرون ، ص١٢.

أولاً: عدوان اجتماعي ANII-SOCIAL AGGRSSION

ويشمل الأفعال العدوانية التي يظلم بها الإنسان ذاته، أو غيره وتؤدي إلى فساد المجتمع .

ثانياً: عدوان إزلام PRO-SOCIAL AGGRSSION

ويشمل الأفعال التي يجب على الشخص القيام بها لرد الظلم والدفاع عن النفس والوطن

والدين .

ثالثاً: عدوان مباح SANCHIONED AGGRSSION

ويشمل الأفعال التي يحق للإنسان الإتيان بها قصاصاً، ممن اعتدى عليه في نفسه أو ماله

أو عرضه أو دينه أو وطنه.

أسباب السلوك العدواني:

أ. أسباب تكوينية نفسية^(١):

أشارت ميلاني كلاين Melany Clain إلى مفهوم الصدر الشرير عند الطفل والذي يعتبره تهديداً عنده والذي يخلق عنده شعوراً بالإحباط فيحول قسماً من غريزة الموت إلى عدوان ضد المضطهدين. ويعتبر الإحباط أهم العوامل المؤسسة للميول العدوانية عند الطفل خاصة والكائن البشري عامة.

ب. أسباب أسرية واجتماعية^(٢):

يدخل ضمن هذه الأسباب علاقة الطفل بأمه وموقعه في الأسرة ومشاعر الغيرة التي تولد عنده الميول العدوانية ، وما يقوم به الأهل من تفضيل لطفل على آخر ، كما تولد هذه الميول في حالات قيام الأب باضطهاد الأم أو عدم احترام الأم للأب، ويلعب أسلوب العقاب الصارم وأقدام الأهل على احتقار الطفل وتبخيسه وعدم احترامه دوراً فعالاً في نشوء الميول العدوانية عند الطفل.

ج . أسباب صحية وعضوية^(٣):

إن أهم هذه الأسباب هو ما تسببه الولادة الصعبة من تشويه عضوي خاصة عندما تكون الولادة صعبة وتسبب تشوهات أو جروح دماغية أو التشوهات التي تصيب الجنين أثناء فترة الحمل، تُحدث هذه التشوهات تغيرات في الحالة العقلية المزاجية عند الطفل حيث يصبح كثير

١- عبد العزيز، رشاد (١٩٩٨). الطفل ومشكلاته النفسية والاجتماعية ، القاهرة : دار الفتح للطباعة ، ص٤١ .

٢- عكاشة، أحمد (١٩٩٣). علم النفس الفسيولوجي، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ص١١٣ .

٣- قشقوش، إبراهيم زكي (١٩٩٨). سيكولوجية المراهقة ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ص١١٢ .

التذمّر لسبب أو بدون سبب وسريع التوتر والتهيج وعديم القدرة على الضبط وتأجيل الإشباع والميل نحو الانفعالية والسلوك المضاد للمجتمع.

مظاهر السلوك العدواني^(١) :

معظم الأطفال يُظهرون عدوانيةً بشكل أو بآخر وفي أوقات متغيرة، ولعل أهم مظاهرها مايلي :

- ١ . بعض الأطفال يكشفون عن العدوانية في لغتهم كالتلفظ بالسباب والصراخ أو الكلام، أو الاستياء فهو تعبير يدل على رفض الآخرين وعدم قبولهم.
- ٢ . كذلك تظهر العدوانية في الأفعال العلانية، التي يقوم بها الأطفال بالاعتداء بالضرب، أو الدفع، أو الركل أو الطعن، التشاجر، والتخريب، أو بأي نوع من أساليب الإيذاء التي يستخدمها الأطفال مع بعضهم كتمزيق الكتب أو الكراسيات أو تحطيم الأقلام.
- ٣ . العدوانية كثيراً ما تتجه نحو الممتلكات مثل خدش الأدرج أو الكتابة عليها أو الكتابة على الجدران، ويبدو هذا وكأن الأطفال العدوانيين يُعدون ما يشبه الخطة لإتلاف الممتلكات المدرسية.
- ٤ . وبعض الأطفال يلطخون ملابسهم أو ملابس الآخرين، أو أشياء تخصهم مثل اللعب والأدوات، إن حركات بعض الأطفال العدوانيين يمكن أن توصف بأنها سريعة حاسمة مهتزة.
- ٥ . الأطفال العدوانيون في علاقتهم مع المعلمين يظهرون أحياناً بمظهر التدني وعدم الحياء، ويظهر بمظهر التحدي والميل إلى المشاحنة والاعتداء.
- ٦ . رغبة الطفل في التنفيس عما يشعر به من إحباط وشعور بالنقص «ميكانيزمات الدفاع النفسية».
- ٧ . شعور الغيرة بين الأخوة وبخاصة في الأسرة كبيرة العدد.

بعض نظريات العدوان وسبل الحد من السلوك العدواني:

تعمل النظريات على تفسير السلوك العدواني بين الأفراد وإلى دراسة الأدلة المتصلة بها، كما يهدف إلى النظر فيما يقدمه علماء النفس الاجتماعي من اقتراحات للحد من السلوك العدواني وضبطه .

١- مختار، وفيق صفوت (٢٠٠١). مشكلات الأطفال السلوكية، ط١، القاهرة: دار العلم والثقافة، ص٤٥.

١ - نظريات الغريزة :

أعتقد الفيلسوف البريطاني توماس هوبز Tomas Hopes أن الناس يميلون بالفطرة إلى التنافس والعدائية وأنهم لا يهتمون إلا بما ينفعهم ويساعدهم على التفوق على الآخرين ويزيد من سلطتهم، ولتجنب الصراع والتدمير المتبادل فيما بينهم ، رأى (هوبز) أن الناس بحاجة ماسة إلى حكومة^(١).

٢ - نظرية (فرويد) في التحليل النفسي^(٢) :

يفترض فرويد أن جميع الغرائز تهدف إلى تخفيض التوتر أو التهيج إلى حددهما الأدنى وصولاً إلى القضاء عليهما في نهاية المطاف. وقد تمحورت كتابات (فرويد) المبكرة حول الدافع إلى البقاء وافترض أن الناس تدفعهم رغبات عارمة لكسب المتعة واللذة والمحافظة على الذات. وقد أطلق (فرويد) على هذا الدافع اسم إيروس (EROS) (وهو إله الحب عند اليونان) ، كما وافترض وجود دافع آخر لدى البشر هو الدافع الي الموت، وتدمير الذات والعودة إلى حالة اللاحياة، والخلود إلى الطمأنينة التي لم تتحقق لنا إلا في رحم الأم أو على ثديها. وأطلق (فرويد) على هذا الدافع اسم تاناتوس، وهو (إله الموت عند اليونان). ولأن هاتين الغريزتين متعارضتين فإن فرويد يعتقد بأن إشباع غريزة الموت يتحقق بتحويل العدوان الموجه نحو الذات أصلاً إلى الخارج، فيكون لا بد لنا من أن ندمر شيئاً أو شخصاً آخر إذا أردنا أن لا ندمر أنفسنا. فما لم تجد غريزة الموت طريقاً مقبولاً للتعبير عن نفسها (من خلال نشاط يفرغ طاقتها كالرياضة مثلاً) فإن الناس سيلجؤون إلى العدوان من وقت إلى آخر لإطلاق الطاقة العدوانية المتراكمة لديهم . ويعتقد (فرويد) إذن أننا بحاجة إلى التعبير عن الطاقة العدوانية المدمرة الكامنة لدينا تماماً مثل حاجتنا إلى الطعام والشراب من حين إلى آخر.

٣ - نظرية لورنز Lorenz الايثولوجية^(٣) :

على الرغم من الاختلاف القائم بين فرويد و لورنز في العديد من الوجوه، إلا أن لورنز يشارك فرويد في النظر إلى العدوان على أنه دافع غريزي، ويرى شأنه شأن فرويد، ضرورة إطلاق الطاقة العدوانية من حين لآخر حتى لا تتراكم إلى حد خطير. ويذهب لورنز Lorenz في

١- عبد القوى، سامي (١٩٩٥). علم النفس الفسيولوجي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٩٣-٢٩٧.
٢- أبو عطية، سهام (٢٠٠٢). السلوكيات العدوانية وأساليب ضبطها لدى الطلبة في مدارس عمان الكبرى كما يراها الإداريون والمرشدون والعاملون، الإمارات العربية المتحدة : مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ١٨، العدد ١، ص١٠٢.
٣- زايد، أحمد وآخرون (٢٠٠٤). العنف بين طلاب المدارس وبعض المتغيرات النفسية - الارتباطات والمنبئات، مرجع سابق، ص٦١.

كتابه (العدوان) إلى اعتبار العدوان غريزي لدى جميع أنواع الحيوانات، لأن له وظيفة تكيفية، أي أنه يتيح للحيوانات التكيف مع بيئتها والتكاثر فيها والمحافظة على البقاء بنجاح. ويعرف لورنز Lorenz العدوان على أنه تلك «الغريزة القتالية لدى الإنسان والحيوان والموجهة ضد أفراد النوع ذاته».

ويرى لورنز Lorenz أن الإنسان أضعف كثيراً من الناحية البيولوجية عن بقية الحيوانات وأنه يفتقر إلى أدوات السلامة والغريزة الموجودة لدى الحيوانات الأخرى. فعلى الرغم من أن العدوان لدى الإنسان يمثل عاملاً من عوامل التكيف إلا أنه يخضع لتحكم الطقوس الملاحظة لدى الحيوانات الأخرى. وهذا لا يعني إطلاقاً أن سلوك الاسترضاء أو التهدة الذي يظهره الإنسان في بعض الأحيان - مثل التوسل أو استجداء الرحمة أو التدلل - غير مؤثرة.

ثانياً: فرط النشاط واضطراب الانتباه

١- فرط النشاط (Hyperactivity)

يشير روس Roass إلى الطفل ذي الفرط في النشاط على أنه الطفل الذي دائماً ما يبدى مستويات مرتفعة وعالية من النشاط حتى في المواقف التي لا تتطلب ذلك والطفل الذي يقاوم التدريب وذو مزاج متقلب^(١).

لذا من الطبيعي أن يكون الأطفال أقل استقراراً من الكبار، فهم لا يستطيعون الجلوس ساكنين لمدة طويلة، فهم أميل للقيام بالأعمال من الجلوس والتفكير ولكن هناك بعض الأطفال تزيد لديهم حالة النشاط الزائد وعدم الاستقرار أكثر من الأطفال العاديين، فهم لا يهدأ لهم بال ولا يستقرون على حال، والطفل النشط يصادف قيوداً في بيئته أكثر من تلك التي يصادفها الطفل الذي لا يتحرك كثيراً، ونتيجة لذلك تتمولى الأطفال من النوع الأول عداوة تجاه الأشخاص الذين يفرضون عليهم تلك القيود، ثم تقابل هذه العداوة بقيود أكثر، وسرعان ما يتكون لدى الطفل نمط من الاستجابة العدائية المزمنة.

أما أعراض فرط النشاط فيمكن اجمالها بما هو آت: الاندفاعية، وفرط في النشاط الحركي، وعدم القدرة على الانتباه، وتزداد هذه الأعراض بشدة في المواقف التي تتطلب من الطفل التعبير عن ذاته وقصور الوظائف الاجتماعية^(٢).

١- صبري، سامي (٢٠٠٧). خصائص استجابة الأطفال المحرومين وغير المحرومين من الرعاية الوالدية، القاهرة: بحث منشور مجلة دراسات نفسية، العدد ٥٠، ص ٨٢.

٢- عبد القادي، عفاف (٢٠٠٢). علم النفس الاجتماعي. القاهرة: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢٦٢.

أسباب فرط النشاط

الأسباب العصبية الحيوية :

بعض الأطفال المصابين بهذا المرض يمكن أن نجد لديهم تلف بسيط بالمخ ناتج عن السموم أو مواد ناتجة عن عمليات بنائية والتي تنتقل إلى المخ في مرحلة التكوين وهو جنين، وهذا يفسر انخفاض التعليم على الوجه الأكمل في هؤلاء الأطفال.

الأسباب الوراثية :

يرجع البعض فرط النشاط إلى أسباب وراثية تتمثل في الاستعداد الوراثي للإصابة بفرط النشاط . وشذوذ الكروموسومات Chromosome Anomalg وتداخل الكروموسومات السائدة أو المتنحية ، بينما يرجع البعض الآخر سبب خلط فرط النشاط للتغيرات التي تحدث للأم أثناء الحمل من حركة مستمرة وقلق وكذلك التوائم ، ويلاحظ أن الأب الحامل للمرض عند إنجابها للأطفال تكون الإصابة في أطفاله جميعاً^(١).

تلف المخ

وجود تلف بسيط في المخ وذلك في مرحلة الأجنة وقبل الولادة ناتج عن سموم أو مواد بنائية.

تأخر النضج

يعتبر البعض أن التأخر في النضج يكون سبباً في حدوث فرط النشاط وهم لا يعترفون بإصابة المخ كسبب لفرط النشاط ، ويرى كينسبورن Kinsbourne أن التأخر النسبي في النضج يؤدي إلى حدوث بطء في نمو عملية الضبط اللحائي للنشاط، ويعتبر الطفل أن لديه تأخر في النضج عندما يختلف مستوى أدائه عن الطفل العادي الذي له نفس العمر الزمني والعقلي، بمعنى آخر أن أداء الطفل كبير السن المفرط في النشاط يكون مكافئاً لأداء الطفل العادي الأصغر منه سناً ، حيث أن بعض الأطفال يتأخر لديهم النمو وبالتالي تظهر أعراض اضطراب الانتباه وفرط النشاط^(٢).

العوامل البيئية

وتتمثل عناصر البيئة المرتبطة بظهور فرط النشاط لدى الأطفال في الآتي : قد يكون فرط

١- نجيب، عطيه (٢٠٠٥). المشكلات النفسية للأطفال في مدارس الفيوم. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الخدمة الاجتماعية - جامعة القاهرة، ص ٢١٦.

٢- إسحق، يوسف (٢٠٠٦). أثر الوسط العائلي على المشكلات النفسية اليومية للأطفال. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الفيوم، ص ١٦٨.

النشاط سلوكاً متعلماً من البيئة المحيطة، تقليداً لنموذج نشط سلوكياً كأن يقلد طفلٌ آخر أكبر منه في السن أو أكثر منه نشاطاً وقد يكون استجابة للفشل المستمر فيما يُكَلَّفُ به الطفل، وقد يكون فرط النشاط راجعاً إلى بيئة الفصل الدراسي، أو لظروف الأسرة الاجتماعية والنفسية والعلاقة بين الأب والأم والأبناء قد يكون سبباً من أسباب تصدع تلك العلاقات الاجتماعية^(١).

٢- اضطراب الانتباه:

يُعرف في الموسوعة الفلسفية بأنه الاضطراب الذي يشمل كلاً من الشكل التلقائي والإرادي للانتباه ويدور حول الضعف في القدرة على تركيز العمليات العقلية في الاتجاه المطلوب وعدم القدرة على التركيز بالأحداث، وقصور في عدد الصور المتغيرة المنطبعة في الذهن. وهو من المصطلحات التي ظهرت حديثاً ويحدث للطفل في سن الثالثة ونادراً ما يتم تشخيصه حتى يدخل الطفل المدرسة ويظهر بدرجة كبيرة في الذكور عند مقارنتهم بالإناث^(٢).

أسباب اضطراب الانتباه^(٣):

- ١ . عوامل عضوية : كالتشوّهات الخلقية أثناء الولادة والرضوض وهزات المخ بسبب وقوع حوادث للطفل.
- ٢ . الاضطرابات الأسرية والتوتر الذي يسود العائلة .
- ٣ . نقص ذكاء الطفل أو ارتفاع عدوانيته تجاه نفسه والبيئة المحيطة .
- ٤ . دخول الطفل في عبء اجتماعي جديد مثل الروضة أو المدرسة.

الفصل الثالث: الطريقة والنتائج

أولاً: مجتمع الدراسة

في ضوء الشروط الموضوعية والتي تهدف إلى سحب عينة ممثلة تمثيلاً صحيحاً لمجتمع الدراسة الحالية من الأطفال المحرومين من الوالدين فقد تم حصر المجتمع الأصلي لأطفال دار رعاية الطفل بمنطقة أبي هريدة بطرابلس ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٦ - ٩) سنوات من الجنسين وقد بلغ عددهم (٢٧) طفلاً وطفلةً، بالصفوف الأولى، الثاني، الثالث، الرابع الشق الأول من مرحلة التعليم الأساسي.

١- عبدالله، ناصر عويس (٢٠٠٨). تأثير موقف الحرمان الوالدي على الغش المدرسي والعدوان والنشاط الزائد لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، مرجع سابق، ص١٩٨.

٢- محمد، ألفت (٢٠٠٦). المشكلات النفسية لأطفال مرحلة الطفولة الوسطى، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ص١٢٦.

٣- إسماعيل على، أميمة (٢٠٠٥). المشكلات السلوكية والانفعالية التي يعاني منها أطفال المرحلة الابتدائية المحرومين وغير المحرومين من الرعاية الوالدية مرجع سابق، ص١٤٢.

الجدول (١) يوضح تكرارات ونسب عينة الدراسة حسب الصف الدراسي

النسبة المئوية	التكرار	الصف
٤٨,١%	١٣	الأول
١٤,٨%	٤	الثاني
١٤,٨%	٤	الثالث
٢٢,٢%	٦	الرابع
١٠٠%	٢٧	المجموع

ثانياً: عينة الدراسة

لغرض التعرف على المشكلات النفسية والاجتماعية (العنصرية ونقص الانتباه) للأطفال المحرومين من الوالدين، وحيث أن المجتمع الأصلي للدراسة ضم (٢٧) من أطفال دار رعاية الطفل بمنطقة أبي هريدة بطرابلس ممن يتراوح العمر الزمني لهم من (٦-٩) سنوات فقد تم إدخالهم جميعاً ضمن عينة الدراسة، فكانت طريقة مسحية نظراً لقلة عددهم.

منهج الدراسة :

لتنفيذ هذه الدراسة قامت الباحثة بتوظيف المنهج الوصفي والذي يعتمد على وصف الظاهرة المراد دراستها.

أدوات الدراسة :

تم الاستعانة بمقياس أشكال السلوك العدواني لدى الأطفال، إعداد / نبيل عبد الفتاح حافظ ، ونادر فتحى قاسم / جامعة عين شمس، وهو مقياس مقنن تم عرضه على لجنة من المحكمين ومقياس الصدق والثبات له، وقد ثبتت مناسبته لقياس مشكلة الدراسة.

نتائج الدراسة ومناقشتها

أولاً: نتائج التساؤل الأول وتفسيره

نصّ التساؤل الأول على: ما مدى تأثير الحرمان من الوالدين على التكوين النفسي العدواني؟ وقد اعتمدت الباحثة على مستوى المتوسط النظري للعامل كمييار لتحديد مستوى السلوك العدواني لدى عينة الدراسة حيث تمثل قيمة المتوسط النظري للعامل الدرجة الوسطى ، اعتماداً على عدد عبارات كل عامل ووزن مدرج المقياس المستخدم . والجدول رقم (١) يوضح اختبار (ت) لعينة على مقياس أشكال السلوك العدواني.

الجدول (١) الآتي يوضح اختبار (ت) لعينة واحدة بين متوسط العينة والمتوسط النظري

لمقياس أشكال السلوك العدواني

عوامل مقياس أشكال السلوك العدواني	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط النظري للعامل	قيمة اختبار (ت)	مستوى الدلالة
عامل العدوان المادي	٤٥،٢٢	١٠،٢٦	٥٠	٢،٤١٨	٠،٠٢٣
عامل العدوان اللفظي	٥٠،٧٤	٤،١٣٧	٥٠	٠،٩٣	٠،٣٦١
عامل العدوان السلبي	٥٦،٧٤	٨،٧٨	٥٠	٣،٩٨٨	٠،٠٠٠
عامل السلوك السوي	٥٢،٨٨	١١،٨٤	٥٠	١،٢٦٧	٠،٢١٦
مجموع مقياس أشكال السلوك العدواني	٩٩،٨١	١٩،٩٣	١٠٠	٠،٠٤٨	٠،٩٦٢

قيمة ت الجدولية بدرجة حرية ٢٦ ومستوى دلالة $٠،٠٥ = ٢،٠٥٦$

يتضح من الجدول (١١) وجود فروق بين متوسط الدرجات التي حصل عليها أفراد العينة من أطفال دار رعاية أبي هريدة للأطفال المحرومين من الوالدين بطرابلس والمتوسط النظري للعوامل الأربعة لمقياس أشكال السلوك العدواني (العدوان المادي - العدوان اللفظي - العدوان السلبي - السلوك السوي) الأمر الذي يشير إلى وجود فروق بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة والمتوسط الحسابي للنظري للمقياس حيث حصلت عينة الدراسة على متوسط حسابي في العدوان المادي (٤٥،٢٢) بانحراف معياري (١٠،٢٦) وفي العدوان اللفظي على متوسط حسابي (٥٠،٧٤) بانحراف معياري (٤،١٣٧) وفي العدوان السلبي على متوسط حسابي (٥٦،٧٤) بانحراف معياري (٨،٧٨) وفي السلوك السوي على متوسط حسابي (٥٢،٨٨) بانحراف معياري (١١،٨٤) وفي مجموع مقياس أشكال السلوك العدواني على متوسط حسابي (٩٩،٨١) بانحراف معياري (١٩،٩٣) في مقابل المتوسط النظري لعوامل المقياس الأربعة والبالغ (٥٠) وللدرجة الكلية للمقياس والبالغة (١٠٠) ولتحديد دلالة الفروق بين المتوسطات تم استخدام اختبارات (ت) وقد اتضح وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى (٠،٠٥) بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة المحرومين من الوالدين في العدوان المادي والمتوسط النظري لعامل العدوان المادي حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (٢،٤١٨) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة (٠،٠٥) والبالغة (٢،٠٥٦) يتضح أن القيمة الثائية المحسوبة أكبر من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى وجود فروق دالة إحصائية بين المتوسطين ولصالح المتوسط النظري حيث حصلت عينة الدراسة من الأطفال المحرومين من الوالدين على متوسط حسابي في العدوان المادي (٤٥،٢٢) بانحراف معياري (١٠،٢٦) في مقابل المتوسط النظري لعامل العدوان المادي (٥٠) ولذلك يعتبر مستوى العدوان المادي لدى الأطفال المحرومين من الوالدين أقل من المستوى المتوسط.

كما اتضح أيضاً من الجدول عدم وجود فروق دالة إحصائية بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في السلوك السوي والمتوسط النظري لعامل السلوك السوي حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (١،٢٦٧) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة (٠،٠٥) والبالغة (٢،٠٥٦) يتضح أن القيمة التائية المحسوبة أقل من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين المتوسطين.

وعلى ضوء هذه النتيجة يعتبر مستوى السلوك السوي لدى الأطفال المحرومين من الوالدين متوسط. ويمكن تفسير تلك النتيجة على النحو الآتي:

١- ربما يعود ذلك إلي أن الأطفال المحرومين يعتقدون أن تخلي أسرهم عنهم هو عقاب لهم وأن القلق الناجم عن مشاعر الغضب التي تتولد لديهم تقودهم إلى الإنكار والكبت وقد تقودهم هذه المشاعر إلى تصرفات وسلوكيات خاطئة.

٢- كما يمكن تفسير السلوكيات العدوانية لدى الأطفال المحرومين من الوالدين إلى أن الدور الوظيفي للأسرة له تأثير كبير على حياة أفرادها وسلوكهم وتفكيرهم واتجاهاتهم فالطريقة التي تنظم بها الأسرة أسلوب الحماية والرعاية والتعليم لأفرادها وطريقتها في الوفاء بحاجات أعضائها الجسدية والفكرية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة العلاقات السائدة وخصائصها وأسلوب رعاية الوالدين وسلوكهما مع الطفل كلها عوامل تؤدي إلى تعزيز وتدعيم النمو الجسدي والعقلي والانفعالي والاجتماعي لأفرادها.

ثانياً: نتائج التساؤل الثاني وتفسيره

نص التساؤل الثاني على: ما مدى تأثير الحرمان من الوالدين على قلة الانتباه والتركيز؟ واعتمدت الباحثة على مستوى المتوسط النظري لمقياس انتباه الأطفال وتوافقهم CAAS (صورة المدرسة) وصورة (المنزل) وذلك لتحديد مستوى الانتباه والتركيز لدى عينة الدراسة. وبعد تحليل إجابات العينة على مقياس انتباه الأطفال وتوافقهم (CAAS) (صورة المدرسة) والمحدد بالدراسة سبعة أبعاد هي على التوالي (نقص الانتباه N، التسرع I، اضطراب القصور في الانتباه ADD، النشاط المفرط H، اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة ADAD، مشكلات السلوك CD، اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة المشتق من ADHD-DSM111 - R وبشكل عام فقد تباينت متوسطات العينة من أطفال دار رعاية الأطفال بأبي هريدة بطرابلس المحرومين من الوالدين على الأبعاد السبعة وكانت على التوالي (١١،٧٤ - ٧،٢٥ - ١٩،٠٠ - ٩،٦٢ - ٣٥،٢٧ -

١٧،٠٧ - ١٧،١١) بانحرافات معيارية هي على التوالي (٢،٧٧ - ٢،٨٩ - ٥،٧٥ - ٤،٦٨ - ١٣،٠٦ - ٩،٢٥ - ٦،٥١) في حين أن المتوسط النظري للأبعاد السبعة للمقياس هي على التوالي (١٢،٥ - ٧،٥ - ٢٠،٠ - ١٠ - ٣٧،٥ - ٢٠،٠ - ١٧،٥)، والجدول (٢) يوضح ذلك:

جدول (٢) اختبار (ت) لعينة واحدة بين متوسط العينة والمتوسط النظري لمقياس انتباه

الأطفال وتوافقهم (CAAS) صورة المدرسة

مستوى الدلالة	قيمة اختبارات	المتوسط النظري للمقياس	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	مقياس انتباه الأطفال وتوافقهم صورة المدرسة
٣٠٦،	١،٠٤٤	١٢،٥	٢،٧٧	١١،٧٤	نقص الانتباه N
٦٦٩،	٤٣٣،-	٧،٥	٢،٨٩	٧،٢٥	التسرع I
٣٧٥،	٩٠٢،-	٢٠،٠	٥،٧٥	١٩،٠٠	اضطراب التصور في الانتباه ADD
٦٨٥،	٤١١،-	١٠	٤،٦٨	٩،٦٢	النشاط المفرط H
٤٠٥،	٨٤٧،-	٣٧،٥	١٣،٠٦	٣٥،٢٧	اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة ADHD
١١٢،	١،٦٤٣-	٢٠،٠	٩،٢٥	١٧،٠٧	مشكلات السلوك C D
٧٥٩،	٣١٠،-	١٧،٥	٦،٥١	١٧،١١	اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة المشتق من ADHD - DSM 111-R

قيمة ت الجدولية بدرجة حرية ٢٦ ومستوى دلالة ٠،٠٥ = ٢،٠٥٦

يتضح من الجدول (٢) عدم وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى (٠،٠٥) بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في نقص الانتباه (صورة المدرسة) والمتوسط النظري لبعد نقص الانتباه حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (١٠،٤٤) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة (٠،٠٥) وبالبالغة (٢،٠٥٦) يتضح أن القيمة التائية المحسوبة أقل من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين المتوسطين مما يتضح منه أن مستوى نقص الانتباه (صورة المدرسة) لدى الأطفال المحرومين من الوالدين: متوسط.

كما اتضح من الجدول (٢) عدم وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى (٠،٠٥) بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في التسرع (صورة المدرسة) و المتوسط النظري لبعد التسرع حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (٠،٤٣٣) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى الدلالة (٠،٠٥) وبالبالغة (٢،٠٥٦).

ويتضح أيضاً من الجدول (٢) عدم وجود فروق دالة إحصائياً عند مستوى (٠,٠٥) بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في اضطراب القصور في الانتباه (صورة المدرسة) والمتوسط النظري لبعده النشاط المفرط حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (٠,٨٤٧) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة (٠,٠٥) وبالباقي (٢,٠٥٦) يتضح أن القيمة التائية المحسوبة أقل من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين المتوسطين مما يتضح منه أن مستوى اضطراب القصور في الانتباه (صورة المدرسة) لدى الأطفال المحرومين من الوالدين: متوسط.

والجدول رقم (٢) يوضح اختبار (ت) لعينة واحدة بين متوسط العينة والمتوسط النظري لمقياس انتباه الأطفال وتوافقهم (CAAS) صورة المنزل

مستوى الدلالة	قيمة اختبار (ت)	المتوسط النظري للمقياس	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	مقياس انتباه الأطفال وتوافقهم صورة المنزل
٢٧٩	٨٩٦	١٢,٥	٢,٥٤	١٢,١١	نقص الانتباه N
٠٠٤	٢,١١٥	١٠,٠	٢,٩٠	٨,٢٥	التسرع I
٢٨٤	٩٥٦	٢٢,٥	٦,١٤	٢١,٢٧	اضطراب القصور في الانتباه ADD
٧١٩	٣٦٤	١٥,٠	٤,٧٥	١٥,٣٣	النشاط المفرط H
٥٦٦	٥٨٢	٤٢,٥	١١,٠٧	٤١,٢٥	اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة ADHD
٧٣٥	٣٤٢	١٥,٠	٥,٦٣	١٥,٣٧	مشكلات السلوك C D
٣٠٨	١,٠٣٩	١٧,٥	٥,٠٩	١٨,٥١	اضطراب نقص الانتباه مفرط الحركة المشتق من ADHD – DSM 111-R

قيمة ت الجدولية بدرجة حرية ٢٦ ومستوى دلالة ٠,٠٥ = ٢,٠٥٦

يتضح من الجدول (٢) عدم وجود فروق دالة إحصائياً عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في نقص الانتباه (صورة المنزل) والمتوسط النظري حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (٠,٨٩٦) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة ٠,٠٥ وبالباقي (٢,٠٥٦) يتضح أن القيمة التائية المحسوبة أقل من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين المتوسطين مما يتضح منه أن مستوى نقص الانتباه (صورة المنزل) لدى الأطفال المحرومين من الوالدين: متوسط.

كما يتضح من الجدول (٣) وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسط الحسابي لعينة الدراسة في التسرع (صورة المنزل) والمتوسط النظري حيث بلغت قيمة (ت) الخاصة بالمقارنة بين المتوسطين (٣,١١٥) وبمقارنتها بقيمة (ت) الجدولية عند درجة حرية (٢٦) ومستوى دلالة ٠,٠٥ وباللغة (٢,٠٥٦) يتضح أن القيمة التائية المحسوبة أكبر من القيمة الجدولية الأمر الذي يشير إلى وجود فروق دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بين المتوسطين مما يتضح منه أن مستوى التسرع (صورة المنزل) أكبر من المستوى المتوسط .

وقد أظهرت هذه النتائج أن مظاهر الإفراط في النشاط، الحركي ونقص الانتباه في (صورة المنزل وصورة المدرسة) ، كانت متوسطة لدى الأطفال المحرومين من الوالدين.

وتتفق هذه النتيجة مع ما توصلت إليه دراسة كل من عفاف عبد الفادي (٢٠٠٦) أميمه إسماعيل (٢٠٠٥) من أن الأطفال المحرومين من الوالدين يعانون من مشكلات أبرزها مشكلات الطعام ، التمرد والعناد، التبول اللاإرادي، نقص الانتباه، في أن الحرمان من الوالدين وبخاصة الأم له آثار في تعطيل النمو الجسمي والذهني والاجتماعي، واضطراب النمو النفسي (اضطراب تكوين الأنا والانا الأعلى).

التوصيات

في ضوء النتائج التي تمّ التوصل إليها تعرض الباحثة فيما يلي مجموعة من التوصيات:

- ١- إجراء دراسات مماثلة للتعرف على المشكلات التي يعاني منها أطفال دار الرعاية لمعرفة أسبابها ومحاولة تجاوزها.
- ٢- إعداد البرامج والخدمات التوجيهية والإرشادية للأطفال المحرومين من الوالدين والكشف المبكر عن حالات العدوان وقلة الانتباه والتركيز لديهم وتمية استعداداتهم ومواجهة مشكلاتهم النفسية والاجتماعية.
- ٣- تجنب العصبية والألفاظ الجارحة والعنف في التعامل مع الأطفال المحرومين من الوالدين لما لذلك من تأثير ضار على مستوى العدوان وقلة الانتباه والتركيز.
- ٤- عقد مؤتمرات محلية للأطفال المحرومين من الوالدين بصورة دورية بهدف متابعة مشكلاتهم واحتياجاتهم والأساليب المناسبة للتعامل معهم داخل دار رعاية الأطفال.

المقترحات

تقدم الدراسة الحالية عدداً من البحوث المقترحة في مجال رعاية الأطفال المحرومين من الوالدين على النحو التالي :

- ١- إجراء دراسة للمشكلات النفسية والاجتماعية لأطفال دار الرعاية المحرومين من الوالدين (الخوف والقلق) .
- ٢- إجراء دراسة ثقافية مقارنة بين العدوان وقلة الانتباه والتركيز لدى أطفال دار الرعاية للمحرومين من الوالدين عبر عدد من البلاد العربية.
- ٣- إجراء دراسة مسحية مقارنة لبرامج رعاية الأطفال المحرومين من الوالدين في ليبيا.
- ٤- الاحتياجات النفسية لدى الأطفال المحرومين من الوالدين والمقيمين بدار رعاية الطفل.

الدكتور محمد سليم الشورة

أستاذ التسويق المشارك

جامعة الشرق الأوسط

أ. لؤي صبحي دجور

ماجستير ادارة الأعمال

دور المعرفة السوقية في اختيار الإستراتيجيات التنافسية في مؤسسات التعليم العالي الخاصة الأردنية

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى توضيح دور المعرفة السوقية في تحديد الخيارات الإستراتيجية التنافسية في عينة من (٧) جامعات خاصة أردنية بالعاصمة عمان وبيان مدى تحقق المزايا التنافسية الناتجة من تلك الخيارات للطلبة الدارسين بتلك الجامعات حيث تم أخذ عينتين من الأفراد، الأولى كانت خاصة بالإداريين تتألف من (١٥٠) إدارياً، والعينة الثانية كانت خاصة بطلبة كلية الأعمال والمؤلفة من (٤٥٠) طالباً يدرسون بتلك الجامعات.

ومن أهم النتائج لهذه الدراسة: أهمية المعرفة السوقية (الطلبة، المنافسون) لتحديد الخيار الإستراتيجي التنافسي، ضرورة التحقق من وصول هذه المزايا للطلبة الدارسين بتلك الجامعات، وأوصى الباحث بضرورة التركيز على إستراتيجية التميز بالخدمة التعليمية الجوهرية وزيادة الإنفاق على البحث العلمي وخدمة المجتمع نظراً لضعفها في الجامعات الخاصة الأردنية حسب نتائج التحليل الإحصائي للدراسة.

Abstract

This study aimed for clarifying the role of market knowledge for determining the competitive strategic alternatives, within the sample of (7) private Jordanian universities within the capital Amman. And showing the

level of accomplishing the competitive advantages resulting from the chosen alternatives over the students in the universities. Two samples were taken the first one of the management consists of (150) samples, and the other sample of the students consists of (450) students.

The main results of this research were: the importance of market knowledge presented by students' knowledge and competitors' knowledge for determining the competitive strategic alternatives. The researcher recommended that , the importance of focusing on the core product differentiation strategy and investing in scientific research and the community services due to their low levels in the Jordanian private universities according to the statistical results of this research.

تمهيد :

لا يخفى أن التعليم في الوطن العربي يتسم بتدني مستوى التحصيل المعرفي وضعف القدرات الإبتكارية والتحليلية ، ما أدى إلى ظهور خلل في العلاقة بين سوق العمل من جهة وبين مخرجات التعليم من جهة أخرى مما تسبب في زيادة البطالة وضعف المساهمة في التنمية في شتى المجالات^(١).

وقد فتح الأردن المجال للاستثمار بالتعليم العالي على مصراعيه وتمييز عن غيره مبكراً بالسماح للقطاع الخاص بتأسيس جامعات خاصة ليصل عددها (١٨) جامعة حتى هذا العام (٢٠٠٩) حسب تقارير الموقع الرسمي لوزارة التعليم العالي الأردني (www.mohe.gov.jo) ويدرس فيها (٦٠) ألف طالب و طالبة في مرحلة البكالوريوس، يشكلون ما نسبته (٢٧٪) من مجموع طلبة البكالوريوس في المملكة ، بالإضافة إلى (١٧٥٤٣) طالب وطالبة دراسات عليا يدرسون في هذه الجامعات الخاصة والرسمية حسب إحصاءات الموقع الرسمي لوزارة التعليم العالي الأردني (www.mohe.gov.jo).

ويتولى التدريس في الجامعات لمختلف المراحل الجامعية ما مجموعه (٧٦١٣) عضو هيئة تدريس من مختلف الرتب الأكاديمية والجنسيات (٦٧١٦ أردني ، ٨٠٠ عربي ، ٩٧ أجنبي) حسب ما ورد في الموقع الرسمي لوزارة التعليم العالي الأردني (www.mohe.gov.jo).

وفي هذا الإطار فإن هناك زيادة في أعداد طلبة الدراسات العليا حيث يبلغ عددهم حوالي (١٧,٥٤٣) طالب و طالبة للعام (٢٠٠٨/٢٠٠٩) ويتولى تدريس هؤلاء الطلبة جميعا

١- (حوات، ٢٠٠٢، ص ١٤٥)

لمختلف المراحل الجامعية ما مجموعه (٧٦١٣) عضو هيئة تدريس من مختلف الرتب الأكاديمية والجنسيات كما هو موضح بالموقع الرسمي لوزارة التعليم العالي (www.mohe.gov.jo) وبلغ عدد الجامعات الرسمية حتى الان في (٢٠٠٩) (١٠) جامعات يدرّس فيها حوالي (١٦٠) ألف طالب وطالبة في مرحلة البكالوريوس، يشكلون ما نسبته (٧٣٪) من مجموع طلبة البكالوريوس في المملكة، فيما تشكل الإناث في الجامعات الرسمية ما نسبته (٥٧,٣ ٪) من طلبتها.

ويصل عدد الطلبة العرب والأجانب في كافة الجامعات الأردنية إلى (٢٧,٨٧١) طالبا وطالبة (www.mohe.gov.jo).

مشكلة الدراسة :

راج حديثا في المجتمع الأردني عن آثار التعليم في مؤسسات التعليم العالي الخاصة بأنها ذات طابع ربحي أكثر من كونها مؤسسات أكاديمية ، ما دفع الأجهزة الحكومية المعنية بالتعليم العالي إلى التدخل لإحداث إصلاحات ، وبرغم ذلك ما زال السائد أن تلك المؤسسات ذات مساهمة محدودة في مجال البحث العلمي وهذا قد يعكس تراجع دور إستراتيجيات التسويق المستخدمة في تلك المؤسسات ، ولتحويل المشكلة إلى ترجمة واقعية تعكس ما ورد ذكره فقد طُرحت التساؤلات الآتية:

التساؤل الاول: ما هي المعرفة السوقية التي تمتلكها الجامعات الخاصة الأردنية والمتمثلة بكادرها الإداري الأكاديمي (الرؤساء، والعمداء ، ورؤساء الأقسام العلمية) حول السوق (الطلبة، والمنافسون)؟

التساؤل الثاني: هل تختلف المعرفة السوقية التي تمتلكها الجامعات الخاصة الأردنية (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) حول السوق (الطلبة، والمنافسون) باختلاف المتغيرات الديمغرافية لإدارة الجامعات الخاصة من حيث (العمر، الخبرة، الجنس)؟

التساؤل الثالث: ما هو أثر المعرفة السوقية حول (الطلبة، المنافسون) في تحديد الإستراتيجيات التنافسية التي تطبقها إدارة الجامعات الخاصة في الأردن؟

التساؤل الرابع: ما هي المزايا التنافسية التي تسعى الجامعات الخاصة الأردنية إلى تحقيقها من خلال إستراتيجياتها التنافسية ؟

فرضيات الدراسة :

في ظل تحديد مشكلة الدراسة ومعرفة أهميتها وأهدافها ومطالعة النظريات العلمية

والدراسات السابقة ذات العلاقة ، تم صياغة فرضيات النفي التالية:

- **الفرضية الاولى:** لا يوجد أثر ذو دلالة إحصائية للمعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة ممثلة ب(الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) في سوق الطلبة والمنافسين في تحديد الإستراتيجيات التنافسية (قيادة التكلفة، والتميز، والتركيز).

- **الفرضية الثانية:** لا يوجد اختلاف في المعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة الأردنية متمثلة بكادرها الإداري الأكاديمي (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) في سوق (الطلبة، والمنافسون) باختلاف المتغيرات الديمغرافية (العمر، والخبرة، والجنس)؟

- **الفرضية الثالثة:** لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية قيادة التكلفة وتحقيق ميزة التكلفة (السعر) الأقل في الجامعات الخاصة الأردنية.

- **الفرضية الرابعة:** لا توجد هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التميز وتحقيق ميزة جودة الخدمات التعليمية الجوهرية في الجامعات الخاصة.

- **الفرضية الخامسة:** لا توجد هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التميز وتحقيق ميزة جودة الخدمات التعليمية التكميلية في الجامعات الخاصة.

- **الفرضية السادسة:** لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التميز وتحقيق ميزة موقع الجامعة والمحيط المادي في الجامعات الخاصة.

- **الفرضية السابعة:** لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التركيز وتحقيق ميزة خدمة شريحة سوقية محددة في الجامعات الخاصة.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. تحديد المعرفة السوقية التي يمتلكها العاملون في الإدارة الجامعية (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) في الجامعات الخاصة الأردنية حول: الطلبة، والمنافسين، ومدى اختلاف تلك المعرفة باختلاف المتغيرات الديمغرافية (العمر، الخبرة، الجنس).

٢. معرفة أثر المعرفة السوقية للإدارة الجامعية في تحديد الإستراتيجيات التنافسية في الجامعات الخاصة الأردنية.

٣. معرفة المزايا التنافسية التي تسعى الجامعات الخاصة الأردنية الى الوصول إليها من خلال الإستراتيجيات التنافسية.

٤. تقديم مجموعة من التوصيات لقطاع التعليم العالي الخاص في الأردن علّها تساهم في تحسين البيئة التعليمية في الأردن.

أهمية الدراسة :

تستمد هذه الدراسة أهميتها من أهمية العملية التعليمية حيث :

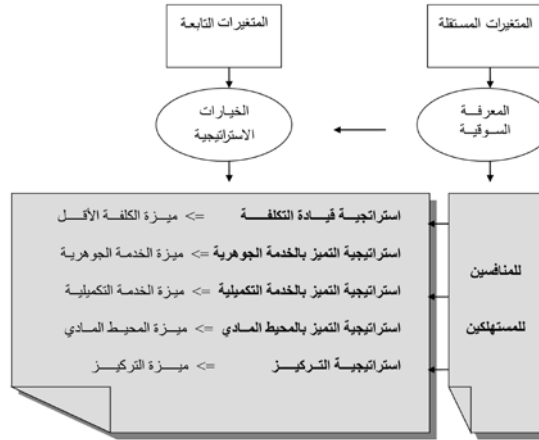
١- أهمية قطاع التعليم ودوره في المجتمع حيث يرفده بالكوادر اللازمة للتنمية، إذ يمثل حجماً كبيراً من الاقتصاد الأردني.

التوسع في الجامعات الخاصة في الأردن على نحو متسارع قياساً بكثير من الدول، خصوصاً المجاورة منها.

زيادة المنافسة في هذا القطاع مما يُكسب هذه الدراسة أهمية للتعرف على الخيارات الإستراتيجية المتاحة والمستخدمة في الجامعات الخاصة وصولاً إلى الميزات التنافسية المنشودة.

عدّد الدراسات التسويقية التي عالجت الجوانب الإستراتيجية لمؤسسات التعليم العالي الخاصة في الأردن والمنطقة العربية محدودة بحدود علم الباحث.

أنموذج الدراسة :



محددات الدراسة :

١. اقتصرت عينة الدراسة على الإداريين الأكاديميين بالجامعات الخاصة بالعاصمة الأردنية عمّان وهي: (جامعة عمّان الأهلية، وجامعة العلوم التطبيقية، وجامعة الإسراء، وجامعة الزيتونة، وجامعة البتراء، وجامعة الشرق الأوسط، وجامعة عمّان العربية للدراسات العليا).

٢. استثنت الدراسة الجامعات الحكومية، والجامعات غير الأردنية العاملة في الأردن التي لا

تخضع لقوانين وزارة التعليم العالي الأردني.

٣. استنتجت الدراسة وجهة نظر أعضاء الهيئة التدريسية واقتصرت على الإداريين الأكاديميين بالجامعة (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) والطلبة الدارسين فيها.

الإطار النظري والدراسات السابقة

مفهوم المعرفة: دار جدل كبير بين الباحثين حول مفهوم المعرفة فقد أشار البعض على أنها الخبرة التي يمكن توصيلها ثم تقاسمها، أو هي المعلومات والبيانات التي تم تنظيمها ومعالجتها لنقل الفهم والخبرة والتعلم المتراكم وتطبيقها في واقع المنظمة لحل المشاكل^(١).

أشار آخرون إلى أنها حصيلة الإمتزاج الخفي بين المعلومات والخبرات المتراكمة والقدرة على الحكم حيث يتلقى الفرد المعلومات ويمثلها في عقله ويبدأ يستنبط ويستقرئ منها، فعن طريق الاستنباط يستخلص معرفة ضمنية كامنة والاستقراء لتوليد معرفة صغيرة جديدة انطلاقاً منها^(٢).

والمعرفة تتضمن عوامل بشرية وغير بشرية وغير حية مثل الحقائق والمعتقدات والرؤى ووجهات النظر والمفاهيم والأحكام والتوقعات والمناهج والمهارات والبراعة^(٣).

وعليه فإن المعرفة (Knowledge) هي مجموعة من الحقائق التي يحصل عليها الإنسان من خلال بحوثه بحسب طرق البحث العلمي المنطقية أو من خلال تجاربه السابقة خاصة العملية التي تراكمت لديه والتي قد توصله إلى درجة من الخبرة والحكمة^(٤).

وقد صنفت المعرفة في صنفين أساسيين:

١- **المعرفة الضمنية**: وتتعلق المعرفة الضمنية بالمهارات (skills know – how)

والتي هي في حقيقة الأمر توجد في داخل عقل وقلب كل فرد والتي من غير السهولة نقلها أو تحويلها للآخرين. وقد تكون تلك المعرفة فنية أو إدراكية^(٥).

٢- **المعرفة الظاهرية**: وتتعلق بالمعلومات الموجودة والمخزنة في أرشيف المنظمة

١- (نجم، ٢٠٠٨، ص ٢٥)

٢- (الملكاوي، ٢٠٠٧، ص ٢٣)

٣- Ackerman, 2000, p. 186

٤- (حسنية، ١٩٩٨، ص ٢٦٦)

٥- (مطر، ٢٠٠٧، ص ٢٧)

ومنها (الكتيبات المتعلقة بالسياسات و الإجراءات والمستندات ومعايير العمليات والتشغيل) وفي الغالب يمكن للأفراد داخل المنظمة الوصول إليها واستخدامها ويمكن تقاسمها مع جميع الموظفين من خلال الندوات، اللقاءات، الكتب^(١).

المعرفة السوقية : المعرفة السوقية هي جمع وتحليل البيانات حول الأسواق المستهدفة من خلال تحديد حجم السوق والحصة السوقية المتوقعة القادرة على خدمتها وكذلك التنبؤ بمعدلات النمو للأسواق التي تخدمها المنظمة وتمكنها من تحديد حاجات ورغبات العملاء وطبيعة المنافسة ومعرفة الميزة التنافسية المناسبة^(٢). ولإدراك نوع المعرفة السوقية المطلوبة يفترض التركيز على عوامل ثلاثة هي^(٣):

١- المعرفة بالمستهلكين: وهم الحلقة الأكثر أهمية في الأسواق، وهم المصدر المتجدد لمعرفة الحاجة إلى تطوير المنتجات، وكلما كانت المنظمة أكثر قدرة على التفاعل مع البيئة والمستهلكين كانت الاستجابة أسرع وتطورت المعرفة لديها وتصبح أكثر فهما وتوجها نحو المستقبل^(٤).

٢- المعرفة بالمنافسين: وهي تمثل مصدر القدرة على مواجهة المنافسين، ومع أن المنافسين يسعون إلى جعل معرفتهم صعبة التقليد، إلا أن أعمال ومنتجات وخدمات المنافسين تُقدّم فرصاً لتعلم المنظمات منها من خلال تحليل نقاط القوة والضعف لديهم^(٥).

٣- بحث وتطوير السوق: يتضمن البحث والتطوير (Research & Development) كافة النشاطات الهادفة إلى دراسة وتحليل السوق بهدف تحديد اتجاهات الطلب وطبيعة المنافسة بالإضافة إلى معرفة التغيرات التكنولوجية السائدة في سوق المنتج، وأثرها على التغيير في حاجات ورغبات المستهلكين^(٦).

إستراتيجيات التسويق التنافسية :

كما هو معلوم فإن (Porter) اقترح ثلاث إستراتيجيات هي (قيادة التكلفة، التميز، التركيز) وشدد على أهمية أن لا تكون الشركة في موقف (المختنق في الوسط stuck in middle) أي أن

١- (مطر ٢٠٠٧ ص ٢٧)

٢- (Kotler, 1999,p.412)

٣- (جواد، ٢٠٠٢، ص ١٦٢)

٤- (kotler,1999,p.149) (جواد، ٢٠٠٢، ص ١٦٢)

٥- (Blythe,2003,p.25)

٦- (جواد، ٢٠٠٢، ص ١٦٤)

تتبع إستراتيجية واحدة من الإستراتيجيتين دونما الخلط بينها، والاستراتيجيات هي:

إستراتيجية قيادة الكلفة

تطالب إستراتيجية قيادة الكلفة أن تمتلك المنظمة منتجات منخفضة التكاليف في صناعة ما بمستوى معين من الجودة من خلال السعي الحثيث لخفض التكاليف بشكل عام، وأن تُولي قَدراً كبيراً من الاهتمام لمراقبة التكاليف الإدارية والاستخدام الأمثل للموارد المتاحة والاستفادة من تراكم الخبرة في تطوير الموارد البشرية، مما يُمكن المنظمة من عرض منتجاتها إماً بمتوسط أسعار الصناعة لكي تحقق ربحاً أعلى من أرباح منافسيها أو أن تبيعها بأسعار أقل من متوسط أسعار الصناعة لكي تكسب حصةً من السوق، وكلما أصبحت الصناعة أكثر نضجاً وانخفضت الأسعار فإن المنظمات التي تستطيع أن تنتج بتكلفة أقل ستستمر في تحقيق الربح لمدة أطول، وتستهدف إستراتيجية قيادة الكلفة في العادة الأسواق الواسعة أو الكبيرة⁽¹⁾.

والشركات التي تتجح في إستراتيجية قيادة التكاليف تحتوي في العادة على نقاط القوة الداخلية التالية كما أشار إليها⁽²⁾:

١. الحصول على رأس المال المطلوب للاستثمار الكبير في أصول الإنتاج، ويمثل هذا الاستثمار حاجزاً للدخول قد لا تتمكن شركات كثيرة من التغلب عليه.
٢. المهارة في تصميم المنتجات لتحقيق الكفاءة الصناعية
٣. مستوى عالٍ من الخبرة في مجال العمل
٤. قنوات توزيع عالية الكفاءة.

وبالإضافة إلى ذلك قد تتمكن مجموعة شركات تتبع إستراتيجية مركزة تستهدف العديد من الأسواق الضيقة من تخفيض التكاليف في القطاعات التي تعمل فيها وبالتالي تتجح كمجموعة في الحصول على حصة كبيرة من السوق⁽³⁾.

إستراتيجية التميز: هي الإستراتيجية التي تُعنى بتطوير منتج أو خدمة لها صفات فريدة من نوعها وتتمتع بقيمة كبيرة لدى العملاء وأنها أفضل من منتجات المنافسين أو مختلفة عنها، بحيث تستطيع وضع أسعار إستثنائية للمنتج فمثلاً إذا قام الموردون بزيادة أسعار المدخلات فإن المنظمة قد تتمكن من تحميل ذلك على العملاء الذين لا يستطيعون الحصول

1- (36-Porter , 1980 , p.35)

2- Dess ,Lumpkin&Eisner,2008,p.162

3- (Wheelen,Hunger&David,2002,p.150)

بسهولة على منتجات بديلة نظراً لما تتمتع به المنتجات من صفات فريدة^(١).

مع التأكيد على أن إستراتيجية التميّز لا تسمح للشركة أن تتجاهل عامل التكاليف، ومع تحقيق أهداف إستراتيجية التميز تكتسب المنظمة حيوية لكسب أعلى من أسعار المتوسط في الصناعة من خلال ولاء العملاء الذين لديهم حساسية أقل للأسعار، مع مراعاة أن إستراتيجية التميز تحول أحياناً دون الحصول على حصة سوقية عالية^(٢).

وعليه فإن الشركات التي تتجح في إستراتيجية التميز تحتوي في العادة على نقاط القوة الداخلية التالية كما أشار إليها^(٣):

البحث العلمي المتقدم.

فريق على درجة كبيرة من المهارة والإبداع لتطوير المنتج.

فريق مبيعات قوي يتمتع بالقدرة على نشر وتوصيل المعلومات المتعلقة بنقاط القوة في منتجات الشركة.

سمعة الشركة التي تتصف بالجودة والإبداع.

وللحفاظ على عنصر التميّز يتطلب وجود عوائق تمنع تقليد المنافسين لهذه العناصر والتي بدورها تقود العملاء إلى دفع سعر إضافي لهذا التميز^(٤). وعليه فإن إستراتيجية التميز فُسرّت بتفسيرات عديدة يمكن أن نلخصها بالآتي:

١. إمكانية وجود نوعين أو أكثر من إستراتيجيات التميز (Miller) وهي التميز الإبداعي، التميز التسويقي ويعرف التميز الإبداعي بأنه الاستفادة من المنتجات الجديدة والتقنية الحديثة كأساس لوضع أسعار أعلى من المنافسين وهو الوصف الذي أشار إليه (Miles & Snow) على المنظمات التي أسموها بالمنظمات المبادرة، وبينما يعرف (Miller) التميّز التسويقي بأنه عرض المنتج بشكل جذاب ومن خلال خدمات متميزة ومواقع ملائمة^(٥).

٢. ان المنظمات التي تستخدم إستراتيجية التميز تحقق أرباحاً أعلى عن طريق التسعير الإضافي (premium pricing) وهذا ما بيّنه بورتر^(٦).

1- (Dess,Lumpkin & Eisner,2008 , p.166)

2- (Porter ,1980,p37)

3- (Wheelen,Hunger & David, 2002,p.154)

4- (167-Dess ,Lumpkin&Eisner, 2008,p.166)

5- (Miller,1992)

6- (Porter 1980)

وطبقاً لهذه الدراسة فإن إستراتيجية التميز يمكن أن تقود إلى ميزة تنافسية يتلمسها الطالب في الجامعة من حيث :

- التميز في الخدمة الجوهرية (Core product) والتي تعني العنصر الرئيس أو الجوهري للمنتج الخدمي والهدف الذي جاءت من أجله المنظمة للمساهمة في حل المشاكل التي تواجه العملاء⁽¹⁾.
- التميز في الخدمة التكميلية (Supplementary services) والتي تعني تعظيم المنفعة من المنتج الجوهري وزيادة قيمته من خلال عناصر تكميلية تدور في فلك المنتج الجوهري وتتكامل معه⁽²⁾.
- التميز في المحيط المادي (physical surrounding) والتي تعني تمثيل الأشياء الملموسة في بيئة تقديم الخدمة سواء كانت داخل المنظمة الخدمية من حيث الآلات والمعدات والأثاث والألوان أو أي شئ يمكن أن تقع عليه العين أو يُشم أو يُلمس في أماكن تقديم الخدمة أو الشكل الخارجي والتصاميم البنائية والحدائق ومواقف السيارات والمدخل وأي شئ مادي ملموس يرتبط بالمنظمة من الخارج (الشورة، ٢٠٠٤: ١٩٧) ويساهم المحيط المادي في تقليل درجة الشعور بالمخاطرة عند الرغبة في شراء الخدمة لأول مرة .

إستراتيجية التركيز Focus strategy

وتهدف إلى التركيز على قطاع محدد من السوق وخدمته، وتستخدم محورين الأول تحقيق ميزة تنافسية في التركيز على التكلفة (cost focus) والثاني تحقيق ميزة تنافسية في تحقيق التميُّز المُركِّز (differentiation focus) في السوق المستهدف في منتجات ومنطقة جغرافية محددة⁽³⁾.

وتعمل المنظمات التي تتبع إستراتيجية التركيز عادة في توجيه الجهود التسويقية لخدمة سوق ضيقة على نحو أكثر فاعلية أو كفاءة من المنافسين الذين يتنافسون على نطاق أوسع ، وتتمتع المنظمة التي تستخدم إستراتيجية التركيز في الغالب بدرجة عالية من ولاء العملاء وهذا الولاء قد لا يشجع المنظمات المنافسة على الدخول في سوقها⁽⁴⁾.

أخيراً، فإن المنظمات الأخرى التي تتبَع إستراتيجيات التركيز قد تصنع لنفسها أجزاءً فرعية

1- (Lovelock&Wirtz,2007,p.70)

2- (Lovelock&Wirtz,2007 ,p. 70)

3- (wheelen,Hunger&David,2002 , p.149)

4- (Porter , 1980 , p.38)

من السوق وتخدمها بشكل أفضل، حيث تعتمد هذه الإستراتيجية على تركيز إمكانيات المنظمة في مجال محدد متخصص فيه، فتخصص أو تركز على نوع واحد من المنتجات أو تخصص في خدمة نوع معين من العملاء أو تخصص في سوق معين حيث تعتمد هذه الإستراتيجية على افتراض ارتفاع قدرة المنظمة على خدمة هذا القطاع بطريقة أكفأ وأكثر فاعلية من منافسيها الذين يتعاملون مع قطاعات كبيرة، ومن المبررات الداعية لاتباع هذه الإستراتيجية^(١):

١. الإستفادة من مزايا التخصص.

٢. القدرة على التجديد و الابتكار.

٣. إكتساب المزايا التنافسية العالية من جانب إشباع حاجات المستهلكين.

ولكن من مخاطر إتباع هذه الإستراتيجية^(٢):

١. التعرض للتوقف بسبب إنخفاض أو ندرة المواد الأساسية التي تعتمد عليها.

٢. تتعرض المنظمة للخطر إذا ما تقلص الطلب على المنتجات التي تقدمها.

الإختناق في الوسط: Stuck in middle

استخدم Porter مصطلح الإختناق في الوسط ليشير إلى صفات المنظمات التي تستخدم أكثر من واحدة من الإستراتيجيات المذكورة ولكنها تفشل في تحقيق النجاح في أي منها، فالمنظمات المنافسة أصحاب التكلفة المنخفضة سوف يستهدفون العملاء الذين يشترون كميات كبيرة من المنتج بأسعار منخفضة تاركين للمنظمة التائهة أو المختنقة حصة سوقية قليلة وبالتالي أرباح قليلة أما العملاء الذين هم مستعدون لدفع أسعار عالية فسوف يتم جذبهم بواسطة المنظمات الناجحة في التميز التي تركز على تلك الشريحة^(٣).

المنافسة والميزة التنافسية

يعرف (Preston & McMillan) المنافسة بأنها عملية «إتخاذ قرارات إستراتيجية تتشكل في ظل حالة من عدم التأكد، ترسم وتحدد تصرفات وأفعال الأفراد والمنظمات الذين يدخلون في صراع ما من أجل تحقيق نتائج وعائدات محددة»^(٤).

ويوضح (Hamel & Prahalad) أن المنافسة تبدأ بملاحظة النتائج التي يحققها

(Dess ,Lumpkin & Eisner, 2008, p.168) -1

(Dess ,Lumpkin & Eisner,2008,p.168) -2

(Porter,1980, p42) -3

(267-Preston & McMillan, 1996, pp.263) -4

المنافسون ومن ثم الانتقال من حالة الملاحظة إلى حالة التشخيص، وذلك لتشخيص المشاكل والصعوبات التي تواجه المنافسين وتشخيص خصائص الصناعة وموقع المنظمة بالنسبة لمنافسيها في السوق، وهذا ما يساعد في تحديد فرص الربحية والنمو وكيفية تحقيق الميزة التنافسية وفي أي القطاعات من السوق، ولفهم طبيعة المنافسة لابد من الوصول إلى فهم عميق لمحورين أساسيين يحدد هما السؤالان التاليان :

ماذا يشكل الفهم العميق للعناصر التي تشكل الميزة التنافسية للمنظمة ؟

لماذا يشكل الفهم العميق للأسباب التي تحقق من خلالها بعض المنظمات ميزة تنافسية؟ إن الحاجة إلى هذا الفهم يعتبر عنصراً هاماً للصمود أمام المنافسة وتحقيق البقاء والاستمرار للمنظمات بشكل عام، ولكن التحدي يعتبر أكبر بالنسبة للمنظمات الصغيرة نظراً لما تعانيه من محدودية في الموارد والخبرات التسويقية اللازمة لفهم طبيعة المنافسة^(١). ولقد عرفَ Porter الميزة التنافسية أنها تنشأ بمجرد تَوَصُّلِ المؤسسة إلى اكتشاف طرق جديدة أكثر فعالية من تلك المستعملة من قبل المنافسين، حيث يكون بمقدورها تجسيد هذا الاكتشاف ميدانياً.

وعرفت على أنها: «المهارة أو التقنية أو المورد المتميز الذي يتيح للمنظمة إنتاج قيم ومنافع للعملاء تزيد عما يقدمه لهم المنافسون، ويؤكد تميُّزها واختلافها عن هؤلاء المنافسين من وجهة نظر العملاء الذين يتقبلون هذا الإختلاف والتميز، حيث يحقق لهم المزيد من المنافع والقيم التي تتفوق على ما يقدمه لهم المنافسون الآخرون»^(٢).

وكان (Day & Wensley) قد ميَّزا بين مصدرين أساسيين للميزة التنافسية، هما: الموارد النادرة، والمهارات والقدرات المتميزة. إن هذين المصدرين هما الوسيلة التي من خلالها تحقق المنظمة التميز على منافسيها أو تخفيض التكاليف مقارنة بمنافسيها^(٣).

واعتبر (Hamel & Prahalad) التعلم والمعرفة هما من متطلبات ومصادر خَلْقِ الميزة التنافسية، حيث كانا أول من أطلق مصطلح الكفايات المحورية التنافسية في العام ١٩٩٠ (Core Competencies) واعتبراها من المصادر الهامة لَخَلْقِ وتطوير الميزة التنافسية، حيث انطلقا في تحديد مصدر الميزة التنافسية من التركيز على البيئة الخارجية للمنظمة وتأثيرها على قدراتها التنافسية، إلى التركيز على البيئة الداخلية للمنظمة نفسها، بما يتوفر فيها

1- (84-Hamel & Prahalad,1993,pp.75)

٢- (السلمي، ٢٠٠١، ص١٠٤)

3- (20-Day&Wensley,1988,pp.1)

من إمكانات وقدرات داخلية تتميز بها تُمكنها من تحقيق التفوق التنافسية، وخلص إلى أن القوة التنافسية الحقيقية للمنظمة تتبع من قدراتها الداخلية التي تميزها عن غيرها وليس فقط اعتمادها على البيئة الخارجية⁽¹⁾.

ثانياً: الدراسات السابقة :

١- الدراسات العربية :

أ. دراسة (صادق، ٢٠٠٨) بعنوان العلاقة بين إدارة المعرفة والتوجهات السوقية للمنظمات: هدفت الدراسة إلى إظهار العلاقة الوطيدة لإدارة معرفة الزبون بالتوجهات السوقية للمنظمات وبالتالي إظهار أهمية العوامل المؤثرة على توجه سوق المنظمات وتحقيق الميزة التنافسية المستدامة لها، كما إن قدرة المنظمة على إدارة معرفة الزبون على أنها واحدة من موجوداتها أو مواردها (asset) فإنه يمكنها تحقيق العائد على الاستثمار عندئذ يمكن النظر إليها على أنها المفتاح الرئيس لتحقيق البقاء والإستمرارية في السوق، وهدفت الدراسة الى ضرورة تبني المنظمة المعرفة الشاملة حول الزبائن والمنافسين كخطوة أولى في تحقيق النجاح للمنظمة، مع ضرورة التخطيط لإعداد المادة الترويجية التي تضمن مبيعات جيدة لمنتجات المنظمة.

ب. دراسة (الشمالية ٢٠٠٦) بعنوان: التوجه التسويقي لدى مؤسسات التعليم العالي في الأردن (دراسة ميدانية)

هدفت الدراسة إلى معرفة التوجه التسويقي لدى مؤسسات التعليم العالي في الأردن الحكومية والخاصة ومعرفة مدى تطبيق مفهوم التوجه التسويقي (Marketing Orientation) والمقارنة بين تطبيق هذا المفهوم في كل من الجامعات الحكومية والخاصة، وتوصلت الدراسة إلى أن مؤسسات التعليم العالي في الأردن تطبق مفهوم التوجه التسويقي الحديث إلا أن هناك تفاوتاً في درجة تطبيق هذا المفهوم بين مؤسسات التعليم العالي في القطاعين العام والخاص. كما أن هناك تفاوتاً في تطبيق مكونات التوجه التسويقي وكان أعلاها تطبيقاً سياسة الترويج والعمليات والتوزيع وكان أدناها تطبيقاً في التسويق الداخلي والمعلومات التسويقية وبصورة متوسطة في مكونات التسويق المتكامل وتطوير البرامج وسياسات التسعير، كما أظهرت الدراسة عدم وجود علاقة بين مستوى تطبيق التوجه التسويقي والخصائص التنظيمية لمؤسسات التعليم العالي.

(92-Hamel & Prahalad ,1991,pp.81) -1

ج. دراسة (الشبول، ٢٠٠٥) بعنوان: واقع الإدارة الإستراتيجية في وزارة التربية والتعليم بالأردن وبناء النموذج لتطورها.

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على واقع الإدارة الإستراتيجية في وزارة التربية والتعليم في الأردن، وبناء النموذج لتطورها، كما وهدفت إلى تعريف المعيّقات التي تحول دون تطبيق الإدارة الإستراتيجية والحلول الممكنة لمعالجة وتفادي تلك المعيّقات. وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- أن (٤، ٣٠٪) من الإدارة العليا يرون أنّ مفهوم الإدارة الإستراتيجية يعني « رسم الإتجاه المستقبلي للوزارة وبيان غاياتها على المدى البعيد». فيما رأى (١، ٥٪) من الإدارة العليا أنّ مفهوم الإدارة الإستراتيجية يعني « العمليات التي تحوّل بها الإدارة العليا العوامل الخارجية والداخلية المؤثرة في الوزارة إلى قرارات إستراتيجية تعمل على توجيهها في المستقبل».

- وجود تفاوت في درجات ممارسة الإدارة العليا للإدارة الإستراتيجية في الوزارة، إذ تراوحت فقرات كل بُعد بين درجات ممارسة؛ عالية، ومتوسطة، ومتدنية، أما درجات أبعاد الإدارة الإستراتيجية فكانت متوسطة، إذ بلغ المتوسط الحسابي لبُعد صياغة الأهداف الإستراتيجية (٤٨، ٣) ، التخطيط (٤٨، ٣) ، التنفيذ (٥٠، ٣) ، الرقابة (٣٢، ٣) ، والتقييم (١٨، ٣).

د. دراسة (جواد، ٢٠٠٢) بعنوان: أثر المعرفة السوقية في اختيار الإستراتيجيات التنافسية والتميز في الأداء (دراسة استطلاعية في قطاع السلع المعمرة في السوق الأردنية).

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة درجة تأثير المعرفة السوقية في اختيار إستراتيجيات التسويق التنافسية والتميز في الأداء في قطاع سوق السلع المعمرة ، وكان من أهم النتائج التي تمّ التوصل إليها أنّ المديرين في الشركات (عينة الدراسة) يدركون وبدرجات متفاوتة أهمية المعرفة بالعوامل المؤثرة في السوق، كما يولي المديرين اهتماماً باحتياجات المستهلكين والمنافسين أكثر من اهتمامهم بالبحث والتطوير، ويبدون إقبالاً إيجابياً نحو إستراتيجية قيادة الكلفة بهدف التميز في السعر عن المنافسين.

هـ. دراسة (الخشالي ٢٠٠٣) بعنوان: علاقة قيم العمل الإدارية بالخيار الإستراتيجي للمديرين - دراسة تطبيقية في شركات التأمين الأردنية. هدفت الدراسة إلى تحديد أثر القيم الإدارية على الخيار الإستراتيجي وكان من أهم النتائج أنّ هناك إيماناً عالياً للمديرين العاملين في الشركات الأردنية بقيم العمل الإدارية، ويبدون إقبالاً

إيجابياً نحو إستراتيجية قيادة الكلفة وإستراتيجية التميز، ولم تُشر الدراسة إلى وجود علاقة بين الخصائص الشخصية والخيار الإستراتيجي.

و. دراسة باشيو (٢٠٠٧) بعنوان: صناعة السياسات التعليمية وإستراتيجيتها في الوطن العربي «دراسة حالة» وفيها يُشخّص البحث آفاق بناء الركائز العلمية المعتمدة على مُخرجات النماذج المحددة والتنبؤية لصناعة السياسات التعليمية وإستراتيجياتها كضرورة لتوفير الأدوات الفكرية والمعلوماتية التي تساعد على بناء وإدارة مستقبل التعليم العالي في الوطن العربي وترشد المسارات الإدارية الناجمة عن نتائج الفوضى التخطيطية، وتوصل البحث إلى إرساء مجموعة من المبادئ التي تمنح العملية التخطيطية القدرة على النجاح والمساهمة في اتخاذ القرار وهدفت الدراسة إلى تحقيق تخطيط العمليات كاتجاه معتمد لتحديد الاتجاهات وفق التخطيط الإستراتيجي والإهتمام بالأهداف والبدائل المتاحة من تحليل التكلفة، ووضع المعايير الموضوعية للمفاضلة.

ز. دراسة أوهيبة (٢٠٠٣) بعنوان: إستراتيجية الجودة التنافسية تناولت هذه الدراسة مفهوم ومراحل وأهمية التخطيط الاستراتيجي ودوره في بناء إستراتيجية الجودة التنافسية من خلال المبادئ الخمسة التي أرساها David Garvin وقدمت آلية بناء الجودة في عملية التخطيط الاستراتيجي من خلال تجربة شركة Xerox العالمية واستعرضت الإستراتيجيات التنافسية الأخرى: قيادة التكلفة، التركيز، التميز، الابتكار ومتطلبات تنفيذها. وخلصت إلى أن تطبيق إستراتيجية الجودة التنافسية يتطلب من الإدارة العليا الوعي بأهمية التخطيط الإستراتيجي ودوره الفاعل في إيجاد خطة عامة طويلة المدى تبين المهام والمسؤوليات ككل وكذلك تحديد الإمكانيات البشرية والمادية والتقنية.

ح. دراسة (الصليبي، ٢٠٠٢) : هدفت هذه الدراسة التي جاءت بعنوان: «واقع خدمات جامعة القدس في الضفة الغربية»، إلى قياس واقع تسويق خدمات الجامعة من خلال قياس مستوى اعتماد جامعة القدس للفلسفة التسويقية الحديثة في تسويق خدماتها، وتقييم الواقع التسويقي للخدمات الجامعية (التعليمية والمساندة والتكميلية) من منظور العاملين والطلبة وقياس مستوى خريجي الجامعة من منظور أرباب العمل، توصلت الدراسة إلى عدم أتباع جامعة القدس للفلسفة التسويقية الحديثة في مجالات تطوير وتخطيط الخدمات وتوزيعها وترويجها، بينما تعتمد الفلسفة التسويقية الحديثة في مجال التسعير.

الدراسات الاجنبية :

١. دراسة^(١) بعنوان: تأثير نوع الإستراتيجية المستخدمة على معرفة السوق. أجريت الدراسة على عينة من مدراء التسويق في عدد من المنظمات الصناعية الأمريكية، وجد الباحثان أن المعرفة بالسوق والعوامل المؤثرة فيه يمثلان أساسا لاختيار الإستراتيجية التي تمكن المنظمة من الإرتقاء بمستوى الأداء والتكيف وفق ظروف السوق كما أن تحقيق الميزة التنافسية يعتمد على حصة المنظمة في السوق، ومعدل نمو المبيعات بالإضافة إلى نسبة مبيعات المنظمة إلى إجمالي مبيعات المنافسين، حيث أن المنافسين هم المعيار الذي يمكن استخدامه للمقارنة في قياس الأداء، وأشارت النتائج إلى أن الخيار الإستراتيجي للمنظمات يختلف باختلاف طبيعة توجهاتها في السوق فبعض المنظمات تهدف إلى تبني استراتيجيات التوسع في السوق عكس البعض الآخر من المنظمات التي تهدف إلى اختيار إستراتيجية تمكنها من المحافظة على حصتها السوقية ومنع المنافسين من التأثير عليها، وبذلك فإن الخيار الإستراتيجي يرتبط بأهداف المنظمة والمعرفة التي لدى المدراء .

٢. دراسة^(٢) بعنوان: التوجه نحو نظام السوق والتوجهات الإستراتيجية البديلة . أجريت الدراسة على عدد من شركات التسويق الرائدة في السوق الأمريكية وهدفت إلى تحديد الإستراتيجيات البديلة للمنظمة بما يتلاءم ونظام السوق التي تعمل فيه المنظمة وتخدم قطاعاته، وجد أن المعرفة باتجاهات السوق والتي تتضمن المعرفة بالمستهلكين وحاجاتهم، المعرفة بالمنافسين ومزيجهم التسويقي، بالإضافة إلى العوامل البيئية الأخرى، تمثل هذه العوامل أساسا مهما في اختيار البديل الإستراتيجي الذي يُمكن الشركة من التوسع في حصتها السوقية وزيادة حجم المبيعات وتعظيم الربح .

٣. دراسة^(٣) بعنوان: أثر المعرفة بخصائص السوق على ميزة المنتجات الجديدة. حيث أجريت هذه الدراسة على عينة من الشركات الصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية وهدفت إلى معرفة درجة أهمية المعرفة السوقية لهذه الشركات الصناعية، وخلصت إلى أهمية المعرفة بالسوق في اختيار الاستراتيجية التي تحقق الميزة التنافسية وهذا يعتمد على مدى إدراك إدارة الشركة لأهمية المعلومات والمعرفة بالسوق بالإضافة إلى تأثير الظروف البيئية المتمثلة بشدة المنافسة في السوق والتغير التكنولوجي وأثره على التغير

(Matsuno & Mentzer, 2000) -1

(Noble & Others, 2002) -2

(Li & Calantone 1998) -3

في حاجات ورغبات المستهلكين .

٤.دراسة^(١) : بيّنت هذه الدراسة وعنوانها «هل الجامعات التي لديها توجه سوقي أكبر هي أفضل أداءً» والتي أجريت على مجموعة من الجامعات الاسترالية والنيوزيلندية وهدفت الى التعرف على مدى التوجه السوقي لهذه الجامعات ، وهل الجامعات التي لديها توجه سوقي بدرجة أعلى هي أفضل من حيث الأداء ، وتوصلت الدراسة إلى ما يلي : شهد قطاع التعليم العالي تغيرات سريعة وكبيرة مما أدى إلى انتهاج الجامعات توجهاً سويقياً في استراليا ونيوزلندا ، كما أظهرت نتائج هذه الدراسة فيما يتعلق بدرجة التوجه السوقي وتأثيرها على الأداء في الجامعات الأسترالية والنيوزيلندية أن هناك علاقة ايجابية بين التوجه السوقي والأداء العام.

- منهجية الدراسة: اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي والتحليلي لمتغيرات الدراسة والتي جرى جمع بياناتها من خلال الدراسة الميدانية، وعليه تم قياس مدى اعتماد الجامعات الخاصة لإستراتيجية قيادة الكلفة من خلال: الحرص على ضبط تكاليف الترويج، واختصار الخدمات التكميلية لتوفير النفقات ومراقبة النفقات باستمرار واختيار مواقع منخفضة التكاليف لمقراتها، وتم أيضاً قياس مدى تطبيق الجامعات الخاصة لإستراتيجية التميز (التميز في الخدمات الجوهرية، التميز في الخدمات التكميلية، التميز في المحيط المادي والموقع) من خلال:

الحرص على التميز من خلال برامج تعليمية متنوعة وحديثة

أساليب وطرق تدريس متطورة من خلال التكنولوجيا الحديثة كوسائل تعليمية تركز على المعلومات.

تخصيص ميزانية لأغراض البحث العلمي والتطوير.

استثمار البحوث العلمية في خدمة المجتمع.

الحرص على توفير خدمات تسجيل مميزة .

الحرص على توفير خدمات صحية مميزة.

توفير مكتبة متميزة غنيّة بالكتب والمجلات والدوريات العلمية.

توفير ساحات وملاعب وحدائق للطلبة.

توفير مباني وقاعات جذابة مبرّدة ومدفأة.

نظافة مرافق الجامعة باستمرار.

(Caruana et al , 1998) -1

وتم قياس مدى تطبيق الجامعات الخاصة لإستراتيجية التركيز من خلال:
خدمة الجامعة لقطاع سوقي محدد يزيد من كفاءة وفاعلية الأنشطة المقدمة.
السيطرة على التكاليف من خلال العمل على خدمة قطاع محدد.

تركيز الجهود لخدمة قطاع سوقي محدد بدلاً من تشتيت الجهود على أكثر من قطاع.

- **مجتمع الدراسة:** شمل مجتمع الدراسة الجامعات الأردنية الخاصة الخاضعة لقانون وزارة التعليم العالي الأردني والعاملة في العاصمة الأردنية عمان .

عينة الدراسة: دخل ضمن عينة الدراسة (٧) جامعات خاصة عاملة في العاصمة عمان وهي :

(١. جامعة عمان الأهلية، ٢. جامعة العلوم التطبيقية ، ٣. جامعة الزيتونة ، ٤. جامعة الإسراء، ٥. جامعة البتراء ، ٦. جامعة الشرق الأوسط ، ٧. جامعة عمان العربية للدراسات العليا) ، حيث أفراد العينة من العاملين في إدارة الجامعات الخاصة الأردنية ممثلة ب: (رؤساء، وعمداء، ورؤساء أقسام) وتم استهدافهم بطريقة العينة الطبقية (stratified sampling) والتي هي واحدة من العينات الاحتمالية التي تعمل على تقسيم المجتمع إلى فئات أو طبقات وتم اختيار العناصر من كل طبقة للوصول إلى مستوى تجانس العناصر داخل الطبقة الواحدة^(١)، حيث تم مقابلة الإداريين بالجامعات المذكورة والطلب منهم الإجابة على أسئلة الإستبانة ، حيث قام الباحث بتوزيع (١٥٠) إستبانة للإداريين إسترجع منها (١٢٨) إستبانة وإستبعد (٧) استبانات لعدم صلاحيتها للتحليل أي ما نسبته (٨٠٪) . والجدول (١) يوضح الخصائص الديموغرافية للإداريين :

الجدول (١)

الخصائص الديموغرافية للعاملين بالإدارة الجامعية

الاناث	٢٤
الذكور	٩٧
العمر من ٣٠-٣٩	٠
العمر من ٤٠-٤٩	١٨
العمر من ٥٠-٥٩	٦٨

(Malhotra ,2004,p.327) -1

العمر + ٦٠	٣٥
سنوات الخبرة اقل من ٥	٠
سنوات الخبرة من ٥-٩	٤١
سنوات الخبرة + ١٠	٨٠

- أداة الدراسة : إتمدت الدراسة نوعين من البيانات، الأول: البيانات الثانوية وهي مراجعة أدبيات الدراسة الواردة في الكتب ذات العلاقة والدراسات السابقة التي ساعدت الباحث في تحديد متغيرات الدراسة. والثاني: هي البيانات الأولية التي إتمدت الدراسة عليها بشكل أساسي للإجابة على أسئلة واختبار فرضياتها ، وقد تم توفير تلك البيانات من خلال الاستبانة التي أعدت لغرض الدراسة والخاصة لإداري الجامعات شملت (٣١) سؤالاً مقسمة إلى أجزاء وهي على النحو التالي:

الجزء الأول : شمل الأسئلة التي تتعلق بالمعرفة السوقية والمعرفة بالمنافسين.

الجزء الثاني :شمل الأسئلة التي تتعلق باستراتيجية قيادة الكلفة، واستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية، واستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية، واستراتيجية التميز بالمحيط المادي ، وإستراتيجية التركيز.

أما الجزء الثالث فقد شمل المتغيرات الديموغرافية لعينة الدراسة.

- مقياس الدراسة : استخدمت الدراسة مقياس (Likert) الخماسي ولأغراض التحليل الإحصائي لبيانات الدراسة فقد أعطيت الدرجات التالية للفقرات المستخدمة في أداة الدراسة: (١) غير موافق جداً، (٢) غير موافق، (٣) محايد، (٤) موافق، و(٥) للإجابة موافق جداً.

- صدق المقياس : بهدف تحقيق درجة عالية من الصدق لأداة القياس فقد تم عرض الاستبانة على مجموعة من الخبراء في الجامعات الأردنية من ذوي الاختصاص في التسويق وإدارة الأعمال للتعرف على آرائهم في مدى ملاءمة الإستبانة للأهداف التي ترمي إلى تحقيقها من حيث العبارات الواردة فيها، وقد تم إجراء التعديلات المطلوبة وفقاً لتوجيهات الخبراء بهدف التأكد من صدق الاستبانة.

- ثبات المقياس: تم استخدام أسلوب (Cronbach Alpha) لقياس معامل الثبات (Reliability) حيث كان معامل الثبات للإستبانة الجدول (٢) وهي أعلى من النسبة المتعارف عليها في العلوم الانسانية (٠,٦)

الجدول (٢) معامل الثبات (Alpha) للمتغيرات التابعة والمستقلة

المتغيرات	Alpha	Sig.
المعرفة السوقية	0.917	0.000
الخيارات الإستراتيجية	0.877	0.000
الميزة التنافسية	0.912	0.000

- أسلوب تحليل البيانات : لأغراض التحليل واختبار الفرضيات فقد تم استخدام:

١- الوسط الحسابي والانحراف المعياري للتعرف على خصائص عينة الدراسة ومدى تركيز الإجابات عن عبارات الدراسة وتشتتها عن وسطها الحسابي.

٢- معامل الارتباط (Correlation Factor) لقياس مدى قوة العلاقة بين متغيرات الدراسة.

٣- الانحدار البسيط (Liner Regression) لمعرفة مدى تأثير المتغيرات المستقلة في المتغيرات التابعة وذلك من خلال استخدام معامل التحديد (R) Square .

٤- Independent sample T-Test .

٥- التباين الأحادي one way ANOVA .

- التحليل الإحصائي واختبار الفرضيات:

عرض نتائج التحليل الإحصائي التي تم التوصل إليها من خلال استخدام برنامج الحزم

الإحصائية SPSS-17.0 حيث سيتم اختبار فرضيات الدراسة .

- المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية :

أولاً : المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لمتغيرات أسئلة الدراسة والخاصة باستبانة الإداريين :

الجدول (٢) المتوسطات الحسابية والانحرافات لأسئلة استبانة الإداريين

Std. Error Mean	Std. Deviation	Mean	N	
.066	.727	3.76	121	المعرفة السوقية
.073	.802	3.80	121	تمتلك الجامعة قاعدة معلومات حول سوق الطلبة
.073	.804	3.77	121	تسعى الجامعة لفهم حاجات الطلبة وتوفير المعلومات عنها لترجمتها الى واقع عملي
.087	.957	3.73	121	تقوم الجامعة بالتعرف على رضا الطلبة بشكل دوري
.091	1.006	3.77	121	تسعى الجامعة الى مواكبة التغير في حاجات وقدرات الطلبة
.077	.849	3.94	121	تقوم الجامعة بدراسة نقاط القوة والضعف لدى المنافسين
.087	.957	3.87	121	تسعى الجامعة لتحقيق فرص تسويقية بالاستفادة من نقاط الضعف لدى المنافسين
.075	.828	3.49	121	تملك الجامعة قاعدة بيانات ومعلومات وفيرة حول المنافسين
.064	.709	3.26	121	استراتيجية قيادة التكلفة
.088	.966	3.45	121	تحرص الجامعة على جعل تكاليف الترويج في الحد الأدنى وفقاً لبرامجها الترويجية
.084	.927	3.12	121	تسعى الجامعة الى اختصار الخدمات التكميلية لتوفير النفقات غير الأساسية
.084	.919	3.17	121	تقوم الجامعة بالرقابة على النفقات باستمرار
.084	.924	3.32	121	تعتقد الجامعة ان السوق الاردني حساس لسعر الخدمة التعليمية في الوقت الراهن
.050	.554	3.02	121	استراتيجية التميز في الخدمة الجوهرية
.066	.726	3.15	121	تقدم الجامعة برامج تعليمية متنوعة لتلبية احتياجات المجتمع وسوق العمل
.072	.795	3.13	121	تقدم الجامعة خدمات تعليم حديثة لمواكبة متطلبات وتحديات العصر والعولمة
.082	.897	2.94	121	تخصص الجامعة ميزانية لاغراض البحث العلمي والتطوير
.081	.890	2.88	121	تقوم الجامعة باستثمار البحوث العلمية لخدمة المجتمع
.057	.634	3.14	121	استراتيجية التميز في الخدمة التكميلية
.077	.847	3.16	121	توفر الجامعة خدمات تسجيل متميزة لطلبتها

.077	.849	3.21	121	توفر الجامعة خدمات ميسرة لدفع الاقساط الجامعية
.085	.936	3.20	121	توفر الجامعة خدمات صحية مميزة
.080	.877	3.12	121	توفر الجامعة مكتبة مميزة من حيث الكتب والمراجع والدوريات
.087	.956	3.05	121	تقدم الجامعة خدمات تعليمية باستخدام التكنولوجيا
.063	.700	3.07	121	استراتيجية التميز في المحيط المادي والموقع
.064	.699	3.14	121	توفر الجامعة ساحات وملاعب وحدائق للطلبة
.084	.924	3.12	121	توفر الجامعة أثاث ومكاتب وتسهيلات ذات الوان جذابة
.090	.990	3.11	121	توفر الجامعة مباني وقاعات جذابة
.094	1.039	3.07	121	توفر الجامعة قاعات صفية مبردة ومدفأة
.086	.951	2.94	121	تتمتع مرافق الجامعة بنظافة مميزة
.076	.840	2.86	121	استراتيجية التركيز
.080	.884	3.05	121	تعمل الجامعة على قطاع سوقي محدد يزيد من كفاءة وفاعلية الأنشطة التسويقية
.089	.975	2.82	121	تركز الجامعة على خدمة قطاع سوقي واحد بدلاً من تشتت الجهود على أكثر من قطاع
.100	1.099	2.71	121	تسعى الجامعة من خلال العمل على خدمة قطاع محدد التقليل من التكاليف

الجدول (٤) :

المتوسطات الحسابية لتقييم الإستراتيجيات التنافسية المتبعة في كل جامعة منفردة

جامعة الشرق الأوسط	2.51	2.88	3.05	4.23	3.67
جامعة العلوم التطبيقية	2.71	3.86	3.3	2.73	2.15
جامعة البتراء	3.76	2.96	2.92	2.81	3.93
جامعة الزيتونة	3.88	2.87	2.8	2.82	2.45
جامعة الإسراء	3.91	2.86	2.8	2.82	2.45
جامعة عمان الأهلية	2.62	2.82	3.98	2.96	2.61
جامعة عمان للدراسات العليا	2.77	2.83	2.82	2.73	3.56

من خلال نتائج الجدول السابق (٤) نجد أن جامعة الشرق الأوسط تتبنى استراتيجية التميز بالمحيط المادي وكذلك استراتيجية التركيز على خدمة شريحة سوقية محددة، أما

جامعة العلوم التطبيقية فتتبنى استراتيجية التميز بالخدمة الجوهريه وهي الجامعة الوحيدة من بين عينة الدراسة التي تتبنى هذه الاستراتيجية. جامعة البتراء فتتبنى استراتيجية قيادة التكلفة بالإضافة إلى استراتيجية التركيز على خدمة شريحة سوقية محددة، جامعة الزيتونة وكذلك جامعة الإسراء فتتبنى استراتيجية قيادة التكلفة، جامعة عمان الأهلية تتبنى استراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وأخيراً جامعة عمّان للدراسات العليا فتتبنى استراتيجية التركيز على خدمة شريحة سوقية محددة .

اختبار الفرضيات :

- الفرضية الأولى: لا يوجد أثر ذو دلالة إحصائية للمعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة متمثلة بكادرها الإداري الأكاديمي (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) في سوق (الطلبة والمنافسين) في تحديد الإستراتيجيات التنافسية (قيادة الكلفة، والتميز، والتركيز).

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب الانحدار البسيط (Linear Regression) لتحديد العلاقة بين المتغيرات والجدول (٥) يوضح العلاقة :

الجدول (٥) تحليل الانحدار البسيط للمعرفة السوقية في تحديد الخيار الاستراتيجي

R	R Square	Adjusted R Square	Std. Error of the Estimate		
.668 ^a	.446	.441	.714		
	Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.
Regression	48.820	1	48.820	95.709	.000 ^a
Residual	60.701	119	.510		
Total	109.521	120			
	Unstandardized Coefficients		Standardized Coefficients		
	B	Std. Error	Beta	T	Sig.
(Constant)	.468	.344		1.361	.176
المعرفة السوقية	.876	.090	.668	9.783	.000

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي وجود علاقة بين المعرفة السوقية (الطلبة ، المنافسين) وبين تحديد الخيار الاستراتيجي إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.668$ ومعامل التحديد R

معامل التآثير $B=0.668$ وبلغ معامل تحليل التباين $F=95.709$ ومستوى الدلالة الإحصائية $SIG=0.000$ ، ويعني ذلك أنه كلما ازدادت درجة المعرفة السوقية لدى الإداريين كلما ازدادت درجة الدقة في تحديد الخيارات الإستراتيجية نظراً لما أشارت إليه الدلالة الإحصائية بين المتغيرين (المعرفة السوقية وتحديد الخيارات الإستراتيجية). وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية الأولى وقبول الفرضية البديلة والتي تشير إلى وجود أثر ذو دلالة إحصائية بين المعرفة السوقية وتحديد الخيار الإستراتيجي.

- الفرضية الثانية: لا تختلف المعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة الأردنية ممثلة (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) حول سوق (الطلبة، والمنافسين) باختلاف المتغيرات الديمغرافية (العمر، والخبرة، والجنس) ؟ ويتفرع منها ثلاثة فرضيات فرعية:

- الفرضية الفرعية الأولى: لا تختلف المعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة الأردنية ممثلة (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) حول سوق (الطلبة، والمنافسين) باختلاف (الجنس).

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام اختبار (T Independent samples T- test) لتحديد أثر الجنس للعاملين بالإدارة الجامعية على المعرفة السوقية والجدول (٦) يوضح العلاقة:

الجدول (٦) اختبار (ت) لتحديد أثر الجنس على المعرفة السوقية

	Sex الجنس	N	Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean			
المعرفة السوقية	MALE	97	3.75473	.738259	.074959			
	FEMALE	24	3.81250	.696892	.142252			
		F	Sig.	T	df	Sig. (2-tailed)	Mean Difference	Std. Error Difference
المعرفة السوقية		.550	.460	-.347	119	.729	-.057775	.166529
				-.359	36.865	.721	-.057775	.160794

لقد أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بأن تأثير الجنس على المعرفة السوقية لدى الإداريين ليس ذا دلالة إحصائية حيث بلغت الدلالة الإحصائية $SIG=0.460$ ، وذلك يعني أن المعرفة

السوقية لدى الإداريين لا تتأثر فيما إذا كان الإداري ذكراً أم أنثى.

وهذا يؤكد قبول الفرضية الفرعية الأولى والتي تشير إلى عدم وجود تأثير لجنس العاملين بالإدارة على المعرفة السوقية.

- الفرضية الفرعية الثانية : لا تختلف المعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة الأردنية ممثلة (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) حول سوق (الطلبة، والمنافسين) باختلاف (العمر).

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام اختبار One way ANOVA لتحديد تأثير العمر على المعرفة السوقية والجدول (٧) يوضح العلاقة :

الجدول (٧) اختبار Anova لتحديد تأثير العمر على المعرفة السوقية

المعرفة السوقية

	Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.
Between Groups	4.111	2	2.056	4.080	.019
Within Groups	59.446	118	.504		
Total	63.557	120			

المعرفة السوقية

العمر	Mean	N	Std. Deviation
40-49	3.84259	18	.796689
50-59	3.89400	68	.642578
+60	3.47857	35	.785734
Total	3.76618	121	.727764

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بأن تأثير العمر على المعرفة السوقية لدى الإداريين ذو دلالة إحصائية حيث بلغت الدلالة الإحصائية $SIG=0.019$ وعند مقارنة المتوسطات الحسابية Mean نجد أن الفروق بسيطة جداً. ويعني ذلك وجود تأثير للعمر على المعرفة السوقية للإداريين ولكن بفروق بسيطة كما هو موضح بالجدول (٧) .

وهذا يؤكد رفض الفرضية الفرعية الثانية والتي تشير إلى وجود تأثير لعمر العاملين بالإدارة على المعرفة السوقية.

- الفرضية الفرعية الثالثة: لا تختلف المعرفة السوقية التي تمتلكها إدارة الجامعات الخاصة الأردنية ممثلة (الرؤساء، والعمداء، ورؤساء الأقسام العلمية) حول سوق (الطلبة، والمنافسين) باختلاف (الخبرة).

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام اختبار One way ANOVA لتحديد تأثير الخبرة لدى العاملين بالإدارة على المعرفة السوقية والجدول (٨) يوضح العلاقة:

الجدول (٨) اختبار Anova لتحديد تأثير الخبرة على المعرفة السوقية

المعرفة السوقية

	Sum of Squares	Df	Mean Square	F	Sig.
Between Groups	.453	1	.453	.854	.357
Within Groups	63.104	119	.530		
Total	63.557	120			

لقد أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بأن تأثير الخبرة على المعرفة السوقية لدى الإداريين ليس ذو دلالة إحصائية حيث بلغت الدلالة الإحصائية $SIG=0.357$.

وهذا يؤكد قبول الفرضية الفرعية الثالثة والتي تشير إلى عدم وجود تأثير للخبرة على المعرفة السوقية لدى الإداريين.

- الفرضية الثالثة: لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية قيادة التكلفة وتحقيق ميزة السعر (الكلفة) الأقل في الجامعات الخاصة الأردنية.

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب تحديد معامل الارتباط (Correlation Factor) لتحديد العلاقة بين إستراتيجية قيادة الكلفة وبين تحقيق ميزة الكلفة الأقل والجدول (٩) يوضح العلاقة:

الجدول (٩):

تحديد معامل الارتباط لبيان العلاقة بين إستراتيجية الكلفة وميزة السعر الأقل

Correlations

		ميزة الكلفة الأقل	إستراتيجية الكلفة
ميزة الكلفة الأقل	Pearson Correlation	1	.730**
	Sig. (2-tailed)		.000
	N	351	351

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بوجود علاقة بين إستراتيجية قيادة الكلفة وبين تحقيق ميزة الكلفة الأقل إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.730$ وبدلالة إحصائية $SIG=0.000$ ، ويعني ذلك تحقق ميزة الكلفة من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة عند تبني الجامعة إستراتيجية قيادة الكلفة.

وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية الثالثة وقبول الفرضية البديلة التي تشير إلى وجود علاقة بين إستراتيجية الكلفة وبين ميزة الكلفة الأقل المتحققة من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة.

- **الفرضية الرابعة:** لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التميز بالخدمات الجوهرية وتحقيق ميزة جودة الخدمات التعليمية الجوهرية في الجامعات الخاصة.

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب تحديد معامل الارتباط (Correlation Factor) لتحديد العلاقة بين إستراتيجية التميز وتحقيق ميزة جودة الخدمة الجوهرية والجدول (١٠) يوضح العلاقة :

الجدول (١٠) تحديد معامل الارتباط لبيان العلاقة بين إستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية وميزة الخدمة الجوهرية

Correlations

		ميزة الخدمة الجوهرية	إستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية
ميزة الخدمة الجوهرية	Pearson Correlation	1	.676**
	Sig. (2-tailed)		.000
	N	351	351

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بوجود علاقة بين إستراتيجية التميز و تحقق ميزة جودة الخدمة الجوهرية إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.676$ وبدلالة إحصائية $SIG=0.000$ ، ويعني ذلك تحقق ميزة جودة الخدمة الجوهرية من وجهة نظر الطلبة (عينة الدراسة) عند تبني الجامعة إستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية.

وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية الرابعة وقبول الفرضية البديلة التي تشير إلى وجود علاقة بين إستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية وبين ميزة الخدمة الجوهرية المتحققة من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة.

- الفرضية الخامسة: لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين اعتماد إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وتحقيق ميزة جودة الخدمات التعليمية التكميلية في الجامعات الخاصة. لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب تحديد معامل الارتباط (Correlation Factor) لتحديد العلاقة بين المتغيرات والجدول (١١) يوضح العلاقة :

الجدول (١١) تحديد معامل الارتباط لتحديد العلاقة بين إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وميزة الخدمة التكميلية

Correlations

		ميزة الخدمة التكميلية	إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية
ميزة الخدمة التكميلية	Pearson Correlation	1	.258**
	Sig. (2-tailed)		.000
	N	351	351

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بوجود علاقة بين إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وتحقق ميزة جودة الخدمات التعليمية التكميلية إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.258$ وبدلالة إحصائية $SIG=0.000$ ، ويعني ذلك تحقق ميزة جودة الخدمة التكميلية من وجهة نظر الطلبة عند تبني الجامعة إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية.

وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية الخامسة وقبول الفرضية البديلة التي تشير إلى وجود علاقة بين اعتماد إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وبين ميزة الخدمة التكميلية المتحققة

من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة.

- **الفرضية السادسة:** لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التميز بالمحيط المادي وتحقيق ميزة موقع الجامعة والمحيط المادي في الجامعات الخاصة .

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب تحديد معامل الارتباط (Correlation Factor) لتحديد العلاقة بين المتغيرات والجدول (١٢) يوضح العلاقة :

الجدول (١٢) تحديد معامل الارتباط لتحديد العلاقة بين إستراتيجية التميز بالمحيط المادي وميزة المحيط المادي

Correlations

		ميزة المحيط المادي	إستراتيجية التميز بالمحيط المادي
ميزة المحيط المادي	Pearson Correlation	1	.529**
	Sig. (2-tailed)		.000
	N	351	351

أظهرت نتائج التحليل الإحصائي وجود علاقة بين إستراتيجية التميز بالمحيط المادي وتحقيق ميزة موقع الجامعة والمحيط المادي إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.529$ وبدلالة إحصائية $SIG=0.000$.

وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية السادسة وقبول الفرضية البديلة والتي تشير إلى وجود علاقة بين اعتماد إستراتيجية التميز في المحيط المادي وبين ميزة المحيط المادي المتحققة من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة .

- **الفرضية السابعة:** لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التركيز وتحقيق ميزة خدمة شريحة سوقية محددة في الجامعات الخاصة .

لاختبار هذه الفرضية تم استخدام أسلوب تحديد معامل الارتباط (Correlation Factor) لتحديد العلاقة بين المتغيرات والجدول (١٣) يوضح العلاقة :

الجدول (١٣)

معامل الارتباط لتحديد العلاقة بين إستراتيجية التركيز وميزة خدمة شريحة محددة

Correlations

		ميزة خدمة شريحة محددة	إستراتيجية التركيز
ميزة خدمة شريحة محددة	Pearson Correlation	1	.773**
	Sig. (2-tailed)		.000
	N	351	351

لقد أظهرت نتائج التحليل الإحصائي بوجود علاقة بين إستراتيجية التركيز وتحقيق ميزة خدمة شريحة سوقية محددة إذ بلغ معامل الارتباط $R=0.773$ وبدلالة إحصائية $SIG=0.000$. وهذا يؤكد رفض الفرضية العدمية السابعة وقبول الفرضية البديلة والتي تشير إلى وجود علاقة بين اعتماد إستراتيجية التركيز وبين خدمة شريحة سوقية محددة التحقق من وجهة نظر الطلبة عينة الدراسة .

الإستنتاجات والتوصيات :

يتعلق هذا الجزء بتحديد الاستنتاجات التي توصلت إليها الدراسة من خلال التحليل الإحصائي ومعالجة البيانات ، والتوصيات التي أوردها الباحث بناءً على ما توصل إليه من استنتاجات وفيما يلي عرضٌ لتلك النتائج والتوصيات :

أولاً : الإستنتاجات :

هدفت هذه الدراسة الى التعرف على تأثير المعرفة السوقية لدى الإداريين بالجامعات الخاصة الأردنية في تحديد الاستراتيجيات التنافسية ، ومعرفة مدى وصول الميزة التنافسية للطلبة الدارسين بتلك الجامعات ، وقد توصلت الدراسة إلى :

أشارت الدراسة إلى اهتمام الإداريين بالجامعات الخاصة للمعرفة السوقية (الطلبة والمنافسين) في اختيار أحد الإستراتيجيات التنافسية .

لم تظهر الدراسة أية علاقة ذات دلالة إحصائية بين الخصائص الشخصية والتمثلة بالجنس والخبرة للإداريين بالجامعات الخاصة الأردنية وبين المعرفة السوقية في حين أن

الدراسة أثبتت وجود علاقة بين العمر والمعرفة السوقية للإداريين في الجامعات الخاصة الأردنية بازدياد العمر تزداد درجة المعرفة السوقية لديهم.

بينت نتائج التحليل الإحصائي وجود علاقة بين إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية وبين ميزة الخدمة التكميلية المتحققة لدى عينة الدراسة.

لقد أظهرت الدراسة وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين إستراتيجية التركيز وبين ميزة التركيز لخدمة شريحة سوقية محددة.

أثبتت النتائج وجود علاقة بين العمر وتقييم المزايا المتحققة والخاصة بميزة التكلفة الأقل أي كلما انخفض العمر ازداد الاهتمام بميزة التكلفة الأقل للطلبة عينة الدراسة، وكذلك وجود علاقة بين العمر وميزة الخدمة الجوهرية كلما انخفض العمر ازدادت أهمية الخدمة الجوهرية للطلبة عينة الدراسة، وكذلك وجود علاقة بين العمر وميزة المحيط المادي، بينما أثبتت الدراسة عدم وجود علاقة بين العمر وتقييم ميزة الخدمة التكميلية .

أشارت الدراسة إلى تبني جامعة عمان الأهلية إستراتيجية التميز بالخدمة التكميلية، وجامعة العلوم التطبيقية إستراتيجية التميز بالخدمة الجوهرية، جامعة الزيتونة إستراتيجية التكلفة، جامعة البتراء إستراتيجية التكلفة وإستراتيجية التركيز على شريحة سوقية محددة، جامعة الإسراء إستراتيجية التكلفة، جامعة الشرق الأوسط إستراتيجية التركيز وإستراتيجية التميز بالمحيط المادي، جامعة عمان للدراسات العليا إستراتيجية التركيز على شريحة سوقية محددة.

ثانياً : التوصيات :

في ضوء النتائج التي تمّ التوصل إليها يمكن تقديم التوصيات التالية :

من الأهمية بمكان التركيز على جوهر الخدمة التعليمية ومن ثم الخدمات الأخرى من خلال طرق وأساليب تدريسية متطورة ، استخدام التكنولوجيا الحديثة، الابتعاد عن طرق التلقين في التدريس

زيادة الاهتمام بوجود نظام معلومات تسويقي يزود العاملين بالمعلومات عن السوق.

الإهتمام الأكبر بإقامة مؤتمرات علمية وتشجيع الكادر الأكاديمي للمشاركة في المؤتمرات الخارجية.

ضرورة إدراك الإداريين في الجامعات الخاصة الأردنية للمعرفة السوقية والمتمثلة في الطلبة والمنافسين على حد سواء لأهميتها في تحديد الخيار الاستراتيجي.

ضرورة تحديد الخيار الإستراتيجي من قبل الإداريين في الجامعات بما يتلاءم مع طبيعة حاجات ورغبات الطلبة لديهم وكذلك بقية الطلبة في السوق.

يوصي الباحث بأخذ آراء الطلبة بشكل دوري للتأكد من تحقق المزايا التنافسية من خلال الخيار الاستراتيجي المتبع في الجامعة.

يوصي الباحث بضرورة تخصيص ميزانية إضافية للإنفاق على البحوث العلمية لخدمة المجتمع.

أ. م. د. محمود اسماعيل

أستاذ الفقه المقارن

جامعة الجنان

رحلات الإمام الشافعي رحمه الله تعالى

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

ما في المَقَامِ لذي عقلٍ ولذي أدبٍ
سافرَ تجِدَ عَوْضاً عَمَّنْ تَفارِقُه
إني رأيتُ وقوفَ المَاءِ يُفْسِدُه
والأُسْدُ لولا فِرَاقِ الارضِ ما افترست
والشَّمْسُ لو وقفت في الفلكِ دائمةً
والتُّبْرُ كالتُّرْبِ مُلقى في أماكنه
فإنَّ تغرَّبَ هذا عَزَّ مَطْلَبُه
من راحةِ فدَعِ الأوطانَ واغترِبْ
وانصَبْ فإنَّ لذِيذَ العيشِ في النَّصَبِ
إنَّ سألَ طابَ وإنَّ لم يَجْرَ لم يَطِبْ
والسَّهْمُ لولا فِرَاقِ القوسِ لم يُصِبْ
لملَّها الناسُ من عَجْمٍ ومن عَرَبٍ
والعُودُ في أرضه نوعٌ من الحطبِ
وإن تغرَّبَ ذلك عَزَّ كالدَّهَبِ (١)

قرأت هذه القصيدة للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى فأثارت في نفسي إعجاباً بما تضمَّنته من معانٍ تدعو إلى السفر والضرب في الأرض وطلب الحركة وما ينتج عنها من خير أو فائدة فقلت في نفسي هل كان كلام الشافعي رحمه الله نظرياً أم كان أمراً مارسه في حياته فخير نتائجه وعالج أحواله فاحببت أن أتتبع رحلاته وتنقلاته في البلاد في أطوار حياته وهل كانت هذه الرحلات علمية أم هي رحلات للتنزُّه والتسليية والاستجمام فكان هذا البحث.

١- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب - أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ت: ١٣٦٢هـ، أشرف على التحقيق لجنة من الجامعيين، الناشر مؤسسة المعارف - بيروت، ٢/ ٤٩٠- صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال - القاضي حسين بن محمد المهدي، سجل بوزارة الثقافة / اليمن / بدار الكتاب برقم إيداع ٤٤٩ لسنة ٢٠٠٩م، راجعه الأستاذ عبد الحميد محمد المهدي ٢٠٣/١.

نسبه :

هو الإمام العالم أحد أئمة الإسلام وفقهاء الأنام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم^(١)

وشافع ابن السائب الذي ينسب إليه الشافعي لقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مترعرعٌ. وأسلم أبو السائب يوم بدر وكان صاحب راية بني هاشم فأسر وفدى نفسه ثم أسلم.^(٢) فالشافعي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، لأن المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والشفا بنت هاشم بن عبد مناف أخت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أم عبد يزيد جد الشافعي رحمه الله^(٣)

أما أم الشافعي رحمهما الله تعالى فهي أزدية من الأزد قال أبو اليمن ياسين بن زرارة القتباني الحميري: لما قدم الشافعي مصر اتاه جدي وأنا معه فسأله أن ينزل عليه فأبى ، قال أريد أن أنزل على أحوالي الأزد فنزل عليهم^(٤)

رحلة الشافعي إلى الحياة الدنيا - مولده

كان مولد الشافعي رحمه الله سنة مائة وخمسين من الهجرة في غزة من فلسطين من بلاد الشام وهو المشهور المتعارف عليه من مكان ولادته وهو المنقول عن عموم الذين ترجموا له رحمه الله تعالى.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: قال لي محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه: ولدت بغزة سنة خمسين يعني ومائة، وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين.^(٥)

غير أن هناك ممن ترجم له ذكروا أنه ولد بعسقلان: فقد ذكر الخطيب البغدادي وابن عساكر والحافظ الذهبي عن عمرو بن سواد قال قال لي الشافعي: ولدت بعسقلان فلما أتى علي

١ - طبقات الشافعيين - أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ت ٧٧٤، تحقيق د. عمر هاشم، د. محمد عزب، الناشر مكتبة الثقافة الدينية - ١٩٩٢ م.

٢ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإدليبي ت ٦٨١هـ، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ٤ / ١٦٢.

٣ - تاريخ بغداد وذيوله - الخطيب البغدادي - ت ٤٦٣ هـ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ٢ / ٥٦ .

٤ - تاريخ بغداد وذيوله - الخطيب البغدادي - ت ٤٦٣ هـ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ٢ / ٥٦ + الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء - أبو عمر بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت، ١ / ٦٨ .

٥ - تاريخ بغداد ٢ / ٥٧ - تهذيب الكمال ٢٤ / ٢٦١ / سير أعلام النبلاء - الذهبي ت ٧٤٨ هـ - دار الحديث القاهرة الطبعة ٢٠٠٦ م.

سنتان حملتني أُمِّي إلى مكة (١)

وذكروا أيضاً رواية عن أبي عبيد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب الوهبي أن أخي عبد الله بن وهب قال سمعت محمد بن إدريس يقول : ولدت باليمن فخافت أُمِّي علي الضَّيعةَ، وقالت إحق بأهلك فتكونُ مثلهم، فإني أخاف أن تُغلب على نسبك، فجهزتني إلى مكة فقدمتها وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيهه بذلك، فصرت إلى نسيب لي وجعلت أطلب العلم يقول لي : لا تشتغل بهذا وأقبل على ما ينفعك. فجعلتُ لذتي في هذا العلم وطلبه حتى رزقتني الله منه ما رزق. (٢)

فهذه ثلاث روايات في مكان ولادته رحمه الله تعالى .

وقد حاول بعضهم الجمع بينها وإزالة الإيهام منها فقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قوله : باليمن، غلط إلا أن يريد القبيلة وهذا محتمل لكن خلاف الظاهر.

قلت:- ابن كثير- فهذه ثلاث روايات في بلد مولده، والمشهور أنه ولد بغزة ويحتمل أنها بعسقلان التي هي قريب من غزة ثم حمل إلى مكة صغيراً ، ثم انتقلت به أمه إلى اليمن، فلما ترعرع، وقرأ القرآن بعثت به إلى بلد قبيلته إلى مكة فطلب بها الفقه (٣). والله أعلم وجاء في سير أعلام النبلاء: عن أبي عبد الله الشافعي... قال : ولدت باليمن يعني: القبيلة فإن أمه أزدية (٤).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والذي يجمع بين الأقوال: أنه ولد بغزة عسقلان، لأن عسقلان هي الأصل في قديم الزمان، وهي وغزة متقاربتان، وعسقلان هي المدينة، ولما بلغ سنتين حوَّلتَهُ أمُّه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن لأنها كانت أزديةً، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشرًا خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع فحوَّلتَهُ إلى مكة (٥).

ولعل هذا هو الأقرب في الجمع بين هذه الروايات. وقد جاء في رواية عبد الله بن عبد الحكم أن الشافعي رحمه الله قال له: يا أبا محمد: من لم تُعزّه التقوى فلا عزَّ له، وقد وُلِدْتُ بغزة، ورُبيْتُ بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة وما يتنا جياً قط (٦).

-
- ١- تاريخ بغداد ٥٧/٢ / تاريخ دمشق ٥١/ ٢٨١- تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦١ / سير أعلام ٨/ ٢٢٨.
 - ٢- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - شهاب الدين ياقوت الحموي ت٦٢٦هـ - تحقيق احسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٢م. ٦٢٦. ٦/ ٢٣٩٤.
 - ٣- طبقات الشافعيين فصل في ذكر مولده.
 - ٤- سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٢٨.
 - ٥- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، شمس الدين محمد أبو الخير بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ت٩٠٢هـ، الناشر: الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٣م ٤٤٥/٢.
 - ٦- طبقات الشافعيين ١/ ٢٤، تاريخ دمشق - ابن عساکر ت ٥٧١هـ - تحقيق عمر بن غرامة العمري - دار الفكر للطباعة ١٩٩٥م. ٥١/ ٣٩٧.

الرحلة به إلى مكة

عاش الشافعي رحمه الله سنتين بعد ولادته في غزة ثم انتقلت به أمه إلى مكة، فنشأ وترعرع فيها وحولها، وضوى إلى قبيلة هذيل يأخذ عنهم الشعر ويتفصح بلغتهم وهم من أفصح العرب^(١).

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى الشافعي رحمه الله أنه قال: أقمت في بطون العرب عشرين سنة أخذ أشعارها ولغاتها وحفظت القرآن فما علمت أنه مرّ بي حرف إلا وقد عَلِمْتُ المعنى فيه والمراد، ما خلا حرفين أحدهما (دسّاهما)، والآخر نَسِيَهُ الراوي^(٢).

وقال الأصمعي صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له محمد بن إدريس^(٣).

وذكر ابن عساكر عن ابن بنت الشافعي قال سمعت زيد بن بكار يقول: قال لي عمي مصعب: كتبت عن فتى من بني شافع من أشعار هذيل ووقائعها وقراً، لم ترّ عيناى مثله، قلت يا عم أنت تقول: لم ترّ عيناى مثله؟ قال: نعم يا بني لم ترّ عيناى مثله^(٤).

ونقل ابن كثير عن الحاكم النيسابوري أن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: قرأ عليّ الشافعي أشعار هذيل حفظاً... وكان الشافعي رضي الله عنه يَسْمَرُ مع أبي من أول الليل حتى الصباح ولا ينامان، قال: وكان الشافعي رضي الله عنه في ابتداء أمره يطلب الشعر، وأيام الناس، والأدب ثم أخذ في الفقه بعد، قال وكان سبب أخذه أنه كان يسير يوماً على دابة له وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي رضي الله عنه ببيت شعر فقرعه كاتب أبي بسوّطه ثم قال له: مثلك يُدْهَبُ بمروءته في مثل هذا؟ أين أنت من الفقه؟ فهزّه ذلك فقصده لمجالسة الزنجي بن خالد مفتي مكة....^(٥)

قال الشافعي: لقيني مسلم بن خالد الزنجي فقال لي: يا فتى من أين أنت قلت: من أهل مكة، قال: أين منزلك بها؟ قلت: شِعْبُ الْخَيْفِ، قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبد مناف، قال بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة^(٦).

حفظ الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين وجالس العلماء وأخذ عنهم وخاصة أستاذه مسلم

١- طبقات الشافعيين، فصل: ذكر مولده ومنشئه.

٢- تاريخ بغداد ٦١/١ - سير أعلام النبلاء ١٢/١٠.

٣- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٦١/٢ - تهذيب الأسماء واللغات - النووي ت٦٧٦هـ، نشر وتصحيح شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية - دار الكتب العلمية - بيروت، ٥٠/١.

٤- تاريخ دمشق، ٣٢٢/٥١ - طبقات الشافعيين، فصل في ذكر فضائله وثناء الأئمة عليه.

٥- تاريخ دمشق ٢٩٨/٥١.

٦- طبقات الفقهاء - أبو اسحاق الشيرازي ت٤٧٦هـ، هذبة محمد بن مكرم بن منظور ت٧١١هـ، تحقيق احسان عباس - دار الرائد العربي، بيروت ط١ - ١٩٧٠م / ١ / ٧٢.

بن خالد الزنجي الذي أكثر من ملازمته وأفاد منه وحفظ موطأ الإمام مالك وهو ابن عشر سنين. قال رحمه الله عن نفسه: كنت يتيماً في رقبة أُمي ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا كان غائباً وأخفف عنه إذا حضر، فلما ختمت القرآن قلت: يا نفسُ قد حصل لك القُطبُ الأعظم فدخلت المسجد فكنت أجالس العلماء والفقهاء، فكنت إذا سمعت منهم الحديث أو المسألة حفظتها، وكان منزلنا في شعب الخيف فكنت أنظر إلى العظم يلوح فأخذه وأكتب فيه الحديث أو المسألة وأطرحه في جرة كانت عندنا قديمة^(١)

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين^(٢).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حدة ذكائه وتمييزه رضي الله عنه مما جعل أستاذه يميّزه على غيره من أقرانه ويشق به في إدارة الحلقة القرآنية في حضوره وغيبته وهو لا يزال قبل السابعة من عمره.

ثم إن حفظه للموطأ في هذه السن المبكرة ومجالسته للعلماء والفقهاء خير دليل على ما كان تمتع به رحمه الله من رزانة ورجاحة عقل وتوفيق إلى طلب العلم والجهد في تحصيله.

رحلته إلى المدينة المنورة

لم يكتف الإمام الشافعي بما حصّله من علم في مكة وحفظه للقرآن وملازمة أستاذه مسلم بن خالد الزنجي ومجالسة غيره من العلماء والفقهاء في مكة وبحفظه للموطأ بجهد الخاص بل قاده طموحه ونفسه الشغوفة بالعلم والتحصيل إلى الرحلة إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى في المدينة المنورة ليتلقى منه الحديث ويقرأ عليه الموطأ مباشرة بعد أن حفظه عن ظهر قلب من كتابه.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة - لا نبات بعارضي (لم يظهر شعر لحيتي بعد) - من الأبطح إلى ذي طوى فرأيت ركباً فحملني شيخ منهم إلى المدينة، فحتمتُ أي القرآن من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة، ودخلت المدينة يوم الثامن بعد صلاة العصر، فصليت العصر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذت بقبره، فرأيت مالك بن أنس رحمه الله تعالى مؤتزرًا ببردة متشحاً بأخرى يقول: حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا

١- تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٨٢/٥١ - سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١، طبقات الشافعيين فصل في ذكر مولده ومنشئه.
٢- تاريخ بغداد ٢/ ٦٠ - منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - يحيى بن إبراهيم الأزدي السلماسي ت ٥٥٠هـ، تحقيق محمود عبد الرحمن قده، الناشر مكتبة الملك فهد الوطنية ط ١ - ٢٠٠٢م.
١/ ٢٠٥ / التقييد لمعرفة السنن والمسانيد - محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع بن نقطة الحنبلي البغدادي ت ٦٢٩هـ - تحقيق كمال يوسف الحوت / دار الكتب العلمية ط ١ - ١٩٨٨م. ٤٣/١.

القبر - يضرب بيده قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - فلما رأيت ذلك هبته الهيبة العظيمة. (١)

وذكر المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم جميعاً قالا: جاء الشافعي إلى مالك بن أنس فقال له إني أريد أن أسمع منك الموطأ فقال مالك: تمضي إلى حبيب كاتبي فإنه الذي يتولّى قراءته فقال له الشافعي: تسمع مني رضي الله عنك صُفحاً فإن استحسنيت قراءتي وإلا تركت، فقال له: إقرأ فقرأ صُفحاً ثم وقف، فقال له مالك: هيه، فقرأ صُفحاً ثم سكت، فقال له: هيه، فقرأ، فاستحسن مالك قراءته فقرأه عليه أجمع. (٢)

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: قدّمتُ على مالك وقد حفظت الموطأ فقال: أحضِر من يقرأ لك. فقلت: أنا قارئُ فقرأت الموطأ حفظاً، فقال: إن يك أحدٌ يفلح فهذا الغلام (٣)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم تفقّه الشافعي رضي الله عنه، بمالك بن أنس إمام دار الهجرة في زمانه. (٤)

رحلة العودة إلى مكة

ليس من الواضح كم كانت مدة إقامة الإمام الشافعي رحمه الله في المدينة المنورة. هل هي فقط ما ورد عنه من المدة التي لازم فيها الإمام مالك رحمه الله أم أنه بقي أكثر من ذلك فقد كان يقول رحمه الله: أقمت مع مالك ثمانية أشهر ما يعلم أجانبُ الناسِ أينما الضيف لشدة ما كان يُظهِر من الأُنس. (٥)

إلا أن ما يمكن استنتاجه مما ذُكر من الروايات أن ذلك لم يكن طويلاً فقد تقدّم أن عمره كان أربع عشرة سنة عندما حمّله الركب إلى المدينة المنورة، وجاء من رواية الربيع بن سليمان المرادي أن الحميدي قال: سمعت مسلم بن خالد الزنجي - شيخ الشافعي في مكة - يقول للشافعي: أفْتِ يا أبا عبد الله فقد والله أن لك أن تُفتني، وهو ابن خمس عشرة سنة. (٦)

كما أن هناك روايتان إحداهما عن الربيع نفسه يذكر فيها أنه سمع عبد الله بن الزبير الحميدي يقول: قال مسلم بن خالد الزنجي للشافعي: يا أبا عبد الله أفْتِ الناسَ أن لك والله أن

١- منازل الأئمة الأربعة ١/ ٢٠٦.

٢- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١/ ٦٨ - تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٢/ ١٢٣.

٣- أحكام القرآن البيهقي ١/ ٣٩ - السلوك في طبقات العلماء والملوك - محمد بن يوسف بن يعقوب بهاء الدين الحنبلي اليمني ٧٢٢هـ - مكتبة الإرشاد - صنعاء - ١٩٩٥م ط٢ - تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، ١/ ١٥٤.

٤- طبقات الشافعيين فصل في ذكر مشايخه في القراءة والحديث.

٥- السلوك في طبقات العلماء والملوك ١/ ١٥٢.

٦- الجرح والتعديل لابن أبي حاكم ٧/ ٢٠٢ / الثقات لابن حبان ٩/ ٣١.

تفتي، وهو ابن دون عشرين سنة^(١).

والثانية لداود بن عمرو الضبي يذكر فيها أنه سمع مسلم بن خالد الزنجي يقول للشافعي: وهو من أبناء ثمانين سنة يا أبا عبد الله أفْتِ فقد أن لك أن تفتي.^(٢)

فهذه ثلاث روايات تفيد بأن مسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي - رحمهما الله تعالى - في مكة أذن للشافعي بأن يُفتي، ويُفترَض أن يكون هذا الإذن صدر منه في مكة، وهذا يعني أن الشافعي قد رجع من المدينة المنورة التي كان قد رحل إليها في الرابعة عشرة من عمره، وما هو في مكة في الخامسة عشرة أو في الثامنة عشرة ودون العشرين من عمره.

رحلته الأولى إلى اليمن

قال محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي: ثم دخل اليمن لأول مرة مع جدّه عبد الله بن الحسن لا غرض له غير طلب العلم، وفيها - أخذ عن هشام بن يوسف الأبنائوي وأبي حنيفة بن سماك - مقدم الذكر - ومطرف بن مازن والدبري على إحدى الروايتين^(٣). ومما يذكر له في رحلته هذه إلى اليمن أنه حاول فيها جمع كتب الفراسة فجمعها وعاد بها معه عند رجوعه إلى مكة.

رحلة عودته من اليمن إلى مكة

تكتة العودة:

قال الحميدي: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ثم لما حان انصرافي مررت برجل في طريقي وهو محتب بفناء داره أرزق العين نأتى الجبهة سناط^(٤)، فقلت: هل من منزل؟ قال نعم، قال الشافعي رضي الله عنه: وهذا النعت من أحيث ما يكون في الفراسة، فأنزلني، فرأيت أكرم رجل: بعث إلى بعشاء، وطيب، وعلف لدابتي، وفراش ولحاف، وجعلت أتقلب الليل أجمع ما أصنع بهذه الكتب، إذ رأيت هذا النعت في هذا الحال فلما أصبحت قلت للغلام: أسرج فأسرج، فركبت ومررت عليه، وقلت له: إذا قدّمت مكة ومررت بذي طوى فسأل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي، فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا؟ قلت: لا، قال: فهل لك عندي نعمة؟ قلت لا قال: أدا ما تكلف لك البارحة، قلت: وما هو؟ قال

١- تاريخ بغداد وذيوله ٢/٦٢ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٢٤/٣٦٩.

٢- تاريخ دمشق لابن عساكر ٥١/٣٠٨.

٣- السلوك في طبقات العلماء والملوك ١/١٥٢.

٤- الرجل الذي لا لحية له، وقيل هو الذي لا شعر في وجهه البتة، وقال ابن الأعرابي: السُنط: الخفيف العوارض ولم يبلغوا حال الكوسج. لسان العرب لابن منظور ٧١١هـ، دار صادر ط٢ - ١٤١٤هـ. ٧/٣٢٥.

اشترت لك طعاماً بدرهمين، وإداماً بكذا، وعطراً بثلاثة دراهم، وعلفاً لدابتك بدرهمين، وكرا الفراش واللحاف بدرهمين، قال: قلت يا غلام أعطه، فهل بقي من شيء؟ قال: كِراً المنزل فأني وسَّعْتُ عليك وضيَّقْتُ على نفسي، قال الشافعي رضي الله عنه: فغَبَطْتُ نفسي بتلك الكتب، فقلت له بعد ذلك: هل بقي من شيء؟ قال: إمض أخزاك الله فما رأيت قط أشراً منك^(١).

رحلته الأولى إلى العراق

عاد الشافعي رحمه الله تعالى من رحلته هذه إلى مكة ثم ارتحل إلى العراق للمرة الأولى بصحبة أحد عمومته مصعب بن عبد الله.

قال الجندي: ثم ارتحل إلى العراق فأخذ عن محمد بن الحسن واستعار منه كتب أبي حنيفة، وهو إذ ذاك يسكن الكوفة، ثم دخل بغداد فولَّى الرشيد قضاء اليمن لمصعب بن عبد الله فكان الشافعي بصحبته فسأله أن يخرج إلى اليمن لما يتحقق من فقره وانقطاعه فخرج معه..^(٢)

رحلته الثانية إلى اليمن

مما روى عبد الله بن الزبير بن عيسى الحميدي أن الشافعي رحمه الله قال: قدّم علينا والي اليمن فكلّمه بعض القرشيين في أن أصحابه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتحمّل به فرهنت دارها على ستة عشر ديناراً ودفعتها إليّ فتحملت بها مع والي اليمن، فلما وصلنا سالمين استعملني على عمل فحمدت فيه فزادني عملاً آخر فحمدت فيه ودخل العمال مكة فأحسنوا عليّ الثناء وأكثروا من المدح...^(٣)

وقال ابن كثير: ثم رجع إلى اليمن في حال الشيبه فولّي بها بعض الأعمال وحمد فيها^(٤). وهنا يشار إلى أن أحد عمومته رحمه الله تعالى وهو مصعب بن عبد الله تولى القضاء في اليمن أثناء رحلته هذه وهو ممن وفد عليهم الشافعي رحمه الله في هذه الرحلة وجالس معه الناس.

ذكر الذهبي في السير أن الشافعي رحمه الله تعالى قال: قال لي مصعب - يعني ابن عبد الله - إن الرشيد كتب إليّ أن أصير إلى اليمن قاضياً فتخرج معنا لعل الله أن يعوّضك، فخرجت معه، وجالسنا الناس...^(٥) قال الشعراني في لوائح الأنوار: ثم رحل إلى اليمن حين تولى عمه

١- تاريخ دمشق ٥١/٤٠٥ - طبقات الشافعيين / فصل في رحلته وطلبه للعلم

٢- السلوك في طبقات العلماء والملوك ١/١٥٢

٣- تاريخ دمشق لابن عساكر ٥١/٢٨٢

٤- طبقات الشافعيين لابن كثير . فصل في رحلته وطلبه للعلم وولايته.

٥- سير اعلام النبلاء ٨/٢٧٢.

القضاء بها واشتهر بها. (١)

وذكر محمد بن اسحاق السراج في تاريخه: ... عن عبد الرحمن بن إبراهيم قال: وفد محمد بن إدريس الشافعي على رجل من قومه باليمن كان بها أميراً فأقام عنده أياماً ثم سأله الرجوع إلى داره وموضعه فكتب إليه يعتذر وعرض عليه شيئاً يسيراً (٢)

رحلة العودة إلى مكة

وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول خرج الشافعي إلى اليمن مع بعض الولاة ثم انصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارج من مكة فكان الناس يأتونه فما برح من موضعه ذلك حتى فرّقها كلها. (٣)

رحلته مع القضاء في نجران

أقام الشافعي رحمه الله بعد عودته من اليمن فترة في مكة مع قومه وبين علمائها يشتغل بالعلم فيها، ثم طلب منه أن يتولى القضاء في نجران فوافق على ذلك وانتقل إليها. قال الحميدي: قال الشافعي رضي الله عنه: وُلِّيت نجران وبها بنو الحارث وموالي ثقيف، فجمعتهم فقلت: اختاروا سبعة منكم فمن عدلوه كان عدلاً ومن جرحوه كان مجروحاً، فجمعوا لي سبعة منهم، فجلست للحكم، فقلت للخصوم: تقدموا فإذا شهد الشاهد عندي التفت إلى السبعة فإن عدلوه كان عدلاً وإن جرحوه قلت زدني شهوداً، فلما أتيت على ذلك، وجعلت أسجل وأحكم، فنظروا إلى حكم جار فقالوا: إن هذه الضياع والأموال التي تحكم علينا فيها ليست لنا وإنما هي لمنصور بن مهدي في أيدينا، فقلت للكاتب: أكتب وأقر فلان بن فلان الذي وقع عليه حكمي في هذا الكتاب أن هذه الضيعة، أو المال الذي حكمت عليه ليست له، إنما هي لمنصور بن المهدي، ومنصور بن المهدي على حجته متى قام، قال: فخرجوا إلى مكة فلم يزالوا يعملون حتى رفعت إلى العراق فقيل لي: الزم الباب فنظرت فإذا أنا لا بد لي من الاختلاف إلى بعض أولئك، وكان محمد بن الحسن جيد المنزلة عند هارون فاختلفت إليه.. (٤)

رحلة عودته إلى مكة

يظهر من الرواية السابقة أن الذين حكم عليهم الشافعي في حال ولايته للقضاء قد وشّوا

١- الطبقات الكبرى للشعراني لوافح الأنوار في طبقات الأخيار - عبد الوهاب الشعراني ٩٧٣ - الناشر مكتبة محمد المليجي الكنبي وأخيه، مصر ١٣١٥هـ / ١ / ٤٢.

٢- الانتقاء ١ / ٩١.

٣- الانتقاء ١ / ٩٤.

٤- طبقات الشافعيين - فصل في رحلته وطلبه للعلم.

به إلى هارون الرشيد ولا زالوا يتابعون وشايتهم حتى كان لذلك أثره في ترك الشافعي رحمه الله للقضاء وعودته إلى مكة.

الرحلة به إلى العراق

كما أن مطرف بن مازن قاضي اليمـن كتب إلى الرشيد: إن أردت اليمـن لا يفسد عليك، ولا يخرج من يدك فأخرج عنه محمد إدريس وذكر أقواماً من الطالبيين فبعث إلى حماد البربري، فأوثقت بالحديد حتى قدمنا على هارون بالرقعة فأدخلت عليه...^(١)

قال ابن كثير: وكان سبب وروده بغداد في المرة الأولى بظلم أولئك النفر من أهل نجران عليه في أحكامه عليهم، وقد كان فيها باراً راشداً تابعاً للحق، رحمه الله^(٢).

ونقل ابن كثير عن ابن عساكر: أن نائب اليمـن كتب إلى الرشيد يشكو إليه جماعة من الطالبيين، وكانوا ينسبون إلى التشيع، وأدمج معهم الإمام الشافعي رضي الله عنه فبعث الرشيد إلى نائب اليمـن في طلبهم وأنهم يبعثون مثقلين بالحديد، فلما دخل الشافعي رضي الله عنه بغداد واجتمع بأمر المؤمنين وجرى بينه وبين محمد بن الحسن مناظرات حسنة وعرفوا فضل الشافعي وإمامته وسيادته عظموه وأكرموه وأنزله محمد بن الحسن في بعض منازلهم...^(٣)

وذكر ابن عبد البر عن عبيد الله بن عمر بن أحمد الشافعي البغدادي قال: حمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر إلى بغداد وكان الرشيد بالرقعة فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه محمد بن الحسن الشيباني وكان صديقاً للشافعي وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه...^(٤)

وذكر المُرَني عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: رُفِعَ إلى هارون الرشيد: أن بمكة قوماً من قريش استدعوا رجلاً علويًا كان باليمـن ثم قدم مكة مجاوراً فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة يريدون أن يبايعوه ويقوموا به فأمر الرشيد يحيى بن خالد بن برمك أن يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه من مكة ثلاثمائة رجل كلهم من قريش مغلولة أيديهم إلى أعناقهم، قال الشافعي فأشخصت فيمن أشخص مغلولاً فلما وردنا العراق أتى بنا إلى دار يحيى بن خالد فدخلنا عليه وقال لنا: يا معشر قريش قد رفع عليكم أمرٌ كبيرٌ عسى الله أن يُنجيكم من البلاء إن كنتم قد بُغِيَ عليكم، والذي أراه أن تُقدِّموا من أنفسكم رجلاً يخاطب الرشيد أمير المؤمنين عنكم وعن نفسه فقالوا هذا الشافعي يخاطبنا عنا وأشاروا إليّ وكنت أحدثهم سنًا، قال ثم أمر بنا فأدخلنا

١- سير اعلام النبلاء ٨/ ٢٧٣. وطبقات الشافعة الكبرى للسبكي ٢/ ١٢١.

٢- طبقات الشافعيين/ فصل في رحلته وطلبه للعلم وولايته.

٣- طبقات الشافعيين/ فصل في رحلته وطلبه للعلم.

٤- الانتقاء ١/ ٩٧.

على هارون فقال يا معشر قريش ما حملكم على ما بلغني عنكم ولا تكثروا علي قدموا منكم من يكلمني عنه وعنكم فقالوا: قد قدمنا هذا وأشاروا إلي وتقدمتُ ويدي مغلولَةٌ إلى عنقي، فلما نظر إلي صعَّد في البصر وصبَّه ثم قال: يا معشر قريش ألم أجبر فقيركم، وأكبر كبيركم، وأتقصد صغيركم، وألم شعثكم، وأحسن إليكم، وأقسم العطاء في كل موسم فيكم، وأنتم الآن تدعون الخوارج من آل علي لتحملوا على أمة محمد بالسيف. فقلت أصلح الله أمير المؤمنين ووقفه لما يرضى به عنه، إن بني علي لا يرون قريشا إلا كعبيدهم، وأنتم تعرفون لقريش حق القرابة، فهل يصح دعوى مدع عند من يعقل أنه يرضى أن يتأمر عليه من يعده عبداً ويترك أن يتأمر عليه من يراه ابن عمه ومثله في نسبه؟ قال فسكت ساعة ثم قال: من أنت؟ قلت: أنا من ولد المطلب بن عبد مناف، أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي. فقال الرشيد: أطلقوا عنه وعن الذين معه من قريش. قال الشافعي فحل وثاقي ووثاقهم وأمر لنا بخمسائة دينار، وأمر لي بخمسين ديناراً، وأمر لي يحيى بن خالد بخمسين أخرى^(١).

قال ابن كثير: قدم العراق ثلاث مرات، الأولى سنة أربع وثمانين ومائة، وذلك بسبب مرافعة نائب اليمن فيه وفي أقوام معه، فدخل الشافعي رضي الله عنه على الرشيد مقيداً في الحديد^(٢). قلت: يظهر من الروايات السابقة أن الشافعي ترك اليمن قبل وصول أمر الرشيد إليها فلم تذكر الروايات أنه حمل موثقاً بالحديد من اليمن وإنما ذكرت أنه حمل من مكة ومن الحجاز ومن المعلوم أن كليهما واحد لأن مكة جزء من الحجاز، وهذا يعني أنه بعد وصوله إلى مكة واجتماع الناس من قريش عليه رفع أمر ذلك (أيضاً) إلى الرشيد وكان قد سبقت ذلك وشاية نائب اليمن وقاضي اليمن به وهنا صدر الأمر من الرشيد إلى خالد بن برمك إلى عامله بمكة - من الحجاز - بجلبه مع من جلب معه، وهذا العدد الكبير - الذي أمر الرشيد عامله ببيعهم إليه - ثلاثمائة رجل يدل على تفاقم الأمر عند الرشيد وأن وشايات عماله باليمن وعامله في مكة قد ساند بعضها بعضاً وصادق بعضها بعضاً مما جعل الرشيد يصدر هذا الأمر الشديد.

وشاية مفتراة

أورد البيهقي في «مناقب الشافعي»^(٣) من طريق عبد الله بن محمد البلوي^(٤) أن الإمام أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرّضا الرشيد على قتل الشافعي رحمهم الله جميعاً.

١- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١/ ٩٦-٩٧.

٢- طبقات الشافعيين ١/ ٣٩- وانظر أيضاً سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٨.

٣- مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ١٢٠ - طبقات الشافعيين - فصل في رحلته وطلبه العلم.

٤- عبد الله بن محمد البلوي قال عنه ابن كثير في البداية ١٠/ ١٨٢ كذاب - وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٤٩١ قال الدارقطني: يضع الحديث.

وبالرجوع إلى تاريخ وفاة أبي يوسف رحمه الله وتاريخ الرحلة التي جلب فيها الإمام الشافعي رحمه الله إلى بغداد، نجد ما يلي:

أن الإمام أبا يوسف رحمه الله تعالى قد توفي قبل قدوم الشافعي رحمه الله إلى بغداد بسنتين. فقد تقدم أن قدوم الشافعي رحمه الله إلى بغداد كان سنة أربع وثمانين ومائة^(١)، أما وفاة الإمام أبي يوسف رحمه الله فقد كانت يوم الخميس وقت الظهر لخمسٍ خلونَ من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة^(٢).

وقد صرح بكذب ما نسبته البلوي إلى أبي يوسف ومحمد رحمهما الله غير واحد من الأئمة النقاد.

قال الذهبي في السير: قدم بغداد سنة بضع وثمانين ومائة وأجازه الرشيد بمال، ولازم محمد بن الحسن مدة، ولم يلقَ أبا يوسف القاضي، مات قبل قدوم الشافعي^(٣).

وقال ابن حجر رحمه الله: وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعي المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوي فقد أخرجها الأبري والبيهقي وغيرهما، مطولة ومختصرة، وساقها الفخر الرازي في مناقب الشافعي بغير إسناد معتمداً عليها وهي مكذوبة وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة، وأوضح ما فيها من الكذب قوله فيها: إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرّضا الرشيد على قتل الشافعي، وهذا باطل من وجهين:

أحدهما: أن أبا يوسف لما دخل الشافعي بغداد كان قد مات ولم يجتمع به الشافعي.

والثاني أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم، لا سيما وقد اشتهر بالعلم وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم، هذا ما لا يظن بهما، وإن منصبهما وجلالتهما وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك، والذي تحرّر لنا بالطرق الصحيحة أن قدوم الشافعي بغداد أول ما قدم كان سنة أربع وثمانين ومئة، وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين وأنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه^(٤)، ونقل عن محمد بن سهل الأموي: حدثنا عبد الله بن محمد البلوي فذكر محنة مكذوبة للشافعي

١- الصفحة السابقة من هذا البحث.

٢- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ٢/٢٢١ - سير أعلام النبلاء ٧/٤٦٩ - الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد البصري ٢٣٠هـ، تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط ١ - ١٩٦٨م.

٣/٨٢ - أخبار القضاة لأبي بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الطبي البغدادي ن ٣٠٦هـ، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة النجارية - مصر ط ١ - ١٩٤٧م. ٣/٣٦٤.

٣- سير أعلام النبلاء ١٠/٥٠.

٤- توالي التأسيس بمعالي محمد بن إدريس. ٧١.

فضيحة لمن تدبرها^(١).

قال ابن كثير : من زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقول عبد الله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها للشافعي ، فقد أخطأ في ذلك ، وإنما ورد الشافعي بغداد في أول قدمة قدمها إليها سنة أربع وثمانين ومئة ، وإنما اجتمع الشافعي بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه ، وأقبل عليه ، ولم يكن بينهما شأن كما يذكره بعض من لا خبرة له بهذا الشأن^(٢).

وأما بالنسبة لمحمد بن الحسن رحمه الله تعالى فإن الشافعي كان قد رآه في الحجاز وأخذ عنه ولازمه ، وهل يظن عاقل بأستاذ أن يقوم بالوشاية بتلميذه وهو في منصب رفيع وتلميذه في بلد غير بلده وليس بينهما خصومة ولا منافسة على منصب وليس بينهما احتكاك مباشر ، إلا صلة العلم الذي هو رحم بين أهله ، هذا بالإضافة إلى ما كان يتميز به محمد بن الحسن رحمه الله من التقوى والورع الذي تجله عن مثل هذه السفاسف والانحطاط إلى مثل هذا المستوى من الأخلاق التي يترفع عنها عوام المسلمين ناهيك عن مثل هذا الإمام.

يضاف إلى ذلك ما تقدم مما ذكره الذهبي وابن حجر وابن كثير رحمهم الله . ومما ذكره ابن كثير أيضاً قوله : وما ذكره عبد الله بن محمد البلوي في رحلة الشافعي رضي الله عنه في مناظرة الشافعي رضي الله عنه أبا يوسف بحضرة الرشيد وتأليب أبي يوسف عليه فكلام مكذوب اختلقه هذا البلوي قبحه الله ، وأبو يوسف رحمه الله كان أجل قدراً وأعلى منزلة مما ينسب إليه وإنما أدرك الشافعي رضي الله عنه في هذا القدمة محمد بن الحسن الشيباني وأنزله في داره وأجرى عليه نفقة ، وأحسن إليه بالكتب وغير ذلك رحمهم الله^(٣).

إقامته في بغداد

تقدم أن الشافعي قد تكلم أمام الرشيد بعد أن مَثَلَ بين يديه ، وقد ورد أن الرشيد قال له وبحضرة محمد بن الحسن : أنت محمد بن إدريس؟ قال الشافعي : فقلت نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ما ذكرك لي محمد بن الحسن ، ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ما يقول هذا؟ هو كما يقول؟ قال : بلى وله في العلم محل كبير وليس الذي رُفِعَ عليه من شأنه ، قال : فخذه إليك حتى أنظر في أمره ، فأخذني محمد وكان سبب خلاصي لما أراد الله عزَّ وجلَّ منه^(٤).

١- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٢م. ٦٨١/١.

٢- لسان الميزان لابن حجر ٦٨١ / ١.

٣- طبقات الشافعيين، ٣٩/١.

٤- الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء ٩٧/١.

ولم أجد من صرَّح بمقدار المدة التي أقامها الإمام الشافعي في بغداد بعد أن انتهت هذه المحنة مع الرشيد؛ إلا أنه رحمه الله قد نزل دار محمد بن الحسن ولازمه وأخذ عنه العلم وكتب كتبه وحصلت بينهما مناظرات علميه حسنة.

قال أبو عبيد: رأيت الشافعي عند محمد بن الحسن وقد دفع إليه خمسين ديناراً، وقد كان دفع إليه قبل ذلك خمسين درهماً وقال: إن اشتيت العلم فالزم ثم دفع إليه هذه الدنانير، ولزمه الشافعي^(١).

قال الذهبي: قد قدم بغداد سنة بضع وثمانين ومائة، ولازم محمد بن الحسن مدة^(٢). وقال ابن حجر: وإنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه^(٣).

وروى الربيع بن سليمان عن الشافعي أنه كتب إلى محمد بن الحسن وقد طلب منه كتباً لينسخها فأخراها عنه فكتب إليه:

قُلْ لِمَنْ لَمْ تَرَ عَيْبًا	نُ مَنْ رَأَاهُ مِثْلَهُ
وَمَنْ كَانَ مِنْ رَأَى	وَقَدْ رَأَى مَنْ قَبْلَهُ
الْعِلْمُ يَهْئِي أَهْلَهُ	أَنْ يَمْنَعُوهُ أَهْلَهُ
لَعَلَّهُ يَبْذُلُهُ	لِأَهْلِهِ لَعَلَّهُ

قال فأنفذ الكتب إليه من وقته^(٤).

وقال أحمد بن سريح الرازي سمعت الشافعي يقول: أنفقتُ على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً ثم تدبرتها فوضعت إلى جانب كل مسألة حديثاً^(٥).

وقال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي، وقال مرة وقر بعير ليس عليه إلا سماعي منه^(٦).

قلت: ومما تقدم من نزول الشافعي في دار محمد بن الحسن، ومن ملازمته له، وأخذه العلم عنه، ورواية كتبه، وكتابة هذا الكم الكبير (وَقَرَّ بَعِيرٍ - حِمْلٌ بَخْتِي) من كتب محمد بن الحسن ونسخه لها يمكن لنا أن نتخيل على وجه المقاربة مقدار المدة التي أقامها الإمام الشافعي رحمه

١- تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٦/٥١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - دار الكتاب العربي - بيروت - تحقيق د. عمر تدمري - ط١ - ١٩٨٧م، ١٤٦/٥.

٢- سير أعلام النبلاء ٥٠/١٠.

٣- توالي التأسيس ص ٧١.

٤- أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيري ١٢٧/١ - وفيات الأعيان ١٨٤/٤.

٥- تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٧/٥١ - مناقب أبي حنيفة وصاحبيه ٨١/١.

٦- أخبار أبي حنيفة وأصحابه ١٢٨/١.

اللَّهُ تعالى في قدمته الأولى هذه في بغداد قبل أن يعود إلى مكة المكرمة بعدها.

رحلة عودته إلى مكة

بعد مقام الشافعي رحمه الله هذه المدة في بغداد في كنف محمد بن الحسن الشيباني، وملازمته له، وأخذ العلم عنه، ومناظرته له في العلم أحياناً، وروايته لكتبه، وكتابته لها؛ حمل هذه الكتب وعاد إلى مكة المكرمة وقد تقدم قوله: حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي؛ وقال مرة: وقر بعير ليس عليه إلا سماعي منه^(١).

قال ابن كثير: ثم أحسن إليه الرشيد وأطلق له قريباً من خمسة آلاف دينار كما تقدم، ثم رجع إلى الحجاز...^(٢).

مكث الشافعي رحمه الله في مكة مدة بلغت العشر من السنين أو زادت عليها يشغل بالعلم والتدريس وكان مما ورد عنه رحمه الله أنه اشتغل به وأولاه عنايته كتب محمد بن الحسن التي حملها معه عنه.

روى أحمد بن سريج عنه أنه قال: أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً ثم تدبرتها فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً، يعني رداً عليه^(٣).

رحلته الثالثة إلى بغداد -ج-

كانت الرحلة الثانية للإمام الشافعي رحمه الله إلى بغداد رحلة رجل مكبل بالأغلال متهم بالخروج والتحريض على الخليفة لا يعلم ما الذي سيحكم عليه به، وما الذي سيؤول إليه أمره فدخلها خائفاً متوجساً.

أما رحلته هذه (الثالثة) فإنها رحلة عالم تبخر في العلم في مكة وخرج منها يقصد عاصمة الخلافة لينشر علمه ويلتقي بغيره من علماء عصره فيفيد كل منهم من الآخر، فكانت رحلته هذه في السنة الخامسة والتسعين بعد المائة للهجرة.

وصل الشافعي رحمه الله إلى بغداد فاجتمع بعلمائها واجتمع عليه ثلثة من علمائها ومن طلبه العلم الذين أخذوا عنه وصحبوه وتفقهوا عليه وكان من أشهرهم:

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله المتوفى سنة ٢٤١هـ، الذي لازمه وأكثر من الأخذ والرواية عنه.

١- أنظر الصفحة السابقة.

٢- طبقات الشافعيين ٢٩/١.

٣- سير أعلام النبلاء ٨/٢٤٠ - مناقب الامام أبي حنيفة وصاحبيه ٨/١.

أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح البزار الزعفراني المتوفى سنة ٢٦٠هـ.

أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي المتوفى سنة ٢٥٦هـ

أبو ثور ابراهيم بن خالد الكبي المتوفى سنة ٢٤٠هـ

أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ

أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعري البصري.

أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم المعروف بابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨هـ^(١).

قال ابن كثير ثم عاد إلى بغداد في سنة خمس وتسعين (يعني بعد المائة) ، فاجتمع بأحمد بن حنبل وأضرابه في ذلك الزمان...^(٢).

أقام الشافعي رحمه الله ببغداد سنتين قضاهما في نشر العلم وفيهما كَوَّنَ ما سمي بالقول أو بالمذهب القديم له.

روى أبو بكر الخطيب بسنده إلى أبي الفضل الزجاج، قال: لما قدم الشافعي إلى بغداد وكان في المسجد إما نيِّف وأربعون أو خمسون حلقة فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله، قال الرسول، وهم يقولون قال أصحابنا حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره^(٣).

وروى موسى الأشيب عن بعض شيوخه قال: لما قدم الشافعي رضي الله عنه بغداد لزمه أحمد بن حنبل يمشي مع بغلة له فأخلى الحلقة التي يقعد فيها أحمد ويحيى وأبو خيثمة وغيرهم^(٤). حتى روي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: كل مسألة ليس عندي فيها دليل فأنا أقول فيها بقول الشافعي^(٥).

وقد اشتهر ذكر الشافعي رحمه الله ببغداد وغيرها بين العلماء. فعن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعي يقول: سميت ببغداد ناصر الحديث^(٦).

رحلة عودته من بغداد إلى مكة

بعد سنتين أقامهما الشافعي رحمه الله في بغداد قصد مكة المكرمة عائداً إليها، ويظهر أن ذلك كان سنة سبع وتسعين ومائة وقبل موسم الحج منها: فقد تقدم أنه قدم بغداد في السنة الخامسة والتسعين بعد المائة وأقام فيها سنتين، فيكون خروجه منها في السابعة والتسعين بعد

١- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١٠٨/١.

٢- طبقات الشافعيين ٢٩/١.

٣- طبقات الشافعيين ٢٢/١.

٤- المرجع السابق.

٥- طبقات الشافعية ٥٦/١.

٦- تهذيب الكمال للحافظ المزي ٢٤/٢٧٤ - منازل الأئمة الأربعة ٢١٠/١.

المائة. قال ابن كثير: وأقام ببغداد سنتين ثم رجع إلى مكة^(١).

وأما كون رجوعه كان قبل موسم الحج منها فلما روى من تناظر الشافعي واسحاق بن راهويه بمسجد الخيف من منى أيام الموسم، وأظن ذلك في ست وتسعين أو سبع وتسعين ومائة وذلك بحضرة أحمد بن حنبل^(٢).

وقال محمد بن اسحاق بن راهويه: سمعت أبي يقول: اجتمعت مع الشافعي بمكة فسمعته يُسأل عن كرى بيوت مكة، فقلت له: أسألك عن هذه المسألة لا أجوز بك إلى غيرها، قال: ذلك أقدر لك^(٣).

وقال الربيع: خرجنا مع الشافعي رضي الله عنه من مكة نريد (منى) فلم ينزل وادياً ولم يصعد شعباً إلا وهو يقول: «من الكامل»

يا راكباً قف بالمحصب من منى	واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبُّ آل محمد	فليشهد الثقلان أني رافضي ^(٥)

وقال محمد بن الفضل القزاز سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل ونزلت في مكان واحد معه، أو في دار - يعني بمكة - وخرج أبو عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - باكراً، وخرجت أنا معه فلما صليت الصبح وردت المسجد فجئت إلى مجلس سفيان بن عيينة أدور مجلساً مجلساً طلباً لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، حتى وجدت أحمد بن حنبل عند شاب أعرابي وعليه ثياب مصبوغة، وعلى رأسه جمة، فزاحمت حتى قعدت عند أحمد بن حنبل، فقلت: يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة عنده الزهري وعمرو بن دينار وزيد بن علاقة ومن التابعين ما أنت به عليم، فقال لي: اسكت فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول ولا يضرك في دينك ولا في عقلك ولا بفهمك، وإن فاتك عقل هذه الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي^(٥).

وقال اسحاق بن راهويه: كنا بمكة والشافعي بها، وأحمد بن حنبل بها، فقال لي أحمد بن حنبل: يا أبا يعقوب جالس هذا الرجل - يعني الشافعي - قال: وما أصنع به؟ سنه قريب من

١- طبقات الشافعيين لابن كثير - فصل في رحلته وطلبه العلم وولايته.

٢- المصدر السابق - فصل في ذكر أوصافه الجميلة.

٣- المصدر السابق - فصل في ذكر أوصافه الجميلة.

٤- ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١٨٧/٢ - معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ٢٤٠٨/٦

٥- طبقات الشافعيين ١/٢٢.

سننا، أترك ابن عيينة والمقري؟ فقال: ويحك إن ذلك لا يفوت وهذا يفوت، فجالسته. قلت - يعني ابن كثير- هذا لعله كان سنة ست أو سبع وتسعين ومائة، بعد أن قدم الشافعي رضي الله عنه بغداد سنة خمس وتسعين فعرف أحمد ثم عاد إلى مكة...^(١).

ثم أقام الشافعي رحمه الله بعد موسم الحج هذا بمكة يشتغل بالعلم ويدرسه حتى سنة ثمان وتسعين ومائة حيث غادرها إلى العراق.

رحلته الرابعة الأخيرة إلى بغداد

وفي سنة ثمان وتسعين ومائة غادر الشافعي رحمه الله مكة متجهاً إلى بغداد^(٢).

قال الشافعي: لما دخلت بغداد نزلت باب الشام فانصبّ الناس إليّ فاستوتوا في مجالسهم حتى جاء أبو ثور بمسألة، فقلت: يا أبا ثور الإيناس قبل الإسناس، فلم يدر ما قلت له، فقال: ما هو يا أبا عبد الله؟ فقلت: الإيناس مسح الناقة بيدك حول ضرعها، والإسناس حلب ضرعها بيدك^(٣). أقام الشافعي رحمه الله ببغداد أشهراً التقى فيها بعلمائها وأقبل عليه تلاميذه - ممن تقدم ذكرهم - وطلاب العلم فيها يتفقهون عليه وينهلون من معينه.

وفي خلال هذه الفترة كان رضي الله عنه يفكر في الذهاب إلى مصر. قال الزعفراني: لما أراد الشافعي رحمه الله الخروج من العراق إلى مصر أنشد لنفسه: «من الطويل»
أخي أرى نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المفاوز والقفر
فوالله ما أدري ألفتوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر
قال الزعفراني: فوالله لقد سيق إليهما جميعاً^(٤).

الرحلة إلى مصر

عزم الشافعي رحمه الله على الذهاب إلى مصر التي لم يسبق له أن زارها فخرج من بغداد في السنة التاسعة والتسعين بعد المائة، والذي يظهر أن خروجه إليها كان في أوائل هذه السنة، فإنه قدم إلى بغداد في السنة الثامنة والتسعين بعد المائة، ولم تدم إقامته فيها إلا أشهراً. قال حرملة بن يحيى: قدم علينا الشافعي سنة تسع وتسعين ومائة ومات سنة أربع وثمانين ومائتين عندنا بمصر^(٥).

١- تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٣١/٥١ - طبقات الشافعيين لابن كثير ٢٢/١.

٢- منازل الأئمة الأربعة ٢٠١/١.

٣- الانتقاء ٩٣/١.

٤- الانتقال في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١٠٢/١.

٥- طبقات الشافعيين، ٤٠/١.

سلك الشافعي رحمه الله في رحلته هذه طريق دمشق ماراً بنصيبين وحران ثم بيت المقدس وصولاً إلى مصر، ولم يدخل دمشق مع كونه اجتاز بلاد الشام من شرقها إلى غربها، ومع ما كانت تتميز به دمشق من كونها حاضرة من حواضر الإسلام والمدن التي يؤمها العلماء من كل فجٍّ وصوب، ومع ذلك لم يمرَّ فيها رضي الله عنه، وهذا ما جعل ابن كثير رحمه الله يستغرب عدم دخوله دمشق وعدم مروره بها حيث قال: ثم حسن في رأيه المصير إلى الديار المصرية فسافر إليها على طريق الشام، ويقال: إنه اجتاز حرّان وأنه دخل بيت المقدس، وأما دمشق فلم أَر أحدًا ذكر أنه وردها، والحافظ ابن عساكر مع تحريره وكثرة اطلاعه ترجم للشافعي رضي الله عنه في التاريخ لمروره في الشام إلى الديار المصرية ولم يقع له أنه دخل دمشق وهذا عجيب^(١).

وقال عبد الله بن عبد الرحمن الزجاج: رأيت الشافعي بنصيبين قبل أن يدخل مصر فلم أره أكلًا بنهار ولا نائمًا بليل^(٢).

قال الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أزهّد ولا أروع من أحمد بن حنبل^(٣). وكان ممن رافق الشافعي في هذه الرحلة محمد الحنفي والعباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكان العباس قد استصحبه بمصر، وذلك سنة ثمان وتسعين ومائة^(٤).

قال محمد الحنفي: خرجنا من بغداد مع الشافعي رضي الله عنه نريد مصر، فدخلنا حران، وكان قد طال شعره، فدعا حجاماً فأخذ من شعره فوهب له خمسين ديناراً^(٥).

ولما قدم مصر أتاه والد ياسين بن زرارة القتباني الحميري فسأله أن ينزل عليه فأبى وقال: أريد أن أنزل على أخوالي الأزدي فتزل عليهم^(٦).

وكان نزوله على عبد الله بن عبد الحكم بن أعين إذ جاء من بغداد إلى مصر...^(٧).

ولما استقر الشافعي رحمه الله بمصر قال له عبد الله بن عبد الحكم: إن أردت أن تسكن البلد - يعني مصر - فليكن لك قوت سنة، ومجلس من السلطان تتعزز به، فقال له الشافعي يا أبا محمد من لم تُعزّه التقوى فلا عزّ له، وقد ولدت بغزة، وريبت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة وما

١- طبقات الشافعيين، ٤٠/١.

٢- البيهقي في المناقب، ١/٢٣٧-٢٨٤ - سير أعلام النبلاء ١٠/٨١.

٣- تاريخ بغداد ٤/٤١٩ - تهذيب الكمال ١/٤٥١ - سير أعلام النبلاء ١١/١٩٥.

٤- الانتقاء ١/١١٥.

٥- طبقات الشافعيين ١/٢٦، تاريخ دمشق ٥١/٢٧١.

٦- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١/٦٨.

٧- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١/١١٣.

بتنا جياعاً قط^(١).

قال اسماعيل بن يحيى المزني: قدم علينا الشافعي، وكان بمصر ابن هشام صاحب المغازي، وكان عالم مصر بالغريب والشعر، فقيل له: لو أتيت الشافعي فأبى أن يأتيه، فلما كان بعد ذلك قيل له: لو أتيت، فأتاه فذاكره أنساب الرجال... فكان ابن هشام بعد ذلك يقول: ما ظننت أن الله عز وجل خلق مثل هذا...^(٢).

وقال الحميدي: خرجت مع الشافعي إلى مصر، وكان هو شاركننا في العلو ونحن في الوسط، فربما خرجت في بعض الليل فأرى المصباح، فأصيح: يا غلام، فيسمع صوتي، فيقول: بحقي عليك أرق، فأرقى، فإذا قرطاس ودواة، فأقول فيه: يا أبا عبد الله، فيقول: تفكرت في معنى حديث، أو مسألة، فخفت أن يذهب علي، فأمرت بالمصباح وكتبته^(٣).

أقام الشافعي بمصر حوالي خمس سنوات أكبَّ فيها على التأليف والتعليم واجتمع حوله العلماء وطلاب العلم كل منهم يظفر منه بما يريد ويقطف من ثمار علمه ما يحلو له ويطيب، فقد كوّن مذهبه الجديد في مصر في هذه السنوات التي أقامها فيها وألف في ذلك كتبه الجديدة كلها. قال النووي: صنّف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره في البلدان، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار للتعرف عليه والرواية عنه، وسماع كتبه منه، وأخذها عنه، وساد أهل مصر وغيرهم، وابتكر كتباً لم يسبق إليها، منها: أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغي وغيرها^(٤).

وكان من أبرز من أخذ عنه رحمه الله في مصر من العلماء وطلاب العلم كل من:

أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي (وهو من تلاميذ مالك) ت ٢٠٤هـ

أبو عبد الله أحمد بن يحيى الوزيري ت ٢٠٥هـ

عبد الله بن عبد الحكم بن أعين، ت ٢١٤هـ

أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي ت ٢٣١هـ

ابن الشافعي أبو عثمان محمد بن محمد بن ادريس الشافعي ت ٢٣٢هـ

عبد العزيز بن عمران بن أيوب بن مقلاص ت ٢٣٤هـ

١- طبقات الشافعيين ١/ ٢٤.

٢- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١/ ٩٣.

٣- طبقات الشافعيين ١/ ٤٠.

٤- تهذيب الأسماء واللغات - فصل في مولد الشافعي ١/ ٤٨.

عمر بن سواد بن الأسود ت ٢٤٥هـ

هارون بن سعيد بن الهيثم ت ٢٥٠هـ

أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى بن عمرو بن مسلم المزني ت ٢٦٤هـ

أبو موسى يوسف بن عبد الأعلى الصدفي ت ٢٦٤هـ

حرملة بن يحيى بن حرملة بن عمران بن فراد التجيبي ت ٢٦٦هـ

بحر بن نصر بن سابق الخولاني ت ٢٦٧هـ

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ت ٢٦٨هـ

الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي ت ٢٧١هـ

قحزم بن عبد الله بن قحزم الأسواني ت ٢٧١هـ^(٥).

هل كان للشافعي رحمه الله إلى مصر رحلة واحدة أم رحلتان

يجمع كل من ترجم للإمام الشافعي رحمه الله أنه في السنة التاسعة والتسعين بعد المائة الأولى للهجرة خرج من العراق قاصداً مصر ليستقر فيها بقية حياته.

ولكن هل خرج منها بعد وصوله إليها ليعود إليها مرة أخرى؟ هناك من يقول نعم إنه خرج منها إلى مكة ثم عاد إليها مرة ثانية من مكة، فقد روي عن المزني قال: قال الحميدي: لما خرج الشافعي من مكة إلى مصر وفاتنا بنفسه خرجنا خلفه إلى مصر^(٦).

يجيب عن هذا السؤال ابن كثير رحمه الله حيث قال: وقد زعم (الحافظ ابن عساكر) أنه دخل مصر مرتين، المرة الأولى على طريق الشام من العراق أيام محمد بن الحسن، والثانية من مكة صحبه عبد الله بن الزبير الحميدي، وفي هذا نظر والله أعلم، وإنما حملة على هذا ما رواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بسنده إلى الحميدي قال: كان أحمد بن حنبل قد أقام عندنا بمكة على سفیان بن عيينة: فقال لي ذات ليلة: ها هنا رجل من قريش له بيان ومعرفة فقلت له: من هو، قال: محمد بن إدريس الشافعي... وخرجت مع الشافعي إلى مصر...^(٧).

قلت: يضاف إلى ما ذكره ابن كثير رحمه الله: أنه تقدم أن الشافعي بعد خروجه إلى العراق من مكة لم يطل بقاؤه في العراق وإنما بقي شهراً ثم غادرها إلى مصر ويظهر أن الحميدي بقي في مكة بعد خروج الشافعي منها إلى العراق ثم لما أراد الالتحاق به كان الشافعي قد خرج إلى

٥- الانتقال في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١٠٩/١-١١٥.

٦- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ٨٩/١.

٧- طبقات الشافعيين ٣٩/١-٤٠.

مصر فخرج خلفه إليها ولربما يوافق هذا ما ذكره الحميدي من قوله: لما خرج الشافعي من مكة إلى مصر وفاتنا بنفسه خرجنا خلفه إلى مصر، والله أعلم.

رحلته رضي الله عنه إلى الدار الآخرة

بعد هذا العمر المبارك والتاريخ الحافل بالعلم والخير والعطاء، كان الإمام الشافعي رحمه الله بدأ يشعر بأن الوعد الحق له بدأ يقترب منه، وأنَّ أجله قد دنا منه فبدأ يحس بأنه يلوح له في الأفق، وما قوله:

فوالله ما أدري أَلْفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر
الإشياء من هذا الإحساس.

ثم إنه رحمه الله أثناء إقامته بمصر أوصى في أمر ولده وإنفاذ وصيته إلى عبد الله بن عبد الحكم القرشي^(١).

قال المزني: دخلت على الشافعي رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف أصبحت يا أبا عبد الله: قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وإخواني مفارقاً، ولسوء أفعالي ملاقياً، وبكأس المنية شارباً، فوالله ما أدري أروحي إلى الجنة تصير فأهنيها أو إلى النار فأعزِّيها ثم بكى وأنشأ يقول «من الطويل»:

إليك إله الخلق أرفعُ رغبتني وإن كنتُ يا ذا المنِّ والجود مجرماً
فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سالماً
تعاطمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربِّي كان عفوك أعظماً
فما زلتُ ذا عفوعن الذنب لم تزل تجودُ وتعفو منَّةً وتكرماً^(٢)

وفي مساء يوم الخميس ليلة الجمعة في آخر يوم من شهر رجب سنة أربع ومائتين للهجرة أسلم الإمام الشافعي رضي الله عنه الروح إلى خالقها وتم دفنه بعد صلاة العصر من يوم الجمعة غرة شهر شعبان من هذه السنة.

وقيل إن وفاته كانت يوم الجمعة.

قال الربيع: توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة بعدما صلى المغرب آخر يوم من رجب ودفناه يوم الجمعة، وانصرفنا فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين، وصلى عليه السري

١- البيهقي في المناقب ١/٧٧ - توالي التأسيس ص ٤٥ - مناقب الأئمة الأربعة ١/٢٠٣
٢- مختصر تاريخ دمشق ٢١/٢٤٢ - السلوك في طبقات العلماء والملوك ١/٣١١.

بن عبد الحكم أمير مصر^(١).

قال ابن عبد البرّ في ترجمته لعبد الله بن عبد الحكم: وكان صديقاً للشافعي وعليه نزل إذ جاء من بغداد إلى مصر وعنده مات الشافعي ودُفِن في وسط قبور بني عبد الحكم بمصر^(٢).

قال الربيع بن سليمان المؤذن: (مات - أي الشافعي - يوم الخميس ليلاً وهو ابن خمس وخمسين سنة في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين...).

وروي عنه أنه سئل عن سن الشافعي فقال: نيف وخمسون سنة^(٣).

وذكر ابن كثير رحمه الله أن: عمره يوم مات أربع وخمسون سنة^(٤).

قلت: تقدم أن ولادة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كانت سنة مائة وخمسين من الهجرة، وأن وفاته كانت سنة أربع ومائتين للهجرة، وبالتالي فإن رحلة الإمام الشافعي إلى الحياة الدنيا قد استغرقت أربعاً وخمسين سنة هجرية طاف فيها معظم حواضر العالم الإسلامي ومدنه الهامة في ذلك العصر، فدرس ودرّس والتقى بعلماء العالم الإسلامي، وأخذ عنه طلاب العلم وجمع كتب العلم ثم ألّف كتباً في العلم لم يسبق إليها وأنشأ مذهبه القديم، ثم مذهبه الجديد كل ذلك خلال هذه الفترة الزمنية التي تعتبر قصيرة إذا ما قورنت بأعمار غيره إلا أن الله تعالى بارك له في عمره ووقته وحياته ولعل ذلك بما كان يتحلى به الإمام الشافعي رحمه الله من ورع وتقوى لله تعالى وإخلاص وتفان في خدمة دينه سبحانه، رحم الله الإمام الشافعي وجعله في عليين.

١- تاريخ دمشق ٤٣٢/٥١ - الانتقاء ١٠٢/١

٢- الانتقاء ١١٣/١

٣- مختصر تاريخ دمشق ٤١٢/٢١ - سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٨

٤- طبقات الشافعيين ٤٦/١

المؤسّساتُ والمراكزُ العلميّةُ في القدس

(١٣٢-١٤٩٢هـ/٧٥٠-١٠٩٩م)

مقدمة :

شهدت القدس خلال فترة الدراسة حركة علمية تميزت بالحيوية والنشاط بشكل عام، في شتى المجالات العلمية والتعليمية، وقامت هذه الحركة على عدد من المؤسّسات والأنظمة التي كفلت للعالم والمتعلّم بيئةً وأساليب تُعين كلاً منهما على العطاء والتحصيل، كما قامت على امتداد مساحة فلسطين عدد من المدن التي تميزت بدورها ونشاطها في هذا المجال، وقد كان يعترها بعض الفتن، وتخبو جذوتها، تبعاً لتقلبات الحياة السياسية التي كانت تعانها بلاد الشام عامة، وفلسطين بشكل خاص، فكانت تلك الأحوال السياسية لا تؤثر على سير الحياة العامة، أو العلمية والثقافية، ولم تكن توقف عجلتها.

وقد صور لنا ابن العربي (ت: ٥٤٢هـ)، الأحوال العلمية في القدس، وكيف أنه رغم الثورات، والفتن، وانعدام الأوقات؛ فإنها لا تتوقف، فالقدس «عَلَى صِغَرِهِ مُسْتَمِرٌّ عَلَى حَالِهِ، مَا أُغْلِقَتْ لَهُدِهِ الْفِتْنَةُ سُوقٌ، وَلَا سَارَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَامَّةِ بَشَرٌ، وَلَا بَرَزَ لِلْحَالِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مُعْتَكِفٌ، وَلَا انْقَطَعَتْ مُنَازَرَةٌ، وَلَا بَطَلَ التَّدْرِيسُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَسْكَرِيَّةُ قَدْ تَفَرَّقَتْ فِرْقَتَيْنِ يَمْتَتِلُونَ، وَلَيْسَ عِنْدَ سَائِرِ النَّاسِ لِذَلِكَ حَرَكَةٌ عَلَى النَّقِيضِ مِمَّا يَحْصُلُ فِي بِلَادِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ»^(١)، فلو حدث مثل ذلك لَاضْطَرَمَتْ نَارُ الْحَرْبِ فِي الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ، وَلَا نَقَطَعَتْ الْمَعَايِشُ، وَغُلِقَتْ الدَّكَائِنُ، وَبَطَلَ التَّعَامُلُ لِكَثْرَةِ فُضُولِنَا وَقَلَّةِ فُضُولِهِمْ»^(٢). ولعل هذا الأمر من بركات القدس، الذي بارك الله «لسكانه في

١- أصل ابن العربي من مدينة إشبيلية، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة، وهي: «مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس، تسمى (حمص) أيضا وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره وبها كان بنو عباد ولقاهم بها خربت قرطبة وعملها متّصل بعمل بلبة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا». ياقوت، معجم، ج ١، ص ١٩٥.

٢- ابن العربي: أحكام، ج ٤، ص ٨. يتحدث ابن العربي هنا وفق تجربة حدثت معه شخصيا، فقد راح ابنه عبد الله ضحية، وقتل من غير قصد، خلال الحرب التي دارت بين المرابطين، و الموحدين، الذين نجحوا في السيطرة على إشبيلية، في شعبان سنة =

معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم»^(١).

وسيتناول هذا البحث بالدراسة أهم المؤسسات والمراكز التي مارس فيها العلماء وطلاب العلم نشاطهم العلمي والثقافي في مدينة القدس على وجه الخصوص، في الفترة الواقعة من قيام الخلافة العباسية، وحتى سقوط القدس بأيدي الصليبيين في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وسيتم دراسة الموضوع ضمن ثمان مطالب تناولت المؤسسات والمراكز العلمية في القدس، اشتملت على عدد من المحاور، وهذه المطالب هي:

أولاً: الكتابات.

ثانياً: المساجد.

ثالثاً: المدارس.

رابعاً: دور العلم الصوفية.

خامساً: دور العلم.

سادساً: المجالس العلمية الخاصة والعامة.

سابعاً: المكتبات.

ثامناً: البيمارستانات.

وقد اعتمد الباحث في دراسته وإيراده للمعلومات على المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية لموضوع البحث، ثم اعتمد المنهج الانتقائي، وكذا الوصفي التاريخي لبيان مؤسسات ومراكز العلم في القدس.

متن البحث:

تعددت روافد الحركة الفكرية في القدس، وتمثلت في إنشاء العديد من المراكز العلمية سواء كانت في المساجد، والمدارس، والزوايا، والمكتبات، والخوانق، والبيمارستانات^(٢).

(١) = (٥٤١هـ)، مما يعني أن الحرب كما صورها ابن العربي، في بلاده، كانت تأتي على كل شيء، وتوقف عجلة الحياة، على العكس مما رآه في القدس، خلال رحلته العلمية، التي استمرت ثلاث سنوات، قضاهما في فلسطين. انظر: السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (د.ط.): الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، المحقق: جعفر الناصري/ محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ج ٢، ص ١١٧. ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (١٣٩١هـ/١٩٧١م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، بيروت - لبنان، منشورات مؤسسه الأعلمي للطبوعات، ج ٦، ص ٢٢٤.

١ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ج ١٧، ص ٣٥١.

٢- سيتم الحديث عنها بالتفصيل في نقاط لاحقة بمشيئة الله تعالى.

ومهما يكن من أمر فقد أفادت المصادر بتقدم الحياة العلمية والثقافية في القدس في الفترة موضوع الدراسة، وتعددت الأماكن التي كانت تعد مراكز لاحتضان العلماء وطلاب العلم، وأماكن لتعليم الناس وإفتاءهم، ومن هذه المراكز:

أولاً: الكتاتيب^(١) أو المكاتب:

وهي موضع تعليم القراءة والكتابة للصبيان، وتعد من المؤسسات التعليمية المهمة التي وجدت في العالم الإسلامي لتعليم وتربية الصغار التربوية الإسلامية الصحيحة^(٢).

وتُعد الكتاتيب من المراكز التي كان لها علاقة بالحياة العلمية في القدس، كما أنها أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجوداً في العالم الإسلامي، حيث انتشرت في فلسطين، وخاصة في مدينة (الرملة)^(٣)، منذ فجر التاريخ، ويبدو أن مدينة (يافا) هي الوحيدة في فلسطين التي لم يكن فيها كُتَّاب، فقد نقل ياقوت^(٤) عن «ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٤٤٢هـ: ويافا بلدٌ حطُّ والمولود فيها قلٌّ أن يعيش حتى لا يوجد فيها معلّم للصبيان».

١- الكتاتيب: الكُتَّابُ موضعُ تَعْلِيمِ الكُتَّابِ والجمع كَتَاتِيْبٌ، ومكاتبٌ مفردُها مَكْتَبٌ، وهو أيضاً: موضع التعليم، ويقال للصبيان المَكْتَبُ الفُرْقَانُ أيضاً، والمكتب و المَكْتَبُ: المَعْلَمُ، ومن ألقابه الحفائلي، والمكتب موضع الكتاب، والمكتب والكتَّاب موضع تعليم الكتاب، ورجل كاتب، والجمع: كُتَّابٌ وكتبة، وحرفته الكتابة، والكتبة: الحالة، واستكتبه: أمره أن يكتب له، والكتاب ما كتب فيه، والجمع كتب. انظر: السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي (١٢٨٢هـ/١٩٦٢م): الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ج١٢، ص٤١٠. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الإفريقي (١٤١٤هـ/١٩٩٣م): لسان العرب، بيروت - لبنان، دار صادر، ط٢، ج١، ص٦٩٨. الجندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (١٤١٦هـ/١٩٩٥م): السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، صنعاء اليمن، مكتبة الإرشاد، ج١، ص٢٨١. الخزاعي، علي بن محمد بن أحمد بن موسى ابن مسعود، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، المحقق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، (١٤١٩هـ)، ص٨٦.

٢- دهبش، عبد اللطيف عبد الله: «الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما»، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٩٨٦م، ص١١.

٣- ابن القلانسي، أبو يعلى التميمي حمزة بن أسد بن علي بن محمد (١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م): ذيل تاريخ دمشق، المحقق: د سهيل زكار، دمشق - سوريا، دار حسان للطباعة والنشر، ص١٥٩. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (د.ت): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ج١، ص٥٤٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (١٤١٣هـ/١٩٩٣م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ج٣٠، ص٢٩٦.

٤- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (١٤١٦هـ/١٩٩٥م): معجم البلدان، بيروت - لبنان، دار صادر، ط٢، ج٥، ص٤٢٦.

وكانت أماكن هذه الكتابات إما في المسجد^(١)، أو في بيت المدرّس^(٢)، أو بشكل مستقل^(٣).
وقد كان أكثر من يلتحق بها من الأيتام^(٤)، وكانت تلك الكتابات مختلطة، تضم البنات،
والصبيان معاً في مكتب واحد^(٥).

وقد كان هدف هذه الكتابات ينحصر في المقام الأول في تربية الأطفال على الفضائل
والمحامد، وتعليمهم قراءة القرآن، وحفظه، إضافة إلى مبادئ القراءة، والكتابة، والخط،
والإملاء، وبعض الشعر، وأصول الحساب^(٦). «ويتعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تزيهاً لكتاب

١- الذهبي: تاريخ، ج ٤٠، ص ٢٣٠.

٢- التنوخي، المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م): الفرج بعد الشدة
تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، ج ٣، ص ٢٦٢. الصُرَيْفِيُّ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَزْهَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ
مُحَمَّدِ الْعِرَاقِيِّ، تَقِيُّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيُّ: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، المحقق: خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر
التوزيع، (١٤١٤هـ)، ص ٤٧٤. الذهبي، تاريخ، ج ٣٦، ص ٢٢٥.

٣- ابن القلانسي: ذيل، ص ١٥٩. أبو الفداء: المختصر، ج ١، ص ٥٤٤. شلبي، أحمد: «تاريخ التربية الإسلامية»، القاهرة، مكتبة
 النهضة المصرية، ط ٢، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص ٤٨. العمري، عبد الله منسي السعد: «تاريخ العلم عند العرب»، عمان، دار
 مجدلاوي للنشر والتوزيع (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص ١٨. الزرو، خليل داود: «الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني
 للهجرة»، بيروت، دار الآفاق الجديدة، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص ٢١. جودة: مدينة الرملة، ص ٢٨٥. وقد بلغ من حرص عبد الله
 بن محمد بن يوسف التجيبي، أنه كان يعلم الصبيان في الشارع. انظر: الذهبي: تاريخ، ج ٦، ص ٢٤٢.

٤- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (١٤١٠هـ/١٩٩٠م): الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار
 الكتب العلمية، ج ١، ص ١٦٩، ١٢٠، ٨٠.

٥- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (١٤١٢هـ): ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، بيروت، مؤسسة
 الأعلمي، ج ٢، ص ٧٨. ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي
 (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): التذكرة الحمدونية، بيروت - لبنان، دار صادر، ج ٢، ص ٢٥١. الأبهسي، شهاب الدين محمد بن أحمد
 بن منصور أبو الفتح (٥١٩هـ): المستطرف في كل فن مستطرف، بيروت، عالم الكتب، ص ١٦٦.

٦- السمعاني: الأنساب، ج ١٢، ص ٤١٠. عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (١٢٨٥هـ/١٩٦٥م): ترتيب المدارك
 وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، المغرب - مطبعة فضالة المحمدية، ج ٦، ص ٢٩٤. الصُرَيْفِيُّ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ
 بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَزْهَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ الْعِرَاقِيِّ، تَقِيُّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيُّ (١٤١٤هـ): المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور،
 المحقق: خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٥٤٢. السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (١٣٦٧هـ/
 ١٩٤٨م): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، ط ١، مصر، مكتبة الخانجي، ص ١٢٠. الذهبي، تاريخ،
 ج ١٥، ص ١٢٧، ج ١٨، ص ١١٦. ابن قدامة، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف، شمس الدين المقدسي الدمشقي الحنبلي
 (د.ت): العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المحقق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكاتب العربي، (د.ط)،
 ص ١٩. الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين العدوي الشافعي (د.ت): نهاية الرتبة الظرفية في طلب
 الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، ص ١٦١. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر،
 أبو العباس الحسيني العبيدي (د.ت): تعاطف الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الجزء ١: حققه جمال الدين
 الشيال، جامعة الإسكندرية، الجزء ٢، ص ٢. حققه د محمد حلمي محمد أحمد، ج ١، ص ٨٦. القنوجي: أبجد العلوم، ص ٧٠. التيازجي،
 إبراهيم بن ناصف بن عبد الله بن ناصف بن عبد الله بن ناصف بن جنبلاط بن سعد التيازجي الحمصي (١٩٠٥م): نجعة الرائد
 وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، مصر، مطبعة المعارف، ج ٢، ص ٥٦. انظر: الخطيب، إبراهيم ياسين (١٤١٤هـ/١٩٩٣م):
 «دور التعليم في تحرير القدس إبان العصر الأيوبي»، عمان، (د.ن)، (د.ط)، ص ١٠٧. أحمد، محمد حلمي محمد: «الحياة العلمية
 في مصر والشام (٥٢١-١٢٤٨هـ/١١٢٧-١٢٥٠م)»، القاهرة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السابع، (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص ٧.

الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد المُلقَّن على حدة، والمُكْتَبُ على حدة فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط؛ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه؛ لأنه بتصوير يحذو حذوه»^(١).

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي إلى طريقة غريبة في تعليم الصبيان؛ بحيث رأى تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس؛ لأن تعليم العربية في التعليم ضرورة لحفظ اللغة من الفساد، ثم ينتقل منه إلى الحساب، فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى درس القرآن؛ فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة، وفي ذلك يقول ابن العربي: «ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أوامره، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم ما عليه منه»^(٢)، ثم قال: «ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه»^(٣)، «ونهى مع ذلك أن يُخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط»^(٤). وكان يتولى التدريس في الكتاتيب المؤدَّب^(٥)، أو العريف، أو المُكْتَب^(٦).

ثانياً: المساجد:

كانت المساجد أول الأبنية التي أُقيمت في الإسلام، تقام فيها الصلوات الخمس، وتتم فيها بيعة الخلفاء، ويدعى فيها القوم إلى الجهاد، ويتم فيها الفصل بين الناس، بالإضافة إلى المهمة الدينية التي بُنيت من أجلها، وكانت من أقدم المراكز التعليمية في الإسلام، وأكثرها انتشاراً،

١- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكثاني الأندلسي، أبو الحسين (د.ت): رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ص ١٠٢.

٢- ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٧٤٢.

٣- م.س.ص.ص ٧٤٢.

٤- م.س.ص.ص ٧٤٢.

٥- انظر ترجمته في: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (١٤١٥هـ/١٩٩٥م): تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ٢٤، ص ٢٧. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ج ١٦، ص ١٥٢؛ العبر في خبر من غير، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ١١٨؛ تاريخ، ج ٢٦، ص ٢٢٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): الوالي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ج ١٨، ص ٢٤. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (د.ت): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج ٤، ص ١٠٩. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، ج ٣، ص ٤٨.

٦- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (١٢٧١هـ/١٩٥٢م): الجرح والتعديل، الهند - حيدر آباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٣، ص ٢٢٧.

فقد عقدت فيها مجالس العلم، حيث كان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون، وحولهم تلاميذهم، وسمّيت مثل هذه المجالس بالحلقات التعليمية، أو حلقات العلم، ولذلك كانت المساجد بمثابة مراكز ومعاهد للعلم والثقافة، والوعظ ودراسة القرآن، والحديث والفقه واللغة، وغيرها من العلوم^(١).

وكانت فلسطين، وما زالت مشهورة بمساجدها، ويبدو أن الإصطخري قد استغرب من وجود نحو من عشرين منبراً بفلسطين «على صغر رقعتها»^(٢).

وخلال حكم (الأراقة) بتقويض من (السلاجقة)، شهدت القدس عملية إحياء للمذهب السني، خاصة في دراسات الفقه الشافعي، والفقه الحنفي يعد قرن ويزيد من الاختلال العبيدي الإسماعيلي، وتظهر عملية الإحياء تلك من قيام الأمير (أرتق) ببناء مسجد جديد في داخل أسوار القدس عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م^(٣).

١ - المسجد الأقصى في القدس :

كان المسجد الأقصى في مقدمة المساجد الجامعة في فلسطين^(٤)، وكان بالإضافة إلى مكانته الدينية الرفيعة، مركزاً مهماً لحياة علمية نشطة، وتدرّيس العلوم الإسلامية، مثل: علم الفقه، وعلم الحديث، وعلم الكلام، والتفسير، وأصبحت القدس تُعج بالعلماء والفقهاء الوافدين إليها من بلدان العالم الإسلامي المختلفة^(٥). ولا يغيب عن بالنا أنه قد استشهد بالقدس حين

١- ابن خلدون: تاريخ، ص ٢١٩-٢٢٠؛ ص ٣٤٩-٣٥٠. العمري، عبد الله منسي السعد (١٤١٠هـ/١٩٩٠م): «تاريخ العلم عند العرب»، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ص ١-٢٠. الواحي، سمية: التعليم في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، ص ٧٢-٧٥.

٢- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م): المسالك والممالك، بيروت - لبنان، دار صادر، ص ٥٨. ٣- النقش الذي عثر عليه ويدل على بناء هذا المسجد هو: «بسم الله الرحمن الرحيم، تولّى عمارة هذا المسجد المبارك ... ص وعليه مر (٩) رما ما من (٩) الله وسعه (٩) وذلك في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة. نقلًا عن الحيارى، مصطفى (١٩٩٤م): «القدس في زمن الفاطميين والفرنجية»، عمان الأردن، المعهد الملكي للدراسات الدينية، ص ٣٦.

٤- المسجد الأقصى: سمي الأقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار، انظر: البعلبي، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلبي، أبو عبد الله، شمس الدين (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م): المطلع على ألقاب المقنع، المحقق: محمود الأرنؤوط، وإياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادى للتوزيع، ص ١٩٥. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة- مصر، دار الكتب والوثائق القومية، ج ١، ص ٢٢٦. قلججي، محمد رواس. وحامد صادق قنبي (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م): «معجم لغة الفقهاء»، دار الفنائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ص ٨٢.

٥- ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله: قانون التأويل، دراسة وتحقيق: محمد السليمانى، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ص ٤٢٥-٤٤٢. أعراب، سعيد (١٩٨٧م): مع القاضي ابن العربي، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، ص ٢٠٣-٢١٢. العسلي، كامل جميل (١٤٠٢هـ/١٩٨١م): «معاهد العلم في القدس»، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ص ٢٩، ٢٦؛ الفكر الديني: العلوم الإسلامية في فلسطين، بحث في الموسوعة الفلسطينية، بيروت، (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ج ٣، ق ٢، ص ٤٤٨. الحيارى: القدس، ص ١٤، ٤٢-٤٤. عبد المهدي، عبد الجليل حسن (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): «الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والملوكي»، عمان، مكتبة الأقصى، ص ٣٢. عباس، إحسان (١٤١٤هـ/١٩٩٣م): «فصول =

اجتاحتها الصليبيون مائة ألف جَلهم من العلماء، وهذا دليل كبير على مدى ازدهار الحياة العلمية في رحاب المسجد الأقصى^(١).

ولقد لعب المسجد الأقصى دوراً مهماً في ازدهار العلوم الدينية في فلسطين، والاهتمام بها، إلى جانب كونه مكاناً للتعبُّد، وأداء الشعائر الدينية، لما كان له من قيمة عظيمة، ومكانه دينية رفيعة في نفوس وأذهان المسلمين في شتى بقاع الأرض، كونه أولى القبلتين، وثالث الحرمين^(٢)، ومسرى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»^(٣). لذا أصبح المسجد الأقصى من أهم المراكز التعليمية في فلسطين، فتجمّع فيه العلماء وطلاب العلم من جميع أنحاء الولايات

= حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ص٢٦، «رحلة ابن العربي كما صورها قانون التأويل»، بيروت، الجامعة الأمريكية، مجلة الأبحاث، ٢٤، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص٦٧.

١ - سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المطرف يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله البغدادي (١٩٩٠م): مرآة الزمان في تأريخ الأعيان من سنة ٣٤٥-٤٤٧هـ، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، بغداد، الدار الوطنية، ج١، ص٢٢٤. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (١٤١٥هـ/١٩٩٥م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ج٩، ص١٩. أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٢١١. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) بن توما الملطي (١٤١٢هـ/١٩٩٢م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت لبنان، دار الشرق، ط٣، ص١٩٧. العليمي، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان - الأردن، مكتبة دنديس، ج١، ص٣٠٧-٣٠٩. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ص٢٤٥. التويري: نهاية، ج٢٨، ص٢٥٦. الذهبي: تاريخ، ج٢٤، ص١١٦. العبر، ج٢، ص٣٦٥. العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي شهاب الدين ابن فضل الله (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ج٢٤، ص٢٨٠. ابن الوردي، عمر بن مطرف بن عمر ابن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين المعري الكندي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج٢، ص١١. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (١٤١٣هـ): طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ج٥، ص٢٣٢. اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (١٤١٧هـ/١٩٩٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج٣، ص١١٨. ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص١٤٨. المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي (١٤١٨هـ/١٩٩٧م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج٢، ص١٩٦. اتعاط، ج٣، ص٢٣. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (١٣٧١هـ/١٩٥٢م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج٥، ص٤٠١. شيخو، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب (١٣٣١هـ/١٩١٣م): «مجانن الأدب في حدائق العرب»، بيروت - لبنان، مطبعة الآباء اليسوعيين، ج٦، ص٢١٤. وانظر: الزبدة، عبلة المهدي (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م): «القدس تاريخ وحضارة»، بيروت - دار نعمة للطباعة، ص١٠٠.

٢- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م): البلدان، المحقق: حسام بن محمد القطان، السعودية، دار العطاء، ص٦٢.

٣- سورة الإسراء، آية ١.

الإسلامية لزيارته، والتعبد فيه، ولإلقاء الدروس، ولتلقى العلم فيه، فكانت تقام فيه حلقات العلم، وتدرّس العلوم المتنوعة، فقد روي عن عبيد الله بن محمد الضريابي، أنه قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي بالقدس يقول: «سلوني عما شئتم، أخبركم به من كتاب الله وسنة رسول الله»^(١). وقد اشتملت المعارف العلمية في القدس ومسجدها الأقصى على عدة علوم: كالقراءات^(٢)، وعلوم الحديث^(٣)، والأدب، وإنشاد الشعر^(٤)، كما كان «المذكّرون به قصاصاً، ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرؤون في دفتر»^(٥).

وممن قرأ العلم وحُدث بالمسجد الأقصى^(٦)، أو «جامع القدس» كما أطلق عليه ابن عساكر^(٧)، نذكر: الحسن بن أبي يحيى بن أبي السكن الأطروش^(٨)، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الغزال المقرئ، الذي حدث عن أحمد بن يونس، إمام مسجد القدس، بالقدس، وكان من ولد شداد بن أوس^(٩)، وقال أبو الفضل بن أبي نصر «سمعت أبا حامد أحمد بن علي بن إسحاق الجرجاني الحافظ في مسجد القدس»^(١٠)، وحُدث الخَلعي علي بن الحسن ابن الحسين بن محمد، أبو الحسن الشافعي (ت: ١٠٩٩/٥٤٩٢ م) عن «أبو الفرج عبيد الله بن محمد النحوي بالقدس قراءة عليه في المسجد الأقصى»^(١١)، وحدث صدر الدين، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد

١- الأزدي، عبد الغني بن سعيد بن علي بن بشر بن مروان الأزدي المصري، أبو محمد: فوائد حديث الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي عن شيوخه، المحقق: رياض حسين الطائفي، الرياض، دار المغني، (١٤٢٥/٢٠٠٤م)، ص ٥٢. ابن تميم المقدسي: شهاب الدين أبي محمود (١٩٩٤م): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، بيروت، دار الجليل، ص ٣٥٤-٢٥٧. العليمي: الأنس الجليل، ج ١، ص ٢٩٤.

٢- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢٤، ص ٣٠٧؛ ج ٥٢، ص ٢٢٩، ٢٢٨؛ ج ٥٥، ص ١٩٧.
٣- ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري: الإبانة الكبرى، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثويبي، ويوسف الوابل، الرياض، دار الراية للنشر والتوزيع، (د.ط)، ج ٢، ص ٦٨٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٩، ص ٢٤٥؛ ج ٢٢، ص ٢٥٤؛ ج ٢٤، ص ١٣٠.

٤- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤٥، ص ٢٤٥.
٥- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري (١٤١١هـ/١٩٩١م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، ط ٢، ص ١٨٢.

٦- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (المتوفى: ٦٤٦هـ): بيروت، إنباه الرواة على أنباه النحاة، المكتبة العنصرية، (١٤٢٤هـ)، ج ٢، ص ١٩٠.

٧- تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٥؛ ج ٥٢، ص ٤٤٧.
٨- ابن بطة: الإبانة، ج ٢، ص ٦٨٦.

٩- البَجِيرِيُّ، أَبُو عُمَانَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَجِيرِ النَّيْسَابُورِيِّ: الثالث من فوائده أبي عثمان البجيرري، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص ٥٥.

١٠- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٩.
١١- الخَلعي: الفوائد المنتقاة الحسان الصحاح والغرائب (الخلعيات)، رواية: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي، تخريج: أحمد بن الحسن بن الحسين الشيرازي، مخطوط المكتبة الأزهرية: (رقم: ٦٥٩) ٥٧١٢، منشور إلكترونيا عبر المكتبة الشاملة، ج ١، ص ٣٠٠.

بن إبراهيم سلفه الأصبهاني (ت: ٥٧٦هـ) «عن أبو عثمان محمد بن أحمد بن ورقاء الأصبهاني، بالقدس»^(١)، وعن أبي عثمان محمد الصوفي^(٢). كما أن نصر بن إبراهيم المقدسي قرأ النحو على أبي سعيد عبد الكريم بن إبراهيم بن محمد بن الحسن النحوي الرازي^(٣)، وأبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن محمد بن بكران، الذي قرأ عليه نصر بن إبراهيم الحديث لفظاً في جمادى الآخرة سنة سبعين وأربعمائة في نفس المسجد^(٤). وكان عبد الله السقاء شيخ صالح يجاور الجامع بالقدس، وكان يقرأ كل ليلة سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة ولا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرأيت في بعض الليالي مائتي شاة مقطعة الرؤوس وقائلاً: يقول لي: هذه لك، فقلت: فلم هي مقطعة الرؤوس، فقال: لأنك لم تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم^(٥).

وقد ضم المسجد الأقصى بين جنباته المقدسة العديد من الأماكن التي شكلت مراكز علمية مزدهرة في القدس، ومواضع مهمة يلقى العلماء فيها دروسهم، وكانت المراكز العلمية في المسجد الأقصى، ومن هذه الأماكن:

أ- المحاريب: فقد كان في «مسجد القدس لعامة الأنبياء المعروفين لكل واحد منهم محراب معروف»^(٦)، وصل عددها إلى «سبعة محاريب، منها: محراب مريم، ومحراب زكريا، ومحراب يعقوب»^(٧).

- محراب يعقوب عليه السلام: كان يلتقى عنده المحذثون لينهلوا من بعضهم، فقد ذكر أبو القاسم بن السمرقندي بأنه قرأ على أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم الطوسي المقرئ إمام الصخرة المقدسة بالقدس، وقال له: «أخبركم أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد الخطيب الواسطي قراءة عليه وأنت تسمع بالقدس في محراب يعقوب سنة ٤٤٠هـ»^(٨).

- محراب معاوية: كما كان هناك محراب يسمى بمحراب معاوية، وقد كان «أبو الحسن

-
- ١- ابن سلفه الأصبهاني، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني، صدر الدين: الجزء الثاني من المشيخة البغدادية، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ص ٥٦.
 - ٢- ابن سلفه الأصبهاني، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني، صدر الدين (المتوفى: ٥٧٦هـ): التاسع والعشرون من المشيخة البغدادية، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص ١٠.
 - ٣- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٥. القفطي: إنباه، ج ٢، ص ١٩٠.
 - ٤- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٣، ص ٤٤٧.
 - ٥- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٦٢، ص ١٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (١٤٢٤هـ): المحاضرات والمحاورات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص ١٥٩.
 - ٦- الإصطخري: المسالك، ص ٥٧.
 - ٧- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (١٩٩٢م): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ج ١، ص ٤٦٩.
 - ٨- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥١، ص ٨٩.

علي بن الحسن الصيرفي البغدادي (كان حياً في ٢٢٠هـ)، رجلاً زاهداً متعبداً، وكان يتكلم على الناس بعد صلاة العصر في مسجد القدس في محراب معاوية، فقال له بعض الشيوخ: علام يستند الشيخ؟، فقال: ما حولت وجهي عن القبلة إلا وقمت عيني على ما أكره؛ وما روى قط إلا متوجهاً إلى القبلة»^(١)، وقد «رزقه الله لساناً في علم التوحيد يدق عن مسامع كثير من الناس...، وتوفي هذا الشيخ رضي الله عنه وهو في صلاة الوتر قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما قال: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ فاضت نفسه رحمة الله عليه»^(٢).

- **مهد عيسى عليه السلام**: وقد «اجتمع الإمام أبو حامد الغزالي وإسماعيل الحاتمي وأبو الحسن البصري وإبراهيم الشباك (وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء) بالمسجد الأقصى، (في مهد عيسى عليه السلام) فأنشده مُنشداً هذين البيتين:

فديتك لولا الحب كنت فديتي ولكن بسحر المقلتين سببتي
أتيتك لما ضاق صدري من الهوى ولو كنت تدري كيف شوقي أتيتني

فتواجد أبو الحسن البصري وجداً أثر في الحاضرين، وتوفي محمد الكازروني من بين الجماعة في ذلك المجلس ورفع ميتاً»^(٣).

ب- قبة الصخرة:

ومن مساجد القدس نذكر أيضاً مسجد قبة الصخرة المشرفة داخل سور المسجد الأقصى، وأبرز من تولى الإمامة فيه: أبو بكر محمد بن أحمد بن علي، الطوسي، الصوفي المقرئ^(٤)، وقد استشهد في شعبان ٤٩٢هـ مع من قتل على يد الصليبيين الذين هاجموا المدينة المقدسة^(٥).

وقد جرت في مسجد قبة الصخرة العديد من المناظرات واللقاءات العلمية بين العلماء، أورد ابن العربي مثلاً لواحد من اللقاءات التي حضرها، فيقول: «ورد علينا بالمسجد الأقصى سنة سبع وثمانين وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزني^(٦) زائراً للخليل

١- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): «تاريخ بغداد وذيوله»، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج ١٨، ص ٢١٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤١، ص ٢٤٦.

٢- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤١، ص ٢٤٦.

٣- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٢١، ص ١٤٢. وانظر: ابن عساكر: تاريخ، ج ٦٢، ص ٤٦. وما بين القوسين أضفناها منه.

٤- روى عن: عمر بن أحمد الواسطي، وروى عنه: أبو القاسم بن السمرقندي. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٤، ص ١٣٢.

٥- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٤، ص ١٣٢.

٦- هذه النسبة إلى زوزن وهي بلدة كبيرة حسنة بين هراة ونيسابور. السمعاني: الأنساب، ج ٦، ص ٣٤٢.

صلوات الله عليه فحضرنا في حرم الصخرة المقدسة (طهرها الله) معه، وشهد علماء البلد، فسئل عن العادة على قتل المسلم بالكافر، فقال: يقتل به قصاصاً؛ فطولب بالدليل، فقال: الدليل عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٧٨). وهذا عام في كل قتل، فانتدب معه للكلام فقيه الشافعية بها وإمامهم عطاء المقدسي (ت: ١٢٥هـ/٧٥٢م)^(١)، وقال: ما استدل به الشيخ الإمام لا حجة له فيه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة: ١٧٨)، فشَرَطَ المساواة في المجازاة، ولا مساواة بين المسلم والكافر؛ فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته، الثاني: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها، وجعل بيانها عند تمامها، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ (البقرة: ١٧٨)؛ فإذا نقص العبد عن الحر بالرق، وهو من آثار الكفر، فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر، الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ١٧٨)؛ ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر؛ فدل على عدم دخوله في هذا القول. فقال الزوزني: بل ذلك دليل صحيح، وما اعترضت به لا يلزمي منه شيء. أما قولك: إن الله تعالى شرط المساواة في المجازاة، فكذلك أقول. وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم في القصاص غير معروفة فغير صحيح؛ فإنهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص، وهي حرمة الدم الثابتة على التأييد؛ فإن الدَّمِ مَحْقُونُ الدَّمِ عَلَى التَّأْيِيدِ، والمسلم محقون الدم على التأييد، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي؛ وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم؛ فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكة.

وأما قولك: إن الله تعالى ربط آخر الآية بأولها فغير مُسَلِّم؛ فإن أول الآية عامٌ وآخرها خاص، وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها؛ بل يجري كل على حكمه من عموم أو خصوص. وأما قولك: إن الحر لا يقتل بالعبد، فلا أسلم به؛ بل يقتل به عندي قصاصاً، فتعلقت بدعوى لا تصحُّ لك. وأما قولك: فمن عفي له من أخيه شيء يعني المسلم، فكذلك أقول، ولكن هذا خصوص في العفو؛ فلا يمنع من عموم ورود القصاص، فإنهما قضيتان متباينتان؛ فعموم إحداهما لا يمنع من خصوص الأخرى، ولا خصوص هذه يناقض عموم^(٢). ويذكر أبو حامد الغزالي أنه بعد رحلته

١- عطاء بن أبي مسلم: أحد الكبار، اسمه ميسرة ويقال عبد الله أبو أيوب ويقال أبو عثمان ويقال أبو محمد ويقال أبو صالح الخراساني، بلخي مولى المهلب بن أبي صفرة سكن الشام ومن الشام إلى القدس، وحديثه عن أبي الدرداء والمغيرة بن شعبة وابن عباس وجماعة مرسل، وروى عن سعيد بن المسيب وعروة وابن بريدة وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن شعيب ونافع وعدة، وعنه شعبة ومعمّر ومالك والثوري وحماد بن سلمة وإسماعيل بن عياش وخلق. حتى إن شيخه عطاء روى عنه، وفتحه ابن معين، توفّي أبي باريحا سنة خمس وثلاثين ومائة. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤٠، ص ٤٢٣. الذهبي: تاريخ، ج ٨، ص ٤٩٠؛ سير، ج ٦، ص ٢٨٧.

٢- ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م): أحكام القرآن، راجع =

إلى دمشق اتجه إلى القدس، فيقول «وأدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي»^(١). وذكر خسرو أنه كان «يقيم في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين»^(٢).

وقد سمع عبد الرحمن بن عبد الساتر بن الحسن أبو محمد المقدسي، من أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الرميلى بباب الصخرة المقدسة في سنة (٤٨٥هـ)^(٣).

ج- قبة السلسلة: أشار إليها ابن العربي، وذكر أنه قد اعتكف على القراءة فيها^(٤).

د- الغوير^(٥): الواقع بين باب الأسباط^(٦)، ومحراب زكريا^(٧)، كان يقيم فيه، الشيخ العالم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وكانت تعقد فيه حلقات الدرس، والمناظرة بحضور العلماء والفقهاء من أهل القدس وغيرهم من العلماء الوافدين^(٨). وكان الطلبة يحضرون إلى «الغوير»؛ حيث يقيم الشيخ الطرطوشي، فيأخذون عنه، وقد ذكر ابن العربي، أنه قابل الطرطوشي في هذا المكان، وسمع كلامه وحظي به، ثم قال: «وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم، وتيسر لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت بالقدس مكاناً، والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا ولا أكلم إنسيا، نواصل الليل بالنهار»^(٩).

ثالثاً: المدارس:

لم تظهر المدارس في فلسطين في فترة الدراسة، باستثناء القدس، التي ظهرت فيها المدارس في القرن الخامس الهجري، خلال الحكم العبيدي، والسلجوقي لها، وكان يتم فيها

= أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط٢، ج ١، ص ٩٠-٩١.

١- المنقذ من الضلال، تحقيق: عبد الحليم محمود، مصر، دار الكتب الحديثة، ص ١٧٦.

٢- خسرو: سفرنامه، ص ٦٧.

٣- ابن عساكر: معجم، ج ١، ص ٥٤٢.

٤- قانون التأويل، ص ٤٢٥. مع القاضي، ص ٢٠٥. انظر: عباس: فضول، ص ٥٦؛ رحلة ابن العربي، ص ٨٠-٨١.

٥- ذكر ناصر خسرو مقام الغوري في المسجد الأقصى بالقدس، والذي بناه الأمير ليث الدولة نوستكين الغوري، الوالي الفاطمي، ولعله هو نفسه الغوير الذي ذكره ابن العربي في رحلته. خسرو، ناصر (١٩٨٣م): سفرنامه، المحقق: يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ص ٦٩.

٦- باب الأسباط: أحد أبواب مدينة القدس من جهة الشرق وهو الموضع المعروف بالمهد، ومنه يهبط الدرج إلى القسم السفلي من الحرم، ويقع على الجانب الشمالي للمسجد الأقصى، عَرْضُهُ سَعْعُ أذْرُعٍ وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعاً. خسرو: سفرنامه، ص ٥٩.

٧- يقع في مسجد عمر بجوار الباب الشرقي للمسجد، في محيط المسجد الأقصى. خسرو: سفرنامه، ص ٥٩. العليمي: الأسن، ج ٢، ص ١٢.

٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (١٢٨٤هـ/١٩٦٤م): الجامع لأحكام القرآن أو تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ج ٨، ص ٣٣٩. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص ٢٠٥. عباس: فضول، ص ٥٦. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ٢٢. السلي: معاهد، ص ٣٠.

٩- قانون التأويل، ص ٤٢٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص ٢٠٥. عباس: فضول، ص ٥٦؛ رحلة ابن العربي، ص ٨٠-٨١.

تدريس العلوم الدينية، وكان القرآن أول ما يدرّس ويحفظ للطلاب، بالإضافة إلى علم الحديث وروايته، والفقه، والتفسير، وإلى جانب العلوم الدينية، كانت يتم تدريس علوم اللغة بمختلف فروعها^(١). ومن أهم المدارس التي كانت معروفة في القدس في فترة الدراسة:

١ - المدرسة النَّصْرِيَّة^(٢) :

كانت من المراكز العلمية المشهورة بالقدس، في القرن الخامس الهجري، وكان موقعها بجانب باب الرحمة، نسبة إلى مؤسسها الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي (ت: ٤٩٠هـ/١٠٩٦م)^(٣)، «يقراً للعلم مدة طويلة»^(٤)، وعُرفت هذه المدرسة أيضاً باسم المدرسة الغزالية، لإقامة الإمام الغزالي بها عند قدومه إلى القدس سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)^(٥)، ولأهمية هذه المدرسة، ودورها الفاعل في تنشيط وإحياء العلوم الشرعية من فقه وحديث وغيرها.

٢ - المدرسة الشافعية :

عند باب الأسباط، وكان يرأسها الشيخ يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ^(٦)، وكان

١- الديباغ، مصطفى مراد (١٩٨٨م): «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، منشورات اليسار، ط ٢، ص ٢٤. علي، محمد كرد (د.ت): «خطط الشام»، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، ج ٦، ص ٦٦. النقاش، زكي (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م): «العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية»، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص ٩٢. البيضاوي، سعيد عبد الله (١٩٩١م): «نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية» ٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م. دن عمان، الأردن، ص ٢٠٣-٢٠٤.

٢- انظر: علي: خطط، ج ٦، ص ١١٧. وذكر العسلي بأنها أسست حوالي سنة ٥٠هـ/١٠٥٨م، أي في العهد الفاطمي الشيعي. انظر: العسلي، معاهد، ص ٤٦، ٩٦. ويبدو أن هذه المدرسة، وهي مدرسة سنية، لم تكن قائمة في ظل الحكم الفاطمي الشيعي، الذي كان يناهض ويقاوم فكر أهل السنة من المذاهب الأخرى مثل الحنفي والشافعي، وحيث أن حكم الفاطميين كان قد انتهى في القدس سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، بقدوم السلاجقة السنيين، واستمرار حكمهم مدة ٢٨ سنة (٤٦٣-٤٨٩هـ/١٠٧٠م-١٠٩٦م)، إذن، ومما لا شك فيه أن هذه المدرسة السنية كانت قد أنشئت في عهد السلاجقة، أي في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م أو بعد ذلك، وليس في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م أثناء الحكم الفاطمي كما يقول العسلي.

٢- العليمي: الأنس، ج ٢، ص ٢٨، ٢٤. النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٢٥١. ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٤، ص ١٠٢. العارف، عارف (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): «المفصل في تاريخ القدس»، القدس - فلسطين، مطبعة المعارف، ط ٥، ص ٢٤٠. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ١٥.

٤- العليمي: الأنس، ج ٢، ص ٢٨.

٥- م. س. ص. ج ١، ص ٤٢٤. العسلي: معاهد، ص ٩٨.

كانت هناك زاوية في الجانب الغربي من الجامع الأموي بدمشق، أطلق عليها اسم زاوية الشيخ نصر المقدسي، وعرفت أيضاً باسم المدرسة الغزالية، لإقامة الإمام الغزالي بها مدة. انظر: النعيمي: الدارس، ج ١، ص ٢١٢-٢١٤.

٦- ابن الصائغ: أبو الفضل، الشيخ الإمام الفقيه الكبير القاضي يحيى بن علي الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، وتوفي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٢٤١. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٧٥٧. السبكي: طبقات، ج ٧، ص ٢٢٤. ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٢٦٦. الذهبي: سير، ج ١٤، ص ٥٤٠-٥٤١. العبر، ج ٤، ص ٩٢. ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

يجتمع فيها فقهاء الشافعية للدرس والمناظرة^(١).

٣- مدرسة أبي عقبة:

وهي مدرسة للحنفية، وكان شيخها القاضي الريحاني^(٢)، وكلتا المدرستين (مدرسة أبي عقبة والشافعي) أُسستا في فترة حكم السلاجقة، وتمتعتا بمستوى علمي عالٍ، وقد نافستا المسجد الأقصى في المجال التعليمي^(٣).

رابعاً: دور العلم الصوفية:

وهي مراكز علمية ذات طابع صوفي، ومن أهمها:

١- الخانقاوات^(٤):

لعبت الخوانق دوراً مهماً إلى جانب المدارس والرُّبُط والزوايا في مجال الحياة الفكرية والعلمية، في التدريس، والقراءة، والتفسير، وعلوم اللغة، فتخرج فيها علماء كثر، وتصدر فيها مشايخ وصفوا أنهم جهابذة زمانهم، وكان للخوانق دور ديني وثقافي واجتماعي خلال العصور الإسلامية المتعاقبة، وذات طابع صوفي، وعلى الرغم من أنها صوفية المنشأ إلا أنها تُعدُّ مراكز علمية كثرت فيها دروس الفقه والتفسير التي كانت تُلقى على مسامع مريديها، وهي لا تختلف عما كان يدور في المراكز العلمية الأخرى^(٥).

١- قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٢. انظر: عباس، رحلة ابن العربي، ص ٦٥، ٨٠، ٨٢. العسلي: معاهد، ص ٣٠. عبد المهدي: الحركة، ص ٢١. يوسف، محسن: «مقدمة في تاريخ التعليم في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي حتى الاحتلال البريطاني»، المؤتمر الدولي الثاني للدراسات الفلسطينية، رام الله، جامعة بيرزيت، ط ١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ٢٢.
٢- لم أعثره على ترجمة، وقد ذكره ابن العربي بأنه قاضي القدس، وأشار له في معرض حديثه عن المناظرة التي دارت بينه، وبين الصاغانبي. انظر: قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٩.

٣- قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٩. انظر: عباس: رحلة، ص ٦٥، ٨٠، ٨٢. العسلي: معاهد، ص ٣٠. عبد المهدي، الحركة، ص ٢١. يوسف، مقدمة، ص ٢٢.

٤- الخانقاوات: مفرد ما خانقاه، وهي كلمة فارسية تعني الدار التي يقيم بها المتصوفة انظر: المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٤٤، وقد كثرت الخانقاوات ببلاد الشام، ويشير إلى ذلك ابن جبير بقوله: «وأما الرباطات جمع (رباط) التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر، وهذه الطائفة من الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كناههم الله مؤن الدنيا وفضلها، وفرغ خواطهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش، وأسكنهم في قصور تذكروهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة، وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة وعوائدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المتأبر رقة وتشوقاً وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً. انظر: ابن جبير: رحلة، ص ٢٣١، وقد كان لصوفية الخانقاوات دور سياسي متميز، وعن ذلك انظر: ناصف، أحمد عبد السلام أحمد: «دور الصوفية في صد الهجمة الصليبية على ديار الإسلام في مصر والشام (٤٩٠-٧٩٨هـ/١٠٩٦-١٣٩٨م)»، رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة طنطا، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

٥- عبد الله، دولت (دوت): «معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والملوكي»، القاهرة، ص ٢١٨، ٢٧٣.

وقد أسهمت بنصيب وافر في التعليم^(١)؛ حيث أن نظام الإقامة والتعليم داخل الخانقاوات كان يخضع لتنظيم دقيق، فقد كان لها موظفون للوظائف الدينية والتعليمية منهم شيخ الخانقاه، ومدرسو الخانقاه، وإمام الخانقاه، وناظر وقف الخانقاه، وصوفية الخانقاه، ونزلاء الخانقاه^(٢)، كما كان لها موظفون للوظائف الخدمية مثل: كاتب الغيبة، وشاهد الشؤنة، وشاهد المخبز والمزملاتي، والطباخ، ومقدم النعال^(٣).

وقد تحدث المقدسي (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م) صراحة عن وجود الخوانق في القدس، والتي كان بعضها مخصصا لفرقة الكرامية^(٤) فكان «لهم خوانق ومجالس»^(٥). والواضح هنا من الجمع الذي ذكره المقدسي (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م) للخوانق دليل على وجود عدد كبير من الخوانق، والتي منها ما كان مخصصا للكرامية.

٢- الزوايا^(٦)؛

لا تزودنا المصادر بكثير من المعلومات حول الزوايا في القدس في فترة الدراسة، لكن من المعلوم أن القدس كانت تُعقد فيها الدروس في زوايا المساجد^(٧)، وكان لإبراهيم بن أدهم المتصوف زاوية وأتباع في المسجد الأقصى^(٨)، ومسجد قبة الصخرة^(٩)، وكما كان لفرقة

-
- ١- ربابعة، إبراهيم: «الخوانق في القدس خلال العصر العثماني»، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثامن عشر، العدد الأول، يناير ٢٠١٠م، ص ٦٦٦.
- ٢- رزق، عاصم محمد (د. ت.): «خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي»، القاهرة، مكتبة مدبولي، ج ١، ص ١٢٨.
- ٣- رزق: خانقاوات، ج ١، ص ١٢٨.
- ٤- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩، ١٨٢.
- ٥- المصدر نفسه، ص ١٧٩.
- ٦- الزوايا: مفردا زاوية وهي من البناء ركنه، لأنها جمعت بين فطرين منه وضمت ناحيتين، والمسجد غير الجامع ليس فيه منبر، يقال له زاوية، كما أنها مأوى للمتصوفين والفقراء انظر المعجم الوجيز، مادة زوى، ص ٢٩٧، وهي موضوع للنازوء، وكانت في بداية الأمر عبارة عن تجمعات دينية ينزوي فيه للدرس ومن يتحلقون حول الشيخ وكانت في ركن من المساجد الجامعة. انظر: المقرئزي: المواعظ، ج ٢، ص ٢٥٥. عبد الله، دولت: «معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي»، القاهرة، (د. ت.)، ص ٥٢.
- ٧- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩، ١٨٢.
- ٨- الدينوري، أحمد بن مروان الدينوري المالكي، أبو بكر (١٤١٩هـ): المجالسة وجواهر العلم، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، البحرين - أم الحصم، جمعية التربية الإسلامية، بيروت - لبنان، دار ابن حزم، ج ٧، ص ٨٩. أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها: ١ - دار الكتاب العربي - بيروت. ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ٣ - دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، ج ٨، ص ٥٠.
- ٩- القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (د. ت.): الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، القاهرة، دار المعارف، ج ١، ص ٢٣٠.

الكرامية إلى جانب الربط مجالس وزوايا^(١).

وذكر الرحالة خسرو الذي زار القدس في القرن الرابع الهجري أنه لاحظ صومعتين للصوفية في المسجد الأقصى^(٢).

وكان تدريس العلوم والمعارف الإسلامية هو الغالب على الزوايا، ثم تطور وأصبح عليها الجمع بين الطابع العقائدي والسياسي^(٣)، وقد ساهمت هذه الزوايا بدور كبير في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية.

٣- الرُّبَطُ^(٤)؛

وقد لعبت أيضاً دوراً مهماً في إثراء العملية التعليمية في القدس، حيث توفرت بها الكثير من المَقَوِّمات لإنجاح العملية التعليمية، وأولها فراغ البال من شأن المعيشة، ويشير إلى ذلك ابن جبير بقوله: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربية فليرحل إلى هذه البلاد ويتغير في طلب العلم فيجد الأمور المَعِينات كثيرة»:

فأولها: فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويق^(٥).

وثانيها: هو وجود خزائن للكتب بها، وبها مواضع للقراءة والنسخ والتأليف وإلقاء المحاضرات، فكان كل ذلك يشجع العلماء على المكوث بها لفترات طويلة^(٦).

وقد «كان لأصحاب ابن كرام رباط بالقدس،... وكان بذلك الرباط جماعة من أصحابه

١- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩.

٢- سفرنامه، ص ٥٩.

٣- عبد الله: معاهد، ص ٥٢.

٤- الرُّبَطُ مفرداً رِبَاطٌ، ورِبَاطٌ الخيل مرابطها لخمس منها فما فوقها، والرُّبَاطُ ملجأ للفقراء من الصوفية، والرُّبَاطَةُ الجماعة من الناس والخيل تلزم الثغر مما يلي العدو، انظر: المعجم الوجيز، مادة (ربط)، ص ٢٥٢، والرُّبَاطُ عبارة عن مبنى حصين يقيم فيه المرابطون للتعبد والاستعداد للحرب، ويكون بهذا البناء خلاوي لإقامة الصوفية، وبه فتحات للمزاغل وأماكن للمراقبة هذا بالإضافة إلى وجود أماكن للصلاة ويكون بها محراب، والرُّبَاطُ في الأصل دار يسكنها عسكريون، والرُّبَاطَةُ هي ملازمة ثغور العدو، والرُّبَاطُ هو من يدافع عن وراءه، وقد شاع تشييد الأربطة على حدود الدولة الإسلامية، فيما بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكان الرباط عادة ما تتكون من مساحة مستطيلة يتوسطها صحن بجانبه القبلي مصلى وعلى الجوانب الأخرى قاعات المرابطين وفي الأركان أبراج المراقبة، وللرباط مدخل واحد حتى يمكن الدفاع عنه عند الهجوم عليه، وبعد أن تغير نظام الثغور، بنيت بعض الأربطة في أماكن أهلة بالسكان، حيث خصص بعضها لأرامل النساء والمطلقات والبنات الأيتام، انظر: نويصر، حسني محمد: «العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك»، مركز التميز لعلوم الإدارة والحاسب، ١٩٩٨م، ص ١٥٣-١٥٤.

٥- ابن جبير: رحلة، ص ٢٢٢.

٦- معروف، ناجي (١٩٧٥م): «أصالة الحضارة العربية»، بيروت، ص ٤٦٥.

مُظْهِرِينَ لِلنَّسِكِ، وكان بالقدس رجل يقال له هجام يحبهم ويحسن ظنه بهم، فنهاه الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي (ت: ٤٩٠هـ) عن إحسانه الظن بهم، فقال: المال، فهُمَّ ما ظهر لي، فلما كان بعد ذلك رأى هجام في المنام كأنه اجتاز برباطهم، فرأى كأن حائطه كله نبات النرجس، فاستحسنه فمد يده ليتناول منه شيئاً، فوجد أصوله في العذرة، فقص رؤياه على الفقيه نصر، فقال: هذا تصديق ما قلت لك، إِنَّ ظَاهِرَهُمْ حَسَنٌ وَبَاطِنُهُمْ خَبِيثٌ^(١). ومن الحوار السابق يبدو أن مناظرات ومساجلات علمية كانت تجرى داخل الأربطة، وخارجها، فلقد كان أصحاب المذهب الكرامي ظاهريهم أمام الناس حسنين؛ لكن عقيدتهم فاسدة، ومن خلال الحوار العلمي الذي جرى بين هجام، وبين فقيه القدس، استغل نصر الفقيه قدرته على تعبير الرؤى ليثبت لهجوم فساد مذهبه، بالحجة والبرهان والدليل العقلي. ويبدو أن مكان هذا الرباط كان يقع تحديداً عند العمود الذي عند مشهد عيسى عليه السلام، فقد ذكر ابن كثير أن ابن كرام صاحب الرباط «أقام بالقدس أربع سنين، وكان يجلس للوعظ عند العمود الذي عند مشهد عيسى عليه السلام»^(٢) «على باب المهد في جامعها شرقي باب القدس»^(٣)، «واجتمع عليه خلق كثير فجاءه رجل غريب بعدما سمع أهل القدس منه حديثاً كثيراً فسأله ذلك الإنسان عن الإيمان، فأمسك عن الجواب فيه، فسأله ثاني مرة، فاشتغل عنه، ثم سأله ثالث مرة، وقال: هذا أمر عظيم يسألك إنسان عن مسألة ثلاث مرات، فتتشاغل عنه ما تقول في الإيمان، فأجابه، وقال: الإيمان قول، فلما سمعوا ذلك منه حرقوا الكتب التي قد كتبوا عنه، ونفاه متوليها إلى غور زغر فمات بها، ونقل إلى القدس... وقيل: بأنه توفي بالقدس ليلاً، ودفن بباب أريحا عند قبور الأنبياء عليهم السلام»^(٤).

خامساً: دور العلم:

لعبت دور العلم والتي كانت تعرف من قبل باسم بيت الحكمة، أو دار الحكمة، أو خزائن الحكمة^(٥) دوراً مهماً في إثراء الحركة العلمية. فقد تطورت في هذه الفترة، وأصبحت بمثابة معاهد عامة تضم قاعات خاصة تلقى بها المحاضرات في العلوم المختلفة^(٦)، إلى جانب احتوائها على خزائن للكتب^(٧)، تضم مختلف العلوم والآداب، من فقه، ونحو، ولغة، وكيمياء، وطب. وسمح

١- ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٥٥، ص ١٣٠. الصفدي: الواجعي، ج ٤، ص ٢٦٦. ابن حجر، أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٢٩٠هـ/١٩٧١م): لسان الميزان، الهند، دائرة المعارف النظامية، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، ج ٥، ص ٣٥٥.

٢- ابن كثير: البداية، ج ١١، ص ٢٦. العلمي: الأنس، ج ١، ص ٢٩٦.

٣- ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٥٥، ص ١٢٩.

٤- المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة. ابن كثير: البداية، ج ١١، ص ٢٦. العلمي: الأنس، ج ١، ص ٢٩٦.

٥- الملا، أحمد علي: «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية»، دمشق، ١٩٨١م. ص ٥٦، ٥٧.

٦- قاسم، محمود الحاج: «الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات»، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ، ص ٢٢٢، ٢٢٤.

٧- معروف: أصالة، ص ٤٥٧.

لمن رغب بالتردد عليها كيفما شاء^(١). وهذا يعني أن دور العلم خلال تلك الفترة أصبحت أعم وأشمل من خزائن الكتب القديمة، والتي كانت عبارة عن أماكن تخزن فيها كتب للإطلاع عليها ونقلها وترجمتها، ويعبر المقرئ عن هذه النقطة التي حدثت في نظم دار العلم أو الحكمة بقوله: «وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم»^(٢)، أي للتعلم على يد العلماء الذين كانوا يحضرون بهده الدور.

وفي القدس، مثل هذه الدور، فأنشأ العبيديون في القدس: دار العلم الفاطمية، التي كانت لها شأن عظيم في القرن الخامس الهجري، وهي فرع لدار العلم الفاطمية، القائمة بالقاهرة^(٣)، تهدف إلى نشر المذهب الفاطمي، وكانت مركزاً يعج بالنشاط الفكري، تعقد فيها المجالس العلمية الكثيرة^(٤).

سادساً: المجالس العلمية الخاصة والعامّة:

دلت إشارات عديدة في المصادر على تدارس العلم و الوعظ، والأدب وتلقيه في عدد من الأماكن غير المساجد، كان منها بيوت الأمراء ومجالسهم، وبيوت العلماء ودورهم. ففضي مجالس الأمراء وُجد العلماء لنشر العلم، ووعظ الحكام والأمراء والولادة، فقد زار محمد ابن عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسحاق، أبو بكر الرباطي الأصبهاني^(٥) (ت: ٤٢٠هـ)^(٦) «القدس وسمع به وأملى مجالس»^(٧).

ولم يقتصر الأمر على قصور الأمراء والعلماء، فكانت تتم بعض النقاشات في بيوت العلماء

١- المقرئ: المواعظ، ج ١، ص ٤٥٨.

٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

٣- وتعرف أيضاً بدار (الحكمة)، أسسها بالقاهرة، الحاكم بأمر الله في أواخر القرن الرابع الهجري (٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، وعين لها طائفة من الفقهاء والقراء والنحويين، ورجال الحديث والأدب واللغة وعلماء الهيئة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة، وضمت الدار مكتبة ضخمة نقلت إليها الكتب في سائر العلوم والآداب. انظر: المقرئ: المواعظ، ج ١، ص ٤٥٨. ابن تقي بري: النجوم، ج ٤، ص ٢٢٣.

٤- بدوي، أحمد أحمد: «الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام»، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت)، ص ٢٧. السيد، الدولة الفاطمية، ص ٥٨٥. حمادة، محمد ماهر: «المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما»، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ١٠٠-١٠١. زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ٢٣٠. يوسف: مقدمة، ص ٢١.

٥- الأصبهاني: بكسر الألف أو فتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وفي آخرها النون بعد الالف، هذه النسبة إلى أشهر بلدة بالجيل، خرج منها جماعة من العلماء في كل فن قديماً وحديثاً وصنف في تاريخها كتب عدة قديماً وحديثاً. السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ١٧٥.

٦- سمع: أبا القاسم الطبراني، وعبد الله بن الحسن بن بندار، وأبا بكر الجعابي، وأبا أحمد العسال، وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الرقاعي شيخ مسند يروي عن محمد بن سليمان الباغندي. وروى عنه: عمر بن الحسن بن سليم المعلم، وأبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن مردويه، وجماعة.

٧- الذهبي: تاريخ، ج ٢٨، ص ٤٩٠.

أيضا، فقد «زار السلطان تاج الدولة تتش الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، المعروف بابن أبي حافظ (ت: ٤٩٠هـ)، فلم يبق له، ولا التفت إليه، وكذا ولده دقاق، وسأله دقاق: أي الأموال أحل؟ فقال: مال الجوالي، فبعث إليه بمبلغ، فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه، .. فلأمه نصر الله المصيصي، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لا تجزع، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد . فكان كما تقرس فيه»^(١).

وكان للمجالس العلمية التي يعقدها العلماء دور كبير في نشر التعليم خلال فترة الدراسة، حيث كان العلماء يدرسون العلم في ضياعهم، وداخل منازلهم في مجالس خاصة. حيث يتردد عليهم الطلبة والمشتغلون بالعلم الشرعي، وغيره من العلوم ليقروا عليهم كتب العلماء، ويفسرونها ويشرحونها لهم، فقد «قرأ على أبي الفتح أبو الفتح محمد بن إبراهيم بن محمد بن يزيد الطرسوسي المعروف بابن البصري (ت: نحو ٤١٠هـ) بالقدس في منزله»^(٢)، وذكر أبو طاهر محمد بن أحمد ابن أبي الصقر اللخمي الأنباري (ت: ٤٧٦هـ) أنه قد قرأ على أبو الفرج عبيد الله بن محمد بن يوسف النحوي «في منزله .. بالقدس»^(٣)، وعلى أبو الفرج عبيد الله بن محمد بن يوسف النحوي الدين «في منزله في سطح موسى بالقدس»^(٤)، وحدث أبا محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النصيبي المقدسي، «أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الواسطي المقدسي الخطيب في منزله بالقدس»^(٥).

وقد نقل عن (أبو سعد السمعاني) في أدب الإملاء، قوله «أخبرنا أبو الفتح نصر بن القاسم بن الحسن الفلسطيني^(٦) من أهل القدس بقراءتي عليه على باب داره»^(٧).

١- المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٢- سلفه الأصبهاني، صدر الدين، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م): الطيوريات، من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري، دراسة وتحقيق: دسمان يحيى معالي، عباس صخر الحسن، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ج ٢، ص ١٠١٨. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤١٥.

٣- ابن أبي الصقر، أبو طاهر محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن أبي الصقر اللخمي الأنباري (١٤١٨هـ/١٩٩٧م): مشيخة أبي طاهر ابن أبي الصقر (مطبوع مع معجم مشايخ أبي عبد الله بن عبد الواحد الدقاق ومجلس إملاء في رؤية الله تبارك وتعالى)، المحقق: الشريف حاتم بن عارف العولي، الرياض - السعودية، مكتبة الرشد، ص ٩١.

٤- المصدر نفسه.

٥- المقدسي: فضائل، ص ٩٦.

٦- نصر بن القاسم بن الحسن: أبو الفتح الأنصاري، المقدسي، الفقيه المقرئ، قال الحافظ ابن عساكر: هو الذي لقتني القرآن. وكان ثقة يصلي في مسجد عمر الذي على الدرج، ويلقن فيه، سمع من: أبي القاسم علي بن أبي العلاء، وأبي محمد بن البري، وحدث. وعاش أكثر من ثمانين سنة، توفي نصر بن قاسم سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٦٢، ص ٤٠. السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ): التعبير في المعجم الكبير، المحقق: منيرة ناجي سالم، بغداد، رئاسة ديوان الأوقاف، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ج ٢، ص ٢٤٥: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، دراسة وتحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الرياض، دار عالم الكتب، ص ١٧٩٢. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ٥٢٥.

٧- الأنساب، ص ١١٤.

ومن ذلك يتضح لنا أن بيت الرجل ومجلسه في فترة الدراسة كان أشبه بمدرسة يأتي التلاميذ إليها ليتعلموا على يد هذا العالم وذاك، كما يدل على ازدهار الحياة العلمية لتشمل جميع الأماكن، ولا تقتصر على الأماكن المخصصة لذلك. كما كان بعض العلماء يلقون دروسهم على الطلبة والراغبين في المعرفة خارج منازلهم في مجالس عامة متمثلة في: الدكاكين، والساحات، والأسواق، وكانت هذه المجالس تتميز بحرية كبيرة؛ لأن الطالب كان حراً في اختيار المعلم أو العالم الذي يدرس عليه عكس المدارس المنظمة^(١) التي يفرض فيها على الطالب عالم أو معلم بعينه.

والجدير بالذكر أن المرأة الفلسطينية في فترة الدراسة لم تكن بعيدة عن أجواء المجالس العلمية الحافلة، ومن هؤلاء النسوة نذكر فاطمة النيسابورية (ت: ٢٢٣هـ)، وقد «قال لها ذو النون: عظيمي، وقد اجتمعنا بالقدس، قالت له: إلزم الصدق وجاهد نفسك في أفعالك»^(٢).

سابعاً: المكتبات:

وقد تنوعت المكتبات، فكان منها: العامة كالتي أنشئت في المساجد، والمدارس، والزوايا، والرُّبَط، والخوانق، والخاصة: التي كوَّنها الأمراء والوزراء والمتقنون لأنفسهم^(٣).

ويُعد المسلمون أول من أسرع إلى التدوين خارج الجزيرة العربية، وخاصة في بلاد الشام، وتعد المصاحف من أهم الكتب التي كان يتم الاحتفاظ بأعداد كبيرة منها في المساجد، والبيوت، والمكتبات الملحقة بالمساجد، ففي القدس، حفظت لنا سجلات محاكم القدس الشرعية إحصاء بتركات علماء القدس من المكتبات التي تشتمل على موضوعات متعددة مما يدل على إطلاع واسع لدى هؤلاء العلماء، فبقيت خزائن الكتب العلمية العامة في القدس تحتوي على ذخائر التراث العربي الإسلامي، وكان من بينها: خزائن المسجد الأقصى، وخزائن كتب المدارس، ودار كتب المسجد الأقصى، ومكتبة المتحف الإسلامي^(٤).

وقد أشار ابن عبد ربه إلى أن المسجد الأقصى «فيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد، ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها»^(٥).

كما احتوت مكتبة المسجد الأقصى على أمّهات كتب المحدثين، كالزهري مثلاً، وقد استفاد

١- عبد العاطي، عبد الفتي محمود: «التعليم في مصر، زمن الأيوبيين والمماليك»، القاهرة، دار المعارف، (٢٠٠٢م)، ص ٢٠٧.
 ٢- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م): صفة الصفوة، المحقق: أحمد ابن علي، القاهرة- مصر، دار الحديث، ج ٢، ص ٢١٥.
 ٣- المقرئزي: المواعظ، ج ١، ص ٤٥٨.
 ٤- العسلي: معاهد العلم، ص ١٥. العارف: المفصل، ص ٤٥١.
 ٥- ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م): العقد الفريد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٧، ص ٢٩١.

منها العلماء وطلبة العلم، وتداولوها فيما بينهم، وروا من خلالها عن الإمام الزهري^(١).

من خلال ما تقدم... نرى أن مكتبة المسجد الأقصى، فضلاً عن بقية مكتبات المدارس، ومكتبات الأُسَر المقدسية في القدس، كانت كبقية المكتبات في العالم الإسلامي، ومركزاً للحياة العلمية والفكرية، وكتبت المصنفات الكثيرة في تلك المكتبات العامة والخاصة واشتهر منها كتب الفضائل، وكتب المعارف العامة الأخرى^(٢).

ومن خلال هذه المؤلفات والكتب، نرى الدور الذي لعبته تلك المكتبات في الحياة العلمية والثقافية، وبيان سعة اطلاع علماء القدس على التراث العربي الإسلامي.

ثامناً: البيمارستانات؛

أما البيمارستانات^(٣)، فقد كانت بمثابة معاهد علم فيها مكتبات، وتُنظَّم فيها محاضرات تلقى على طلبة العلم، وكانت مفتوحة أمام كل طالب علم وإن كان مُعسراً^(٤).

١- الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو (٢٠٠٤م): كتاب في علم الحديث، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ص ٦١. عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، أبو الفضل (١٣٧٩هـ/١٩٧٠م): الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، المحقق: السيد أحمد صقر، القاهرة، دار التراث، تونس، المكتبة العتيقة، ص ١١٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٢١٢. ابن العديم: بغية، ج ٢، ص ١٤٦٦. ابن كيكلي، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلي بن عبد الله الدمشقي (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م): جامع التحصيل في أحكام المراسيل، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، عالم الكتب، ط ٢، ص ٩٩. المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكليبي المزي (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، ج ٢، ص ٤٢٢. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م): تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ج ١، ص ٢٣١. السخاوي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، شمس الدين أبو الخير (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م): فتح الغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مصر، مكتبة السنة، ج ٢، ص ٢٧. الأمير، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين (١٤١٧هـ/١٩٩٧م): توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٢١٢. وانظر: الزهراني، محمد بن مطر بن عثمان آل مطر أبو ياسر (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط ١، ص ١١.

٢- الخالدي، أحمد سامح: «المعاهد المصرية في القدس»، القدس، المطبعة العصرية، (د.ت). ص ٢٥. العسلي: معاهد العلم، ص ٢٠.

٣- البيمارستان: كلمة فارسية معناها (المستشفى) وهي مؤلفة من كلمة (بي) ومعناها «بدون» و(مار) ومعناها «الحياة والحيوية» (ستان) ومعناها «مكان»، فمعنى الكلمة كلها: مكان للمرضى، قال الجوهرى في الصحاح: المارستان دار المرضى. انظر: الجوهرى: الصحاح، ج ٢، ص ٩٧٨. عبد الدائم، عبد الله: «التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين»، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص ١٦٢.

٤- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (د.ت): عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، المحقق: الدكتور نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ط) ص ٤٧. وانظر: علي، داود سلمان (١٩٨٩م): «معالم الفكر العربي في التراث العربي»، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي، ج ١، ص ٢٧.

ومن أهم البيمارستانات التي ورد ذكرها والحديث عنها في القدس في فترة الدراسة، البيمارستان الذي أنشأه العبيديون في القدس (٢٩٥هـ/١٠٠٤م)^(١)، ويعتقد أنه أول مستشفى أسس في القدس، وهو من المعاهد العلمية الكبرى التي أسسها العبيديون في هذه البلاد^(٢)، وهو من البيمارستانات البديعة جداً في مدينة القدس^(٣)، وكان يقع على حافة وادي جهنم في القدس ووادي جهنم^(٤) قريب من سور الأقصى من الجهة الشرقية، ويعتقد البعض أنه ربما كان في الجزء الجنوبي خلف المسجد الأقصى^(٥)، وقد وصفه ناصر خسرو^(٦) بأنه «مستشفى عظيم، عليه أوقافٌ طائلة، ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف»^(٧). ولم يذكر معلومات إضافية عن هذا المستشفى، فلم يتحدث مثلاً عن: أقسامه، أو عن عدد المرضى الذين يمكنه استيعابهم، أو أسماء الأطباء العاملين فيه، وغير ذلك من التفاصيل الأخرى.

ولعل هذا البيمارستان كغيره من بيمارستانات ذلك العصر كان له مهمة تعليمية بالإضافة إلى المهمة الرئيسية التي يضطلع بها، ألا وهي المهمة العلاجية، ففيه كان الطلاب يتعلمون العلوم الطبية والصيدلانية، ويتدربون على أيدي أطباء مهرة^(٨)، ويبدو أن هذا المستشفى، الذي وصفه خسرو بالعظيم، كان من المراكز الطبية المهمة، ويتسع لعدد كبير من المرضى، خاصة وأنه بقي يقدم خدماته في فترة الاحتلال الفرنسي للقدس، وقد عمل الصليبيون على توسيعه^(٩). وممن تولى الإشراف على هذا البيمارستان: عبد الجليل بن عمر بن محمد بن بكران أبو محمد المقدسي المعروف بابن الخواتيمي الطبيب^(١٠).

وتتحدث بعض المراجع عن وجود مستشفى يدعى شارل (في القرن الثالث الهجري)^(١١)،

١- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٧. خسرو: سفرنامه، ص ٥٧.

٢- الخالدي: المعاهد المصرية، ص ٥.

٣- العارف: الفصل، ص ١٤١.

٤- وصل ناصر خسرو إلى القدس سنة ٤٢٨هـ/١٠٤٦م، خسرو: سفرنامه، ص ٥٦.

٥- http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٦- خسرو: سفرنامه، ص ٥٧.

٧- المصدر نفسه. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ٤١. الدباغ: بلادنا، ج ٢، ص ١٣٦. السعيد، عبد الله عبد الرزاق مسعود

(١٤٠٨هـ/١٩٨٧م): «المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني»، عمان، دار الضياء للنشر والتوزيع،

ص ٢٥٣.

٨- ابن أبي أصيبعة: عيون، ص ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٩.

٩- السعيد: المستشفيات، ص ٢٥٣.

١٠- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢٤، ص ٤١.

١١- محمود، شفيق جاسر أحمد (١٩٨٤): «تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى

الحروب الصليبية»، عمان، دار البشير، ص ٢٢٠.

وقد أسس هذا المستشفى في القدس الملك شارلمان في زمن العباسيين^(١)، وكان الغرض من إنشائه إيواء الحجاج من النصارى، ومعالجة مرضاهم أثناء قدومهم من أوربا إلى القدس^(٢).

ولكن لا يُعرفُ موقعُ هذا المشفى بالضبط^(٣). ويعتقد أن مشفى الحجاج المسيحيين الأول القديم قد هدم مع كنيسة القيامة في زمن حكم الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله (٣٧٥-٤١١هـ/٩٨٥-١٠٢١م) في عام (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وتفيد المصادر المسيحية أن مشفى القديس جون (يوحنا) الذي أسس لاحقاً لخدمة الحجاج المسيحيين بالقرب من كنيسة تحمل نفس الاسم قد أذن ببنائه، وإعادة بناء كنيسة القيامة الخليفة علي الزاهر ابن الحاكم بأمر الله، وذلك بأموال وتبرعات من تجار ألمالفي وساليرنو الإيطاليين في عام (١٣هـ/١٠٢٣م) لعلاج الحجاج المسيحيين^(٤).

وكانت الدراسة في البيمارستان تنقسم إلى: جانب نظري، وجانب عملي، حيث كان يخصص بكل بيمارستان قاعة يجتمع فيها رئيس أطباء البيمارستان مع تلاميذه ومعاونيه الأطباء، حيث يقرأ عليهم بعضاً من الكتب الموجودة بخزانة القاعة، وبعد انتهائه منها، تبدأ المناقشات التي قد تمتد لساعات^(٥).

ثم ينتقل بعد ذلك رئيس الأطباء مع تلاميذه ومعاونيه إلى حجرات المرضى، حيث تتم المعاينة والكشف، ويشرح لتلاميذه كل حالة على حده، وطريقة العلاج لها، وكان يخصص وقت أكثر لدراسة الحالات المستعصية، التي تستلقت الانتباه ويدور حولها البحث والنقاش والتحليل والشرح والطلبة يدونون ويسجلون ما يدور في الجلسات حتى يمكنهم الرجوع إليه عند الحاجة إليه^(٦).

الخاتمة

أظهرت الدراسة عدداً من النتائج:

- ازدهرت الحياة العلمية ونشطت في القدس في الفترة موضوع الدراسة، وظهر ذلك جلياً

١- خسرو: سفرنامه، ص ٥٥.

٢- عفيض، محمد: «الوجود القبطي في القدس حتى القرن العشرين»، أبحاث الندوة السادسة، هوية القدس العربية والإسلامية ٥-٢ تشرين الأول/ ديسمبر ١٩٩٥م، عمان، ص ١٠٠.

٣- حتى أعمال التنقيب التي جرت لاحقاً والتي أقيمت في أرض البيمارستان الصلاحي قبل بناء كنيسة الفادي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تستطع العثور على ما يدل على مكان مشفى الحجاج القديم هذا.
http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٤- http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٥- عيسى، أحمد (١٣٥٧هـ/١٩٣١م): «تاريخ البيمارستانات في الإسلام»، دمشق، ص ٢٠٩، ٢١٠.

٦- هونكه، زيعزید (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م): «شمس العرب تسطع على الغرب»، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار الأفق الجديدة، ط ١٠، ص ٢٢٤.

- من خلال تعدد المراكز التي مورست فيها الأنشطة العلمية المختلفة.
- تعددت مراكز الحياة العلمية في القدس وتنوعت بشكل كبير ولافت.
 - لم تكن المساجد - كما يظن البعض - هي المركز الوحيد للتعليم وإلقاء الدروس، فكان هناك المدارس والكتاتيب والعديد من المراكز التي تم الإشارة إليها.
 - استمرت المراكز العلمية في أداء رسالتها العلمية، وفي استقبال الطلبة والعلماء من مختلف بقاع العالم الإسلامي، رغم ما شاب الحياة السياسية في كثير من الأحيان من تغيرات وتقلبات.
 - استقبلت المراكز العلمية في القدس العديد من العلماء وطلبة العلم واحتضنتهم، وخرَّجت العديد من العلماء الأجلاء، وجرت فيها العديد من الدروس، والمناقشات، والمناظرات العلمية المهمة، وصنّف فيها هؤلاء العلماء أهم نتاجاتهم الفكرية.
 - ساهمت الدول المتعاقبة على حكم القدس في فترة الدراسة في ترك بصمات علمية، من خلال تأسيس ودعم المراكز العلمية في القدس، وترميمها وحمايتها، وكان ذلك وفقاً لسياساتها المذهبية، والعقدية.
 - كانت مراكز الحياة العلمية في القدس منارات إشعاع علمي، وكان المسجد الأقصى على رأس هذه المراكز، بل وأهمها على الإطلاق.

هل نحن بحاجة الى علم الأمثال؟

من أوجه القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه، ضرب الأمثال للناس، قال تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾^(١).

والمثل - كما ذكر المبرد «مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول»، وهو مشتق من المثل وهو الانتصاب، فقولهم (مثل بين يديه) اذا انتصب، ويقال عن المريض اذا برىء من علته تماثل للشفاء، أي أصبح مثل الصحيح، أو أنه نهض من فراشه وانتصب، والأمثال: يقال لمن هم أشبه بالأفاضل وأقرب الى الخير، ومثل الشيء بالشيء: سواه وشبهه به، وجعله مثله وعلى مثاله، وفي الحديث: «أشد الناس بلاءً، الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى، في الرتبة والمنزلة، يقال: هذا أمثل من هذا، أي أفضل وأدنى إلى الخير «وقيل: إنما سمي مثلاً لأنه مائل لخاطر الإنسان أبداً، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر»

وقد يُستعار المثل للحال أو القصة اذا كان لها شأنٌ وغرابة، والصفة، مثل قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾^(٢) أي صفة الجنة، وهو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة، «وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط، والمساوي يقال فيما يساوي في الكمية فقط، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك»

تعريفه:

هناك عدّة تعريفات للمثل عند العلماء، فقد عرّف أنّه «عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لبيّن أحدهما الآخر وصوره»،

١- (سورة الزمر: ٢٧)

٢- (سورة محمد: ١٥)

وعرّفه ابن القيم «تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر». وقال ابن فارس: «الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا، أي نظيره، والمثل والمثال في معنى واحد». وعرفه ابن الأثير «هو اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به»، وعرف أيضاً أنه «معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ المشتهرة بين الأقوام بخصوص ألفاظها وهيئاتها وموردها وسبب ورودها و قائلها وزمانها ومكانها»، وعرفه الغزالي منطقياً «أن يوجد حكمٌ في أمرٍ معيّن واحد، فينقل حكمه إلى أمرٍ معيّن آخر يشابهه بوجه ما»، إلى غير ما هنالك من تعاريف مما يدل على أهميته ومكانته. وهي عبارة عن تأليف كلام بليغ موجز معبر مؤثر دقيق المعنى، فيه مشابهة ووصف، ذلك أن تمثّل شيء بشيء، يقرب المعقول من المحسوس ويزيده كشفاً ووضوحاً، ويبين الغامض، أو كأنه أصبح مقياساً لغيره.

والمَثَلُ في القرآن يُفسَّر على أربعة وجوه:

- ١- يعني شبه وصف، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ يعني الأشباه «نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ» أي نَصِفُهَا^(١).
- ٢- يعني السَّيْر، فذلك قوله في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ﴾ يعني سَيْر الذين^(٢).
- ٣- يعني عِبْرَةً، فذلك قوله في الزَّخْرَفِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ يعني عبرة لمن بعدهم^(٣).
- ٤- يعني عذاب، فذلك قوله في الفرقان: ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ يعني وضعنا له العذاب^(٤).

ويراد به الحجة كذلك، فقد روي «أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لرجل يا ابن أخي إذا حدثتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فلا تضرب له الأمثال، وكان عارضه بقياس من الرأي، فاطلق أبو هريرة على الحجة والاستدلال ضرب الأمثال» هذه الوجوه والمعاني قد تأتي مستقلة، وقد يستلزم بعضها الآخر، وحينما يؤتى بالمثّل يُقال سأضربُ مثلاً. وقد اختير لفظ الضرب مع المَثَل - كما ذكر في المنار - «لأنه يأتي عند إرادة

١- (العنكبوت: ٤٢)

٢- (الآية: ٢١٤)

٣- (الآية: ٥٦)

٤- (الآية: ٣٩)

التأثير و هيج الإنفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه».

أهمية الأمثال

تعتبر الأمثال من الوسائل التربوية التوضيحية والتشويقية، يستعين بها الدعاة والمربيون، لأن فيها التذكير والوعظ، والنصح والإرشاد، والحضور والظهور، والتصوير والتأثير، والحث والزجر، والفهم والاعتبار.

وهي كثيراً ما تعبر عن أحوال الناس ومعايشهم وواقعهم، وهي شائعة عند الأمم والشعوب، ولكل أمة أمثلتها الخاصة والمشهورة بها وهي من وحي بيئتها ومجتمعها، «وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع»

وقد حوِّظَ على الأمثال، واعتني بها، وكتبَ فيها الكتب، وحُميت من التغيير، وقد أكثر القرآن منها، وهي إحدى أوجه القرآن الخمسة. فقد أخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ القرآن نزل على خمسة أوجه حلال و حرام ومُحكَم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المُحكَم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال».

وقال بعضهم:

«ألا إنما القرآن تسعة أضربٍ	سأنيكها في بيت شعر بلا خلل
حلالٌ حرام محكم متشابه	بشير نذير قصة غلظة مثل»

وعن فضله و ضرورته قال الماوردي: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه، وعدّه الشافعي ممّا يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن» وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كفاك من العلم الأدب أن تروي الشاهد والمثل»، وعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثلاً».

ووضع القنوجي له عدة أسماء، منها: «علم الأمثال» و «علم ضروب الأمثال» و «علم معرفة أمثال القرآن»، وقد أخذت الأمثال مساحةً واسعةً من كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة، «فالله سبحانه مع عظمته وبالغ حكمته لم يترك المثل ولم يستح منه» وأكثر من ضربه وذكره.

ولم يخلُ كلام الرسول صلى الله عليه وسلم منها وهو أفصح العرب لساناً وأكملهم بياناً، وكل خطيب وكاتب و فصيح بحاجة إليها، كما ذكر العسكري: «ثم إنني ما رأيت حاجة الشريف

إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، فينبغي أن يستكثر من أنواعه، لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور، وما كان منه مثلاً سائراً فمعرفة أُلزم، لأن منفعة أعم، والجهل به أقبح، والأمثال من أجل الكلام وأنبه، وأشرفه وأفضله، لقلّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونها على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها.

فالمضمون الإنسانيّ للأمثال يتّصل بالطبائع البشريّة، من الفضائل والردائل، فهي تصوّر المعاني تصويراً يتطابق والواقع الذي ورد فيه المثل، فهي كما قال الماوردي: «لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها واثقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجّة على خلقه، لأنّها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة».

وقال ابن عبد ربّه: «الأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وجلي المعاني، والتي تخييرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، ولم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أسير من مثل، وقال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر.

وقال الفارابي: «المثل ما تراضاه العامة والخاصّة في لفظه ومعناه، حتى ابتدلوه فيما بينهم، وفأهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدرر، ووصلوا به إلى المطالب القصيّة، وتفرجوا به عن الكُرب والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة».

فكما أنّ بعض الشعراء حولوا النثر إلى نظم مؤثر ذي إيقاع وقافية، فكذلك من نطق بالمثل - من حكماء وغيرهم - أضفى عليه معنى مجرّداً ومطلقاً معبراً به عن تجارب الحياة مشخصاً لأحوالها، بارعاً في تصويرها، بأقوى الألفاظ وأجملها.

فالمثل مرآة الحياة تريك أحوال الأمم وقد مضت وتنفك على أخلاقها وقد انقضت، فالأمثال ميزان يوزن به رقيّ الأمم وانحطاطها وسعادتها وشقاؤها وأدبها ولغتها، وأكثر ما تكون أمثال العرب وحكمها موجزة متضمنة حكماً مقبولاً أو تجربة صحيحة تمليها عليها طباعها بلا تكلف. فمن مرت به تجربة مشابهة لتلك التجربة ولم يهتد إلى عبارة يعبر بها عن حاله، استعار واستعمل ذلك المثل، فأطلقه، وردّده، معرباً عما في نفسه.

تأثيره:

كتب الجرجاني في ذلك كلاماً قيماً جاء فيه: «واعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه أنّ التّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليّة إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، و شب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. وإن كان افتخاراً كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ. وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلس. وإن كان وعظاً كان أشفى للصّدر، وأدعى إلى الفِكر، وأبلغ في التنبية والزّجر، وبيرو العليل، ويشفي الغليل».

ومن استقرأ فنون القول في ذلك، وتتبع أبوابه وطرقه، فإنه يدرك قيمة ما تؤدّيه الأمثال، في تمام المعنى ووضوحه، وإظهار المكنون من حسنه وزينته في عدم وجود المثل أو وجوده.

فإن قيل لم كان للتّمثيل هذا التأثير؟ فيجيب الجرجاني: «إنّ أنسّ النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيّ، وإنّ تُردها في الشيء تُعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعمّا يُعلّم بالفكر إلى ما يُعلّم بالاضطرار والطبع، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يُفضلُ المستفاد من جهة النظر والفكر في القوّة والاستحكام، وبلوغ الثّقة فيه غاية التمام.»

شروطه:

كي يكون المثل زينة الكلام، ويؤتي ثمرته، فيجب أن يكون خالياً من أي تعقيد، وأن يبيّج السّامع، وأن يكون واضحاً للمخاطب، يؤدي معنىً رائعاً في عبارة موجزة سهلة الفهم والحفظ، ولا يشترط في صحّته أن يكون واقعاً تاريخياً، وإنما يشترط إمكان وقوعه حتى يتسنّى للذهن تصوّره كما لو أنه وقع فعلاً، وقد اشترط للمثل أربعة شروط:

أحدها: صحّة التشبيه.

الثاني: أن يكون العلم بها سابقاً، والكل عليها موافقاً.

الثالث: أن يسرع وصولها للفهم، ويعجل تصوّرها في الوهم، من غير ارتباط في استخراجها، ولا كدّ في استنباطها.

والرابع: أن تناسب حال السامع، لتكون أبلغ تأثيراً، وأحسن موقعاً» وقال إبراهيم النظام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة، وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وأتق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث» ويضفي مزيداً من الإهتمام، ويرسخ المعلومة.

فوائده:

للأمثال فوائد كثيرة، فهي تبرز دقائق المعاني وترفع الأستار عن الحقائق والانتقال بالذهن من المُدرَك بالعقل إلى المشاهد، وهي سهلة الحفظ، تزيّن الكلام، وتروّج خاطر، وتستجمع الحُكم، وتوضحها وتحببها إلى السامع، وهي تقع مواقع الإفهام باللفظ المجمل، وقد ذكر العلماء قديماً وحديثاً كثيراً من تلك الفوائد، قال في الكشاف: «ولضرب المثل شأن ليس بالخفيّ، في إبراز خبيّات المعاني ورفع الستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقّن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبيّ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكلام الأنبياء والحكماء». وهو مع إيجازه يزيد بيانياً، له مفعول الإطناب.

فإذا حدث الإنسان بما لم يشاهده، ولم يعرفه، وكان غريباً عنده، جيء له بمثال من الحس، فيأنس به، ويطمئن إليه، ويدركه ويفهمه، فالأمثال تزيد البيان بيانياً.

الأمثال واللغة:

وقد أدت الأمثال دوراً بارزاً في حفظ اللغة العربيّة وتقويمها، إذ تعتبر الأمثال من المصادر الأصيلة للعربيّة التي يمكن أن نستقي منها، وتلك المصادر هي: (القرآن الكريم والشعر والأمثال والقصاص)، وقال في خزنة الأدب: «والأمثال النبويّة فهذا يصح الإستشهاد به في العربيّة». فالأمثال مصدر بالغ الأهميّة من حيث ارتباطها إجتماعياً وأديباً بحياة العرب، وهي تجري على أسنتهم مجرى الشعر ولا تقلّ أهميّة عنه، وهي عِظَاتٌ بالغة وحِكمٌ معبرة.

قال أبو عبيد عنها: «هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ألفناها في كتابنا هذا على منازلها وأسندناها إلى علمائها، واستشهدنا بنوادير الشعر عليها وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قد ضربها وتمثّل بها هو ومن بعده من السلف» وما انفكت الأمثال في الناس سائرة. والعرب تزيّن أشعارها وأقوالها وأدابها بالأمثال والحكم المميّزة، والأمثال عندهم نوعان:

١- أمثال حكيمية، كقولهم الجار قبل الدار، والحرب خدعة، والخطأ زاد العَجول، والعقاب قبل العقاب، ونحوهما مما يتناقله الناس.

٢- الأمثال المبنية على الحوادث وهي خاصة بهم لأن الحوادث جرت لهم كقولهم « وافقَ شَنْ طَبَقَه» و «قطعت جهيزة قول كل خطيب» و «الصيف ضيعت اللبن» و «سبقَ السيفُ العزل» وهم يؤثرون تلك الأمثال عن قائلها وقد يروون عشرات من الأمثال قالها الواحد في حادثة واحدة، فهذه الأمثال تنفرد عند العرب بأن لكل مثل قصته الخاصة به، فهو نابع من صميم الحياة وواقعها، ناجم عن حادثة معينة، بكلمة أو كلمات معدودة، حفظتها الذاكرة، وكتب لها الإنتشار.

أنواع الأمثال:

إذا كانت الأمثال تتبّه الذهن إلى أخذ العبرة وقياس حال على حال، فهي ليست نوعاً واحداً، بل منها الصريح والضمي، وقد ذكر السيوطي في الإتيان ثلاثة أنواع هي:

١- الأمثال المصريحة: وهي ظاهرة صرّح فيها بلفظ المثل، وهي كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ، صُمُّ بَكْمٌ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(١).

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلاً: نارياً، فحظهم من الوحي بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ظاهراً بالإسلام، ولكن لم يكن له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله بنورهم بما في النار من الإضاءة وأبقى ما فيها من الإحراق.

٢- الأمثال الكامنة: وهي التي لم يُصرّح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معانٍ رائعة في إيجاز، ويمثّلون لهذا النوع بأمثلة منها: ما معنى قولهم (خير الأمور الوسط) وقوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(٢).

وما معنى قولهم (كما تدين تُدان) قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٣).. الخ.

٣- الأمثال المرسلة: وهي جملة أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، فهي آيات جارية مجرى الأمثال، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(٤).

١- (البقرة: ١٧-١٨)

٢- (البقرة: ٦٨)

٣- (النساء: ١٢٢)

٤- (النجم: ٥٨)

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ﴾^(١)، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٢) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٣)، ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾^(٤)

آداب الأمثال:

يجب اجتناب أمثال العامة الغوغاء، إذ ربما أَلَفَ المتخصص مثلاً عاماً سيئاً، لكثرة ما يسمعه من مخالطة أصحاب السوء، فيسترسل في ضربه مثلاً، فهناك أمثال مردولة ومشهورة وهي انعكاس لأحوال المتمثلين بها، فتذكرُ للأخيار من الناس، وهي شائعة وتُسعمل بكثرة، منها: «أذكرُ الديب وهيئُ القضيب»، «الشقي عمرو بقي».. إلخ. ويكاد يكون لكل منطقة أمثلتها الخاصة بها، وقد حُكي في هذا عن الأصمعي: أن الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب فقال: على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين. فقال له الفضل بن الربيع: أسقطَ الله جنبك، أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب! فكان الفضل مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء، من الأصمعي الذي هو واحدٌ عصره وقرعُ دهره»

لهذا لا يجوز تعدي أمثلة القرآن الكريم، حيث أنكروا على الحريري قوله في مقامته الخامسة عشرة «فأدخلني بيتاً أحرَج من التابوت، وأوهى من بيت العنكبوت» فأى معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه، حيث قال: ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾^(٥) فأدخل: إن، وبنى أفعل التفضيل، وبناه من الوهن، وأضافه إلى الجمع، وعرفَ الجمع باللام، و أتى في خبر إن باللام، وكان اللائق بالحريري ألا يتجاوز هذه المبالغة وما بعد تمثيل الله تمثيل، وقولُ الله أقومٌ قيل، وأوضحُ سبيل»

وقد يُستدلُّ بالمثل أو يُستشهدُ به في غير مكانه فيسببُ ضرراً لصاحبه. يروى أن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قال لرجل أنظر لنا كاتباً يكون أبوه عربياً، فقال كاتبٌ له قد كان أبو النبي كافراً فقال جعل هذا مثلاً فعزله وقال لا تكتب لي أبداً»

فالكاتب قصدَ بكلامه الإحتجاج والإستدلال على نفي النقص عنه، وقد قال عمر-رضي الله عنه- في الرد عليه أنه جعله مثلاً، فعلم أن المستدل لا منافاة بينه وبين ضارب المثل. فقال مسكويه مجيباً: «إن الأمثال فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب في ذلك أنسنا بالحواس،

١- (الأنعام: ٦٧)

٢- (الإسراء: ٨٤)

٣- (المؤمنون: ٥٣)

٤- (المائدة: ١٠٠)

٥- (العنكبوت: ٤١)

وألفنا لها منذ أول كونها، ولأنها مبادئ علومنا، ومنها ترتقي إلى غيرها، فإذا أبصر الإنسان عالمٌ يدركه، أو حدث عالم لم يشهده، وكان غريباً عنده، طلب له مثلاً من الحس، فإذا أعطي ذلك أنس بها، وسكن إليه لألفة له.

خصائص الأمثال :

ومن خصائص الأمثال أنها لا تتغير، بل تُلْفِظ وتجرى كما جاءت على الألسنة، وإن خالفت قواعد النحو والتصريف، وتظل على هيئتها التي صيغت عليها، وقد عبّر سيبويه عن ذلك فقال: «ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام»

وعبّر السيوطي «العرب تُجرى الأمثال على ما جاءت، ولا تستعمل فيها الإعراب» فقد جاء في أمثال العرب (أعطى القوسَ باريهاً) بتسكين الياء في باريها، والأصل فتحها، لأنها مفعول ثانٍ لـ أعطى.

وفي أمثالهم (اجناؤها ابناؤها) أي جناؤها بُناتها، (قال أبو عبيد : الإجناء: هم الجناة، والأبناء: البناة والواحد جانٍ وبانٍ، وهذا جمع عزيز في الكلام، ومعنى المثل: إن الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين عمروها بالبناء) ومعنى ذلك (أن المثل لا يُغير وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون في سائر الكلام) فهم يترخصون في المثل كما يترخصون بالضرورة الشعرية.

للأمثال أهمية كبيرة، فهي لا بد منها للعالم المجتهد، والقارئ المُعتبر، والخطيب البارِع، والداعية الناجح، فما المانع أن يكون علماً مستقلاً له موضوعه الخاص كبقية العلوم الأخرى، ولو في بعض سنوات المراحل التعليمية، سواء الإعدادية، أو الثانوية، أو الجامعية، وقد اعتبره الماوردي من أعظم علوم القرآن والناس في غفلة عنه، وعدّه الشافعيّ مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، وقد أفردّه بالتأليف عدد كبير من العلماء، قديماً وحديثاً، سواء في ذلك أمثال القرآن، كما فعل ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين، وأمثال الحديث للقاضي الرامهرمزي، والأمثال والحكم للماوردي، وعقد الترمذي باباً في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً من الأمثال، وعلق عليه ابن العربي:

«لله درّه، لقد فتح باباً، وبنى قصرأ أو دارأ، ولكنّه اختطّ خطأ صغيرأ، فنحن نقنع به، ونشكر عليه».

والذي نراه من الضروريّ وضع منهاج خاص بمادة الأمثال، يتلاءم والمرحلة المقرّرة فيه إعدادية أو ثانوية، وهو لا يقلُّ أهمية عن منهج التفسير المقرّر في بعض الجامعات الإسلامية، (ك تفسير آيات الأحكام)، الموزّع على عدد السنوات الدراسية الجامعية، فالحد الأدنى أن يُقرّر ولو في سنة جامعية واحدة، مادة للأمثال، بإشراف الهيئة العلمية، كشأن أيّ مادة أخرى. يكون

مصدرها وموضوعها، أمثال القرآن، وأمثال الحديث، والأمثال السائرة، تُصاغ صياغة مرتّبة ومبوّبة ومُحكّمة وفي هذا الخير الكثير.

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١). وهي تحثّ وترغّب وتدعو للتعلّم والتعقّل والتدبّر والتّبيان، وأورد ابن كثير عن عمرو بن مرة قال: ما مررتُ بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأنّي سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

أ. محمد سامي العسلي

مدرس المالية العامة - كلية الحقوق

جامعة الموصل - العراق

الحماية القانونية للبيئة من التلوث في التشريع الداخلي

المقدمة

لقد جذبت مشكلة التلوث البيئي اهتمام رجال العلم منذ سنوات قليلة وراحوا ينبهون إلى الأخطار التي باتت تهدد البيئة والجنس البشري بأسره، كما اهتم رجال العلم بظاهرة التلوث فقد اهتم بها كذلك رجال القانون أيضاً، وأخذوا يحددون المقصود بمشكلة التلوث البيئي، وأسبابها والعوامل المؤثرة في مكافحتها وضرورة توفير الغطاء القانوني لحمايتها. فكان نتيجة لذلك اهتمام المشرع وعنايته بصياغة النصوص التي تتعلق بكافة أسباب تلوث البيئة وكيفية مواجهتها، مما يؤدي إلى توفير الحماية الكافية لها وللإنسان مع تأكيد حقّه في بيئة نظيفة وسليمة.

عليه اقتضى دراسة الحماية القانونية للبيئة في التشريع الداخلي في فروع القانون المختلفة،

لذا سيتم تقسيم هذا البحث إلى خمسة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: الحماية القانونية للبيئة في القانون الدستوري.

المبحث الثاني: الحماية القانونية للبيئة في القانون المدني.

المبحث الثالث: الحماية القانونية للبيئة في القانون الجنائي.

المبحث الرابع: الحماية القانونية للبيئة في القانون الإداري.

المبحث الخامس: الحماية القانونية للبيئة في القانون المالي.

المبحث الأول:

الحماية القانونية للبيئة في القانون الدستوري

لما كانت القواعد القانونية الدستورية تعد حجر الزاوية وقمة الهرم أو البنيان القانوني للدولة، وما عداها من القواعد القانونية يكون تالياً لها في المرتبة، تحت مظلة الشرعية الدستورية والمتمثلة بمبدأ سمو الدستور واحترام التشريعات العادية للقواعد الدستورية، وأن تكون منسجمة ومتوافقة معه نصاً وروحاً، وأن جميع الأنشطة التي تمارسها الدولة تستمد شرعية وجودها منه.

وإزاء التناقض الكبير لمشكلة التلوث البيئي وما أفرزته من تداعيات تهدد توازن النظام البيئي بالاختلال، ما لبثت أن ظهرت مشاكل أخرى جديدة تهدد الإنسان في حياته ومستقبله مثل، الاحتباس الحراري، والتصحر، وقلة مصادر المياه، والحاجة إلى تأمين المحميات الطبيعية والرقابة الصارمة عليها من أي اعتداء، وغيرها من مشاكل عديدة، ناهيك عن كل الافرازات التي ظهرت نتيجة التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصورة عامة، برزت إلى الوجود كضرورة ملحة وحق دستوري للمواطن، هو الحق في بيئة سليمة ونظيفة^(١)، أي أن ينص صراحة في صلب الوثيقة الدستورية على هذا الحق أو القيمة العليا، في أن يحيا المواطن في بيئة سليمة ونظيفة ثم يتولى المشرع وضع القواعد التفصيلية لهذا الحق.

ومن خلال استقرارنا لبعض من دساتير الدول في أساليب معالجتها بشأن تقرير حق الإنسان ببيئة سليمة ونظيفة نجد أن هناك منهجين:

• الأول: الحماية الصريحة للبيئة من التلوث

ومفاده هو النص الصريح في الوثيقة الدستورية على حق الإنسان في بيئة سليمة ونظيفة خالية من التلوث.

ومن الأمثلة على ذلك الدستور اليوغسلافي المعدل لعام ١٩٧٤، والدستور المجري لعام ١٩٧٢، والدستور البرازيلي لعام ١٩٨٨، وديباجة الدستور الفرنسي لعام ١٩٥٨، والدستور البرتغالي لعام ١٩٧٥.

بل إننا نجد أن بعض الدول ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما نصت في دساتيرها على أن حماية البيئة تعتبر حقاً وواجباً في نفس الوقت، ومن الأمثلة على ذلك الدستور الهندي^(٢)، أي أن حق المواطن في التمتع ببيئة سليمة ونظيفة، اعتُبر في ذات الوقت واجباً على المواطن، وعلى

١- للمزيد انظر: طارق ابراهيم الدسوقي عطيه، الامن البيئي والنظام القانوني لحماية البيئة، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، مصر، ص ٢٢٥.

٢- انظر: م/٤٨ و ٥٠ من الدستور الهندي المعدل لعام ١٩٧٦.

الدولة وكافة الهيئات والمؤسسات العامة واجب حمايته، كذلك الحال بالنسبة إلى دستور بيرو لعام ١٩٧٧، كما نص ميثاق البيئة لعام ٢٠٠٤ لدستور الجمهورية الفرنسية الخامسة لعام ١٩٥٨ على حق المواطن في بيئة نظيفة^(١) كما أنه اعتبر من الواجب الحفاظ عليها^(٢)، ودستور بنما^(٣)، ودستور جمهورية الصين الشعبية^(٤)، والدستور اليوناني^(٥)، والدستور السويسري^(٦)، والدستور الجزائري^(٧).

• الثاني: الحماية الضمنية للبيئة من التلوث

ومفاده هو انتهاج بعض الدول الأسلوب غير المباشر لحق الانسان في بيئة سليمة ونظيفة خالية من التلوث، بحيث أنها لاتنص صراحة على هذا الحق في الوثيقة الدستورية، بل يمكن أن نستدل عليه أو نتوصل اليه بالاستنباط من روح النص على الحقوق الاجتماعية والاقتصادية أو المقومات الاساسية للمجتمع التي ينص عليها الدستور.

ومن الأمثلة على ذلك الدستور الايطالي، والدستور الكويتي لعام ١٩٦٢، والدستور المصري لعام ١٩٧١^(٨).

أما بالنسبة إلى العراق فأن القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥ لم يتطرق إلى شيء بالنسبة إلى البيئة وكذلك الحال بالنسبة إلى دستور عام ١٩٥٨.

أما الدستورين المؤقتين لعام ١٩٦٣^(٩) و ١٩٦٨^(١٠) فقد تناولوا موضوع الرعاية الصحية، واعتبراه حقاً للمواطن تكفله الدولة.

أما دستور عام ١٩٧٠^(١١) نص على أن تلتزم الدولة بحماية الصحة العامة عن طريق التوسع المستمر بالخدمات الطبية المجانية في الوقاية والمعالجة والدواء.

١- انظر: م/ ١ من ميثاق البيئة لعام ٢٠٠٤ لدستور الجمهورية الفرنسية الخامسة لعام ١٩٥٨.

٢- انظر: م/ ٢ و ٣ من المرجع أعلاه.

٣- انظر: م/ ١١ من دستور بنما لعام ١٩٧٢.

٤- انظر: م/ ١١ من دستور جمهورية الصين الشعبية لعام ١٩٧٨.

٥- انظر: م/ ٢٤ من دستور اليونان لعام ١٩٧٥.

٦- انظر: م/ ٢٤ من دستور سويسرا لعام ١٩٧١.

٧- انظر: م/ ٥١ من دستور الجزائر لعام ١٩٨٩.

٨- للمزيد انظر: طارق ابراهيم الدسوقي عطيه، مرجع سابق، ص ٣٢٩-٣٣٠، ورمضان محمد بطيخ، القانون وحماية البيئة، منشور في ندوة دور التشريعات والقوانين في حماية البيئة التي أقامتها المنظمة العربية للتنمية الادارية التابعة إلى جامعة الدول العربية المقامة في الشارقة، ايار، الامارات العربية المتحدة، ٢٠٠٥، ص ١٠.

٩- انظر: م/ ٣٦ من الدستور العراقي المؤقت لعام ١٩٦٣.

١٠- انظر: م/ ٣٧ من الدستور العراقي المؤقت لعام ١٩٦٨.

١١- انظر: م/ ٣٣ من الدستور العراقي لعام ١٩٧٠.

أما في مشروع دستور عام (١) ١٩٩٠ فقد ظهر الاهتمام بالبيئة من خلال الإقرار بضرورة قيام جميع أجهزة الدولة وأفراد الشعب بالمحافظة على البيئة من التلوث وحماية الطبيعة من الأضرار التي تُخلُّ بجمالها ووظائفها.

وأصبح الاهتمام واضحاً بالصحة العامة والحق في العيش ببيئة سليمة في دستور عام (٢) ٢٠٠٥ حيث تكفلت الدولة بحماية البيئة والتنوع الإحيائي والحفاظ عليهما.

أما الدستور اللبناني فقد خلا من النص صراحة على هذا الحق، لكننا نجد نص عليه صراحة في قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢ والذي اعتبر حقاً (٣) للمواطن في بيئة سليمة ومستقرة ومن واجبه أيضاً حمايتها وعدم الاعتداء عليها، كما انه اعتبر ان سلامة البيئة وحمايتها من أي خطر يهددها من مسؤولية كل شخص طبيعي أو معنوي عاماً كان ام خاصاً (٤).

المبحث الثاني:

الحماية القانونية للبيئة في القانون المدني

تعد المسؤولية حجر الزاوية في كل نظام قانوني فهي التي توفر الضمان لاحترام القانون وتطبيقه، فالمسؤولية والقانون وجهان لعملة واحدة (٥)، وكما قلنا سابقاً أن هناك حقاً لكل مواطن في بيئة سليمة ونظيفة وبالتالي فإن المساس بهذا الحق يترتب عليه اثر قانوني مهم جداً يتمثل في قيام المسؤولية، حيث تترتب المسؤولية نتيجة مباشرة لأي مساس بهذا الحق وبالتالي فإن ذلك يقتضي الالتزام بمعالجة الضرر الناشئ عن فعل التلوث.

يهتم القانون المدني بالأفعال الضارة التي تصيب الانسان مما يترتب عليها مسؤولية الفاعل مدنياً، والجزاء في المسؤولية المدنية هو التعويض عن الضرر الذي تسببه أو ما يطلق عليه الضمان، وصاحب الحق فيه هو المتضرر والذي له الحق في اقامة الدعوى أمام المحاكم المختصة، وهو بنفس الوقت - المتضرر - يملك الحق في التنازل عن حقه أو التصالح عليه، وهو ما نصت عليه القوانين المدنية، التي أكدت على حقيقة راسخة وهي أن أي ضرر أو أذى يصيب الانسان مهما اختلف نوعه فإنه يستوجب التعويض.

١- انظر: م/٦٤ من مشروع دستور جمهورية العراق لعام ١٩٩٠.

٢- انظر: م/٣٢ من دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥.

٣- انظر: م/٢ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢ (لكل انسان الحق في بيئة سليمة ومستقرة، ومن واجب كل مواطن السهر على حماية البيئة وتأمين حاجات الأجيال الحالية من المساس بحقوق الاجيال المقبلة).

٤- انظر: م/٢/٤ من المرجع أعلاه (يسهر كل شخص طبيعي او معنوي، على مسؤولية البيئة، ويساهم في حمايتها، وان يبلغ عن أي خطر قد يهددها).

٥- للمزيد انظر: عبدالهادي العشري، البيئة والأمن الاقليمي في دول الخليج العربي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ١٩٩٧، ص ٨٥.

تقوم أحكام المسؤولية المدنية على ثلاثة أركان هي: الخطأ، الضرر، والعلاقة السببية، ومن الضرورة بمكان أن يكون هناك عملية توافق أو تطويع للأركان التقليدية للمسؤولية المدنية، مع المسؤولية عن التلوث البيئي وذلك لخصوصية هذه المسؤولية وطبيعتها الخاصة.

والملاحظ أن هناك صعوبات تتعلق بتطبيق اركان المسؤولية السابقة على المسؤولية عن التلوث البيئي، وذلك يعود إلى الاحكام الخاصة بهذه المسؤولية عن الأفعال التي ينجم عنها التلوث البيئي، بحيث انها فرضت نفسها على مشرعي البلدان مما دفعهم إلى تعيين الأحكام الخاصة لهذا النوع من المسؤولية، من خلال مجموعة قوانين خاصة تناولت بعض الافعال التي نجم عنها التلوث البيئي موضحةً مداه والنتائج المترتبة عليه، مما يجعلنا أمام نظام قانوني خاص للمسؤولية عن التلوث البيئي والذي لا يعني بأي حال من الأحوال خروجها عن النظرية العامة للمسؤولية.

ومن خلال قرآءتنا المعمقة في هذا الجانب فإننا نثبت الملاحظة المهمة التالية والتي مفادها، أن المسؤولية عن التلوث البيئي تقوم بحيث لا يشترط وقوع الضرر عن الافعال غير المشروعة، بل يتعدى ذلك ليشمل أيضاً الافعال المشروعة، وعلى سبيل المثال ما يمكن أن يسببه فرد أو مشروع عام أو خاص مجاز قانوناً ومتوافر فيه كل الوسائل العملية التي تحول دون الحاق الضرر، إلا أن ذلك لا يمنع أحياناً من وقوع آثاراً سلبية مسببةً التلوث البيئي.

لهذا فقد حاول القضاء العمل على تطوير قواعد المسؤولية وبما يتفق والطبيعة الخاصة بالاضرار البيئية بحيث يتم اطلاق سلطة القاضي في إثبات العلاقة السببية أو في إقرار المسؤولية التضامنية كأداة لضمان تعويض المتضرر عندما يكون هناك أكثر من مسؤول تسبب في الضرر، إلا أن ذلك لم يحل المشكلة حيث يقتضي القول بذلك، وجوب اثبات العلاقة السببية بين النشاط الخاطئ لكل منهم والضرر الحاصل، وان يحدد الحصة من الضرر التي تسببها كل منهم.

وحيث أن القواعد العامة للمسؤولية المدنية التقليدية القائمة على وجوب اثبات العلاقة السببية بين الخطأ والضرر ستؤدي إلى ضياع الكثير من حقوق المتضررين فقد دعا الفقه والقضاء إلى اعتماد أسلوبين: أحدهما يسمى «اسلوب تقسيم المسؤولية»، ومفاده عندما يكون هناك أكثر من مسؤول تسبب في الضرر فإنه يمكن تقسيم المسؤولية بينهم بنسبة ما استخدمه كل منهم إلى ما استخدمه الآخرون من المواد المسببة للتلوث في كل دورة إنتاجية، أما الاسلوب الثاني فيدعو إلى الاكتفاء في إثبات العلاقة السببية بين التلوث والضرر لمجرد الاحتمال أو الظن،

فالدليل الاحتمالي على وجود السبب بين الخطأ والضرر كافٍ لقيام المسؤولية^(١)، وفي ذلك ذهب المشرع العراقي عندما نص (تعد مسؤولية سبب الأضرار الناجمة... مفترضة)^(٢).

والمسؤولية المعول عليها هنا في مجال التلوث البيئي هي المسؤولية الموضوعية، وليست المسؤولية شبه الموضوعية التي ثبت تقصيرها عن استيعاب كل حالات المسؤولية عن التلوث البيئي كونها تقوم على الخطأ المفترض، وذلك لأن الضرر البيئي يصعب إثبات الخطأ فيه إن لم يكن مستحيلًا في بعض الأحيان الأمر الذي يؤدي إلى ضياع حقوق المتضررين في إصلاح مالحق بهم من ضرر أو خسارة.

ومن هنا كان اتجاه الفقه والقضاء نحو المسؤولية الموضوعية في مجال التلوث البيئي والتي قوامها ما يلي^(٣):

- ١- تكتفي بالضرر دون البحث عن الخطأ.
 - ٢- تطبق في مجال الأضرار الاستثنائية والتي تتميز بالجسامة بحيث يكون موضوع المسؤولية هو العنصر الرئيسي في تقدير التعويض، وليس البحث عن المتسبب أو الخطأ.
 - ٣- مسؤولية مركزة في شخص المستغل، فهي تبحث في اشخاص المسؤولية وليس عن الأخطاء، فمثلاً في حالة وقوع التلوث الذري ونشوء أضرار نووية عنه فإن المتضرر يبحث عن الشخص المسؤول ويحدده ليرفع دعوى المسؤولية ضده.
 - ٤- ان أساس المسؤولية الموضوعية ليس فقط في النصوص والتشريعات الوضعية الداخلية بل تجد أساساً لها في الاتفاقيات الدولية.
- ونشير هنا إلى ان اتفاقية بروكسل المبرمة عام ١٩٦٩ بشأن المسؤولية المدنية عن تلوث البيئة البحرية بالزيت، تعد أول اتفاقية دولية تنظم المسؤولية المدنية عن أضرار التلوث البحري بالزيت^(٤)، حيث ذهبت إلى القول بالمسؤولية المطلقة لمالك السفينة عن أي اضرار تلوث

١- للمزيد انظر: عدنان ابراهيم السرحان ونوري حمد خاطر، مصادر الحقوق الشخصية- الالتزامات- دراسة مقارنة، ط١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ٢٠٠٠، ص ٤٥٥، واحمد محمود سعد، استقرار قواعد المسؤولية المدنية في منازعات التلوث البيئي، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ١٩٩٤، ص ٢٣٠-٢٣١.

٢- انظر: م/٢٢/ ثالثاً من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩.

٣- للمزيد في تطبيقات المسؤولية الموضوعية عن التلوث البيئي انظر: نزيه محمد الصادق المهدي، نطاق المسؤولية المدنية عن تلوث البيئة، منشور في مؤتمر نحو دور فاعل للقانون في حماية البيئة وتميئتها، كلية الشريعة والقانون في جامعة الامارات العربية المتحدة بالتعاون مع الهيئة الاتحادية للبيئة وهيئة ابحاث البيئة والحياة الفطرية وتميئتها وبرنامج الامم المتحدة الانمائي، الامارات العربية المتحدة، ١٩٩٩، ص ٢٧ وما بعدها.

٤- للمزيد انظر: مصطفى سلامة حسين ومدوس فلاح الرشيد، القانون الدولي للبيئة- دراسة للقواعد العامة وأهم الاتفاقيات الدولية والاقليمية والمنظمات الدولية والحكومية وغير الحكومية التي تعنى بحماية البيئة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ٢٠٠٧، ص ١٦.

سببه البترول المتسرب أو المفرغ من السفينة نتيجة للحادث، ويكفي للحكم بالتعويض أن يثبت المتضرر وقوع الضرر به والعلاقة السببية بين ذلك الضرر والتلوث الناشئ عن تصريف البترول أو تسربه دون الحاجة لإثبات الخطأ في جانبه.

ومن هنا نلاحظ أن المسؤولية المدنية الموضوعية تعتبر صماماً قانونياً فعالاً لضمان حقوق الأفراد وتسهيل تعويض الأضرار الناشئة عن تلوث البيئة في حالات يعجز المتضرر فيها عن اثبات الخطأ ومواجهة المسؤول^(١).

وإننا نشير في معرض دراستنا للقانون المدني إلى اهتمام معظم التشريعات القانونية في الدول العربية بالحماية القانونية للبيئة بكافة عناصرها من الماء والهواء والأرض والإنسان والمنشآت، حيث صدرت العديد من القوانين التي تنظمها، فحركة التطور والتوسع السريع في العمران والصناعة أدت إلى إصدار العديد من القوانين التي تهتم وتعالج هذه الجوانب الخاصة مثلاً الزام أصحاب المشاريع الصناعية أن ينفذوا بدقة الأحكام المتعلقة بالصحة العامة والمحافظة على البيئة ومراعاة المواصفات الفنية في العمل.

بل إننا نجد أن بعض التشريعات العربية (مثلاً سلطنة عمان) أحرزت تقدماً في مجال التشريعات البيئية وواكبت التشريعات الحديثة للدول المتقدمة واهتمت بشكل خاص بالتشريعات المتعلقة بحماية الثروة المائية والنباتية وأصدرت بذلك قوانين عدة.

والملاحظ أن الدول الساحلية قد اهتمت كثيراً في تشريعاتها بحماية البيئة البحرية، وذلك عن طريق إصدار العديد من القوانين في هذا الشأن، كالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبلجيكا وكذلك بعض الدول العربية مثل مصر والكويت وليبيا.

المبحث الثالث:

الحماية القانونية للبيئة في القانون الجنائي

إنَّ الاعتداء على البيئة يكون من خلال العدوان على العناصر المكونة لها لذلك كان تدخل المشرع في حماية البيئة تدخلاً لحماية عناصر البيئة التي تستلزم ابتداءً ضبط الأوضاع الناشئة عن نشاطات المصانع والمعامل والمركبات وغيرها للحيلولة دون التأثير السلبي على أي عنصر من عناصر البيئة، الهواء أو الماء... الخ، وإن كان لا بد من عمارة الأرض بهذه النشاطات فعلى

١- انظر: م/٢٢ من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩ بشأن التعويض عن الأضرار، وللمزيد في أساس المسؤولية الموضوعية وخصائصها والمجالات المعاصرة على تطبيقها، انظر: محمد سعيد عبدالله الحميدي، المسؤولية المدنية الناشئة عن تلوث البيئة البحرية والطرق القانونية لحمايتها وفقاً لقانون دولة الامارات العربية المتحدة- دراسة مقارنة مع القانون المصري وبعض القوانين العربية، ط١، دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠٨، ص ٢٣٩ وما بعدها.

أقل تقدير يسعى المشرع لضبطها في الحدود المسموحة بها فإن حصلت تجاوزات فيجب تدخل المشرع ليضع العقوبات المناسبة في سبيل تحقيق الحماية الجنائية للبيئة^(١).

وحيث إن حماية البيئة لا تقتصر على المسؤولية المدنية وما يترتب عليها من جزاء مدني يتمثل بالتعويض عن الاضرار التي يسببها التلوث البيئي بل إن المشرع وضع وسائل اخرى لحماية البيئة تسير جنباً إلى جنب مع المسؤولية المدنية، فهناك المسؤولية الجنائية التي تعتبر بعض الأفعال المرتكبة ضد البيئة جرائم ومخالفات، يترتب عليها العقاب الذي تقرره القوانين العقابية، سواء أكان ذلك من خلال القانون الجنائي الأصلي مثل المشرع الايطالي الذي كفل الحماية الجنائية للبيئة ضد التلوث من خلال تضمينه لقانون العقوبات مجموعة كبيرة من النصوص مثلاً م/٤٣٩ منه^(٢)، أو من خلال القوانين الخاصة الأخرى التي يكمل العمل بها^(٣).

ولما كان الجزاء الجنائي وسيلة لحماية البيئة وضمان حسن تطبيق القانون وتحقيق اهدافه، جاءت أغلب التشريعات تُص على الجزاء الجنائي، بل لا يكاد يخلو تشريع من هذا الجزاء. ويرى البعض من الفقهاء والكتاب استحالة حصر جرائم الاعتداء على البيئة نظراً لعدم وجودها في قانون واحد، بل إننا نجدها متناثرة في قوانين متعددة لحماية البيئة كقانون البلديات وقانون السير وقانون المياه... وغيرها.

في حين ذهب رأي آخر مخالف^(٤) إلى أن موضوع استحالة حصر جرائم الاعتداء على البيئة في قانون واحد لا يمكن تعميمه على جميع الدول بل يرى أن ثمة قوانين بيئية متكاملة في بعض الدول (امريكا وفرنسا)، على سبيل المثال حيث تعنى تلك التشريعات بتحديد الجرائم البيئية ووسائل الحماية.

ولحدوث الجريمة البيئية (فعل التلوث) ثلاثة اركان:

- ١- السلوك المادي: والمتمثل في أحد الأنشطة التي يقوم بها الشخص الطبيعي أو المعنوي.
- ٢- النتيجة: والتي تتمثل في مدلولات الضرر والخطر سواء الضرر المادي الملموس أو

١- للمزيد انظر: عبد الحكيم ذنون يونس الغزال، الحماية الجنائية للبيئة في التشريع العراقي، منشور في المؤتمر السنوي الثاني- الحماية القانونية للبيئة الواقع والأفاق، الحماية الجنائية للبيئة في التشريع العراقي، كلية الحقوق في جامعة الموصل، العراق، ٢٠٠٩، ص ٤٩٨.

٢- انظر: م/٤٣٩ تنص (اي انسان يبث الوباء عن طريق جرائم الامراض سوف يكون محلاً للعقاب بعقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة. وإذا ادت الواقعة الى موت أكثر من شخص تكون العقوبة الموت). للمزيد انظر: ابتسام سعيد المكاوي، جريمة تلوث البيئة- دراسة مقارنة، ط١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الاصدار الثاني، عمان، الاردن، ٢٠٠٩، ص ٣٩.

٣- للمزيد انظر: يونس ابراهيم احمد مزيد، البيئة والتشريعات البيئية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨، ص ٦٩.

٤- رأي علي السيد الباز، ضحايا جرائم البيئة - دراسة مقارنة في التشريعات العربية والاجنبية مع دراسة تحليلية للمصادر التشريعية لحماية البيئة في الكويت، مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت، الكويت، ٢٠٠٥، ص ٤٥.

الحسي، أو إن كان هذا الخطر محدقاً أو ماثلاً ذهنياً، كما أنه لا يشترط أن يقع الضرر حالاً بل قد يكون أجلاً، حيث أن هناك من الأفعال المحدثة للضرر ما يمتد لعدة سنين كالتلوث النووي الإشعاعي.

٣- العلاقة السببية بينهما^(١): يهتم القانون الجنائي بالإفعال المُجرمة قانوناً والتي تصيب المجتمع وينتج عنها أذى يترتب عليه مسؤولية الفاعل الجنائية.

وتجد المسؤولية الجنائية أساسها في الاعتداء على حق المجتمع، عندما يرى المشرع بأن فعلاً ما يتميز بالخطورة والأهمية بحيث أنه يشكل خطراً عاماً وليس خاصاً بالفرد أو بمشروع معين، أو عندما يلاحظ أن الجزء المدني غير كافٍ لردع المخالفين وأنهم قد تبادوا أو تجاوزوا كثيراً في مخالفتهم، مما يقتضي وجود قانون يردعهم، لذلك جاءت القوانين العقابية على سبيل الحصر وليست على سبيل المثال، طبقاً للقاعدة القانونية المعروفة «لا عقوبة بلا جريمة ولا جريمة إلا بنص».

من يمتلك توقيع العقوبة الجنائية هو الادعاء العام كونه يمثل مصالح المجتمع، لذلك ليس للتصالح أو التنازل في القوانين العقابية مجال.

الأصل أن تقوم المسؤولية كلما قامت المسؤولية الجنائية لأنه قد تلحق الجرائم الجنائية من الأفعال التي تضر بالآخرين، غير أن هذه القاعدة والتي تمثل الأصل ليست مطلقة لأن هناك من الأفعال ما يترتب عليها مسؤولية جنائية دون المسؤولية المدنية وذلك لانقضاء الضرر الذي هو أساس قيام المسؤولية المدنية، مثلاً جرائم الشروع أو مخالفات المرور.

وبالعكس قد تتحقق المسؤولية المدنية دون المسؤولية الجنائية مثلاً عند اتلاف أموال الغير أو المنافسة غير المشروعة أو عدم تنفيذ العقد المتفق عليه، لكن إذا اجتمعت المسؤولية الجنائية مع المسؤولية المدنية يحتفظ كل منهما بطابعها الخاص وذلك كون المسؤولية الجنائية أشد وأقوى من المسؤولية المدنية كونها تمثل حق للمجتمع بينما تمثل الثانية حق الفرد، عليه إذا ما اجتمعت كلتا المسؤوليتين في فعل واحد تخضع الثانية للأولى من ناحية الحكم الذي يصدر في الأولى.

كما أن التأثير يمتد من حيث قوة الشيء المقضي والمحكوم فيه، بحيث إذا نظرت المحكمة الجنائية في الدعوى وصدرت حكمها فيها، فعلى المحكمة المدنية أن تأخذ هذا الحكم بعين الاعتبار من حيث ثبوت الوقائع لا من حيث التكييف القانوني لهذه الوقائع.

١- للمزيد انظر: المرجع أعلاه، ص ٤٦.

ويمتد كذلك التأثير من حيث وقف الدعوى المدنية وذلك عملاً بالقاعدة «أن الجنائي يوقف المدني» بحيث إذا رفعت دعوى تعويض أمام المحكمة المدنية ثم رفعت دعوى جنائية أمام المحاكم الجنائية، فإن المحكمة المدنية بإمكانها ان توقف السير في الدعوى لحين صدور الحكم من المحكمة الجنائية.

أما من ناحية الجزاء الجنائي والذي يتخذ شكل العقوبة قد تقع على النفس، والجسم، والحرية، والمال.

والعقوبة التي تُوقع على النفس تنتهي معها حياة الانسان وهي عقوبة الاعدام، وهي أشد عقوبة وأقساها، وقد نصت بعض القوانين على الإعدام كعقوبة لبعض جرائم تلوث البيئة في الحالات التي يترتب عليها وفاة بعض الافراد^(١).

وقد يعاقب بالاعدام أو السجن المؤبد والغرامة التي لا تقل عن مليون درهم ولا تزيد على عشرة ملايين درهم لكل من قام باستيراد أو جلب المواد أو النفايات النووية او دفنها أو إغراقها أو تخزينها أو التخلص منها بأي شكل في بيئة الدولة^(٢).

والعقوبة التي يمكن أن يوقعها القانون على الحرية تتمثل في الاعتقال أو الحبس أو السجن أو الأشغال الشاقة المؤقتة أو المؤبدة، ولصعوبة العقوبة المقيدة للحرية فانها تعتبر من أهم العقوبات المجدية في حماية البيئة، ولكننا نجد ان أغلب قوانين الدول النامية لاتنص صراحة على الحبس كعقوبة أو لاتجعل الحبس وجوبياً بل تجيز الحكم بالغرامة بدلاً من الحبس، كما وتجيز الجمع بينهما، والأفضل أن يكون الحبس وجوبياً في المخالفات الجسيمة والخطيرة إذا ما نتج عنها آثارٌ سيئة على البيئة.

نصَّ المشرع العراقي على: «يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن خمسة عشر يوماً أو غرامة لا تزيد عن عشرة دنانير كل من تسبب عمداً أو إهمالاً في تسرب الغازات او الابخرة وغير ذلك من المواد التي من شأنها اىذاء الناس او مضايقتهم او تلويتهم»^(٣).

ونوصي في هذا الصدد الى ضرورة تعديل احكام هذه المادة من ناحية مبلغ الغرامة المنصوص عليها، لعدم تناسبها مع القيمة الحقيقية للدينار العراقي حالياً، حيث ان المادة شرعت منذ ما يقارب ٤٤ عاماً، وبالتالي اصبح مبلغ الغرامة لايشكل رادعاً فعالاً في وجه الملوئين. لكننا نجد ان المشرع العراقي في قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩

١- انظر: م/٢٧٥ من قانون العقوبات المصري، رقم ٩٥ لعام ١٩٩٦، وم/٢٧٢ من قانون العقوبات الأردني رقم ١٦ لعام ١٩٦٠.

٢- انظر: م/٢/٦٢ من القانون الاتحادي لدولة الإمارات العربية المتحدة رقم ٢٤ لعام ١٩٩٩ بشأن حماية البيئة وتميئتها.

٣- انظر: م/٢/٤٩٧ من قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لعام ١٩٦٩ النافذ.

إستدرك خطورة الاعتداء على البيئة، وضرورة تشديد العقوبة بل ومضاعفتها عند تكرار المخالفة القانونية، عندما نص «أولاً: مع عدم الاخلال باية عقوبة اشد ينص عليها قانون يعاقب المخالف لاحكام هذا القانون والانظمة والتعليمات والبيانات الصادرة بموجبه بالحبس لمدة لا تقل عن (٢) اشهر او بغرامة لا تقل عن (١٠٠٠٠٠٠٠) مليون دينار ولا تزيد على (٢٠٠٠٠٠٠٠) عشرين مليون دينار او بكلتا العقوبتين. ثانياً: تضاعف العقوبة في كل مرة يتكرر فيها ارتكاب المخالفة»^(١).

ومن القوانين التي تجنبت النص على الحبس كعقوبة لمخالفة أحكام قانون حماية البيئة هي امارة دبي، حيث لم ينص على الحبس أو السجن كعقوبة على مخالفة أحكامه مهما كانت اهميتها أو خطورتها، ونصت على أن يعاقب من يخالف احكامه أو احكام لائحته التنفيذية باحدى العقوبات التالية:

١- الانذار.

٢- الغرامة التي لا تقل عن خمسة آلاف درهم وتتضاعف الغرامة في حالة التكرار بما لا يزيد عن خمسة عشر الف درهم.

٣- اغلاق المحل لفترة لا تزيد عن الشهر.

٤- الغاء الرخصة.

فضلاً عن تحميل المخالف نفقات الإزالة أو الإصلاح التي تحددها البلدية ومصادرة الأدوات أو الأجهزة التي استخدمت في ارتكاب المخالفة^(٢).

في حين نجد دولاً أخرى على العكس من ذلك فانها تشدد العقوبة في بعض من قوانينها، ومن العقوبات المقيدة للحرية في جرائم تلوث البيئة لتصل بها في بعض الأحيان إلى الاشغال الشاقة^(٣).

أما العقوبات التي تُوقَّع على الأموال فتتمثل في الغرامة أو المصادرة، بحيث أننا نجد أن الغرامة تنص عليها القوانين في العادة مع الحبس والتي قد لا تجدي نفعاً إذا لم تكن كبيرة القيمة، حيث يقارن المسبب للتلوث ما بين مقدار الغرامة وما بين المكاسب التي يمكن أن يجنيها من نشاطاته المنتجة للتلوث، ليقرر إستمراره بالنشاط خاصة إذا وجد أن دفع الغرامات الحالية ذي جدوى أكبر وتحقق مكاسب أكبر له فيتمادون في إحداث التلوث ويدفعون الغرامات وكأنها جزء من تكاليف الانتاج دون أن تحدث العقوبة المالية أي أثر رادع في نفوسهم.

١- انظر: م/ ٣٤/ اولاً وثانياً من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩.

٢- انظر: الأمر المحلي لامارة دبي رقم ٦١ لعام ١٩٩١.

٣- انظر: م/ ٩٥ من قانون البيئة المصري رقم ٤ لعام ١٩٩٤ المعدل بالقانون رقم ٩ لعام ٢٠٠٩.

مما حدا ببعض التشريعات في بعض البلدان لزيادة قيمة الغرامة زيادة كبيرة لتشكل رادعاً فعالاً للمتسببين في تلوث البيئة^(١).

أما المصادرة فتظهر في صورة استيلاء الدولة على المعدات أو المواد التي كانت مصدراً للتلوث البيئي، وقد تكون المصادرة عقوبة تبعية يحكم بها بالضرورة مع العقوبة الأصلية، وقد تكون عقوبة تكميلية يجوز الحكم بها بالإضافة إلى عقوبة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى ان البعض يرى إنفراد المشرع المصري بتعريف «الارهاب البيئي» والذي نص على أنه «يقصد بالارهاب في احكام القانون الجنائي كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويح يلجأ اليه الجاني تنفيذاً لمشروع اجرامي فردي أو جماعي يهدف إلى الإخلال بالنظام العام، أو تعريض سلامة المجتمع وامنه للخطر إذا كان من شان ذلك إيذاء الأشخاص أو القاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر، أو الحاق الضرر بالبيئة، أو بالاتصالات أو بالمواصلات، أو بالأموال او بالمباني او الاملاك العامة أو الخاصة، أو احتلالها أو الاستيلاء عليها، او منع أو عرقلة ممارسة السلطات العامة أو دور العبادة أو معاهد العلم لأعمالها، او تعطيل تطبيق الدستور او القوانين أو اللوائح»^(٢).

وفي أكثر الاحيان من الصعب تحديد مرتكب افعال الاعتداء على البيئة بتلويثها، كما أنها من الممكن أن ترتكب من قبل أكثر من شخص واحد، بل قد يساهم في ارتكابها عدة اشخاص لا يربط بينهم أية صلة أو علاقة، وبالتالي فإن ذلك يصعب مهمة تحديد الدور الذي لعبه كل واحد من هؤلاء الأشخاص في إحداث التلوث البيئي وكان من نتيجته أحداث الضرر.

وهنا نستذكر أن مسألة الضرر البيئي مسألة ذات طابع فني، وذلك يقودنا إلى الاستعانة بذوي الخبرة الفنية في اغلب الأحيان إن لم يكن في معظمها، وخاصة عندما يكون الموضوع معروضاً أمام المحاكم مما يقتضي الأمر بانتداب أحد الخبراء الفنيين في الدعوى، وبالتالي فإن ذلك يأخذ وقتاً أطول للنظر في النزاع لفترات طويلة، وذلك يعني استمرار وقوع الضرر البيئي إلى حين الفصل في الدعوى وإكتساب الحكم الدرجة القطعية، كما إننا لا ننسى هنا أن الضرر البيئي الناتج من فعل التلوث قد يتأخر عنه، أي يوجد فارق زمني طويل بينهما، اضافة إلى أن فعل التلوث قد لا يكون واضحاً، أو قد يكون مؤقتاً بينما الضرر البيئي قد يكون أكبر من الفعل لكنه قد يحتاج

١- انظر: م/٩٠ من المرجع أعلاه، وللمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، مصر، ٢٠٠٧، ص ١٤٤.

٢- أنظر: م/٨٦ المعدلة من قانون العقوبات والاجراءات الجنائية المصري رقم ٩٧ لعام ١٩٩٢، للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ١٤٢، وعلي السيد الباز، مرجع سابق، ص ٤٨.

فترة طويلة جداً لكي نستطيع إثباته، وبالتالي فإنه لا بد من جهود كبيرة ووقت طويل أمام جهات الضبط والتحقيق والمحاكمة^(١).

ويبرز هنا في مجال الجرائم البيئية مهمة الضابطة القضائية لأهمية دورها الذي يعتمد على الطبيعة الخاصة لمهام من تمنح لهم هذه الصفة، والذين يفترض بهم أن يتمتعوا بقدر كافٍ من التأهيل الفني والخبرة العملية بالشكل الذي يضمن نجاحهم في ضبط وإثبات الانتهاكات والاعتداءات التي تمثل جرائم تقع على عناصر البيئة.

تتوقف فاعلية التنظيم التشريعي لحماية البيئة على الجانب الإجرائي، فالنصوص الموضوعية بمفردها لا تكفي لحماية البيئة، بل ينبغي أن يكملها مجموعة من الاجراءات والتدابير التي تضمن تطبيق هذه القواعد القانونية بصورة فعالة ومؤثرة، ومن هنا برزت صفة مأموري الضابطة القضائية وإعطائهم الدور البارز كموظفين لجهاز شوؤن البيئة.

وتتباين التشريعات من حيث النص على السند التشريعي لتحويل هؤلاء صفة الضابطة القضائية فنجدها في بعض الدول تمنح بقرارات ادارية، في حين نجدها في دول اخرى تمنح بقانون كالتشريع الفرنسي، وهناك من يجمع الطريقتين كالتشريع المصري، حيث تمنح هذه الصفة بقرار من وزير العدل بالاتفاق مع الوزير المختص^(٢).

نعود هنا لنرد على الذين اعتبروا أن المشرع المصري قد أنضد بتعريف الإرهاب البيئي، بأن المشرع اللبناني أيضاً ومن خلال استقراءنا لنص المادة^(٣)/ ٣١٤ من قانون العقوبات اللبناني، قد أقر بدخول الارهاب بمفهومه المرن في نطاق الحماية البيئية، وذلك لكونه نص على الافعال التي من شأنها أن تخلق الذعر ومهما اختلفت الوسائل والأدوات والمنتجات والعوامل التي يكون من نتيجتها إيقاع الخطر العام بالمجتمع، وبالتالي فإن التلوث البيئي هو الخطر الذي يعالجه المشرع اللبناني في هذه المادة، وبذلك دخل مفهوم الاعتداء على اي عنصر من عناصر البيئة تحت مفهوم الاعمال الارهابية وهو ما أكدته احكام المادة الأنفة الذكر.

يتضح لنا أن البيئة هي القيمة المحمية، فالسلوك الايجابي او السلبي سواء كان عمدياً أم غير عمدي، مباشراً او غير مباشر إذا صدر عن شخص ما ونتج عنه ضرر بأحد عناصر البيئة

١- للمزيد انظر: سمير حامد الجمال، الحماية القانونية للبيئة، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧، ص ٤٥-٤٦.

٢- للمزيد بشأن مهام مأموري الضبط القضائي وصلحياتهم بشأن ضبط جرائم البيئة انظر: طارق ابراهيم الدسوقي عطية، مرجع سابق، ص ٤٣٤ وما بعدها.

٣- انظر: م/ ٣١٤ من قانون العقوبات اللبناني رقم ٣٤٠ لعام ١٩٤٣ تنص (يعنى بالأعمال الارهابية جميع الافعال التي ترمي إلى ايجاد حالة ذعر وترتكب بوسائل كالأدوات المتفجرة والمواد الملهية والمنتجات السامة أو المحترقة والعوامل الوبائية أو الميكروبية التي من شأنها أن تحدث خطراً عاماً).

فإنه يكون بذلك قد خرق القواعد القانونية لحماية البيئة^(١).

المبحث الرابع:

الحماية القانونية للبيئة في القانون الإداري

سبق وأن تناولنا في المباحث السابقة المسؤولية المدنية ثم المسؤولية الجنائية لنتناول بالدراسة هنا المسؤولية الادارية في نطاق القانون الداخلي، حيث تمثل هذه المسؤولية سلطات الادارة واجهزتها التي تتمتع به وفقاً للقانون العام لمتابعة اعمال الانسان وعمل المنشأة، بدءاً من الترخيص لها بالعمل ومروراً بضرورة التزام الجميع بالقوانين والانظمة التي تجعل نشاط الانسان اليومي او نشاط المؤسسات الصناعية غير متعارض مع نظافة البيئة والمحافظة على عناصرها. تقوم السلطات الإدارية بمهمة مراقبة وتنفيذ القوانين البيئية، وبالتالي فان كافة الاجهزة والهيئات التابعة لها توكل لها القيام بهذه المهمة، وعليه فالإدارة هي:

١- المسؤولية عن التلوث البيئي في حالة تقصيرها أو تقاعسها أو اهمالها عن تنفيذ القوانين.

٢- توفير الكفاءات المدربة وإعداد الدورات التدريبية للعاملين وتنظيم ونشر الوعي البيئي وتوفير المعلومات وأجهزة الصيانة وحماية البيئة.

٣- تقوم بمراقبة المصانع والمحلات واتخاذ العقوبات الرادعة بحقها عند اخلالها بقواعد حماية البيئة.

٤- مراجعة دخول النفايات الخطرة ودفنها داخل البلاد وكذلك مراقبة أي مؤسسة داخلية تقوم بدفن النفايات الخطرة المحلية.

٥- وضع المعايير ذات المواصفات القياسية وتحديد المستويات الممنوحة والمسموح بها وعدم تجاوزها.

٦- اصدار الترخيص للمصانع والمحلات وفقاً للقوانين المرعية في البلاد.

ولذا فإن مسؤولية الإدارة تخضع لقواعد تختلف عن قواعد القانون المدني وتتفق حسب طبيعة ونوع المرفق العام وتوفق بين حقوق الافراد وحقوق الإدارة العامة.

وتعتبر فكرة الخطأ أساس قيام مسؤولية الادارة في أغلب الأحوال، إلا أنها تقوم احياناً بغير فكرة الخطأ وإنما على أساس فكرة المخاطر وتحمل التبعات.

١- للمزيد انظر: اشرف هلال، جرائم البيئة بين النظرية والتطبيق، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥، ص٣٦.

ومن هنا فقد وقع على عاتق القانون الإداري بصورة عامة أو على الضبط الإداري بصورة خاصة، مهمة تنفيذ قواعد الحماية البيئية والمحافظة على النظام العام ولكن ليس بمدلولاته الثلاثة التقليدية، وهي المحافظة على الامن العام والصحة العامة والسكن فحسب، بل يمتد بمدلولاته الجديدة المستحدثة مثل المحافظة على الجمال العام والتراث العام، حيث كان قضاء مجلس الدولة الفرنسي سباًقاً إلى توسيع مفهوم النظام العام - بمعناه التقليدي -، وقد استقر قضاؤه على ذلك منذ فترة بعيدة وفي العديد من الاحكام التي اصدرها منذ العام ١٩٢٧ بحيث تستوعب تلك الاحكام الافكار الجديدة التي تدخل ضمن مدلول النظام العام وبما يعرف بمفهوم الحفاظ على الجمال العام، ومن هنا كان التوسع في هذا المفهوم -النظام العام- بمعناه من الجانب المادي إلى الجانب المعنوي ليدخل فيه المحافظة على جمال المنظر ومن التلوث.... الخ^(١).

لذلك ليس غريباً اعتبار المحافظة على النظام العام بجميع مدلولاته يهدف بالأساس إلى حماية البيئة.

وتبرز أهمية لوائح الضبط الإداري في:

- ١- أنها تطبق وتنفذ وتُتصل ما تتضمنه القوانين المختلفة والمتعلقة بالبيئة.
 - ٢- أنها ذاتية ومستقلة في مكافحة جرائم الاعتداء على البيئة.
 - ٣- تمارس عملها في حماية البيئة والوقاية من التلوث البيئي وتقوم بمهمة الازالة الفورية للمخالفات المؤدية إلى هذا التلوث.
- ويتأزر كل من الضبط الإداري مع الضبط القضائي في حماية البيئة والتصدي لأي اعتداء يقع عليها ويلوثها، كما ويساهمان في اكتشاف الفاعلين وردعهم^(٢).
- لذلك مُنحت التشريعات البيئية صفة الضبطية القضائية للكثير من الموظفين العاملين وصولاً إلى فاعلية اكبر لمكافحة المخالفات أو الجرائم^(٣).

لقد ألزم المشرع العراقي اصحاب المشاريع قبل البدء بإنشاء مشاريعهم بتقديم تقرير

١- للمزيد انظر: علي السيد الباز، مرجع سابق، ص ٢٨.

٢- للمزيد انظر: المرجع أعلاه، ص ٢٩.

٣- انظر: م/٢٤ / ثانياً من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩ تنص (يمنح المراقب صفة أحد اعضاء الضبط القضائي يعاونه اثناء تأدية عمله عناصر من الشرطة البيئية وله في سبيل القيام بمهامه حق دخول المنشأة والنشاطات الخاضعة للرقابة البيئية اثناء الدوام الرسمي وبعده. ثالثاً - يؤدي المراقب البيئي قبل مباشرته لمهامه اليمين القانوني....)

لتقدير الأثر البيئي يتضمن ما يلي^(١): «أولاً:

- أ- تقدير التأثيرات الايجابية والسلبية للمشروع على البيئة وتأثير البيئة المحيطة عليه.
 - ب- الوسائل المقترحة لتلافي ومعالجة مسببات التلوث بما يحقق الامتثال للضوابط والتعليمات البيئية .
 - ج- حالات التلوث الطارئة والمحتملة والفحوصات الواجب اتخاذها لمنع حدوثها.
 - د- البدائل الممكنة لاستخدام تكنولوجيا أقل إضراراً بالبيئة وترشيد استخدام الموارد.
 - هـ- تقليص المخلفات وتدويرها أو إعادة استخدامها كلما كان ذلك ممكناً.
 - و- تقدير الجدوى البيئية للمشروع وتقدير كلفة التلوث نسبة إلى الانتاج.
- ثانياً: تتضمن دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية لأي مشروع التقدير المنصوص عليه في البند (أولاً) من هذه المادة».

كما أوجب المشرع اللبناني الجهات المعنية في القطاعين العام والخاص إجراء دراسات الفحص البيئي المبدئي أو تقييم الأثر البيئي، والتي ربط بها إمكانية إعطاء التراخيص لأي مشروع على أساسه^(٢).

ويتخذ الجزء الإداري عدة صور متسلسلة كما يلي^(٣):

١- الإنذار أو التنبيه.

٢- تأديب الموظفين المسؤولين.

٣- الإزالة.

٤- الغلق المؤقت.

٥- الغاء الترخيص.

أما المشرع العراقي فقد تدرج في الجزاءات الإدارية بدءاً من الإنذار ثم إيقاف العمل ثم الغلق المؤقت^(٤)، والملاحظ أنه لم ينص على الغاء الرخصة في حالة عدم تقيد المخالف بأحكام القانون وإزالة المخالفة خلال مهلة قانونية، وإنما اكتفى بتشديد العقوبة في كل مرة يتكرر فيها ارتكاب المخالفة، وهذا يُعدُّ نقصاً تشريعياً، حيث يعتبر هذا الجزاء غير رادع للمخالف وبالتالي

١- انظر: م/ ١٠ / أولاً وثانياً من المرجع أعلاه.

٢- انظر: م/ ٢٢ و ٢٣ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢.

٣- للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ١٤٧ وما بعدها، وابتسام سعيد الملكاوي، مرجع سابق، ص ١١٥.

٤- انظر: م/ ٢٢ من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩.

فهو من التدابير القانونية التي تهدف إلى وقف النشاط الملوث للبيئة عن طريق إلغاء الرخصة، وهذه دعوة للمشرع العراقي لمعالجة هذا النقص التشريعي.

أما المشرع اللبناني فقد تدرج في العقوبات وفرض الغرامات ضمن المهلة القانونية بدءاً من الإنذار وتعليق الترخيص وإيقاف النشاط مؤقتاً وصولاً إلى إلغاء الترخيص^(١). وبذلك نلاحظ أنه لا بد أن يقترن القانون بجزاء مادي يكفل احترام قواعده ويميزها عن غيرها من قواعد السلوك الأخرى.

ولما كنا قد تناولنا سابقاً الجزاء في القانون الداخلي في صورته الثلاثة، الجزاء المدني والجزاء الجنائي والجزاء الإداري إلا أنه من غير المستبعد أن تجتمع صور الجزاءات القانونية الآنفة الذكر متحدة لتقف أمام أي مخالفة ترتكب ضد أحكام قوانين حماية البيئة، «فصاحب المشروع الذي كان متسبباً في تلويث البيئة والذي نتج عنه قيام المسؤولية، قد يحكم عليه بالسجن أو الغرامة كجزاء جنائي، وبإزالة آثار التلوث وتعويض الأضرار المترتبة عليه كجزاء مدني، وقيام الإدارة بإغلاق المشروع أو إلغاء الترخيص كجزاء إداري»^(٢).

ومع النشأة الحديثة للتشريعات البيئية والتي ولدت في النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين، نجد أن هذه النشأة الحديثة يُعترف بها جانب الفقهاء، ليقول أحدهم (إن القانون البيئي هو أكثر فروع القانون شباباً، فقد تطور بسرعة ولكن لا يزال في مراحل الخلاقة والتكوينية)^(٣).

ففي العراق صدرت العديد من القوانين والأنظمة ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بالمحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث وقبل رواج مفهوم البيئة حديثاً وتبلور مفهومه، ثم تطورت التشريعات البيئية بعد رواج مفهوم البيئة في العراق، وتكثرت الجهود الكبيرة في إصدار قانون حماية وتحسين البيئة رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩، مسائراً فيه اليقظة العالمية لمجابهة مشاكل التلوث ولحماية البيئة من أي اعتداء يقع عليها.

ولنا ملاحظة في غاية الأهمية بخصوص أحكام المادة / ٣٥ من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩ والتي تنص على «يعاقبُ المخالف لأحكام البند (ثانياً) و(ثالثاً) و(رابعاً) من المادة (٢٠) من هذا القانون بالسجن ويُلزم باعادة المواد او النفايات الخطرة او

١- انظر: م/٥٧ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢.

٢- للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ١٤١-١٤٢.

٣- للمزيد انظر: احمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة- دراسة تأصيلية في الانظمة الوطنية والاتفاقية، مطبوعات جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ١٩٩٧، ص ٦٣.

الإشعاعية الى منشئها او التخلص منها بطريقة آمنة مع التعويض». وبقراءة معمقة لهذا النص لنا تساؤل مفاده: ألا يفترض ان تقوم الدولة عن طريق الجهات المختصة بمصادرة المواد او النفايات الخطرة او الاشعاعية تمهيداً للتخلص منها بطريقة آمنة وسليمة؟

فمن وجهة نظرنا ان الدولة وعن طريق اجهزتها المختصة هي الأقدر والأحرص على القيام بهذه المهمة والتخلص من هذه الملوثات بما تمتلكه من وسائل وتقنيات وإمكانيات مادية، لضمان التخلص الآمن لها، مع إلزام المخالف بدفع تعويض جراء هذه العملية. وهذه دعوة للمشرع العراقي لتعديل احكام هذه المادة.

وفي لبنان صدرت العديد من القوانين التي تعالج الحماية البيئية، فكان آخرها قانون حماية البيئة رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢.

ويلاحظ إنفراد المشرع اللبناني في إنشائه نظام المشاركة في ادارة البيئة^(١)، كما انه أنشأ لذلك صندوقاً للبيئة يتمتع بالشخصية المعنوية المستقلة، وتخضع لرقابة ديوان المحاسبة ولوصاية وزير البيئة، كما وحدد مهام وصلاحيات الصندوق والتي من أهمها دعم وتطوير الأبحاث والتقدم التكنولوجي في أمور البيئة ودعم المبادرات والأنشطة التي تقوم بها الجمعيات والمنظمات غير الرسمية^(٢).

ومن الجدير بالإشارة إلى أن كلفة التلوث البيئي في لبنان حسب تقدير البنك الدولي الأخير لعام ٢٠١١ تفوق ٨٠٠ مليون دولار امريكي، أي ما يعادل ٢,٧٪ من الناتج المحلي العام.

بينما يتحمل الاقتصاد المصري تكاليف زيادة انبعاثات ثاني اوكسيد الكربون والتي ارتفعت من ٧,٥ مليار دولار عام ١٩٩٨ إلى ٩,٥ مليار دولار عام ٢٠٠٣، حيث يتم انتاج ٢٥٠,٥٢ مليون طن سنوياً من ملوثات الهواء و ١١٠ مليون طن من النفايات الصلبة وما يعادل ٥,٢٧ مليون طن من عوادم المياه.... في حين بلغت التكلفة الاجمالية للاقتصاد المصري خلال الفترة من ١٩٩٨-٢٠٠٢ ما قيمته ٥٠,٦ مليار دولار^(٣).

وبلغت التكاليف السنوية التي يتحملها الاقتصاد السوري نتيجة للتلوث البيئي ما يتراوح بين ٢٩-٣٢ مليار ل. س عام ١٩٩٧، وارتفعت هذه التكلفة الى ما يتراوح بين ٤٦-٥٤ مليار ل. س عام ٢٠٠٥^(٤).

١- انظر: م/ ١٨ و ١٩ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢.

٢- انظر: م/ ٩ من المرجع أعلاه.

٣- للمزيد انظر: مجدي السيد أحمد ترك، دور الضرائب في مكافحة التلوث البيئي في مصر والمشكلات المحاسبية المرتبطة بها، منشور في المؤتمر الضريبي الثاني عشر- فاعلية تطبيق النظام الضريبي المصري، الجمعية المصرية للمالية العامة والضرائب

-مركز الدراسات المالية والضريبية، مصر، ٢٠٠٧، ص ١٨.

٤- اسبوع العلم الرابع والثلاثين في جامعة البعث، منشور على شبكة الانترنت على الموقع <http://www.thawra.alwehde>

وتجدر الإشارة الى أنَّ هناك مجموعةً من القوانين والتشريعات هنا وهناك تتناول موضوع حماية البيئة والمحافظة عليها في طيات موادها^(١)، ولكن ذلك لا ينفي قيام بعض الدول باصدار قانون خاص بحماية البيئة وعلى وجه الاستقلال والذي من المؤكد أنه لا يعمل بمعزل عن القوانين الأخرى التي تضم في طياتها مواد تلتقي مع قانون البيئة المستقل في وحدة الهدف.

ورغم أن البعض^(٢) يأخذ على التشريعات البيئية كونها لا تحتوي على تشريع موحد يجمع كل مبادئها (اي أنه غيرُ مقننٍ) عندما يقارنون بينها وبين القوانين الأخرى كالقانون التجاري أو القانون المدني... الخ.

وفي رأينا لا بد أن يتم التوجه لإصدار قانون موحد لحماية البيئة بدلاً من التشريعات المتعددة، بحيث يتم توحيدها جميعاً في تشريع واحد يضم العناصر البيئية المختلفة بحيث يتضمن القانون الموحد الاحكام العامة والتي تتضمن خصائص تميزها عن غيرها، ومن بعد ذلك يتم افراد قسم ثانٍ متضمناً كل عنصر من عناصر البيئة وتوضع فيه الاحكام المنظمة له مع الجزاءات الجنائية الخاصة به، مع الغاء كل قانون يتعارض مع احكام هذا القانون الشامل بحيث تطبقه جميع الجهات والافراد، وبذلك نتجنب التكرار الموجود في التشريعات المختلفة وكذلك التعارض أحياناً في أحكامها نظراً لصدور هذه القوانين في تواريخ متعاقبة أو معاصرة لحماية عنصر واحد من عناصر البيئة دون النظر ومراعاة العناصر الأخرى.

من خلال ما تقدم نلاحظ الاهتمام الكبير من قبل التشريعات العربية بموضوع حماية البيئة من ظاهرة التلوث لنجد أن معظم التشريعات العربية قد تناولت موضوع التلوث البيئي، وقد برز هذا الاهتمام من خلال ما أصدرته من التشريعات الخاصة بالبيئة، بل وأنشأت في بعض منها محاكم بيئية، وبالتالي فإن ما يجمع كل هذه التشريعات سواء التي وردت في قانون البيئة أو في القوانين الأخرى هو وحدة الهدف والمتمثلة في حماية البيئة حيث تم تدعيم التشريعات البيئية بالقانون الدستوري والقوانين المدنية والجنائية والإدارية والمالية، وذلك لغرض تأكيد فرض احترامها على العامة.

ومن الجدير بالإشارة في هذا الصدد قيام العديد من دول العالم بإنشاء هيئات فنية متخصصة لتضطلع بمهام حماية البيئة والمحافظة عليها من التلوث.

ومن هذه الهيئات على سبيل المثال: وكالة حماية البيئة في الولايات المتحدة الأمريكية والتي تتبعها عدة فروع متخصصة في مكافحة بعض نوعيات التلوث، كمكتب النفايات الصلبة

١- للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ١٤١-١٤٢.

٢- رأي ماجد راغب الحلو، المرجع أعلاه، ص ٦٧.

والذي يعمل على حماية البيئة من النفايات، وإدارة البيئة الفدرالية بكندا، والإدارة الوطنية لحماية الوسط الطبيعي بالسويد، وهيئة مكافحة التلوث بالنرويج.

كما بلغ اهتمام بعض من الدول إلى درجة تخصيص منصب وزير يظطلع بهذه المهمة البالغة الأهمية كبريطانيا وفرنسا والنرويج.

أما الدول العربية فنجد ان لديها حالياً اما وزارة بيئة او هيئة بيئية حكومية أو الاثنان معاً، وعلى سبيل المثال جهاز شؤون البيئة في مصر، ومصلحة الارصاد وحماية البيئة السعودية، ومجلس حماية البيئة بالكويت، ولجنة حماية البيئة في البحرين^(١)، وهيئة البيئة في أبوظبي التي بدأت باستراتيجية بيئية للإماره، حيث حددت هذه الاستراتيجية النموذجية أهدافاً على مرحلتين من سنتين وخمس سنوات تشمل عشرة مجالات ذات أولوية هي:

الاستدامة البيئية، ادارة الموارد المائية، نوعية الهواء، النفايات الخطرة، التنوع البيولوجي، الوعي البيئي، نظم السلامة، الكفاءة التنظيمية، إدارة الحالات الطارئة، نظم المعلومات. وهذه المبادرات مطلوبة في إنماء المنطقة العربية مع تشديد كبير على الاستعداد لتنفيذها بشكل واف^(٢).

ومن الدول العربية التي أولت اهتماماً كبيراً بمسألة حماية البيئة والمحافظة عليها وأنشأت لذلك وزارة تهتم بموضوع البيئة والتي سُميت في أغلب الأحيان بوزارة البيئة، وعلى سبيل المثال وزارة البيئة العراقية التي تأسست بموجب الامر ٤٤ لعام ٢٠٠٢، بعد سنوات طويلة من التجاهل نحو البيئة ومتطلبات حمايتها من التلوث، حيث جاء تشكيلها في وقت تعاني فيها الأوضاع البيئية من التدهور البيئي الشديد^(٣).

وفي لبنان تأسست وزارة البيئة بموجب القانون ٢١٦ لعام ١٩٩٢، وفي مصر تأسست وزارة البيئة بموجب قرار رئيس الجمهورية ٢٧٥ لعام ١٩٩٧.

وفي تقديرنا أنه من الأفضل أن يتم تشكيل هيئة على المستوى الاتحادي للدولة أي هيئة قومية تضم في عضويتها ممثلين عن جميع الوزارات المعنية بحماية البيئة ويكون أعضاء هذه الهيئة من الأشخاص ذوي الاختصاص والكفاءة العلمية والفنية تضطلع بمهمة رسم السياسة البيئية للدولة وفي كل ما يختص بحماية البيئة أو منع التلوث أو مكافحته عند وقوعه بحيث تتمتع هذه الهيئة بشخصية معنوية مستقلة وتجتمع بصورة دورية ومستمرة وتكون قراراتها ملزمة بحيث

١- للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ٥٨ وما بعدها، وطارق ابراهيم الدسوقي عطية، مرجع سابق، ص ٤٨٥.

٢- للمزيد انظر: البيئة العربية وتحديات المستقبل - التقرير السنوي للمنتدى العربي للبيئة والتنمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١٦.

٣- انظر: موقع وزارة البيئة العراقية على شبكة الانترنت <http://www.environ-irag.org>

تأخذ الصفة القانونية الأصولية والمتبعة.

وفي ظل تسارع الخطى من قبل العديد من الدول باتجاه وضع التشريعات الخاصة بحماية البيئة لأن الخطر بدأ يتفاقم بشكل مضطرد، ظهرت معها مشكلة أخرى أثناء التطبيق العملي لهذه التشريعات^(١)، وتمثل هذه المشكلة باصطدامها مع مبدأ افتراض العلم بالقانون الجهل بالقانون لا يعد عذراً).

حيث أن وضع التشريعات الخاصة بحماية البيئة موضوع التطبيق يقتضي من الناحية العملية احتوائها على بعض الاحكام الخاصة مثل (المعايير أو المواصفات أو معدلات خاصة) وفي الواقع أن هذه الأمور قد يتعذر على الشخص العادي العلم بها والالمام بتفاصيلها الدقيقة، وعليه سيصطدم الواقع العملي مع مبدأ افتراض العلم بالقانون (الجهل بالقانون لا يعد عذراً)، ويتم معالجة هذه المشكلة في نطاق التشريعات البيئية عن طريق تدخل المشرعين بالعمل على التوفيق ما بين هذا المبدأ الذي يتطلب وجوده ضرورات واقعية عديدة، وبين ما يمكن أن يخفف من حدته على نحو يحقق كل من المشرع والفرد الشعور بالاطمئنان تجاه القوانين التي تصدر وتكون حقاً قابلة للتطبيق.

ومن هذا المنطلق نجد أن المشرع الفرنسي قد انتهج أكثر من وسيلة وذلك للتخفيف من حدة هذا المبدأ.

أما المشرع المصري فقد انتهج اسلوباً مختلفاً عن المشرع الفرنسي بحيث اعطى فرصة للمخالف لأحكام البيئة بأن يصحح اوضاعه.

في حين نجد أن المشرع الكويتي قد اتجه الى اعتماد نظام الصلح بشأن المخالفات لاحكام البيئة^(٢).

وكذلك الحال فعل المشرع اللبناني «يحق لوزير البيئة إجراء المصالحة على الغرامات وعلى التعويضات التي يحكم بها بشأن الأضرار التي تصيب البيئة تطبيقاً لأحكام قانون البيئة بشرط ألا تتناول التسوية أكثر من نصف قيمة الغرامة أو التعويض»^(٣).

وبذلك نجد كل هذه السبل تساهم في مد يد العون للأشخاص الذين يتعذر عليهم الالمام

١- للمزيد انظر: فارس محمد عمران، السياسة التشريعية لحماية البيئة في مصر وقطر ودور الأمم المتحدة في حمايتها، ط١، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، مصر، ٢٠٠٥، ص ٨٠.

٢- للمزيد انظر: هالة صلاح الحديثي، موقف التشريعات البيئية في ظل مبدأ افتراض العلم بالقانون، منشور في مجلة جامعة = الانبار للعلوم الانسانية، العدد٤، كانون الثاني، العراق، ٢٠٠٧، ص ٤٥٥، وامين مصطفى محمد، الحماية الاجرائية للبيئة - المشكلات المتعلقة بالضبطية القضائية والإثبات في نطاق التشريعات البيئية، منشور في مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية الصادرة عن كلية الحقوق في جامعة الاسكندرية، مصر، ٢٠٠٠، ص ٥٧٥.

٣- انظر: م/٦٦ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢.

بالحكام الخاصة بالبيئة.

بينما لم يعالج المشرع العراقي هذه المسألة، وعليه ندعوه إلى ضرورة العمل على إيجاد الحلول القانونية المناسبة لحماية البيئة العراقية لا سيما للفترة الحالية التي تلت الاحتلال الأمريكي للعراق منذ عام ٢٠٠٣ وما نتج عنها من خسائر كبيرة طالت كل مفاصل المجتمع، وكان للبيئة النصيب الأكبر من هذه الأضرار.

ولغرض إبراز العلاقة بين القانون البيئي والثقافة البيئية التي لها دور كبير وهام في تفعيل التشريعات البيئية نجد أن أغلب القوانين البيئية في الدول العربية ودول مجلس التعاون الخليجي خاصة، قد تضمنت على بند يحث على نشر التوعية البيئية في المجتمع معتبراً^(١) اياها الخطوة الأولى في تفعيل القوانين البيئية على المستوى الوطني، حيث طالبت تلك القوانين بضرورة ادخال التوعية والتعليم البيئي ضمن البرامج التعليمية بالمدارس والجامعات والمعاهد المتخصصة في علوم البيئة لتخرج الملاكات المؤهلة للعمل البيئي بالتنسيق مع وزارة البيئة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الاعلام بحيث تتولى الجهات المعنية بالثقافة اعداد البرامج واصدار الكتب والمطبوعات والنشرات التي تهدف إلى تنمية الثقافة البيئية^(٢).

ونشير هنا إلى ضرورة وجود تنسيق بين السلطات المسؤولة عن تنفيذ القوانين البيئية مما يسهم في الامتثال لها، وبنفس الوقت لابد من تعاون كافة الوزارات مع وزارة البيئة لتمكنها من أداء مهامها على أتم وجه.

بل وانشأت في بعض منها الكليات المتخصصة في الدراسات البيئية وكذلك معاهد للبحث العلمي والتي تمنح في نفس الوقت درجات الماجستير والدكتوراه في هذا التخصص المهم جداً. ولكون الجامعات تابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي فان لها دوراً كبيراً بل ومميزاً في الحفاظ على البيئة من التلوث من خلال انجازاتها في مجال البحث العلمي ودورها البارز للنهوض بالمجتمع والارتقاء بالحضارة ورقى الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية وخلق مواطن قادر على بناء المجتمع ومن ثم الرقي به.

ومن هنا يمكننا القول بان لاهحضارة ولا تقدم ولا رقي مع تلوث البيئة وتحطيمها، ومن بين النشاطات التي يمكن ان تساهم في نشر وتفعيل التوعية البيئية كوسيلة أساسية وفاعلة، وكذلك ابراز الدور المهم الذي يمكن أن يساهم فيه أي مواطن لغرض الحفاظ على البيئة وحمايتها من أي اعتداء قد يقع عليها، بل عليه أن يلعب دوراً في تميمتها وصيانتها من أي عبث لنجد هذا الدور

١- انظر: م/١٦ و١٧ من المرجع أعلاه.

٢- انظر: م/١٢ من قانون حماية وتحسين البيئة العراقي رقم ٢٧ لعام ٢٠٠٩.

متمثلاً في الاحزاب البيئية.

ومنها على سبيل المثال (الحزب الأخضر) أو (الحركة الخضراء)، حيث ينشط الحزب في مجال حماية البيئة ويعمل من اجل تحقيق التوافق ما بين الاحتياجات البشرية المتنامية والمتعددة بالشكل الذي لا يخل بأي عنصر من عناصر التوازن البيئي، وقد نشأ هذا الحزب في المانيا منذ عام ١٩٨٠، وفي اليابان عام ١٩٨٣.

بل نجد أن نشاط الحركة الخضراء في المانيا قد مكَّنها من دخول الانتخابات البرلمانية في المانيا الغربية عام ١٩٨٠ وحصلت على ١,٥% من مجموع اصوات الناخبين، ونتيجة لازدياد النشاط بصورة ملحوظة وتكوينها قاعدة شعبية لها استطاعت - الحركة الخضراء - أن تحصد ٥,٦% من مجموع اصوات الناخبين في انتخابات عام ١٩٨٣ لتستأثر بنحو ٢٧ مقعداً في البرلمان. ونتيجة لذلك انتشر الحزب الاخضر في جميع انحاء العالم، ومن الدول التي ظهر بها هذا الحزب: بلجيكا، الدنمارك، اسبانيا، فرنسا، المملكة المتحدة، ايطاليا، ايرلندا، لكسمبورج، هولندا، البرتغال، ألمانيا، النمسا، سويسرا، الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، بولندا، كندا، الولايات المتحدة^(١)، حيث ينادي الحزب بضرورة الحفاظ على توازن النظام البيئي ويكافح من اجل تحقيق الهدف الاسمي والقيمة العليا وهي البيئة.

ويوجد في الدول العربية العديد من الجمعيات التي تمارس ذات النشاط، مثلاً في مصر الجمعية الجغرافية التي تأسست عام ١٨٧٥ وهي من اقدم الجمعيات العربية^(٢).... وغيرها. وفي لبنان مثلاً توجد جمعية الخط الاخضر التابعة للجامعة الامريكية في بيروت... وغيرها، وفي الإمارات العربية المتحدة مثلاً توجد جمعية اصدقاء البيئة^(٣)، وفي العراق تأسست منظمة حماية البيئة العراقية عام ٢٠٠٣، ومنظمة طبيعة العراق تاسست عام ٢٠٠٤... وغيرها.

وتعمل كل هذه الجمعيات من أجل تدعيم مبدأ الحفاظ على البيئة ونشر التوعية البيئية ولفت الانظار لكل مواطن او مسؤول في الدولة إلى المخاطر التي تتعرض لها البيئة والكرة الأرضية عموماً وضرورة الوقوف صفاً واحداً من أجل ديمومتها، لانها الوعاء الذي يعيش ويموت فيه الانسان وكل الكائنات الأخرى، فلا بد من حماية هذا الوعاء من اي عبث أو اعتداء يقع عليه، كما انها تنبه إلى المظاهر السلبية التي تقع هنا وهناك والتي تتطلب حلولاً جذرية لمعالجتها وعدم اهمالها.

١- للمزيد انظر: فارس محمد عمران، مرجع سابق، ص ٥٤.

٢- للمزيد بشأن الاجهزة المعنية بحماية البيئة في مصر سواء الحكومية والأهلية والمحلية والدولية انظر: فارس محمد عمران، مرجع سابق، ص ٢٦ وما بعدها.

٣- للمزيد انظر: ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ١٧، وطارق ابراهيم الدسوقي عطية، مرجع سابق، ص ٤٩٢ وما بعدها.

بل ان هذه المؤسسات والجمعيات المدافعة عن البيئة اعطي لها الحق في رفع الدعاوى لمنع حدوث الأضرار البيئية طبقا لنص م/١٨ من اتفاقية (لوجانو) المبرمة في ٢١ حزيران ١٩٩٣، وتكون الدعوى مقبولة في حالة غياب متضرر محدد بعينه، وان ترفع خلال مدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخ العلم بوجود الضرر، ولا تقبل هذه الدعوى تحت اي ظرف بعد مضي ثلاثين عاما من تاريخ وقوع الفعل المنشئ للضرر^(١).

بيد أن الملاحظ ان حق هذه الجمعيات- طبقا لاحكام هذه الاتفاقية- مقتصر على الطلبات الوقائية فقط، وذلك يعني ليس لها حق المطالبة بالتعويض عن الاضرار البيئية، وإنما طلباتها تكون مقتصرة على منع حدوث الضرر او ايقاف تفاقمه عند حدوثه، وبامكان الدول الاعضاء المنظمة لهذه الاتفاقية ان تنظم في تشريعاتها الداخلية تحديد الحالات التي تكون فيها الدعوى المرفوعة من هذه الجمعيات والمؤسسات مقبولة وعدم تضييق مجالها^(٢).

وبصدور القانون رقم ٩٥ لعام ١٩٩٥ ولائحته التنفيذية في فرنسا، الذي مُنح بموجبه الحق للجمعيات المعنية بحماية البيئة المطالبة بالتعويض العيني والنقدي عن الاضرار البيئية، بالإضافة الى الحق في المطالبة بإتخاذ الإجراءات الوقائية لحماية البيئة، ولكن بعد توفر الشروط اللازمة لقبول الدعاوى المرفوعة من الجمعيات المعنية بحماية البيئة وهي:

- ١- أن يكون قد مضى على إنشاء الجمعية ثلاث سنوات على الأقل.
- ٢- أن تكون وظائف هذه الجمعيات متفقة مع نظامها الاساسي.
- ٣- أن يكون نشاط هذه الجمعيات متعلقا بالبيئة^(٣).

المبحث الخامس

الحماية القانونية للبيئة في القانون المالي

وتمثلت الحماية القانونية للبيئة من التلوث في نطاق القانون المالي ابتداءً من إقرار اتفاقية كيوتو^(٤) بالنص على خفض انبعاثات غاز ثاني اكسيد الكربون وغازات الاحتباس الحراري، حيث تم الاتفاق الدولي على ذلك إلا أنه ترك الباب مفتوحاً للدول في اتخاذ التدابير القانونية للحد من مشكلة التلوث البيئي. ومن هذه التدابير والأدوات التي ينبغي استخدامها لتحقيق هذا الغرض هو

١- انظر: م/١٧ من اتفاقية (لوجانو) لعام ١٩٩٣، منشورة على شبكة الانترنت على الموقع:
<http://www.unifr.ch/spc/UF/93%20octobre/albanesc.html>

٢- انظر: م/ ٢٠ من اتفاقية (لوجانو) عام ١٩٩٣، مرجع سابق.

٣- للمزيد انظر: سمير حامد الجمال، مرجع سابق، ص ١٢٩.

٤- عقدت اتفاقية كيوتو في ١١ شباط ١٩٩٧ في مدينة كيوتو اليابانية.

الجباية البيئية والمتمثلة بالرسوم البيئية من جهة والضرائب البيئية من جهة اخرى، ولا ننسى دور الحوافز الضريبية من جهة ثالثة كأداة فعالة لا يكاد يخلو منها نظام مالي، سواءً ما يتعلق منها بالاعفاءات الضريبية التي قد ترد في القوانين الضريبية بصورة عامة أو قد ترد في القوانين الاخرى ذات العلاقة بالحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث بالإضافة الى تخفيض الضريبة أو استردادها أو حسم النفقات البيئية ضمن التكاليف واجبة الحسم، وأن ما ينطبق على الإعفاءات من ورودها في القوانين الضريبية أو غيرها من القوانين الأخرى، ينطبق على الحوافز الضريبية الاخرى الأنفة الذكر من تخفيض واسترداد وحسم النفقات البيئية.

كما واتجهت العديد من الدول إلى تقديم المعونات الاقتصادية المالية للمشاريع الملوثة للبيئة لحثها على خفض حجم التلوث لديها.

في حين نجد أن دولاً اخرى كالولايات المتحدة الامريكية اتجهت الى نظام بيع تراخيص التلوث.

وبالنسبة الى الضرائب البيئية او ما يطلق عليها في بعض الدول Green Taxes تعد الاكفاً في تخفيض التلوث والحفاظ على البيئة وحمايتها، وهو ما تؤكد عليه في ذات الوقت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD واتجهت لتطبيقها اغلب دول الاتحاد الاوروبي.

وأول من طبق هذه الضرائب هي الدول الاسكندنافية وبريطانيا وفرنسا والمانيا وسويسرا... الخ. والتي لا يكاد يخلو منها اي نظام مالي بالنسبة للدول المتقدمة. حيث تنوعت الضرائب البيئية لتتخذ عدة أشكال كضرائب التلوث وضرائب الكربون وضرائب الضوضاء وغيرها، حيث خطت خطوات متقدمة في هذا الاتجاه.

وتُخصَّصُ عائدات الضرائب البيئية لغرض معالجة حالات التلوث، وبنفس الوقت لتعويض ضحايا التلوث.

وبالفعل فقد أثبتت النتائج العملية نجاح الدول المتقدمة التي طبقت الضرائب البيئية ومن خلال الدراسات والاحصائيات أنها الأكفاً والاسرع كونها تمثل حلاً عملياً سريعاً وفعالاً، ولكنها ليست الحل السحري على اية حال، بل يبقى للحوافز الضريبية التي تؤازرها التطبيق دورها الفعال والكبير والتي لا غنى عنها على الإطلاق والهادفة إلى تشجيع الأنشطة الصديقة للبيئة.

وقد اتجه العديد من الدول النامية الى تطبيق الضرائب البيئية والحوافز الضريبية البيئية بالإضافة إلى الرسوم البيئية، ولا سيما اتجاه عدد من الدول العربية مثل الجزائر وسوريا

والامارات العربية المتحدة وتونس والمغرب^(١)... وغيرها، في محاولة جادة وحقيقية من المشرع العربي لمواكبة التوجه العالمي ولتنفيذ الالتزامات التي تقع على عاتق الدولة تجاه المواطن من جهة، والالتزامات الدولية أمام المجتمع الدولي من جهة أخرى.

وفي لبنان اتجه المشرع من خلال احكام المواد ٢٠ و ٢١ من قانون حماية البيئة اللبناني رقم ٤٤٤ لعام ٢٠٠٢ نحو سياسة التحفيز الضريبي البيئي عندما نص على الاعفاءات بنسبة ٥٠٪ للمشاريع الصديقة للبيئة وهي المادة الوحيدة التي تناولت هذا الجانب.

اما في العراق فقد خلت التشريعات العراقية من أي تشريع يتضمن الرسوم والضرائب البيئية.

الخاتمة

وردت الحماية القانونية للبيئة من التلوث في التشريع الداخلي بعد مرحلة طويلة من المطالبة الدولية والإقليمية وحتى المحلية بضرورة المحافظة على البيئة وحمايتها، حيث تبلورت هذه الدعوات بالمؤتمرات والندوات والتي ما لبثت أن تطورت في مرحلة لاحقة الى اتفاقيات دولية وإقليمية وثنائية للمحافظة على البيئة من التلوث، ثم انتقلت في نهاية المطاف لتترجم الى تشريع داخلي، لتتباين الدول بين من توسعت في إصدار القوانين لحماية البيئة بكل عناصرها، وبين من ضيّقت منها واقتصرت على مجالات محددة.

لذا يمكننا القول أن الحماية القانونية للبيئة في التشريع الداخلي وردت في مرحلة متأخرة، حيث سبقتها في وضع الأطر القانونية لحمايتها على النطاق الدولي أولاً ثم النطاق الداخلي ثانياً، وذلك بعدما تفاقم التلوث البيئي بكافة عناصره (التلوث المائي والتلوث الهوائي والتلوث الارضي)، واضحى من مشاكل العصر الأزلية التي لا يخلو منها مجتمع، لتمتد خطورته إلى كل الدول، فما يتميز به هو انتقاله عبر الدول دون الحاجة الى جواز سفر، وهذه هي الميزة التي دقت ناقوس الخطر لتندثر بكوارج يصعب تجاهلها وإهمالها.

وكانت مفترق الطريق لتضع السياسات العالمية والوطنية أمام امتحانٍ صعب ما بين الاستمرار في تحقيق التنمية من جهة وتحقيق الاهداف البيئية من جهة أخرى، لتحافظ على البيئة من التلوث ولتحول دون انتقالها الى الدول المجاورة، والتي ستتحمل آنذاك المسؤولية القانونية تجاه ما يصدر عنها من أفعال ملوثة للبيئة المحلية أمام مواطنيها على الصعيد الداخلي

١- للمزيد انظر: قيس حسن عواد البدراني، التشريع المالي وحماية البيئة، منشور في مجلة الرافدين الصادرة عن كلية الحقوق في جامعة الموصل، المجلد ١٢، العدد ٤٥، ايلول، العراق، ٢٠١٠، ص ١١٩.

وأمام الدول الأخرى على صعيد القانون الدولي العام.

غير أنه يلاحظ على الدول العربية الفجوة الكبيرة بين الواقع والتطبيق القانوني، فالعبرة ليست بما يصدر من تشريعات سواء كانت دستورية... الخ، وإنما العبرة بكيفية تفعيل دور هذه التشريعات ومدى احترامها والتقيد بما جاء في مضمونها، فتشريعاتنا العربية والحمد لله كثيرة ولا تحصى، ولكن بنفس الوقت هناك كثيرون هم أيضاً يخالفونها، ففي مصر مثلاً (وكما قيل بحق) بلد التشريعات وبلد مخالفة التشريعات أيضاً. فالملاحظ عدم الدقة في التطبيق وضعف الرقابة بل غيابها في أغلب الدول العربية، مما يجعل هذه القوانين وكأنها شرعت لتوضع على الرفوف فقط، وبالتالي غياب الحماية القانونية الحقيقية والجادة للبيئة من التلوث، فلا تكفي الرغبة في تشريع القوانين بل لابد أن تتوفر الرغبة والجدية في التطبيق لغرض تحقيق الأهداف المرجوة من تشريع القوانين ذات العلاقة بالحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث.

د. زكريا إبراهيم السنوار

أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
الجامعة الإسلامية - غزة

أ. ربا جمال الزهار

باحثة في التاريخ الحديث والمعاصر

الصناعة الصهيونية في فلسطين (١٩١٨-١٩٤٨م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

اهتمت الحركة الصهيونية منذ إنشائها باستلاب فلسطين، وتهويد الأرض، وطرد الإنسان، وتهويد الثقافة، والاقتصاد، ورأت أن التهويد يجب أن يكون بشكل شمولي متكامل؛ لذا سعى الصهاينة إلى امتلاك اقتصاد قوي؛ لأنه أحد أركان الدولة، التي لا بد للمشروع الصهيوني من إنجازها.

إن المفهوم الشامل للمشروع الاقتصادي، جعل الصهاينة يهتمون بالزراعة، والصناعة، والتجارة، وقطاع الخدمات، على حدٍ سواء، وقد تأثرت الصناعة بعوامل عدة، منها ما هو صهيوني داخلي، ومنها ما هو دولي خارجي، وقد وظف الصهاينة تلك العوامل؛ لإنجاح الصناعة، وامتلاكها في فلسطين، جزءاً من أجزاء الإحلال الصهيوني محلّ العربي.

تطورت الصناعة الصهيونية في فلسطين، متأثرة بالتطورات السياسية والأمنية والعسكرية في فلسطين، وخارجها، واستغلت أي حدث لخدمة المشروع.

يكثُر الحديث عن الأوضاع السياسية في فلسطين ما بين ١٩١٨-١٩٤٨م، والحديث عن الأوضاع الاقتصادية أقل بكثير، ومع ذلك فإنه حديث عام، لا يفصل بين المقدرات والإمكانات العربية والصهيونية؛ الأمر الذي دفع إلى إعداد هذه الدراسة لبيان درجة التغلغل الصهيوني في الصناعة في فلسطين خلال فترة الاحتلال البريطاني، ما بين عامي ١٩١٨-١٩٤٨م.

Preface:

The Zionist movement, since its establishment, Focused on looting Palestine and Judaize the land, culture and economy as well, also expel out the people of Palestine. The Zionist movement saw that Judaization must be in integrated and holistic manner, So they looked up to have a powerful economy because it is one of the pillars of the Zionist country that has to be accomplished.

The comprehensive concept of the economic project, made Zionists care about agriculture, industry, trading and services sector alike. Industry has been affected by several factors Including the internal Zionist factor and the external international factor. The Zionists used these factors for the success of the industry and make it as a part of the Zionist replacement instead of the Arab one.

The Zionist industry has developed in Palestine and Influenced by political, secure and military factors in and out of Palestine and it exploited any event to serve the project.

There is much talk about the political situation in Palestine between the years 1918-1948- but about the economic situation is less but in general, does not separate between the Zionist and the Arabic estimates and possibilities. The thing that led to make this study to indicate the degree of the Zionist penetration in the Industry of Palestine during the British occupation between the years 1918 - 1948.

أولاً : أبرز مقومات الصناعة الصهيونية في فلسطين :

شهدت فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) ، نهضة صناعية كبيرة، حققت معدل نمو أعلى من مثيله في البلدان المجاورة، وظهر ذلك في زيادة عدد المؤسسات الصناعية، وارتضاع الرأسمال المستثمر، ودخول التقنية الآلية بشكل واسع، و بروز فروع صناعية جديدة، إضافة إلى مساهمة المؤسسات الصهيونية، بشكل لافت للنظر، وإسهامها في خدمة المشروع الصهيوني في فلسطين^(١). وكان لذلك التقدم الصناعي، عددٌ من المقومات التي أسهمت في توسعه وتطوره، منها :

١- طرين، أحمد : فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، ص ١١٠٧.

(١) المواد الخام :

تكاد تخلو فلسطين من المواد الخام الضرورية للصناعة، كالخجم، والحديد، وغيرها من المعادن اللازمة للصناعات، باستثناء بعض الأملاح المعدنية المتوفرة في مياه البحر الميت؛ لذلك كانت الصناعات الصهيونية في البداية صناعات تحويلية، اعتمدت على المحصولات الزراعية بشكل أساس^(١). ومع بداية الانتداب البريطاني على فلسطين حصل الصهاينة على امتياز باستخدام مياه نهر الأردن مصدراً للطاقة الهيدروكهربائية الرخيصة؛ الأمر الذي وفرّ لصناعاتهم ما تحتاج إليه من الكهرباء، كما حصلوا على امتياز آخر سمح لهم باستغلال الأملاح المعدنية من البحر الميت، من بوتاس وبروم، وغير ذلك، والتي أقيمت عليها صناعة الأسمدة، والمواد الكيماوية^(٢)؛ الأمر الذي أسهم في تزايد الإنتاج، حتى أصبح يوفر نصف صادرات فلسطين الصناعية عام ١٩٣٨م، وبسبب قلة الموارد الطبيعية؛ اعتمدت الصناعات الصهيونية على المواد الخام المستوردة^(٣).

(٢) الأيدي العاملة :

امتازت الصناعة الصهيونية بتدفق مستمر للعمالة الصهيونية ذات الخبرة من خلال موجات الهجرة الصهيونية، وكان السواد الأعظم من المستوطنين يعملون بالصناعة في البلدان التي جاءوا منها، وخصوصاً الذين قدموا من ألمانيا، حيث حُظر عليهم الخروج بأموالهم؛ فاستبدلوها بالآلات، ومعدات صناعية حملوها معهم إلى فلسطين، وأنشأوا بها مصانع، قصروا العمل فيها على العمال الصهاينة فقط^(٤). ومن أبرز الصناعات التي أنشأها الوافدون من ألمانيا: صناعة الجوارب، والحقائب الجلدية، والأسنان الصناعية، كما ضمت الموجة التي بدأت عام ١٩٣٢م، مجموعة من ذوي المواهب الفائقة في العلوم، والمهن الحرة، كما وصل إلى فلسطين عدد من العلماء والأطباء، والمحامين^(٥).

(٣) رأس المال :

اعتمدت الصناعة الصهيونية على تدفق رأس المال الأجنبي إلى فلسطين، مما سمح لها بالتقدم خلال وقت قصير بما تسمح به إمكانيات فلسطين الاقتصادية، فبين عامي ١٩٢٢-١٩٣٩م، تدفق مبلغ ١٢٦ مليون جنيه فلسطيني على الحركة الصهيونية في فلسطين، إلا أن

١- الجندي، إبراهيم : سياسة الانتداب البريطاني، ص ١٤٧.

٢- الجندي، إبراهيم : الصناعة في فلسطين، ص ١٣٠.

٣- بونيه : أرض إسرائيل (عبري)، ص ١٧١.

٤- الجندي، إبراهيم : الصناعة في فلسطين، ص ١٣٠-١٣١.

٥- أبو النمل، حسين : الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٢٩٠؛ ياسين، السيد : الاستعمار الاستيطاني، ج ١، ص ٢٢٧.

الصناعة الصهيونية نالت جزءاً ضئيلاً لم يتجاوز ١١٪ من رأس المال الداخل^(١)، وبينما اتجهت الاستثمارات إلى قطاع البناء، والإسكان، تطورت الصناعة الصهيونية من خلال تمويل الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية، وبازدياد عدد المستهلكين، وتوسع حجم السوق الصهيونية، والحاجة إلى السكن، نما النشاط الصناعي الصهيوني^(٢).

لا يمكن إغفال دور المؤسسات الصهيونية، في توفير التمويل اللازم للصناعة الصهيونية، فقد قام (الكيرن هايسود) بتأمين المال اللازم، وتوفير الضمانات للقروض التي قدمتها مؤسسات التمويل الأخرى كالبنك الأنجلو فلسطيني للصناعة الصهيونية؛ الأمر الذي انعكس على تطوير الصناعة الصهيونية، لا سيما خلال فترة الحرب العالمية الثانية، كما أسهمت الوكالة اليهودية بما نسبته ٤٠٪ من التمويل الصهيوني الصناعي^(٣).

وارتفع رأس المال المستثمر في الصناعة الصهيونية من ٦٠٠،٠٠٠ جنيه فلسطيني عام ١٩٢١ م^(٤)، إلى ٥،٣٧١،١٣٦ جنيه فلسطينياً عام ١٩٢٣ م^(٥).

٤) الأسواق الداخلية والخارجية :

كانت فلسطين - بعدد سكانها البالغ ٧٥٠ ألف نسمة عام ١٩٢٢ م - تمثل سوقاً محلية محدودة، كما أن السوق المحلية للصناعة الصهيونية كانت أصغر من ذلك بكثير؛ لاقتصارها على المستوطنين الصهاينة، وفي عام ١٩٢٥ م لم يشتري المواطنون العرب الذين كانوا يمثلون (٧٠٪) من السكان سوى ١٠٪ من الإنتاج الصناعي الصهيوني^(٦)، ونتيجة لذلك التفت الصهاينة إلى الأسواق العالمية، لتسويق منتجاتهم بها، وقد ساعدتهم حكومة الانتداب للوصول إلى تلك الأسواق، بعقدها الاتفاقيات التجارية مع الخارج باسم فلسطين، ومن الأمثلة على ذلك : الاتفاقية التي عقدها حكومة الانتداب مع سوريا عام ١٩٢٩ م، والتي حددت بموجبه البضائع المصدرة لسوريا، وكانت جميعها من إنتاج المصانع الصهيونية في فلسطين^(٧).

٥) الخبرة الصناعية :

كانت الغالبية العظمى من الوافدين الصهاينة إلى فلسطين، من ذوي المهارات الصناعية، خاصة الذين وفدوا في الموجة الخامسة ما بين (١٩٢٣-١٩٢٨ م)، إلى جانب وجود طبقة عمال

١- ميركورد، كين : الصناعة اليهودية واعتمادها على رأس المال الأجنبي، ص ١٠٧.

٢- ياسين، السيد : الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، ج ١، ص ٢٣٩.

٣- بسيسو، فؤاد : الاقتصاد العربي في فلسطين، ص ٦٨٠.

٤- بيلين، يوسي : جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٢٨.

٥- حمادة، سعيد : النظام الاقتصادي، ص ٣٠٩.

٦- ميركورد، كين : الصناعة اليهودية واعتمادها على رأس المال الأجنبي، ص ١٠٥.

٧- الجندي، إبراهيم : سياسة الانتداب البريطاني، ص ١٤٩-١٥٠.

مهنية مدربة بشكل جيد على الصناعة؛ مما أسهم في تقدم الصناعة^(١). كما انتشرت المدارس الصناعية التي قدمت التدريب المهني للصهاينة في فلسطين، ومنها مدرسة ماكس باين (Meax Bean) في تل أبيب، التي ركزت على أعمال ميكانيكا السيارات، والسباكة، وصناعة الأقفال، والنجارة، والمدرسة البحرية في حيفا، التي قدمت دورات في صناعة السفن^(٢). كذلك أتاح معهد التخنيون^(٣) الفرصة اللازمة للطلاب للتدريب العملي من خلال أربعة عشر معملًا^(٤).

٦) المواصلات:

ساعد تواجد أرض فلسطين بين ثلاث قارات (آسيا، وأفريقيا، وأوروبا) في أن تكون مركزاً تجارياً عالمياً، ولذلك كان على الذين يضعون الخطط الاقتصادية، حل مشكلة المواصلات، التي تشكل شرطاً أساسياً للتطور الصناعي والتجاري في فلسطين؛ لأن المواصلات تفتح الأسواق الخارجية للصناعات^(٥).

كما أسهمت طرق المواصلات الداخلية في تنشيط الحركة الصناعية، و التجارية، حيث كانت الحكومة العثمانية قد عملت على تحسين شبكة الطرق البرية في فلسطين؛ لمقتضيات نقل الجيش والعتاد، في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م). وما أن تسلم الاحتلال البريطاني الحكم في فلسطين عام ١٩١٨ م، حتى بدأ في إصلاح طرق المواصلات القديمة التي خربتها الحرب، وشق طرقاً جديدة لخدمة جيوشه، و الصهاينة في فلسطين^(٦).

٧) الحماية الجمركية:

لم تكن الصناعة الصهيونية في فلسطين قادرة على الاستمرار، والتطور، دون حمايتها من الرسوم الجمركية المرتفعة، التي وفرتها لها حكومة الاحتلال البريطاني، فتم إعفاء الآلات، والمواد الخام اللازمة للصناعة الصهيونية من الرسوم الجمركية^(٧)، فلحماية إنتاج شركة مطاحن فلسطين الكبرى ألغت سلطات الانتداب الرسوم الجمركية على القمح المستورد، وفي الوقت نفسه زادت سلطات الانتداب الضريبة على الدقيق الوارد من الخارج^(٨)، كما أصدرت

١- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٧٨.

2- Palestine, Inc: A study of Jewish, Vol. 2, P. 702.

٣- أول معهد تقني للصهاينة في فلسطين، أسس عام ١٩١٢ م، في حيفا بهدف رعاية الدراسات العلمية، والتكنولوجية لدى الصهاينة في فلسطين، وتطوير المستوطنات الصهيونية.

(Jewish Virtual Library: Technion, www.israel.org).

4- Mathew, Rodric and Akrawi, Matta: Education in Arab countries, P. 295.

٥- جرنر، أبراهام: في حقول البناء (عبري)، ص ٥٦.

٦- طرين، أحمد: فلسطين في عهد الانتداب، ص ١٢٥.

٧- البديري، هند: أراض فلسطين، ص ٣٦٠.

٨- للمزيد حول استيراد القمح انظر: مرسوم (تنظيم) استيراد الحبوب والزيوت، مجموعة قوانين فلسطين، ج ٢، ص ١٩٨٦.

حكومة الاحتلال البريطاني بتاريخ ١٥ آب (أغسطس) ١٩٢٤م، قانون الرسوم الجمركية، الذي أعفى مواد البناء المستوردة من الخارج كالحديد، والخشب، والقرميد، من الرسوم الجمركية. كما تم إعفاء جميع آلات، ومعدات مصنع (نيشر) للأسمنت من رسوم الاستيراد، كما أعفت لوازم الإنتاج مثل الفحم المستخدم في الأفران، والبراميل، والأكياس الورقية من الجمارك^(١). وبينما أعفت سلطات الانتداب شركة (عسيس) الصهيونية لحفظ الثمار والخضراوات من الرسوم الجمركية، فقد رفعت التعرفة الجمركية إلى ٢٥٪ من قيمة جميع أصناف الطعام الذي تصنعه الشركة محلياً^(٢). كما أعفت سلطات الانتداب الشركات الصهيونية لصناعات المربي، وعصير الفواكه ومشتقاته من دفع رسوم على السكر المستعمل في الصناعة، وعلى الفاكهة المستوردة^(٣)، بينما رفعت سلطات الانتداب رسوم الاستيراد على المربي لحماية الشركة الصهيونية^(٤).

٨) الطاقة الكهربائية :

اهتم واضعو الخطط الاقتصادية الصهيونية بدراسة المياه، وذلك لإنتاج الكهرباء، التي بدونها لا يمكن للصناعة أن تتقدم^(٥).

تم للصهاينة ما أرادوا، وتحقق سعيهم في عام ١٩٢١م، عندما منح (هربرت صموئيل) (بنحاس روتنبرغ) امتيازين، الأول امتياز العوجا بتاريخ ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١م، الذي سمح له بإنتاج الطاقة الكهربائية بواسطة القوة المائية في منطقة يافا، مدة ٣٦ عاماً، أما الامتياز الثاني فكان في منتصف الشهر ذاته (أيلول «سبتمبر» ١٩٢١م) وهو امتياز نهر الأردن، وروافده الذي سمح بإنتاج الطاقة الكهربائية مدة ٧٠ عاماً، وتوريدها للإنارة، والصناعة، والري، على أن يبدأ العمل بالمشروع في غضون عامين^(٦).

تمكن الصهاينة من الاستفادة من مشروع (روتنبرغ) لإنتاج الطاقة الكهربائية، سواء من خلال بناء مستوطنات جديدة على الأراضي الفلسطينية، بعد نزع ملكيتها من أصحابها الفلسطينيين مثل: مستوطنة نهاريم، أم من خلال بناء المصانع التي يتم تشغيلها بقوة الكهرباء؛ وذلك لاستيعاب الوافدين الصهاينة اقتصادياً، بينما حجب عن الفلسطينيين توليد الكهرباء للإنارة، والمقاصد الزراعية والصناعية^(٧). كما أدى إعفاء المواد والبضائع التي تستوردها شركة

١- قانون الرسوم الجمركية، مجموعة قوانين فلسطين، ج ١، ص ٦٢١، ٦٥٨.

٢- الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ٩٢؛ طربين، أحمد: فلسطين في عهد الانتداب، ص ١١٠٩-١١١٠.

٣- للمزيد حول نظام استيراد السكر انظر: نظام استيراد السكر، مجموعة قوانين فلسطين، ج ٣، ص ١٩٩٤.

٤- بيسسو، فؤاد: الاقتصاد العربي، ص ٦٨٥؛ طربين، أحمد: فلسطين في عهد الانتداب، ١١٠٩.

٥- جرير، أبراهام: في حقول البناء (عبري)، ص ٥٧.

٦- قانون امتيازات الكهرباء، مجموعة قوانين فلسطين، ج ١، ص ٧٠٨.

٧- جوتمن، يهوشع وآخرون: الموسوعة العبرية (أرض إسرائيل) (عبري)، ج ٦، ص ٩٢٠-٩٢٣.

الكهرباء الفلسطينية، وإعفاؤها من دفع ضرائب على أرباحها لمدة طويلة، إلى تدعيم وتوسيع الصناعة الصهيونية^(١). وبذلك أصبحت الكهرباء أساس تطور الاقتصاد الصهيوني في فلسطين، من خلال توفيرها لمتطلبات الطاقة، التي سمحت بالتطورات المتسارعة في مناحي الحياة.

ثانياً: تطور الصناعة الصهيونية في فلسطين (١٩١٨-١٩٤٨ م) :

تطورت الصناعة الصهيونية في فلسطين، -بعد الحرب العالمية الأولى، ووقوعها تحت الاحتلال البريطاني- تطوراً ملموساً، وكان ذلك تمثيلاً مع سياسة الاحتلال التي عملت على تشجيع الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، فقد كان المستوطنون مزودين بالخبرة الصناعية التي اكتسبوها من البلدان التي قدموا منها، وحملوا معهم إلى فلسطين -إضافة لخبرتهم- رأس المال اللازم لإقامة الصناعة نقداً، وعيناً.

١) الصناعة الصهيونية في فلسطين ما بين عامي (١٩١٨-١٩٣٦ م) :

لعبت السنوات العشر الأولى التي تلت الحرب العالمية الأولى، الدور الأهم والأبرز في تاريخ الصناعة، بل الاقتصاد الصهيوني في فلسطين، فعلى الرغم من النقص في التمويل، والدعم الرسمي، والحكومي للصناعة الصهيونية في فلسطين، إلا أنها تطورت بشكل كفي، وليس كمي^(٢). تغير وضع الصناعة الصهيونية، مع وصول موجة الهجرة الثالثة (١٩١٩-١٩٢٣ م) من أبناء الطبقة الوسطى من شرق أوروبا، فانتقلت من صناعة بسيطة إلى صناعة بالمقاييس الحديثة^(٣)، فتم استيراد الآلات، كما تم البدء باستخدام مولدات كهربائية -تعمل على النفط- في تشغيل عدد من المصانع، وتم تشغيل محطة لتوليد الكهرباء في تل أبيب أشرف عليها بنحاس روتبرغ عام ١٩٢٣ م^(٤)، وأسس اتحاد أصحاب الصناعات الصهيونية في يافا^(٥)، وارتفع عدد المصانع الصهيونية في فلسطين حتى بلغ عام ١٩٢١ م -حسب الإحصائيات الصهيونية- ١٨٥٠ مصنعاً (جميعها خاصة)، وقد شغلت ٤٧٥٠ عاملاً^(٦)، وعلى اعتبار أن عدد المصانع بلغ ١٨٥٠ مصنعاً،

١- الهندي، سحر: التأسيس البريطاني، ص ٢٥٨؛ النحال، محمد: سياسة الانتداب البريطاني، ص ٨٨.

٢- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٣٦؛ Ben Porat, Amir: Between class and nation, P. 55.

٣- لدور، يسحاق: استيطاننا في البلاد شكله وتاريخه ١٨٧٠-١٩٥٢ (عبري)، ص ٨٥؛ الشريف، ماهر: تاريخ فلسطين، ص ١٣٦.

٤- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٣٦؛ الجندي، إبراهيم: سياسة الانتداب، ص ١٢٥.

٥- أسس في يافا عام ١٩٢١ م، لخلق نقابة للعاملين في مجال الصناعة، وفي عام ١٩٢٢ م، أعلن ذلك الاتحاد عن نفسه كاتحاد إقليمي لأصحاب الصناعات في فلسطين، ووافق المؤتمر الصهيوني الثالث عشر في أغسطس (آب) ١٩٢٣ م، وافق على المساهمة بمبلغ ١٠٠.٠٠٠ جنيه مصري، بشرط أن يقدم أصحاب الصناعات في فلسطين مبلغاً موازياً من أجل إنشاء البنك، لكن البنك أقيم بمساعدة صهيانية أمريكية. (دروري، بجائيل: بداية المنظمات الاقتصادية في أرض إسرائيل (عبري) ص ١٠٠-١٠٥).

٦- زمين، يهشوع: من حب صهيون إلى أرض إسرائيل (عبري)، ص ٦٠؛ لدور، يسحاق: استيطاننا في البلاد شكله وتاريخه (عبري)، ص ٨٦؛ أهروني، يثير: الاقتصاد والسياسة (عبري)، ص ١٦٢؛ بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)،

ص ٢٨؛ Ben Porat, Amir: Between class and nation, P. 55.

شغلت ٤٧٥٠ عاملاً، يكون متوسط عدد العاملين في المصنع الواحد ٥٦، ٢ عاملاً، وهو ما يتناسب مع المنشأة الصناعية في ذلك الوقت. وبالنظر للمال المستخدم، ولقيمة الإنتاج، يتضح أن من الطبيعي جداً لأي منشأة في عامها الأول ألا تجني أرباحاً، وإن كان هناك ربح فهو قليل.

ارتفع حجم رأس المال المستثمر في الصناعة الصهيونية عام ١٩٢٣ م، إلى ٩٦٦،٥٤٨ جنيه فلسطيني^(١). ومن أوائل المصانع الصهيونية التي أقيمت خلال تلك الفترة: المطاحن الكبرى في حيفا، ومصنع إنتاج الملح بعنتليت (Atlit)، ومصنع إنتاج الفوسفات في البحر الميت، ومصنع (شيمن) لصناعة الزيوت في حيفا، ومصنع (سلكيت) لحجارة البناء في تل أبيب، ومصنع (محتسبوت عتليت) لحجارة البناء، ومصنع (نيشر) للأسمت في حيفا^(٢).

ويتضح مما سبق أن الصهاينة ركزوا في تلك الفترة على صناعة الأسمت، ومواد البناء، والأثاث، وذلك تلبية لحاجة المستوطنين الجدد، الذين كانوا بحاجة لكل شيء تقريباً.

وكانت حيفا المركز الصناعي الأول؛ بسبب وجود الميناء فيها، مع تقاطع السكك الحديدية عندها، فمنذ عام ١٩٢٨ م، تركز فيها ٩٪ من المشروعات الصناعية في فلسطين، و١٦٪ من مجموع العاملين في مجال الصناعة، واستثمر فيها ما يعادل ٢٥٪ من إجمالي الأموال المستثمرة في قطاع الصناعة الصهيونية في فلسطين^(٣)، حيث تركز وافدو الموجة الرابعة (١٩٢٤-١٩٣١ م) من أبناء الطبقة الوسطى في المدن الرئيسية: تل أبيب، ويافا، والقدس، وحيفا، وقد استثمر الصهاينة أموالهم في مجالات الصناعة، والتجارة، حيث أسست نواة الصناعة الصهيونية فأقيمت مصانع حديثة، مثل: مصنع (عسيس) للمعلبات، ومصنع السجائر في حيفا، و(لودجيا) للنسيج، ومشروع الكهرباء في طبريا، كما تم تشغيل المصانع التي أسست فترة الهجرة الثالثة مثل: مصنع (شيمن) للزيوت، و(نيشر) للأسمت^(٤).

احتلت مدينة تل أبيب المركز الصناعي الأبرز، فكان تنوع الصناعات فيها كان الأعلى بين كل المدن، والمراكز الصناعية الصهيونية في فلسطين، حيث اشتملت عام ١٩١٨ م على ١٢ منشأة صناعية^(٥)، وخلال عام ١٩٢٤ م، أقيم فيها لوحدها ٦١ ورشة مهنية، عمل فيها حوالي ٨٥٠ عاملاً،

١- أورد محمد عبد الرؤوف سليم أن عدد المصانع الصهيونية بلغ عام ١٩٢٣ م (٢٧٦) مصنعاً، وفي رواية أخرى (٢٩٢) مصنعاً، استوعبت ٢٢٣١ عاملاً، وبلغ حجم رأس المال المستثمر فيها ٩٦٦،٥٤٨ جنيه فلسطيني، وتساءل الباحثة هنا هل كان بإمكان المنشآت الصناعية في عام ١٩٢٣ م أن تستوعب المنشأة الواحدة ما يقرب من ثمانية عمال لو افترضنا أن عدد المصانع ٢٧٦ مصنعاً، وكذلك ٧، ٦ عامل لو افترضنا أن عددها ٢٩٢ مصنعاً. (سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٢٩؛ الصناعة اليهودية في فلسطين، ص ٨٤).

٢- لدور، يسحاق: استيطاننا في البلاد شكله وتاريخه (عبري)، ص ٨٥؛ بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٢٨.

٣- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٢٨؛ بقير، جدعون: البنية الصناعية (عبري)، ص ٨٢.

٤- لدور، يسحاق: استيطاننا في البلاد شكله وتاريخه (عبري)، ص ٨٥؛ ناؤور، مردخاي، جلعادي، دان: أرض إسرائيل في القرن

العشرين (عبري)، ص ١٦٠.

٥- الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ١٣.

وفي عام ١٩٢٦م بلغ عدد الورش ١٧٠ ورشة، عمل فيها ١٧٨٠ عاملاً، مع العلم أن حوالي ٣٨٪ من مصانع تل أبيب كانت تستوعب في المتوسط ما بين (٤-٥) عمال، و ٦٠٪ استوعبت عشرة عمال، و ٢٪ كانت تستوعب في المتوسط ٨٠ عاملاً فأكثر^(١).

كما أدى تنوع إنتاج مدينة يافا، إلى جعلها أحد أكبر وأهم المدن الصناعية عند الصهاينة في فلسطين، حيث أنتجت عام ١٩٢٨م، حوالي ٢٢٪ من مجموع المنتجات الصناعية الصهيونية في فلسطين، وتركز فيها حوالي ٣٠٪ من إجمالي الأموال الصهيونية المستثمرة في المجال الصناعي في فلسطين^(٢)، كما شكلت مدينة القدس أحد المراكز الأولى للصناعة الصهيونية في فلسطين، حيث أنتجت معظم الصناعات المهنية، والحرفية تقريباً، ما عدا الصناعات الكيماوية^(٣).

عمل في الصناعة الصهيونية عام ١٩٢٥م، حوالي ثلث جمهور العمال الصهاينة في المدن، وكانت فروعها الرئيسية تشمل صناعة المواد الغذائية، ومواد البناء، وصناعة النسيج، والطباعة، وصناعة الجلود. فقد استوعبت معظم المصانع ما بين (١٠-١٥) عاملاً في المصنع؛ وذلك لنقص الطلب في الأسواق الداخلية المحلية، ولنقص الاستثمارات^(٤)، حيث بدأت تظهر بوادر أزمة اقتصادية ازدادت حدتها عام ١٩٢٦م، وعلى الرغم من أن الصناعة الأكثر تضرراً كانت صناعة مواد البناء، إلا أن الصناعات الأخرى تضررت، أيضاً حيث أغلق حوالي ١٠١ مصنعاً، معظمها تم تأسيسه في عامي (١٩٢٤-١٩٢٥م)، منها سبعة مصانع للنسيج، كما تم إغلاق ٤ مصانع لصناعة خيوط الخياطة كانت قد أنشئت عام ١٩٢٤م، واستثمر كل واحد منها حوالي ٢،٠٠٠ جنيه مصري، وفي مجال صناعة الملابس تم إغلاق، وإفلاس ٢٧ مصنعاً، استثمرت فيها أموال بقيمة ٢٢،٣١٨ جنيهاً مصرياً^(٥).

وفي فرع صناعة الجلود أغلق ١١ مصنعاً، استثمر فيها مبلغ ٣،٧٦٥ جنيهاً مصرياً، وفي مجال صناعة الأخشاب أغلق ٢٣ مصنعاً، استثمر فيها مبلغ ٢،٢٦٠ جنيهاً مصرياً، وفي فرع الطباعة وصناعة الورق تم إغلاق ٥ مصانع، وفي مجال صناعة الأغذية والأطعمة تم إغلاق ٢٠ مصنعاً، استثمر فيها مبلغ ٣٩ ألف جنيه مصري، كذلك تم إغلاق ثلاثة مصانع لصنع السجائر^(١).

بلغ عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٢٧م، حوالي ٨٠٠٠ شخص، منهم ٧٠٠٠ في المدن،

١- كرشنايوم، شمشون : تاريخ إسرائيل (عبري)، ص ١٢٢.

٢- بقير، جدعون : البنية الصناعية لمدن أرض إسرائيل (عبري)، ص ٩٢.

٣- بقير، جدعون : البنية الصناعية لمدن أرض إسرائيل (عبري)، ص ٨٧-٨٨.

٤- ناؤور، مردخاي، جلعادي، دان : أرض إسرائيل في القرن العشرين (عبري)، ص ١٦٠.

٥- بيلين، يوسي : جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٥٠-٥١.

٦- بيلين، يوسي : جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٥١-٥٢.

وحوالي ١٠٠٠ في المستوطنات، وهو ما شكل حوالي ٣٥٪ من نسبة القوى العاملة الصهيونية^(١). عظمت الأزمة الاقتصادية في مدينة تل أبيب؛ لاعتمادها على صناعة مواد البناء التي كانت أكثر الصناعات تضرراً، وكانت الأزمة في حيفا أقل؛ لوجود مشروعات صناعية أخرى لا تعتمد على فرع البناء، حيث كان هناك مصنع (شيمن) للزيوت، والمطاحن الكبرى لإنتاج الدقيق، ومحطة الكهرباء، وقد وفرت تلك المشروعات فرص عمل ثابتة للعمال^(٢)، وقد تضرر مصنع (نيشر) بسبب تراجع الطلب على الأسمت، فطلبت إدارة المصنع من حكومة الاحتلال البريطاني فرض ضريبة على الأسمت المستورد من الخارج، وفرضت حكومة الاحتلال في عام ١٩٢٧م، ٦٠ قرشاً على كل طن أسمت مستورد؛ مما دعم مصنع نيشر، وأصبح إنتاجه يقدر بحوالي ٧٢٪ من إجمالي احتياجات فلسطين عام ١٩٢٧م، و٨٨٪ من احتياجاتها عام ١٩٢٨م^(٣)؛ الأمر الذي يفسر ارتفاع متوسط حجم الاستثمار في حيفا عام ١٩٢٧م، مقارنة بالمدن الأخرى، حيث بلغ ٢،٨٢٧،٠٠٠ جنيه، بينما في تل أبيب ٢،٤٨٣،٠٠٠ جنيه، وفي يافا ١،٦٩٢،٠٠٠، وفي القدس ٤٥١،٠٠٠ جنيه^(٤).

الصناعة الصهيونية بعد انتهاء الأزمة الاقتصادية :

لم تستمر الأزمة الاقتصادية في فلسطين طويلاً فخلال عام ١٩٢٧م، بدأت الأزمة بالانفراج حيث قامت حكومة الاحتلال البريطاني بدعم قطاع الخدمات العامة، والاستثمار فيها، كما رافق ذلك حدثان مهمان منحنا الاقتصاد الصهيوني الفرصة للنهوض من جديد، أولهما : كان إصدار العملة المحلية (الجنيه الفلسطيني) بدلاً من الجنيه المصري، وبدء التعامل به، وثانيهما : تقديم القروض للصهاينة من البنوك البريطانية الموجودة في فلسطين^(٥)، كذلك تم إنشاء عدد من المصانع الجديدة، وزادت نسبة التصدير الصناعي للدول المجاورة من أسمت، وملبوسات، وغذاء؛ مما ساعد على إنعاش الاقتصاد الصهيوني من جديد^(٦).

وفي تقرير اتحاد أصحاب الصناعات الصادر في نيسان (أبريل) عام ١٩٢٨م ورد ما يلي:

(١) زاد عدد العمال في مجال الصناعة عام ١٩٢٧م، حوالي ١،٥٠٠ عامل.

(٢) بلغ إجمالي إنتاج الصناعة الصهيونية في فلسطين عام ١٩٢٧م، حوالي ١،٢٥٠،٠٠٠ جنيه فلسطيني، مقابل ٥٧٠،٠٠٠ جنيه عام ١٩٢٦م.

(٣) صُدّرت خلال عام ١٩٢٧م، بضائع بمبلغ ٢٠٠،٠٠٠ جنيه فلسطين، مقابل ٤٠،٠٠٠ جنيه عام ١٩٢٦م.

١- برومكين، هشل : الهجرة والتطور على طريق الدولة (عبري)، ص ١١٠.

٢- كرشنايوم، شمشون : تاريخ إسرائيل في الفترات الأخيرة (عبري)، ص ١٢٢.

٣- بيلين، يوسي : جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٥٢.

٤- جوزنسكي، تمار : تطور الرأسمالية في فلسطين (عبري)، ص ١١٥.

٥- بيلين، يوسي : جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٥٢.

٦- ناوور، مردخاي، جلعادي، دان : أرض إسرائيل في القرن العشرين (عبري)، ص ٢١٠.

٤) عملت معظم المصانع خلال عام ١٩٢٦م، نصف يوم، وبالمقابل عملت فترتين عام ١٩٢٧م^(١).

وبحلول عام ١٩٢٨م، أعلنت حكومة الاحتلال البريطاني حسب إحصاء لها أجري حول الصناعة الصهيونية في فلسطين لعام ١٩٢٨م، عن وجود ١,٠٩٨ مصنعاً، عمل فيها ٧,٣٨٦ عاملاً^(٢)، في حين ذكرت الوكالة اليهودية^(٣) أنه كان تحت ملكية الصهاينة ٢,٢٦٥ مصنعاً، استثمر فيها ١,١ مليون جنيه فلسطيني، وعمل فيها ٩,٥٢٩ عاملاً^(٤).

رغم أحداث ثورة (البراق) التي نشبت في آب (أغسطس) ١٩٢٩م، كانت الصناعة الفرع الأهم من ناحية تشغيل الأيدي العاملة، واستثمار الأموال فيها، ومن ناحية العائدات الصافية التي تدخلها على الاقتصاد الصهيوني^(٥)، وحسب معطيات الإحصاء الذي أجرته الوكالة اليهودية على الصناعات الصهيونية، اتضح أن عدد المصانع بلغ عام ١٩٢٩م (٢,٤٧٥) مصنعاً وورشة، كان منها ١٦٠ مصنعاً، ٤٦٤ ورشة حرفية، ١,٨٥١ ورشة صناعات صغيرة، وقد بلغ عدد العاملين فيها ١٠,٩٦٨ عاملاً، ووصل إجمالي الأموال المستثمرة فيها ٢,٢٣٥,٠٠٠ جنيه فلسطيني، وبلغت قيمة الإنتاج السنوي ٢,٥١٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني^(٦).

في حين ذكر محمد سليم في كتابه (نشاط الوكالة اليهودية): إن عدد المنشآت الصناعية الصهيونية بلغ عام ١٩٢٩م (٦١٧) منشأة، استوعبت ٦,٧٧٧ عاملاً صهيونياً، وبلغ حجم رأس المال المستثمر فيها ١,٦٥٣,٠٠٠ جنيه فلسطيني^(٧).

وبالنظر إلى التفاصيل التي أوردها إحصاء الوكالة اليهودية، تتضح دقة بياناتها مقارنة بما أورده محمد عبد الرؤوف سليم في دراسته التي لم يتم فيها تنصيص.

ولقد تركزت المصانع الصهيونية خلال عام (١٩٢٩م) في مدينتي تل أبيب وحيفا^(٨).

وبحلول عام ١٩٢٣م تطورت الصناعة الصهيونية في فلسطين بشكل لافت للانتباه، وكان

١- برومكين، هشل: الهجرة والتطور على طريق الدولة (عبري)، ص ١١٢.

٢- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٥٣؛ فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٢.

٣- هناك فرق بين الإحصائيات التابعة لحكومة الانتداب، وإحصائيات الوكالة اليهودية بالنسبة للصناعات، وإحصائيات الوكالة تشمل المحلات الصناعية، والحرف اليدوية، ومحلات القبعات، ومحلات التصليح، والكراجات، ومحلات غسل الملابس، والحلاقة، وغيرها، بينما اقتصر إحصائيات حكومة الاحتلال البريطاني على المصانع ومحلات الصناعة التي تنتج سلماً جاهزة للبيع. (الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ٩٠).

٤- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٢.

٥- جلعادي، دان: الاستيطان العبري فترة الهجرة الرابعة (عبري)، ص ٢٠٦.

6- Palestine, Inc: A study of Jewish Vol. 2, P. 696; Ronall, Joachim: Industrialization in the middle east, P. 258; Ben Porat, Amir: Between class and Nation, P. 55.

٧- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٢٩: الصناعة اليهودية في فلسطين، ص ٨٤.

٨- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٢٩.

العامل الأبرز الذي أسهم في ذلك، هو صعود النازية إلى الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣م؛ الأمر الذي قاد إلى هجرة صهيونية من ألمانيا إلى فلسطين، كان معظم أفرادها من أصحاب رأس المال، وأصحاب الخبرات العالية؛ مما أعطى الصناعة الصهيونية دعماً على صعيدي رأس المال والخبرات^(١)، فبلغ عدد المنشآت الصناعية ٣،٢٨٨ منشأة، وعدد العاملين فيها ١٩،٥٩٥ عاملاً، وبلغ حجم رأس المال المستثمر فيها ١٣٦،٣٧١،٥ جنيهاً فلسطينياً^(٢)، وبلغت قيمة منتجاتها ٥،٣٥٢،٤٩٧ جنيهاً فلسطينياً^(٣).

لعبت اتفاقية (هاغفارا)^(٤) التي وقعت الحركة الصهيونية مع النازية الألمانية عام ١٩٣٣م، دوراً بارزاً في استقطاب الوافدين الصهاينة إلى فلسطين، كما ساهمت الإجراءات البريطانية التي رافقت صعود النازية، والتي سمحت بدخول السياح الصهاينة إلى فلسطين وبشكل استثنائي، فدخل ما بين (١٩٣٣-١٩٣٥م) حوالي ١٠،٣٠٠ سائح، ولم يغادروها^(٥)، إضافة إلى تدفق رؤوس الأموال، فبلغ ما دخل فلسطين عن طريق البنوك الألمانية بصورة رسمية تقييداً لاتفاقية (هاغفارا) ما بين (١٩٣٣-١٩٣٦م) ما قيمته ٧،٤ مليون جنيه فلسطيني، أو ما يعادل ٨١ مليون مارك ألماني، عدا عن أموال الصهاينة الألمان الواردة من غير ذلك الطريق الرسمي، وعدا الأموال الواردة من مصادر أخرى^(٦).

رافق ذلك تغير في وجهات نظر قيادات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وقيادات الحركة الصهيونية في الخارج حول الصناعة، وبدأ التوجه العملي لدعم الصناعة الصهيونية في فلسطين، حيث تبين لهم أن استيعاب الوافدين الجدد في المجال الصناعي، له تكلفة أقل من استيعابهم في الزراعة، وقد ذكر (ديفيد هورويتش)^(٧): «إن الزراعة تحتاج إلى مبالغ كبيرة من الأموال لدعمها، لكنها لا تجذب رؤوس الأموال الشخصية للاستثمار فيها»^(٨).

١- النقيب، فضل: اقتصاد إسرائيل على مشارف القرن الحادي والعشرين، ص ٤٦.

٢- حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في فلسطين، ص ٣٠٩.

٣- أربل، نفتالي وآخرون: ازدهار وأحداث دموية (عبري)، ص ١٢٢؛ حوراني، فيصل: جذور الرفض الفلسطيني، ص ٦٩؛ أبو النمل، حسين: الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٤٢-٤٤؛ Palestine, Inc: A study of Jewish, Vol. 2, P. 696.

٤- وقَّعت بين قادة الحركة الصهيونية، وقادة النازية في نيسان (أبريل) عام ١٩٣٣م، وكان لها أثر كبير في تطور الاقتصاد الصهيوني، حيث نست على عدم السماح للصهاينة الألمان المهاجرين إلى فلسطين، بحمل ثرواتهم النقدية معهم، باستثناء ما قيمته ألف جنيه فلسطيني، على أن ترسل بقية أموالهم على هيئة بضائع ألمانية إلى فلسطين من خلال مكاتب هغفارا. (سلمان، سلمان: ألمانيا النازية والقضية الفلسطينية، ص ٩٤-٩٥).

٥- جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج ٢، ص ١١٨.

٦- جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، ج ٢، ص ٢٧٣.

٧ ١٨٩٩-١٩٩٩م) اقتصادي، محافظ بنك إسرائيل، وصل لفلسطين عام ١٩٢٠م، وبين عامي (١٩٣٥-١٩٤٨م) أصبح مسؤول القسم الاقتصادي في الوكالة اليهودية، وكان عضو وفد الوكالة اليهودية إلى مجلس الأمن الدولي لمناقشة قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م. (عيلام، يغال: ألف يهودي في التاريخ الحديث، ص ١٧٠-١٧١).

٨- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٢.

وتبعاً لذلك ارتفعت قيمة الآلات المستوردة من ١٣٤،٨٨٨ جنيه عام ١٩٢٧م إلى ٨٩٢،٨٩١ جنيه عام ١٩٣٥م، التي كانت سنة الذروة من سنوات العمل باتفاقية هاعفارا^(١). ويؤكد ذلك ما أوضحه تقرير اللجنة الدائمة للانتداب، المرفوع إلى مجلس عصبة الأمم عام ١٩٣٦م، الذي أكد أن الوضع الاقتصادي في فلسطين تقدم كثيراً عام ١٩٣٥م، إذ أنشئت مصانع صهيونية جديدة خلال العام متعددة المجالات الإنتاجية^(٢)، حتى بلغ عددها ٤،٠٥٠ مصنعاً، ووصل عدد العاملين فيها ٢٠،٧٠٠ عام^(٣).

يتضح مما سبق أن المقومات الأساسية اللازمة لنشاط الصناعة توفرت لدى الصهاينة في فلسطين، إلا أن الأحداث السياسية، والأزمات الاقتصادية التي مر بها الاقتصاد الصهيوني في بعض الأوقات، أثرت وبشكل واضح على تطور الصناعة فيها، فبينما بدأت الصناعة الصهيونية بالنهوض والتقدم بعد الحرب العالمية الأولى، تراجعت خلال عام ١٩٢٦م؛ بسبب الأزمة الاقتصادية التي مر بها الصهاينة في فلسطين في ذلك الوقت، إلا أنها عادت للنهوض مع وصول موجة الهجرة الخامسة، و قدوم الصهاينة من ألمانيا، بعد توقيع اتفاقية (هاعفارا) عام ١٩٣٣م^(٤).

ساعدت رؤوس الأموال التي وصلت إلى فلسطين بموجب العمل باتفاقية (هاعفارا) على تقدم مختلف الصناعات، فمع زيادة أعداد الوافدين الصهاينة إلى فلسطين، ارتفع حجم الطلب على المنتجات الصناعية المحلية، والأساسية، ومن بين الصناعات التي أسست وتطورت خلال تلك الفترة: صناعة الحديد، وصناعة المواد الغذائية، وصناعة الأحذية، والبلاط، والأثاث المنزلي، والألعاب، وأدوات التجميل، والأدوات الكهربائية، وصناعة النسيج، وصناعة البويات، وصناعة المطاط، وصناعة مواد البناء^(٥)، غير أن الإسهام الأبرز لأولئك المهاجرين كان في صناعة المواد الكيماوية، خاصة الأدوية^(٦).

كما أقيمت مصانع ضخمة لصناعة الأدوات الصحية، والمشغولات المعدنية، إضافة لبدء العمل على إنشاء مصافي البترول في حيفا^(٧)، مع وصول خط أنابيب النفط العراقي عام ١٩٣٥م؛ فأصبح الحصول على الوقود ميسوراً، سواء للصناعات التي كانت موجودة، وكانت تعتمد على

١- حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي، ص ٢٢١-٢٢٢.

٢- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٣٠.

٣- جوتمن، يهوشع وآخرون: الموسوعة العبرية (أرض إسرائيل) (عبري)، ج ٦، ص ٩٠٠.

٤- جلبر، يوأف: وطن جديد (عبري)، ص ٣٩٨-٣٩٩.

٥- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٣؛ جلبر، يوأف: وطن جديد (عبري)، ص ٤٠٠-٤٠٢.

٦- جلبر، يوأف: وطن جديد (عبري)، ص ٤٠٢.

7- Ronall, Joachimo: Industrialization in the middle east, P. 260.

الفحم، والقليل من الطاقة الكهربائية التي وفرها مشروع (روتبرغ)، أو الصناعات الجديدة^(١).

٢) الصناعة الصهيونية في فلسطين ما بين (١٩٣٦-١٩٣٩ م) :

أثرت الثورة الفلسطينية الكبرى التي اندلعت ما بين ١٩٣٦-١٩٣٩ م على تطور الصناعة، وقد ظهر التأثير واضحاً في انخفاض رؤوس الأموال المستثمرة فيها، وانخفاض قيمة الواردات الصهيونية من الآلات الصناعية، كما انخفضت قيمة المواد الأولية المستخدمة في الصناعة الصهيونية من ١،٢٢٢،٨٤٦ جنيهاً فلسطينياً عام ١٩٣٥ م، إلى ٩٧١،٨١٣ جنيهاً عام ١٩٣٧ م^(٢).

كما انخفض عدد الوافدين الصهاينة إلى فلسطين^(٣)؛ فتراجعت صناعة البناء الصهيونية المقترنة بالهجرة، وهبط معدل المساحة المخصصة لبناء البنايات المرخصة في المدن الأربع الرئيسية: القدس، ويافا، وتل أبيب، وحيفا، من ١٩٢،١٩٢ متراً مربعاً عام ١٩٣٥ م، إلى ٦١،٥٠٧ متراً مربعاً عام ١٩٣٦ م، وإلى ٤٨،١١٥ متراً مربعاً عام ١٩٣٧ م^(٤). وكان من نتائج ذلك أن هبط الطلب على الصناعات التي تنتج عن البناء، فقد هبط إنتاج الصناعات المعدنية؛ مما اضطر أكبر مصنع لصنع الأدوات المعدنية، وهو معمل فلسطين للسبك والأدوات المعدنية إلى وقف الإنتاج^(٥).

إلا أن النشاط الصناعي ارتفع من جديد عام ١٩٣٧ م، حيث بلغ عدد المصانع الصهيونية ٥،٦١٢ مصنعة، وعدد العمال ١٨٦،٣٠ عاملاً^(٦)، وبلغ حجم رأس المال المستثمر ٤،٧٠٠،٠٠٠ جنيه فلسطيني^(٧)، وبلغت قيمة الإنتاج للعام نفسه حوالي ٩،٩٠٩،٠٠٠ جنيه فلسطيني^(٨). وليس أدل على تقدم الصناعة الصهيونية في ذلك العام من ارتفاع حجم استهلاك الكهرباء من ٦،٥٧٦،٠٠٠ كيلووات عام ١٩٣٣ م، إلى ٢٨،٣٢٤،٠٠٠ كيلووات عام ١٩٣٧ م^(٩). فبسبب خبرات

١- الجندي، إبراهيم: سياسة الانتداب البريطاني، ص ١٣٤-١٣٥.

٢- أبو النمل، حسين: الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٤٢؛ حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي، ص ٢٢٢؛ الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ١١٩.

٣- خلال أحداث الثورة وتحديداً في تموز (يوليو) ١٩٣٧ م، أصدرت حكومة الانتداب قانون الهجرة المعدل رقم ٣٢ لعام ١٩٣٧ م، وبموجبه وضعت القيود على الهجرة الصهيونية المتدفقة إلى فلسطين، وتبعاً لذلك انخفض عدد الصهاينة الوافدين إلى فلسطين من ٦١،٨٥٤ مهاجراً عام ١٩٣٥ م، إلى ١٠،٥٣٦ مهاجراً عام ١٩٣٨ م. (الوقائع الفلسطينية، عدد ٧٣٦، ١١ تشرين ثانٍ (نوفمبر) ١٩٣٧ م، ص ١٠).

٤- الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ١١٩.

٥- حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي، ص ٣٥٦.

٦- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٢١.

٧- أورد البعض أن عدد المنشآت الصناعية بلغ عام ١٩٣٧ م حوالي ١،٥٥٦ منشأة، وبلغ عدد العاملين فيها ٢١،٩٦٤ عاملاً. وبلغ حجم رأس المال المستثمر ١١،٠٦٢،٩٧٠ جنيهاً فلسطينياً، وبلغت قيمة الإنتاج للعام نفسه ٧،٨٩١،٩٤٠ جنيهاً فلسطينياً. (جوتمن، يهوشع وآخرون: الموسوعة العبرية (أرض إسرائيل) (عبري)، ج ٦، ص ٩٠١).

٨- زمين، يهشوع: من حب صهيون (عبري)، ص ٦١؛ فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٣؛ Palestine, Inc: A study of Jewish Arab and British policies, Vol. 2, P. 696.

٩- أورد حمادة أن حجم الاستهلاك من الكهرباء عام ١٩٣٧ م بلغ ٢٠،٣١٤،١١٤ كيلووات، وعلل الزيادة الكبيرة في الاستهلاك =

الصهاينة القادمين من ألمانيا، وكفاءتهم، ورؤوس الأموال الفردية التي أحضروها معهم، زاد عدد المنتجات، وتم إضافة أنواع من الصناعات الكيماوية، وصناعة الآلات، والسيارات، والنسيج، والمعلبات^(١)، وأوضحت مذكرة للوكالة اليهودية أن المراكز الرئيسية للتنمية الصناعية الصهيونية في فلسطين خلال عام ١٩٣٧ م، كانت موجودة في تل أبيب، وحيفا^(٢).

إلا أن الاهتمام بإنشاء مصانع جديدة تزايد بصفة خاصة منذ خريف عام ١٩٣٨ م، ذلك أن الأحداث السياسية في تشيكوسلوفاكيا^(٣)، والنمسا^(٤) آتت اضطرت عدداً من رجال الصناعة، وخبرائها من الصهاينة هناك إلى البحث عن مجال لنشاطهم الصناعي في فلسطين، فقد تلقت إدارة الصناعة والتجارة التابعة للوكالة اليهودية في فترة تقل عن تسعة أشهر نحو ألف طلب، واقتراح يتعلق بإنشاء مصانع جديدة في فلسطين، وقد تمكن عدد من مقدمي تلك الطلبات من الاستثمار في فلسطين، وعاد مجال الإنتاج الصناعي للالتساع من جديد^(٥).

من ناحية أخرى سعت الوكالة اليهودية لمعالجة الأزمة التي منيت بها الصناعة الصهيونية في فلسطين خلال الثورة الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩ م)، فأنشأت بالاشتراك مع بنك إنجلوفلسطين Anglopalestine مصرفاً خاصاً، لمساعدة صغار الحرفيين الصهاينة، ومدهم بالقروض اللازمة لاستمرار بقائهم، كما أنشأت إدارة خاصة بالصناعة، أوكلت إليها القيام بإعداد الدراسات اللازمة للمشروعات الصناعية الجديدة، ومتابعة تنفيذها. وعلاوة على ذلك، قامت بافتتاح العديد من مراكز التدريب الصناعي في فلسطين؛ من أجل إعداد شباب البيشوف للمهن، خاصة الصناعات غير الموجودة في فلسطين^(٦).

-
- = عامي ١٩٣٦م و١٩٣٧م بأن المحلات الصناعية كانت تستبدل القوة الكهربائية المولدة في المحلات نفسها بقوة كهربائية مشتراه من الشركة. (حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في فلسطين، ص ٢٢٢).
- ١- كرشنايوم، شمشون: تاريخ إسرائيل في الفترات الأخيرة (عبري)، ص ١٢٢؛ جوتمن، يهوشع وآخرون: الموسوعة العبرية (أرض إسرائيل) (عبري)، ج ٦، ص ٩٠٠.
- ٢- سليم، محمد: الصناعة اليهودية في فلسطين، ص ٨٤.
- ٣- تطلعت الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥م، لدولة ألمانية تضمها إليها، خاصة بعد أن عرفت المناطق الصناعية (حيث توجد تلك الأقلية) تحولات كبيرة، وكذلك مع صعود نجم هتلر، وقام كونراد هانيلين بتأسيس حزب السوديت الألمان، الذي فاز بالمرتبة الثانية في انتخابات عام ١٩٣٥م، فضعف الضغط النازي على الحياة السياسية التشيكوسلوفاكية، وفي ٢٣ نيسان (أبريل) ١٩٣٨م، أذاع كونراد هانيلين بيانات تضمنت مطالبة ألمان السوديت الانضمام إلى الرايخ، ولم يقبل بينين (حاكم تشيكوسلوفاكيا)، في بادئ الأمر لكنه في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨م، رضخ لطلب الألمان، فأعلن هتلر ضم المناطق المتاخمة لبلادها إلى الرايخ. (الكياي، عبد الوهاب وآخرون: موسوعة السياسة، ج ١، ص ٧٥٢).
- ٤- دخلت القوات الألمانية إلى النمسا في ١١ آذار (مارس) ١٩٣٨م، وأصبحت الوحدة بينهما أمراً واقعاً منذ يوم ١٢ آذار (مارس) من العام ذاته، واستمرت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، حيث احتلتها قوات الحلفاء، وقسمتها إلى أربع مناطق نفوذ. (الكياي، عبد الوهاب وآخرون: موسوعة السياسة، ج ٦، ص ٦١٦).
- ٥- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٢٣.
- ٦- الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ١١٩-١٢٠.

يتبين مما سبق أن المرحلة الأولى من الثورة أثرت بشكل واضح على الاقتصاد الصهيوني، ومنه الصناعة، لكن أحداثاً خارجية كالتطورات في تشيكوسلوفاكيا والنمسا أعادت للصناعة الصهيونية وزنها، خاصة مع بدء تراجع قوة الثورة عام ١٩٣٨م.

٣) الصناعة الصهيونية في فلسطين ما بين (١٩٣٩-١٩٤٥م)؛

ساعدت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) في دفع عجلة الصناعة الصهيونية إلى طريق التطور، وذلك لما فرضته ظروف الحرب من زيادة الطلب على السلع المحلية سواء من السكان في فلسطين، أم من القوات البريطانية التي تواجدت في فلسطين خلال فترة الحرب، كما كان لتدفق رؤوس الأموال الصهيونية الفردية على فلسطين من جديد أثره على الصناعة، حيث تم استيراد المزيد من الآلات الصناعية من الخارج، وذلك إما لتجديد مصانع قائمة، أو لإنشاء مصانع جديدة^(١).

إلى جانب عدد كبير من الآلات التي تم استيرادها بموجب (اتفاقية هاعفارا) ما بين (١٩٣٣-١٩٣٩م)، والتي كانت تفوق مستلزمات ذلك الوقت، فأصبحت احتياطياً استراتيجياً للتوسع الصناعي الذي وقع خلال الحرب العالمية الثانية^(٢). فالتوقف المطلق للاستيراد من الخارج أثناء الحرب، تسبب في زيادة الحاجة للاعتماد على البضائع والسلع المصنعة محلياً، كما زاد من حجم الإنتاج المحلي في فلسطين، حيث تطلب الأمر إيجاد حلول، وبدائل للمنتجات التي كان يتم استيرادها من الخارج، ومن الأمثلة على ذلك: مصانع صناعة أدوات العمل كالمقارح، والمخارط، والمكابس، وما شابه ذلك التي لم تكن منتشرة قبل الحرب، إلا أنها أصبحت عام ١٩٣٩م، من أهم مجالات الصناعة الصهيونية في فلسطين حيث أصبح لديهم ٤٠ مصنعاً لصناعة أدوات العمل^(٣).

إلا أن الازدهار لم يبدأ مع اندلاع الحرب عام ١٩٣٩م، ففي العام الأول من الحرب ارتفعت الأسعار، وانتشر الاحتكار؛ مما اضطر الحكومة البريطانية إلى فرض رقابة على الأسعار للقضاء على التضخم المالي^(٤). وفي العام التالي (١٩٤٠م) كان لدى الصهاينة في فلسطين حوالي ٢٦ ألف عاطل عن العمل، ولكن خلال فترة الحرب ارتفع عدد العمال الذين يعملون في القطاع الصناعي من الصهاينة من ٣٦ ألف عامل عام ١٩٣٩م، إلى ٦٠ ألف عامل^(٥) عام ١٩٤٥م، وبالتالي ارتفعت نسبتهم من ١٩٪ من إجمالي عدد العمال الصهاينة في فلسطين عام ١٩٣٩م، إلى ٢٩٪.

١- الجندي، إبراهيم: الصناعة في فلسطين، ص ١٢٠.

2- Ronall, Joachim: Industrialization in the middle east, P. 260.

٣- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٥.

٤- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٦٧.

٥- في بعض الروايات بلغ عددهم ٦٦ ألف عامل عام ١٩٤٥م. (طهبوب، فائق: الحركة العمالية والتقابلية في فلسطين، ص ١٨٥).

عام ١٩٤٥م^(١). وللتغلب على نقص الأيدي العاملة في بعض الأوقات، كان يتم نقل العمال من فرع البناء، والحمضيات للعمل في فروع الصناعة المختلفة^(٢).

وبينما أسهمت الصناعة الصهيونية بحوالي ٨٠٪ من إجمالي ناتج فلسطين الصناعي عام ١٩٣٩م، ارتفعت النسبة إلى ٨٥٪ خلال السنوات الأخرى من الحرب العالمية الثانية^(٣).

أنشئ بتاريخ ٢٥/٢/١٩٤١م -وبدعم من حكومة الانتداب البريطاني- «مجلس المؤن الحربي البريطاني»، الذي عمل على توجيه كافة طلبات الجيش البريطاني إلى الصناعة الصهيونية، من خلال مكتبه الذي أقيم في مدينة القدس، وكان معظم موظفيه من الصهاينة؛ الأمر الذي دفع اتحاد أرباب الصناعة الصهيونية في فلسطين، لإقامة مكتب خاص للارتباط بمجلس المؤن الحربي، وبالسلطات العسكرية البريطانية^(٤). وتلبية الطلبات المقدمة من مجلس المؤن الحربي، تم إعداد طبقة من المهنيين، والصناع المحترفين، عملت على ثلاث فترات في اليوم، وفق جداول محددة؛ لإنتاج الطلبات^(٥).

كانت الاستثمارات في قطاع الصناعة الصهيونية خلال سنوات الحرب بواسطة الأموال الصهيونية الشخصية، وليس بواسطة المؤسسات الصهيونية، الأمر الذي أسهم في تطور، وزيادة قوة الطبقة الرأسمالية الصناعية الصهيونية، في حين استثمرت الشركات، والمؤسسات الصهيونية أموالها في الامتيازات، كشركة الكهرباء، وشركة الفوسفات، كما شاركت في تقديم القروض للصناعة، وإدارة المفاوضات مع السلطات البريطانية لإنجاز بعض الموافقات على مطالب الصناعيين، وإيقاف استيراد البضائع المنافسة، وتخفيض الضرائب^(٦).

تم إنشاء حوالي ٥٠٠ مصنع جديد خلال سنوات الحرب، وتركز ٦٠٪ من الصناعات الصهيونية فترة الحرب في مدينة تل أبيب، وفي حين كانت صناعة البناء هي الفرع الاقتصادي الأهم في المدينة قبل الحرب، فقد تنوعت الصناعات فترة الحرب، فأقيم فيها مصانع كبرى مثل: مصنع (أتا)، ومصنع (فلكن)، ومصنع (مفجر)، وبقيت مدينة القدس على حالها، ولم تتطور؛ بسبب نقص المياه فيها، وصعوبة المواصلات، وظلت تعتمد على الطباعة، وبعض

١- كرشنايوم، شمشون: تاريخ إسرائيل في الفترات الأخيرة (عبري)، ص ١٢٤؛ جردس، ناحوم: السياسة الاقتصادية (عبري)، ص ١٦٠.

٢- جوزنسكي، تمار: تطور الرأسمالية في فلسطين (عبري)، ص ١٢٢.

٣- ميركورد، كين: الصناعة اليهودية واعتمادها على رأس المال الأجنبي، ص ١٠٣؛ سليم، محمد: الصناعة اليهودية في فلسطين في عهد الانتداب، ص ٦٨-٦٩.

٤- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٧٧.

٥- جردس، ناحوم: السياسة الاقتصادية للسلطات البريطانية الانتدابية (عبري)، ص ١٦٥؛ ناؤور، مردخاي، جلعادي، دان: أرض إسرائيل في القرن العشرين (عبري)، ص ٢٧٧.

٦- جوزنسكي، تمار: تطور الرأسمالية في فلسطين (عبري)، ص ١٣١.

الصناعات البسيطة في مجال الملابس، والأحذية^(١). وتطورت مدينة حيفا، بشكل سريع وقت الحرب، وتركزت فيها الصناعات الكيماوية، وصناعة الزيوت، وصناعة الحديد؛ بسبب الحركة التجارية النشطة فيها، وقربها من الميناء^(٢).

إن ما ميز تطور الصناعة الصهيونية في فلسطين لم يكن بالتحديد ارتباطها بالمجهود الحربي للجيش البريطاني فترة الحرب، وإن لعب الدور الأبرز، حيث سمح بتنوع المنتجات والصناعات؛ مما تسبب في إحراز الكثير من الإنجازات^(٣). لكن ما ميزها هو تطور صناعات حديثة، وكبيرة لم يكن لها قاعدة، أو أساس قبل الحرب^(٤)، وكان أهمها: صناعة الحديد التي تركزت في صناعة السيارات، والآلات الزراعية، وآلات المصانع، وصناعة الأخشاب، والأدوية، والأجهزة الطبية، والمأكولات خاصة المعلبات، والمجوهرات، والألماس، والورق، والكرتون، والكيماويات كصناعة الأسمدة الكيماوية، وصناعة الزجاج، والصناعات البلاستيكية، والأدوات الكهربائية، والصناعات العسكرية وتشمل: الذخيرة والألغام المطلوبة للجبهة الحربية^(٥)، ولم يكن ذلك ممكن الحدوث لولا وجود الخبراء الصناعيين، الذين وفدوا من أوروبا لفلسطين فترة الهجرة الخامسة، ووجود طبقة عمال مهنية مدربة بشكل جيد على الصناعة^(٦).

شكلت الصناعة الصهيونية في تلك الفترة ٨٥٪ من إجمالي حجم الصناعة في فلسطين، وتم وضع ٣٥٪ من حجم الإنتاج لخدمة القوات العسكرية البريطانية، وتم استثمار ١٠,٠٩٥,٠٠٠ جنيه فلسطيني في ذلك المجال^(٧). وفي فترة الذروة (عام ١٩٤٢م)، وصل عدد المصانع الكبيرة في فلسطين إلى ٣٠٠، ٢ مصنع إضافة إلى المصانع العادية، ووصل حجم الأموال المستثمرة فيها إلى ٤٠ مليون جنيه فلسطيني^(٨).

تميز عام ١٩٤٤م بالحد من التطور الصناعي، وتقلص الإنتاج والتصدير، حيث بدأ معدل الاحتياجات العسكرية بالهبوط، فقلَّ عدد العمال، وعدد أيام العمل، فبدأت تظهر المخاوف في أوساط الصناعيين من اختفاء الازدهار الصناعي مع انتهاء الحرب، لكن النصف الأخير من العام ذاته شهد استقراراً في الوضع الاقتصادي؛ بسبب انتقال العمال من مجال الصناعات

١- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٦٩.

٢- أربل، نفتالي وآخرون: أرض ملجأ مقلدة (عبري)، ص ٧٠.

٣- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٤-١٥؛ أهروني، يثير: الاقتصاد والسياسة (عبري)، ص ١٦٦.

٤- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٧٩.

5- Lucus, Noah: the modern history of Israel, P. 120121-; Ronall, Joachiom: Industrialization the middle east, P. 260.

٦- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٧٨؛ سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٣٤.

٧- الشريف، ماهر: تاريخ فلسطين، ص ١٤١.

٨- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٦٩.

العسكرية، إلى مجالات التصنيع المدني كالملابس، والأغذية^(١).

وفي عام ١٩٤٥ م، توقف الإنتاج العسكري تماماً، حيث قلص مجلس المؤن العسكري طلبياته إلى الحد الأدنى، واقتصر ذلك على صناعة الأغذية فقط، وظهرت بعض المخاوف من جديد، من أن يتم إغراق فلسطين بالبضائع الرخيصة بعد الحرب، لكن تلك المخاوف سرعان ما تبددت عندما تبين أن السوق الأوروبية المدمرة لن تستطيع إغراق فلسطين بالبضائع بعد الحرب، كذلك أدى رفع الرقابة عن الأسعار التي فرضت في وقت الحرب، وإمكانية استيراد المواد الخام من الخارج إلى تحسن ظروف الصناعة الصهيونية، وساعدها على الانتقال إلى فترة السلم^(٢).

أما التصدير الذي توقف تماماً للبلاد التي كان يتواجد فيها الجيش البريطاني، فقد تحول إلى دول أخرى مثل: تركيا، وسوريا، ولبنان، فشركة التجارة الخارجية فتحت آفاقاً جديدة للعلاقات التجارية مع دول أخرى، لم تتعامل معها فترة الحرب، فعادت مبيعات الشركة للازدياد، حتى وصل حجم مبيعاتها في نهاية عام ١٩٤٥ م، إلى ٦٠٠، ٨٤٢ جنية فلسطيني^(٣).

يتضح مما سبق أن الحركة الصهيونية استغلت الحرب العالمية الثانية بشكل كبير، حيث الحاجة البريطانية للكثير من المنتجات قريبا من عملياتها في الشرق الأدنى والأوسط، بعيداً عن عمليات النقل من أوروبا أو شرق آسيا، إضافة إلى توقف مصانعها في بريطانيا؛ بسبب العمليات العسكرية ضدها. وقد استفاد الصهاينة من ذلك كثيراً في تطوير صناعتهم في فلسطين.

٤) الصناعة الصهيونية في فلسطين ما بين (١٩٤٥-١٩٤٨ م) :

أدى انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى تضرر العديد من الصناعات الصهيونية، خاصة المتعلقة منها بخدمة الأهداف العسكرية البريطانية، وكان التصور أن مستقبل الصناعة الصهيونية في فلسطين يجب أن يسير في خطوط ثلاثة، هي:

- ١- اعتماد الإنتاج على المواد الخام المتوفرة في فلسطين، والبلاد المجاورة.
- ٢- دعم الصناعة المبنية على المهارة العلمية حيث الاستيعاب أكثر احتمالاً مع ضآلة تكاليف المواد الخام بالمقارنة بقيمة المنتج، مثل: الكيماويات، والصيدليات، والملابس الجاهزة، وغيرها.
- ٣- الاهتمام بالصناعات التي تعتمد على المواد الخام ذات الوزن الخفيف، والحجم المتضائل، كالفراء والماس وغيرها؛ لأن تلك الصناعات لا تتأثر بالمسافة بين مصدر المواد الخام، ومراكز التصنيع.

1- Polk, William, and others.: Back Drop to Tragedy (The struggle for Palestine), P. 188.

٢- فلبر، موشيه: الصناعة في إسرائيل (عبري)، ص ١٥.

٣- بيلين، يوسي: جذور الصناعة العبرية (عبري)، ص ٨٤.

وكان التخطيط يرمي إلى تخطي الفجوة بين الانتقال بالاقتصاد من مرحلة الحرب إلى أفاق حياة السلام^(١).

حدث هبوط في الصناعة الصهيونية في النصف الأول من عام ١٩٤٦م؛ بسبب زيادة حجم تشغيل الطاقة الكهربائية؛ وتراجع صناعة النسيج، نتيجة لانفتاح السوق المحلية على البضائع الخارجية، فمع انتهاء الحرب، فُتحت الطرق البحرية على أوروبا؛ ففتحت الأسواق الأوروبية من جديد^(٢).

ورغم تضرر العديد من الصناعات خاصة صناعة الحديد، التي قل الطلب عليها؛ لأنها كانت تستخدم لأغراض عسكرية حربية، إلا أن الطلب زاد على صناعات أخرى، بانتهاء الحرب كالبناء، والمتعلقة بالحمضيات، فكان النمو بهما يساوي ١٨٪ عام ١٩٤٦م، و٢٨٪ عام ١٩٤٧م، وصناعة القطن، والألماس^(٣). وتدفقت رؤوس الأموال من جديد من دول أوروبا^(٤)؛ مما سمح باستيعاب الأعداد الكبيرة من الأيدي العاملة سواء من الوافدين الجدد، الذين قدر عددهم ما بين (١٥-٢٠) ألف مهاجر، أم من الجنود المسرحين من الجيش البريطاني بعد الحرب، والذين قُدّر عددهم بحوالي ٢٧,٠٠٠ مجند^(٥)، حتى بلغ عدد العاملين في مجال الصناعة عام ١٩٤٧م، ما يزيد عن سبعين ألف شخص^(٦)، وبلغ حجم الإنتاج ٤٥ مليون جنيه فلسطيني^(٧).

كان فرع البناء المجال المتصاعد في النمو والازدهار، بعد فترة الجمود أثناء الحرب، فعادت نسبة الاستثمار في مجال صناعة مواد البناء إلى ذروتها^(٨)، فقد استثمرت عشرة ملايين جنيه عام ١٩٤٦م، حققت إنجازاً تمثل في بناء ثمانية عشر ألف حجرة في القطاع الصهيوني في الريف، والحضر^(٩).

وزادت نسبة الاستثمار في صناعة الحديد، في إنتاج السيارات، والأدوات الحديدية التي تحسن إنتاجها^(١٠). كما قام الصهاينة بإنشاء ورش صيانة للعربات المعطوبة التابعة للجيش البريطاني، إضافة إلى محلات بيع قطع الغيار، والأدوات العلمية التي انتشرت لأول مرة في فلسطين^(١١).

١- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٤٠.

٢- بركاوي، حاييم: أيام بداية الاقتصاد الإسرائيلي (عبري)، ص ١٥.

٣- بركاوي، حاييم: أيام بداية الاقتصاد الإسرائيلي (عبري)، ص ١٦.

٤- أبو النمل، حسين: الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٣٩.

٥- بركاوي، حاييم: أيام بداية الاقتصاد الإسرائيلي (عبري)، ص ١٦.

٦- أبو النمل، حسين: الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٤٣.

٧- زمين، يهشوع: من حب صهيون (عبري)، ص ٦١.

٨- أربل، نفتالي وآخرون: أرض ملجأ مقلعة (عبري)، ص ٦٨.

٩- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٤١.

١٠- أربل، نفتالي وآخرون: أرض ملجأ مقلعة (عبري)، ص ٦٧-٦٨.

11- Polk, William and others: Back Drop to Tragedy (The struggle for Palestine), P. 188.

كما ظهرت صناعات جديدة تلائم اتجاه الصناعة في ذلك الوقت -الذي اتجه نحو السلام- تمثلت في مصانع المنتجات الكيماوية، ومصانع للصباغة، كما تطورت صناعة الغزل، وإنتاج حامض الكبريتيك، وغير ذلك، تحقيقاً لسياسة الاكتفاء الذاتي المعتمدة على المنتج محلياً^(١). يُستنتج مما سبق أن الصناعة الصهيونية الحديثة قد تأسست خلال سنوات العشرينيات، وازدهرت وتطورت خلال الثلاثينيات، حتى أصبحت قادرة على إمداد الجيش البريطاني خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥ م)، بمعظم احتياجاته من الصناعات المختلفة، وبعد انتهاء الحرب حاولت الصناعة الصهيونية التركيز على الصناعات التي تلائم مرحلة السلام.

ثالثاً : أبرز المشكلات التي واجهت الصناعة الصهيونية في فلسطين :

عانت الصناعة الصهيونية في فلسطين من مشكلات عدة، يمكن تلخيص أهمها بالتالي:

(١) ظلت الصناعة الصهيونية حتى عام ١٩٢٢ م، صناعة استهلاكية خفيفة غلب على بعض فروعها الطابع المهني، فقد كانت قليلة المواد الخام، اللازمة لتطور الصناعة مثل: النفط، والفحم الحجري والحديد وغير ذلك؛ مما أدى لارتباط تطور الصناعة بالزراعة، واعتمادها على المنتجات الزراعية^(٢).

(٢) جاء في نتائج الإحصاء الصناعي، الذي تم إجراؤه، وجمعت نتائجه في عام ١٩٢٧ م، أن الصناعة الصهيونية في فلسطين حتى ذلك العام كانت تعاني من مشكلات أبرزها:

أ- اعتمدت الصناعة بشكل كبير على العمل اليدوي، وكان استخدام الآلات محدوداً، فقد تم إحصاء ٨١٥ محركاً، كان نصفها محركات كهربائية.

ب- معظم المصانع كانت صغيرة، وهي تطوير لورش حرفية، ولم تكن تشغل عمالاً بالأجرة.

ت- استثمار الأموال في الصناعات كان قليلاً، فكان أعلى حد للاستثمار في معظم المصانع يصل إلى ١,٠٠٠ جنيه فلسطيني، وكان حوالي ٥,١٪ من المصانع يصل حجم الاستثمار فيها إلى ١٠٠,٠٠٠ جنيه^(٣).

ث- معظم المصانع تركزت في صناعة المنسوجات، والغذاء، وبلغت نسبة تلك المصانع ٥٠٪، وكان يعمل فيها ٤٠٪ من العاملين في الصناعة آنذاك.

ج- تطورت الصناعة الجديدة في حيفا، وتل أبيب، أما في باقي المدن فقد كان التطور

١- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٤٤١.

٢- سعد، أحمد: التطور الاقتصادي في فلسطين، ص ٧٠؛ جليل، يوأف: وطن جديد (هجرة يهود مركز أوروبا) (عبري)، ص ٣٩٨.

٣- جوزنسكي، تمار: تطور الرأسمالية في فلسطين (عبري)، ص ١١٢-١١٣.

بطيئاً، وكانت تلك المدن مجرد سوق تجاري لتلك الصناعات^(١).

(٣) عانت الصناعة الصهيونية في فلسطين من مشكلة ضيق نطاق السوق المحلية الفلسطينية في مجتمع يعتمد على الزراعة^(٢).

(٤) بداية الصناعة الصهيونية في فلسطين كانت عبارة عن استثمارات فردية، وكانت الأمور التي تشجع الاستثمارات الفردية قليلة، خاصة وأن فلسطين فقيرة في المصادر الطبيعية^(٣). رافق ذلك مشكلة نقص القروض، والدعم المالي طويل المدى، وطالب ممثلو الاتحادات الصناعية، وأصحاب الصناعات بإنشاء بنك صناعي خاص للصناعة؛ لتقديم القروض للمشروعات الصناعية، لكن مدير «بنك إيفك» عارض الاقتراح، وفي عام ١٩٣٣ م، أقيم بنك للصناعة، وبنطاق مقلص^(٤).

(٥) قاطع العرب في فلسطين، المنتجات الصناعية الصهيونية في بعض الأوقات، وكان من نتائج ذلك أن أغلق مصنعان صهيونيان أحدهما للكبريت في حيفا، والآخر للطوب في تل أبيب، واشتدت المقاطعة على إثر ثورة البراق عام ١٩٢٩ م^(٥)، وفي عام ١٩٣٥ م لم يشترِ العرب في فلسطين، الذين كانوا يشكلون ٧٠٪ من السكان سوى ١٠٪ من الإنتاج الصناعي الصهيوني^(٦)، وبلغت المقاطعة ذروتها عام ١٩٣٦ م، حيث تألفت في المدن الفلسطينية، وقرائها لجان لمقاطعة التجارة، والصناعة الصهيونية. وفي عام ١٩٤٦ م، تسببت تلك المقاطعة في تقليص حجم الإنتاج الصناعي للأسواق العربية المجاورة، التي كانت خلال سنوات الحرب العالمية الثانية السوق الاستهلاكي الأول للصناعات الصهيونية^(٧).

(٦) ويرى البعض أنه لعدم قدرة السوق المحلية في فلسطين على استيعاب الإنتاج الصناعي الصهيوني، التفت الصهاينة إلى الأسواق الخارجية، وفي السنوات الأولى ركزوا على مصر، وسوريا، غير أن الأمر الذي أعاظ الصهاينة هو أن مصر، وسوريا بدلاً من أن تكونا أسواقاً للصناعة الصهيونية، أصبحتا تصدران إلى فلسطين، من السلع الصناعية

١- جوزنكي، تمار: تطور الرأسمالية في فلسطين (عبري)، ص ١١٤.

٢- سليم، محمد: نشاط الوكالة اليهودية، ص ٧٠.

٣- جردس، ناحوم: الديمغرافية والاقتصاد (المبادرات الاقتصادية فترة الانتداب البريطاني) (عبري)، ص ٢٩٥.

٤- أهروني، يئير: الاقتصاد والسياسة في إسرائيل (عبري)، ص ١٦٥.

٥- الجندي، إبراهيم: سياسة الانتداب البريطاني، ص ١٥١-١٥٢.

٦- ميركورد، كين: الصناعة اليهودية واعتمادها على رأس المال الأجنبي، ص ١٠٥.

٧- إلا أن تلك المقاطعة، لم تحقق أهدافها في القضاء على الاقتصاد الصهيوني في فلسطين، كما أن هناك مجالات صناعية كاملة لم تكن مرتبطة بجمهور العرب بتاتاً مثل: الخمر. (بركاثي، حاييم: الأيام الأولى للاقتصاد الإسرائيلي (عبري)، ص ١٥؛ جومتن، يهوشع وآخرون: الموسوعة العبرية (أرض إسرائيل) (عبري)، ج ٦، ص ٩٠١).

أكثر مما تستوردان منها^(١)، ففي عام ١٩٣٧م استوردت فلسطين من مصنوعات مصر، وسوريا بقيمة ٧٥٠ ألف جنيه فلسطيني، بينما صدرت لهما بقيمة ٢١٠ آلاف جنيه فلسطيني فقط^(٢).

(٧) أحد أهم المشاكل المادية التي واجهتها الصناعة الصهيونية في بدايتها: النقص في الإدارة، والتقنيات الفنية^(٣)، والعجز في إيجاد الصناع المهرة^(٤)، إضافة إلى الافتقار إلى موائئ حديثة، كما تعذر توفير وسائل مواصلات، وتسهيلات مرورية ملائمة؛ مما تسبب في زيادة التكاليف على كاهل أرباب الصناعة، الأمر الذي اضطرهم إلى رفع مستوى الاستثمار للتغلب على العقبات المالية التي واجهتهم^(٥).

خاتمة :

توصل الباحثان إلى عدد من النتائج، أهمها :

- لعبت السنوات العشر الأولى التي تلت الحرب العالمية الأولى، الدور الأهم والأبرز في تاريخ الصناعة الصهيونية في فلسطين، فعلى الرغم من النقص في التمويل، والدعم الرسمي، والحكومي للصناعة الصهيونية في فلسطين، إلا أنها تطورت بشكل كفي، وليس كمي.
- احتلت مدينة تل أبيب المركز الصناعي الأبرز، فكان تنوع الصناعات فيها هو الأعلى بين كل المدن، والمراكز الصناعية الصهيونية في فلسطين.
- أرسى الوافدون الصهاينة الألمان، أسس الصناعة الحديثة المتطورة عند الصهاينة في فلسطين، حيث أحضروا رؤوس أموالهم (بموجب اتفاقية هاعفارا عام ١٩٢٣م، بين ألمانيا النازية والحركة الصهيونية)، على شكل آلات، ومعدات صناعية.
- استغلت الحركة الصهيونية مرحلة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، لتطوير

١- الجندي، إبراهيم : سياسية الانتداب البريطاني، ص ١٤٩.

٢- العجز في الميزان التجاري لم يكن سلبياً؛ لأن جزءاً كبيراً من البضائع المستوردة كانت تستخدم في مجال الصناعة، صحيح أن التصدير قل مقابل الاستيراد لكن حجم السوق المحلية تضاعف، وتضاعفت معه القدرة الشرائية لسكان الاستيطان الصهيوني في فلسطين. (ميركورد، كين : الصناعة اليهودية واعتمادها على رأس المال الأجنبي، ص ١٠٥؛ برومكين، هشل : الهجرة والتطور على طريق الدولة (عبري)، ص ١٤٠).

٣- ناؤور، مردخاي، جلعادي، دان : أرض إسرائيل في القرن العشرين (عبري)، ص ١٦٠.

٤- غلب على مهاجري الموجة الثالثة قدوم العناصر الشابة، والانتماء إلى حركة الطليعة التي كانت تقوم بتدريب الشباب على الأعمال التي سيقومون بها في فلسطين، في حين غلب على مهاجري الموجة الرابعة انتماؤهم إلى الطبقة الوسطى (تجار، وصناع). (ياسين، السيد : الاستعمار الاستيطاني، ج ١، ص ١٥٩؛ تسحور، زئيف : جذور السياسة الإسرائيلية (عبري)، ص ٥٨؛ Rosenberg, Mitchell: The story of Zionism, P. 105.

5- Ronall, Joachimo: Industrialization in the middle east, P. 258.

صناعاتها المختلفة، حيث أمرت جيوش الحلفاء، ودول الشرق الأوسط بالصناعات المختلفة.

- واجهت الصناعة الصهيونية مشكلات عدة، كان أبرزها قلة المواد الخام، والمواد الأولية الطبيعية كالنفط، والفحم الحجري، والحديد؛ مما أدى لارتباط تطور الصناعة بالزراعة واعتمادها على المنتجات الزراعية، كما عانت الصناعات الصهيونية من مشكلة ضيق السوق المحلية الفلسطينية، في مجتمع يعتمد على الزراعة.

تم بحمد الله

الفهرس

مقدمة العدد السادس أ. د. علي لاغا

مدير مركز البحث العلمي ٨

◆ الحافظ ابن حبان والانتقادات الموجّهة إلى توثيقه للرواة

زيد عبد الوهاب أوزون ١٣

◆ لغتنا الزاهرة

الأستاذ الدكتور عبد المنعم بشناتي ٣٤

◆ الفضيض في الميزان

الدكتور أسامة خالد محمد حمّاد ٥٨

◆ ثقافة الإنترنت ودورها في التعليم و البحث العلمي

من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في الجامعة

د. علاء الرواشدة / د. عمر الربابعة / أ. بثينة زهير عبد الجواد ٩٢

◆ المشكلات النفسية والاجتماعية للأطفال المحرومين من الوالدين

أ. إيمان جمعة ساسي ١١٦

◆ دور المعرفة السوقية في اختيار الإستراتيجيات التنافسية

في مؤسسات التعليم العالي الخاصة الأردنية

الدكتور محمد سليم الشورة / أ. لؤي صبحي دجبور ١٣٧

◆ رحلات الإمام الشافعي رحمه الله تعالى

أ.م.د. محمود اسماعيل ١٦٩

◆ المؤتسّساتُ والمراكزُ العلميّةُ في القدس (١٣٢-١٤٩٢هـ/٧٥٠-١٠٩٩م)

عبد الحميد جمال الفراني ١٩٢

◆ هل نحن بحاجة الى عِلْمِ الأمثال؟

الدكتور محمد الترك ٢١٦

◆ الحمايةُ القانونيّةُ للبيئة من التلوّث في التشريع الداخلي

محمد سامي العسلي ٢٢٦

◆ الصناعة الصهيونية في فلسطين (١٩١٨-١٩٤٨م)

د. زكريا إبراهيم السنوار / أ. ربا جمال الزهار ٢٥٣

